



عناصر الموضوع

المجلد الثالث عشر

مفهوم الحكم

أولًا: المعنى اللغوي:

مشتق من حكم يحكم حكمًا، حكم مفرد وجمعها أحكام، والحكم هو المنع، يقال: حكمت الرجل أي: منعته، وسمي الحاكم بهذا الاسم؛ لأنه يمنع الظالم من الظلم، والحكم هو القضاء والفصل بين المتخاصمين بالعدل، وسميت الحكمة بهذا الاسم؛ لأنها تبنى على العلم الذي يمنع من الوقوع في الجهل[(١)].

ثانيًا: الحكم اصطلاحًا:

قال أحمد المراغي: «الحكم هو العلم بالخير والعمل به»[(٢)].

قال القشيري: «هو إحكام الفعل على وجه الأمر»[(٣)].

قال الجرجاني: «إسناد أمر إلى آخر إيجابًا أو سلبًا»[(٤)].

وقيل: «هو القضاء بالشيء بأنّه كذا أو ليس بكذا، سواء ألزمت ذلك غيرك أو لم تلزمه»[(٥)].

وبالنظر في التعريفات السابقة يمكن تعريف الحكم بأنه: هو العلم بالخبر والعمل به على وجه الإلزام والأمر.

فالمعنى الاصطلاحي لا يخرج عن المعنى اللغوي؛ إذ كل منهما ينبني عن العلم والإلزام.

---

(١) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ٥٦٤، تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ٦٩، مختار الصحاح، الرازي، ص٧٨، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ١/ ٥٣٩.
(٢) تفسير المراغي ١٩/ ٧٣.
(٣) تفسير لطائف الاشارات ٢/ ٤٢٢.
(٤) التعريفات، ص٩٢.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٢٦.



الحكم في الاستعمال القرآني

ورد ذكر (الحكم) في القرآن الكريم (٨٦) مرة[١].

والصيغ التي جاءت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤	﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر:٤٨]
الفعل المضارع	٣٩	﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾ [المائدة:١]
فعل الأمر	٧	﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنبياء:١١٢]
المصدر	٣٠	﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المائدة:٤٣]
اسم التفضيل	٢	﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [التين:٨]
اسم الفاعل	٥	﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس:١٠٩]
الاسم	٤	﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٣٥]

وجاء (الحكم) في القرآن بمعناه اللغوي، وهو: القضاء[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٢١٢- ٢١٥.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٤٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ القضاء:

القضاء لغةً:

من قضى يقضي قضاءً، وهو الحكم والأمر، يقال: قضى بين الخصمين أي: حكم بينهما، وأمر بالحق لصاحبه[١].

القضاء اصطلاحًا:

«هو تبيين الحكم الشرعي، والإلزام به، وفصل الخصومات»[٢].

الفرق بين الحكم والقضاء:

القضاء يقتضي فصل الأمر على التمام، أما الحكم فيقتضي المنع من الخصومة[٣].

٢ الفصل:

الفصل لغة:

الفصل أي: القطع، يقال: قطعه فانقطع أي: فصل بين أجزائه، والفصل مفرد وجمعها فصول، والفاصل هو الحاجز بين الشيئين، والفصل في القضاء هو التفريق بين الحق والباطل[٤].

الفصل اصطلاحًا:

هو التمييز بين المحق والمبطل بعلامة يعرف بواسطتها كل واحد منهما[٥].

الصلة بين الحكم و الفصل:

الحكم يقتضي المنع من الخصومة، أما الفصل فيقتضي التمييز بين أجزاء الشيء الواحد للتفريق بينهما.

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص٢٥٥.
(٢) مختصر الفقه الإسلامي، التويجري ص١٠٠١.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ١/ ١٩٠.
(٤) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٨/ ٣٢٩، مختار الصحاح، الرازي ص٢٤٠.
(٥) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٥٢٤، تفسير الشعراوي، ٢/ ١٠٥٢.

٣ الشهادة:

الشهادة لغةً:

الشهادة من شهد يشهد شهادة، وهي الإخبار، والشهادة مصدر، وهي مفرد وجمعها شهادات، والشاهد هو معطي الخبر[١].

الشهادة اصطلاحًا:

قال الجرجاني: «هي إخبار عن عيان بلفظ الشهادة في مجلس القاضي بحق للغير على آخر»[٢].

الصلة بين الحكم و الشهادة:

الحكم هو إلزام المتخاصمين بالحق لمنع استمرار الخصومة بينهما، أما الشهادة فهي إفادة الحاكم بالأخبار التي تظهر له الحق، ومن ثمّ فإن الشهادة هي البينة التي يستند إليها الحاكم لمنع الخصومات.

٤ الحيف:

الحيف لغةً:

من حاف يحيف حيفًا، وهو الميل والجور[٣].

الحيف اصطلاحًا:

هو الميل عن الحقّ في الحكم[٤].

الصلة بين الحكم والحيف:

الحكم الأصل فيه العدل وإعطاء الحق إلى صاحبه، أما الحيف فيه ظلم وجور.

(١) انظر: مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٥١٤، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٢/ ١٢٤١.
(٢) التعريفات، ص١٢٩.
(٣) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٣/ ٤٥٠.
(٤) انظر: متخير الألفاظ، ابن فارس ص١٨٤.

أنواع الحكم

إن الحكم في دين الله نوعان رئيسان، وهي الحكم الشرعي والحكم القدري، وهما كما يأتي:

أولًا: الحكم الشرعي:

١ . تعريف الحكم الشرعي.

«هو ما دل عليه خطاب الشرع المتعلق بأفعال المكلفين من طلب فعل، أو ترك، أو تخيير، أو وضع»[١].

٢ . أنواع الحكم الشرعي.

الحكم الشرعي نوعان: تكليفي، ووضعي.

١ . الحكم التكليفي: «هو خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين على جهة الطلب أو التخيير»[٢].

٢ . الحكم الوضعي: «هو خطاب الله المتعلق بجعل الشيء سببًا للشيء، أو شرطًا له، أو مانعًا منه، أو صحيحًا، أو فاسدًا»[٣].

٣ . أقسام الحكم التكليفي.

- **الإيجاب:**

الإيجاب لغة: الإلزام[٤].

الإيجاب اصطلاحًا: هو خطاب الله تعالى المتعلق بطلب الفعل على سبيل اللزوم والحتمية؛ بحيث يثاب الفاعل ويعاقب التارك[٥].

مثاله: قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

ويفهم من هذا النص القرآني أنّ مقيم الصلاة مثاب، وتاركها آثم، وكذلك الأمر بالنسبة لكلٍّ من الزكاة، والركوع في الصلاة، لاسيما أنّ كلًّا من إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة من أركان الإسلام.

- **الندب:**

الندب لغة: الحث والدعاء[٦].

الندب اصطلاحًا: هو خطاب الله تعالى المتعلق بطلب الفعل على سبيل الاستحباب، لا على سبيل الحتمية[٧].

مثاله: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ

(١) موسوعة الفقه الإسلامي، محمد التويجري ٢/ ٢٦٥.
(٢) الموجز في أصول الفقه، عبد الجليل القرفشاوي وآخرون، ص٢٠.
(٣) المصدر السابق، ص٢٣.
(٤) انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد قلعجي وحامد قنيبي، ص٩٨.
(٥) انظر: قواطع الأدلة في الأصول، أبو المظفر التميمي ١/ ٦٤.
(٦) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٧٥٤.
(٧) انظر: بيان المختصر، أبو القاسم الأصفهاني ٢/ ٦٨.



﴿شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فأمر الله تعالى هنا للندب، فإن كتب الدين فهذا حسن، وإن لم يكتب فلا إثم[(١)].

❁ **الإباحة:**

الإباحة لغة: الإطلاق والتحليل[(٢)].

الإباحة اصطلاحًا: هو الخطاب الذي خيّر الشارع فيه المكلف بين الفعل والترك، دون ترتّب ثواب أو عقاب[(٣)].

مثاله: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢].

والأمر بالصيد هنا يفيد الإباحة بعد التحريم؛ لزوال السبب الذي حرّم الصيد من أجله، وهو الإحرام[(٤)].

❁ **التحريم:**

التحريم لغة: المنع[(٥)].

التحريم اصطلاحًا: هو خطاب الله تعالى المتعلق بطلب الترك على سبيل اللزوم والحتمية، بحيث يثاب التارك، ويعاقب الفاعل[(٦)].

مثاله: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

فهذه الآية تفيد حرمة التعدي على مال اليتيم بأي صورة من صور التعدي[(٧)].

❁ **الكراهة:**

الكراهة لغة: القبح والبغض[(٨)].

الكراهة اصطلاحًا: هو خطاب الله تعالى المتعلق بطلب الترك على سبيل التنفير، لا على سبيل الحتمية[(٩)].

مثاله: قول النبي صلى الله عليه وسلم: **(إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس)**[(١٠)].

وفي رواية أخرى: عن أبي قتادة صاحب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: **دخلت المسجد ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم جالسٌ بين ظهراني النّاس، قال: فجلست، فقال رسول الله صلّى الله عليه**

---

(١) انظر: الوسيط، الواحدي ١/ ٤٠١.
(٢) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ص٧٥.
(٣) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف، الكويت ٢/ ٣٧٦.
(٤) انظر: نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، محمد صديق خان ص٢٢٨.
(٥) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ١/ ٤٨١.
(٦) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف، الكويت ١٧/ ٣١٩.
(٧) انظر: تفسير آيات الأحكام، السايس ص٢٢٧.
(٨) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٣/ ١٩٢٤.
(٩) انظر: الموجز في أصول الفقه، عبد الجليل القرفشاوي وآخرون ص٢٠.
(١٠) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس، ١/ ٩٦، رقم ٤٤٤.

وسلّم: (ما منعك أن تركع ركعتين قبل أن تجلس؟) قال: فقلت: يا رسول الله رأيتك جالسًا والنّاس جلوسٌ، قال: (فإذا دخل أحدكم المسجد، فلا يجلس حتّى يركع ركعتين)[1].

٤ . أقسام الحكم الوضعي.

١ . السببية.

السببية لغة: العلاقة التي تكون بين السبب والمسبب[2].

السببية اصطلاحًا: هو ما جعله الشارع علامة على مسبّبه، بحيث يلزم من وجود السبب وجود المسبب، ومن عدم وجود السبب عدم وجود المسبب[3].

مثاله: جعل الدلوك سببًا لإيجاب الصلاة، قال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

٢ . الشرطية.

الشرطية لغة: من الشرط، وهي إلزام الشيء والتزامه[4].

الشرطية اصطلاحًا: هي ما اعتبره الشرع شرطًا بحيث يتوقف وجود الحكم على وجود الشرط، ويلزم من عدم وجود الشرط عدم وجود الحكم[5].

مثاله: جعل الطهارة شرطًا لصحة الصلاة.

٣ . المانعية.

المانعية لغة: من منع يمنع منعًا، والمنع هو تحجير الشيء، وهو ضد الإعطاء[6].

المانعية اصطلاحًا: هي ما اعتبره الشرع وصف يلزم من وجوده عدم وجود متعلقه، ولا يلزم من عدم وجوده وجود متعلقه أو عدمه[7].

مثاله: جعل النفاس مانعًا من صحة الصلاة والصيام.

٤ . كون الشيء صحيحًا أو فاسدًا.

وذلك من وجهة نظر الشرع، فالصلاة مثلًا إذا أقيمت بكامل أركانها وشروطها فهي صحيحة، وإذا لم تستو أركانها وشروطها فهي فاسدة[8].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحية المسجد بركعتين، ١/ ٤٩٥، رقم ٧١٤.
(٢) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٢/ ١٠٢٢.
(٣) انظر: علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف، ص١١٧.
(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١٩/ ٤٠٤.
(٥) انظر: علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف، ص١١٨.
(٦) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٢/ ٢٠٣، مختار الصحاح، الرازي، ص٢٩٩.
(٧) انظر: أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله، عياض السلمي، ص٥٨.
(٨) انظر: الموجز في أصول الفقه، عبد الجليل القرفشاوي وآخرون، ص٢٣.

ثانيًا: الحكم القدري:

القدر لغةً: بفتح الدال وسكونها هو القضاء والحكم والمبلغ[1].

القدر اصطلاحًا: هو علم الله السابق بالأشياء قبل وقوعها وكتابته لها في اللوح المحفوظ، ثم خلقه لها[2].

أحكام القدر كلها خاضعة لما أوجده وقدّره وكوّنه الله تعالى، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ومن ثمّ فلا يصدر شيء من العباد إلا بقدر الله تعالى.

ومما يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾ [المسد: ١-٥].

فأبو لهب وزوجه وإن لم يلتزما شريعة الله تعالى، فهما خاضعان لحكم القدر فيهما، والذي يتضمن بقاءهما على الكفر والشرك حتى يموتا، ومن ثمّ يكون مصيرهما النار[3].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٦٢.
(٢) انظر: شرح مسائل الجاهلية، محمد بن عبد الوهاب، صالح الفوزان، ص١٥٣.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٥٠٣.

الحكم لله في الدنيا والآخرة

إن حكم الله حق ثابت في الدنيا، كما هو حق ثابت في الآخرة.

قال تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءٗ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

ونظرًا لأهمية هذا الأمر كان من الضروري بيانه كما يأتي:

أولًا: حكم الله تعالى في الدنيا:

نوّر الله تعالى الدنيا بأحكامه التي هدى بها عباده إلى الحق المبين[4].

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٖ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيْتُونَةٖ لَّا شَرْقِيَّةٖ وَلَا غَرْبِيَّةٖ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٣٥].

وتسمى أحكام الله تعالى التي سنّها للعباد في الدنيا (الشريعة الإسلامية)، وتتميز الشريعة الإسلامية بعدة ميزات جعلت منها أحسن الشرائع على الإطلاق، ومن هذه الميزات:

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٠٠.

١. الربانية:

وتعني أن أحكام الشريعة الإسلامية التي تنظم شئون العباد في الدنيا صادرة عن الله تعالى، ويترتب على هذه الميزة أمران، هما:

الأول: خلوها من النقص والجور والهوى.

الثاني: أنها ذات قداسة في النفوس، ولا أدل على ذلك من فعل المسلمين حينما نزلت آية التحريم للخمر، فامتلأت شوارع المدينة بالخمر[١].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

٢. الشمول:

حيث شملت أحكام الدين كافة مناحي الحياة المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك[٢].

٣. الواقعية:

وتتجلى في كون أحكام الشريعة تتعامل مع واقع المكلفين عند التشريع، ومثال ذلك: إباحة تناول المحرمات عند الضرورة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

٤. الوسطية:

ويراد بها الاعتدال في التشريع، ومثال ذلك: أن الله تعالى أباح لعباده الإنفاق شريطة عدم البخل والتبذير[٣].

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

٥. الثبات:

وتشتمل الشريعة الإسلامية على صنفين من الأحكام هما: أحكام تفصيلية لا تقبل التغيير والتبديل كأحكام العبادات، وأحكام عامة كالشورى والعدل، وهذه مع ثباتها إلا أن آلية تطبيقها تختلف باختلاف العصور[٤].

٦. التوازن:

ويقصد به أن أحكام الشريعة الإسلامية وازنت بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة، فأباحت الشريعة الإسلامية للفرد حرية التملك حرصًا على مصلحته، وحرّمت عليه إيذاء الآخرين بما يملك حرصًا على مصلحة الجماعة، كما وازنت بين متطلبات الجسد ومتطلبات الروح، فشرّعت تناول الطيبات مراعاة لمتطلبات الجسد، وشرّعت

(١) انظر: السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، محمد أبو شهبة ٢/ ٣٥٤.

(٢) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي ١/ ٣٣.

(٣) انظر: علم المقاصد الشرعية، نور الدين الخادمي، ص٨.

(٤) انظر: روضة الناظر، ابن قدامة المقدسي ١/ ٦١٥.

الصوم مراعاة لمتطلبات الروح[1].

٧. العموم:

ويعني بذلك أن أحكام الشريعة الإسلامية جاءت للناس كافة رحمة للعالمين[2].

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

٨. الجزاء الدنيوي والأخروي:

وقد انفرد التشريع الإسلامي بالجزاء الأخروي الذي يعزز دور الوازع الديني في نفوس العباد، فيستشعرون مراقبة الله تعالى لهم، وهذا أدعى لاستجابتهم لأحكام الشريعة الإلهية[3].

قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٣٠﴾ [آل عمران: ٣٠].

كما أن الشريعة الإسلامية قد وضعت العقوبات المناسبة في الدنيا لمن ارتكب الجرائم، سواءً أكانت هذه العقوبات حدودًا أو قصاصًا أو تعزيرًا[4].

(١) انظر: التشريع الإسلامي صالح للتطبيق في كل زمان ومكان، محمد فهمي، ص١١٠.
(٢) انظر: رسالة لطيفة جامعة، أصول الفقه المهمة، السعدي ص٦١.
(٣) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي ١/ ٣٧.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٩٦٥.

ثانيًا: تحريم التحاكم إلى غير شرع الله:

رعاية من الله تعالى لمصالح عباده في الدنيا حرّم عليهم التحاكم إلى غير شرعه، وتفصيل هذا التحريم كما يأتي:

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

إذا اعتقد من يحكم بغير ما أنزل الله تعالى أن أحكامه الوضعية أفضل من أحكام الشريعة الإسلامية، أو حكم بغير ما أنزل الله تعالى جحودًا فهو كافر[5].

قال تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

وذلك لمن ترك الحكم بشريعة الله تعالى اتباعًا للهوى دون جحود لما أنزل الله تعالى من الأحكام[6].

(٥) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٤٤٩.
(٦) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتردي ٣/ ٥٣٢.

قال تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

وذلك لمن حكم بغير ما أنزل الله تعالى وهو عالم بحرمة ذلك دون جحود لأحكام الشريعة[(١)].

ثالثًا: حكم الله تعالى في الآخرة:

سمّى الله تعالى اليوم الآخر بعدة أسماء، ولكل اسم من تلك الأسماء مدلوله الخاص، ومن هذه الأسماء: يوم الدين، ويوم الحساب، ودلالة هذين الاسمين هي أن الله تعالى سيجمع الخلق يوم القيامة لمحاسبتهم فيكافئ المحسن ويعاقب المسيء.

وقد جاءت آيات الكتاب العزيز على ذكر محاسبة الله تعالى لعباده في الآخرة، ومن تلك الآيات:

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وذلك يعني أن العمل مهما كان قليلًا فله اعتبار عند الله تعالى ويحاسب عليه[(٢)].

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ۝ وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧-١٢].

ودلالة ذلك أن الله تعالى سيحكم على المحسن بالنعيم وعلى الفاجر بالجحيم[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وذلك يعني: أن الله تعالى عالم بكافة أعمال عباده، لا يخفى عليه منها شيء، ومن ثمّ فهو سبحانه سريع في محاسبتهم[(٤)].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٧].

ودلالة ذلك أنه لا مجال لمراجعة الله تعالى في أحكامه النهائية التي سيصدرها في الآخرة[(٥)].

إن الحكم بين الناس في الدنيا هو ما بين حكم بشريعة الله تعالى، وحكم بالجاهلية التي لا يرضاها الله، والآيات في كلا النوعين ظاهرة في كتاب الله تعالى، وهي ما

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ١٩٠.
(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتردي ٦/ ٥٤٣.
(٣) انظر: الهداية، مكي بن أبي طالب١٢/ ٨١٥٩.
(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن١/ ٣٣٦.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري٢١/ ٣٩٩.

بين أمر ونهي، وبيان ذلك فيما يلي:

رابعًا: الحكم بالشريعة:

خلق الله تعالى الإنسان وأسند إليه مهمة الخلافة في الأرض التي تقتضي الحكم بشرع الله، قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وقد أعان الله تعالى عباده على أداء هذه المهمة العظيمة من خلال عوامل أهمها:

١. العقل:

وبه يكون التعلم والفهم، وتمييز الحق من الباطل، والغث من السمين، ولعل الهدف من ابتداء الوحي بالأمر بالقراءة هو توجيه العباد إلى توظيف قدراتهم العقلية للتعلم الذي يكون معه التمكين في الأرض، وتحكيم الشريعة الإلهية.

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

والأمانة هنا تعني: المحافظة على شعائر الدين وتشريعاته[(١)]، والمحافظة على الأمور من مهام العقل كما هو معلوم، يؤيد ذلك ما ذهب إليه غير واحدٍ من المفسّرين بأنّ معنى الأمانة في هذه الآية هو العقل[(٢)].

٢. القوة:

وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالسعي لامتلاك القوة قدر المستطاع؛ لإعلاء كلمة الله بتحكيم شرعه في أرضه التي بسط المؤمنون سيطرتهم عليها.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

٣. المنهاج:

ويتمثل في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

وأما الحكمة من وجوب تحكيم الشريعة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٣٦.

(٢) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٧/ ٢٤٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٢٧.

الإسلامية فتكمن في قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

يعني: لا حكم أحسن من حكم الله إن كنتم موقنين أنّ لكم إلهًا عدلًا في أحكامه[١].

وبذلك تكون الحكمة من وجوب تحكيم الشريعة الإسلامية هي أنّها شريعة الخالق جلّ وعلا للمخلوق، ومن هو الذي يعلم ما يصلح للمخلوق أكثر من خالقه؟! وبما أنّ الخالق هو الله تعالى، فهل من يصدر أحكامًا خيرًا من التي أصدرها للخلق؟!

وقد وضع الحق جل وعلا للحكم بما أنزل ضوابط، أهمها:

١. الواجب على العباد أن يوظّفوا هذه العوامل للحكم بما أنزل الله تعالى، والتقصير في ذلك يعد استنكافًا عن أداء الأمانة التي أسندها الله تعالى لعباده، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

٢. حذّر الله تعالى الحكام من العدول عن الحق واتباع الهوى، فقال سبحانه: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

والمعنى: وأن الله تعالى نهى محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يتّبع أهواء اليهود وحذّره من أن يتّبع بعض آرائهم فيترك بعض ما أنزل عليه، ولا يعمل به، ويعمل بما اقترحوه عليه، وأعلمه أن اليهود إن أعرضوا عن قبول حكمه وهو الحكم الحق العادل فإنما يريد الله تعالى أن ينزل بهم عقوبة؛ نتيجة ما اقترفوا من الذنوب، وما ارتكبوا من الخطايا، ومن ثمّ ندّد بأعدائه حيث أخبر أن أكثرهم فاسقون، أي: عصاة خارجون عن طاعة الله تعالى ورسله[٢].

٣. اقتضى العدل الإلهي أن تسري أحكام الشريعة الإسلامية على الناس كافة، فالحاكم والمحكوم أمام أحكام الشرع سواء، وكذا الشريف والوضيع، فلا أحد يعلو فوق الحكم الإلهي في النظام الإسلامي، وقد أرسى رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم لذلك بقوله **(إنّما أهلك الّذين قبلكم، أنّهم كانوا إذا سرق فيهم الشّريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضّعيف أقاموا عليه الحدّ، وايم اللّه لو**

(١) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٣٩٧.

(٢) انظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ١/ ٦٣٩.

أنّ فاطمة بنت محمّدٍ سرقت لقطعت يدها)[1].

وقد ربط الله تعالى بين تحقق الإيمان في نفس العبد وبين التسليم لأمر الله تعالى وحكمه، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

والمعنى: ليس الأمر كما يزعم الناس بأنهم يؤمنون بما أنزل إليك، وهم يتحاكمون إلى الطاغوت، ويصدّون عن حكمك يا محمد، فلا يصح إيمانهم حتى يجعلوك حكمًا بينهم فيما اختلط بينهم من أمورهم، فالتبس عليهم حكمه واختلفوا بسببه، ثم لا تحرج أنفسهم مما قضيت، ويسلّموا أمرهم إليك أتم التسليم[2].

خامسًا: الحكم الجاهلي:

على الرغم من أنه لا أحد من العقلاء والمنصفين ينكر تفوق أحكام الشريعة الإسلامية على ما عداها من الأحكام الوضعية الأخرى، إلا أن فساد قلوب الكثيرين من أتباع الهوى يرغبون في تحكيم شريعة غير الله لضمان عدم المساس بأشخاصهم مهما عاثوا في الأرض فسادًا وخرابًا.

لذا نجد أن الله تعالى أنكر على مريدي الحكم بغير ما أنزل الله بقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة: ٥٠].

والمراد: أيبغي هؤلاء اليهود الذين احتكموا إليك يا محمد، فلم يرضوا بحكمك، إذ حكمت فيهم بالقسط حكم عبدة الأوثان من أهل الشرك، وعندهم كتاب الله فيه بيان حقيقة الحكم الذي حكمت به فيهم، وأنه الحق الذي لا يجوز خلافه، ثم وبّخ الله تعالى هؤلاء الذين أبوا قبول حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم من اليهود، ومستجهلًا فعلهم ذلك منهم بالاستفهام الإنكاري: ومن هذا الذي هو أحسن حكمًا، أيها اليهود، من الله تعالى عند من كان يوقن بوحدانية الله، ويقرّ بربوبيته؟[3].

ومن الأمثلة على الأحكام الجاهلية التي تجاهلت مصالح العباد مراعاة لمصالح الطغاة والمفسدين في الأرض:

- وأد البنات.

قال تعالى: ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٩].

والمعنى: إذا وهب الله تعالى أحدًا من

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم ٣٤٧٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٥١٨.

(٣) انظر: المصدر السابق ١٠/ ٣٩٤.

أهل الجاهلية بنتًا فإنه يستخفي من قومه لسوء ما بشّر به، ومن أجل ما يلحقهم من العار فإما يمسك ما بشّر به على هون وذل أم يئده، حيث يجعلون الولد الذي هذا محله عندهم لله، ويجعلون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف[(1)].

❁ تقسيم الأنعام قسمة جائرة.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٣٩].

والمعنى: أنهم كانوا يجعلون ما في بطون بعض الأنعام من الحمل لذكورهم، ويحرمون منه إناثهم، إلا إذا نزل الحمل ميتًا فعندئذ يشترك فيه الذكور والإناث! ثم توعدهم الله تعالى لنسبتهم هذه الشريعة المضحكة إليه جل وعلا[(2)].

❁ تأخير الشهر الحرام.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٧].

والمعنى: إن تأخير حرمة شهرٍ حرّمه الله إلى شهرٍ آخر لم يحرّمه زيادة في الكفر حيث إنه إحلال ما حرّم الله وتحرّيم ما أحلّ الله، والله تعالى بذلك التأخير يضل الذين كفروا حيث إنهم إذا قاتلوا في أحد الأشهر الحرم أحلّوه وحرّموا مكانه شهرًا آخر، وإذا لم يقاتلوا في الشهر المحرم حرّموه؛ ليوافقوا عدّة ما حرم الله من الأشهر، وهو أنّهم لم يحلّوا شهرًا من الحرم إلاّ حرّموا مكانه شهرًا من الحلال، ولم يحرّموا شهرًا من الحلال إلاّ أحلّوا مكانه شهرًا من الحرم ليكون الحرم في العدد أربعة، كما حرّم الله فتكون موافقة للعدد، وقد زيّن لهم الشّيطان ذلك العمل الفاسد، والله سبحانه لا يرشد الكافر لما سبق له في الأزل أنه من أهل الجحيم[(3)].

هذه طائفة من أحكام الجاهلية التي لا تدع مجالًا لعاقل إلا أن يفر منها فراره مما يفزعه؛ وذلك لما اشتملت عليه من ترهات وخرافات تجعل من الحياة كابوسًا لا يطاق.

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٢١٨.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢١٤.
(٣) انظر: الوجيز، الواحدي، ص٤٦٣.

موانع الحكم بالعدل

إن للحكم بالعدل موانع ومعوقات وصوارف، تحاول الحيلولة من كون حكم الله واقعًا في حياة البشرية، وبيان هذه الموانع فيما يأتي:

أولًا: الكفر والنفاق:

١ . الكفر:

الكفر لغةً: من كفر يكفر كفرًا فهو كافر، والكفر هو الستر والجحود، وضده الإيمان(١).

الكفر شرعًا: يعني إنكار الخالق جل وعلا وجحود شريعته(٢).

علاقة الكفر بالحكم العادل:

يشكّل الكفر بالله تعالى حجر عثرة أمام تحكيم الشريعة الإسلامية العادلة، ويرجع ذلك إلى عدم تسليم الكافر بالحاكمية لله تعالى وحده، وجحوده للشريعة الإسلامية.

وقد عد القرآن الكريم عدم تحكيم الشريعة الإسلامية جحودًا لها كفرًا أكبر، يخرج صاحبه بموجبه من الملة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

والمعنى: أن الذي يحكم بغير حكم الله مستهينًا به جاحدًا له، وقد بلغ به الاستنكار لشريعة الله درجة التهكم عليه يعدّ كافرًا خارجًا من ملة الإسلام؛ لأن ذلك جحود وإنكار أو استهزاء بآيات الله مع العلم أنها من عند الله تعالى، واستنكار مؤداها، ومن جحد أحكام القرآن فقد كفر كفرًا أكبر(٣).

كما عدّ القرآن الكريم عدم تحكيم الشريعة الإسلامية من غير جحود لها ظلمًا أو فسقًا.

قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧].

والمعنى: أن الذين لا يجدون في أحكام الشريعة الإسلامية التي لا تأمر إلا

(١) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٧/ ٣.

(٢) انظر: موسوعة الفقه الإسلامي، التويجري ٤/ ٤٦١.

(٣) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/ ٢٢٠٤.

بالعدل والحق ما يتفق مع ظلمهم، ويدعم بغيهم، فيحكمون بغير شريعة الله تعالى فهم ظالمون، وأما الذين لا تقع أيديهم في شريعة الله على أي سند يبيح لهم الفجور والفسوق، والاستهتار والعقوق والشذوذ فهم فاسقون[(١)].

يقول الشيخ محمد الناصري عن الأصناف الثلاثة سابقة الذكر: «فهؤلاء الأصناف الثلاثة هم خصوم شريعة الله، وعليهم ألقى كتاب الله أضواءه الكشافة حتى تسفل كلمتهم في الأرض، ولا تعلو فيها إلا كلمة الله»[(٢)].

٢. النفاق:

النفاق لغةً: النفق سرب في الأرض، مشتق إلى موضع آخر، والنفقة والنافقاء، جحر الضبّ واليربوع، ونفق (بالفتح) وأنفق: خرج. ونفق: أخفى، ومنه اشتقاق المنافق في الدين[(٣)].

والنفاق نوعان:

الأول: سلوكي، وهو المقصود بقوله صلى الله عليه وسلم: **(أربعٌ من كنّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلةٌ منهنّ كانت فيه خصلةٌ من النّفاق حتّى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)**[(٤)].

الثاني: عقائدي، وهو الموضّح في تعريف النفاق شرعًا.

النفاق شرعًا: إظهار الإيمان وإبطان الكفر، ومخالفة القول الفعل، والسر العلن، والظاهر الباطن[(٥)].

علاقة النفاق بالحكم العدل:

تعدّ ظاهرة النفاق من أكبر ما يعيق الحكم بالشريعة العادلة؛ وذلك أن المنافق يظهر ولاءه للعدل ورغبته فيه، وفي باطنه يخفي حقده على العدل وأهله، فالعدل لا يحقق له طمعه في الحصول على ما لا يحق له، يؤيد ذلك:

قوله تعالى حكاية عن المنافقين: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النور:٤٧-٥٠].

والمعنى: يَقُولُ المنافقون بألسنتهم: آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِه وَأَطَعْنَا حكمهما من غير اعتقاد منهم بذلك، ثُمَّ تُعرِضُ جماعةٌ مِنْهُمْ

(١) انظر: التيسير في أحاديث التفسير، محمد مكي الناصري ٢/ ٦١.
(٢) المصدر السابق ٢/ ٦١.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٥٤.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق١/ ١٦، رقم ٣٤.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٧٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٢

عن طاعة الله ورسوله بالتزام حكمهما مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ الادعاء بالألسنة، ويطلبون حكم غيرهما، وهؤلاء ليسوا بِالْمُؤْمِنِينَ، وإذا علموا مسبقًا أن الْحَقُّ لهم يُذْعِنوا وينقادوا لحكم الله ورسوله، ومشكلة هؤلاء أن في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ الكفر والنفاق والريبة من حكم الله تعالى ورسوله، وبالتالي فقد ظلموا أنفسهم لإعراضهم عن حكم الله تعالى ورسوله، سواءً أكان الحكم لهم أو عليهم[1].

وقال تعالى حكاية عن المنافقين أيضًا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

والمعنى: يخاطب الله تعالى نبيه محمدًا، موجهًا الأمر إليه للنظر في حال الذين يزعمون أنهم صدّقوا بما أنزل إليك من القرآن، وإلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل من قبلك من الكتب، ويريدون أن يتحاكموا في خصوماتهم إلى الطواغيت التي يعظمونها، ويرضون بحكمها من دون حكم الله ورسوله، على الرغم من أنهم أمروا أن يكفروا بها، ويؤمنوا بالله وحده، ويريد الشيطان أن يصدَّ هؤلاء المتحاكمين إلى طواغيتهم عن سبيل الحق والرشاد الذي يكون في الرضا بحكم الله تعالى ورسوله[2].

ونظرًا لعظم إجرام الكافرين والمنافقين في تركهم للحكم بما أنزل الله تعالى فقد جعل الله تعالى من جهنم مرتعًا ومقامًا لهم. قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١٤٠].

وحرصًا من الله تعالى على فلاح المؤمنين في الدنيا، ونجاتهم من عذاب الله في الآخرة حذرهم من الركون إلى الظالمين المفسدين في الأرض بتحكيمهم غير شريعة الله تعالى، والأخذ بآرائهم ونصائحهم؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود: ١١٣ - ١١٤].

والمعنى: ولا تميلوا، أيها الناس، إلى قول الذين كفروا بالله، فتأخذوا منهم وتوافقوا أعمالهم؛ فلا تنصرون في الدنيا ويتسلط عليكم عدوّكم، وتكون النار مثواكم

(١) انظر: التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٨/ ٢٧٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٥٠٧.

في الآخرة بفعلكم هذا وحينها لا يكون لكم من دون الله من مؤيد يؤيدكم، أو وليّ يلي أمركم[1].

ثانيًا: اتباع الهوى:

عبد الناس عبر التاريخ كثيرًا من الطواغيت، وفي كل مرة كانوا يعبدون فيها طاغوتًا جديدًا، كانت أهواؤهم تبتكر لهم إلهًا آخر ليعبدوه من دون الله تعالى، ولعل من أبرز ما يدعو الناس إلى اتباع الأهواء على الرغم من علمهم بأنها تقودهم إلى الفساد والهلاك هو الرغبة في التحرر من التكاليف التي تترتب على الإيمان بالله تعالى، وإرضاء الشهوات، وتقديم العاجل على الآجل.

ومراعاة لمصالح العباد حذّر الحق جل وعلا من اتباع الهوى، والوقوع في حبائله، نجد ذلك واضحًا جليًّا في:

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣].

والمعنى: أنه مطواع لهوى النفس يتّبعها في كل ما تدعوه إليه، فهو يعبدها من دون الله تعالى، فضلّ بذلك على علم منه، واختار الضلال وفعله، فهو لا يقبل وعظًا، ولا يعتقد حقًّا، ولا يبصر سبيلًا، فمن ذا الذي بعد ذلك يذكّره بالحق وينفعه به[2].

وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

والمعنى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ عن طريق الهدى والرّشاد، ﴿مِمَّنِ ٱتَّبَعَ﴾ هوى نفسه بغير حجةٍ من اللّه، والله ﴿ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ قومًا يتبعون أهواءهم دون أن يكون عندهم برهان ودليل[3].

الصلة بين اتباع الهوى والحكم بالعدل في القرآن:

وقد بيّن القرآن الكريم الصلة بين اتباع الهوى، والحكم بالعدل من خلال العديد من الآيات، والتي منها:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥].

والمعنى: يا أيها المؤمنون كونوا على جاهزية تامة للقيام بما أمر الله تعالى به من الإقساط عند الشهادة حتى وإن كانت على

(١) انظر: المصدر السابق ١٥/ ٥٠٠.

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٣٠٣.

(٣) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ١٧٧.

أنفسكم، أو على الوالدين أو الأقارب، فقولوا الحق، ولا تميلوا لغنيٍّ لغناه على فقير، ولا لفقير لفقره على غنيّ، فتظلموا بذلك، فإن الله الذي سوّى بين الغنيّ والفقير عند القضاء هو الأولى في الحكم بينهما، وهو أعلم بما فيه مصلحة كلّ واحد منهما منكم، فلذلك أمركم بالتسوية بينهما في الشهادة لهما وعليهما، وإياكم أن تتبعوا أهواء أنفسكم في الميل في شهادتكم إذا قمتم بها فتقولوا غير الحق، ولكن قوموا فيها بالقسط، وأدّوا الشهادة كما أمركم الله بأدائها، بالعدل لمن شهدتم له وعليه[1].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

والمعنى: ولقد أنزلنا إليك يا محمد القرآن موافقًا لأصول ما جاء في الكتب السماوية قبله، ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ عليها ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم﴾ بما شرع الله فيه من الأحكام دون الأخذ بما في التوراة والإنجيل، فقد جعل الله تعالى لكل أمة من الأمم شريعة خاصة بها، ولو شاء الله تعالى لجمعكم على منهج واحد، وشريعة واحدة، ولكنه لم يفعل ذلك؛ لاختبار مدى استجابة الناس لأمر الله تعالى الذي يقتضي اتباع الناسخ، وترك المنسوخ[2].

وقوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

والمعنى: يخاطب الله تعالى نبيه داود قائلًا: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً﴾ لمن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحق ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ بحكم الله تعالى العادل، ولا تتبع هوى نفسك في قضائك فتضلّ عن سبيل الله تعالى وشرعه، وإنّ الله تعالى سيعذّب ﴿ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تعالى وحكمه، بسبب تناسيهم يوم الحساب والعرض على الله عز وجل[3].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٣٠٢.

(٢) انظر: الهداية، مكي بن أبي طالب ٣/ ١٧٧١، تفسير القرآن العزيز، العز بن عبدالسلام ١/ ٣٩٠.

(٣) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ١٥٢.

موقف الناس من الحكم بالعدل

إن الناس أمام الحكم بالعدل صنفان، صنف يسعى لتطبيق حكم الله، وعلى ذلك فإنه يسمع ويطيع، وينقاد ويستسلم، وينشرح صدره، وصنف يتولى ويعرض ويصد عند تحكيم شريعة الله تعالى، وبيان هذين الصنفين فيما يأتي:

أولًا: موقف المؤمنين:

مما لا شك فيه أن موقف المؤمنين سيكون إيجابيًّا من أي قضية ربانية، وبالأخص إذا كانت تشتمل على الأوامر والنواهي التي تشكّل بمجموعها المنهاج الذي ينبغي للمؤمن أن يسير عليه في الدنيا؛ لينال رضا الرحمن في الآخرة، ومن المظاهر الإيجابية التي يجب أن يكون عليها المؤمنون في التعامل مع الأحكام الإلهية ما يأتي:

١ . السمع والطاعة.

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

والمعنى: لقد آمن وصدّق الرسول صلى الله عليه وسلم بما أوحى إليه من ربه من القرآن، وما فيه من تشريعات، وغير ذلك من سائر ما فيه من المعاني التي حواها، وقد تابعه المؤمنون في ذلك الإيمان اعتقادًا في قلوبهم، وإقرارًا بألسنتهم[1].

٢ . التسليم والانقياد.

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦﴾ [الأحزاب: ٣٦].

والمعنى: أنه لا يجوز للمؤمنين بحال من الأحوال إذا صدر الأمر الإلهي بالفعل، أو الترك، أن يختاروا ما يشاؤون على وفق رغباتهم؛ فإن من يخالف شرع الله تعالى وحكمه قد حاد عن الصراط السوي وابتعد[2].

٣ . انشراح الصدر.

ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥].

والمعنى: إنه لا يصح إيمان العبد حتى يقبل بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم في كل ما يعرض لهم من الأمور، ثم لا يجد في قلوبهم ضيقًا من حكم الله ورسوله، ويسلّم لحكم الله ورسوله[3].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ١٢٤.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٧٧.
(٣) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٣١٥.

ثانيًا: موقف الكافرين:

معلوم أن الكافر جاحد لما أنزل الله تعالى على الرسول صلى الله عليه وسلم من الوحي، ومن ثمّ فهو منكر لأحكام الشريعة الإسلامية التي جاءت ضمن الوحي الإلهي، ومن مظاهر هذا التنكّر ما يأتي:

١. التولي عن حكم الله.

يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

والمعنى: أنزلنا إليك القرآن وفيه حكم الله تعالى الحق، فاحكم بما جاء من الأحكام، واحذر أن يصرفك الفاسدون عن بعض هذه الأحكام ولو كان أقلّ قليلٍ، بتصوير الباطل بصورة الحق، فإن رفضوا الحكم بما أنزل الله تعالى وأرادوا غيره، فاعلم أن الله تعالى يريد أن يحملهم جريرة ذنوبهم المتمثّلة في تولّيهم عن حكم الله عزّ وجلّ، ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ متمرّدون في الكفر، متشبّثون به، خارجون عن طاعة الله تعالى الأمر العدل[١].

٢. الإعراض.

يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣].

والمعنى: انظر يا محمد وتعجّب من حال هؤلاء الذين ﴿أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ﴾ التوراة وفيه البشارة بك، ومع ذلك يعرضون عن القرآن وما فيه من الأحكام الواضحة البينة الموافقة لما جاء مكتوبًا عندهم في التوراة؛ إرضاءً لأهوائهم وأباطيلهم[٢].

٣. الصّدود.

يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ۝٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ۝٦١﴾ [النساء: ٦٠-٦١].

المعنى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ﴾ أوحي إليك من المنافقين الذين يريدون تحكيم الطواغيت من كهنة اليهود وسحرتهم فيما يعرض لهم من القضايا التي تحتاج للحكم فيها، مع أنهم ﴿أُمِرُوٓاْ﴾ بتكذيب تلك الطواغيت، ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ﴾ عن الهدى

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٤٧.

(٢) انظر: التفسير الواضح، محمد محمود حجازي ١/ ٢١٩.

وعن الحق ﴿ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾، وفي المقابل إذا دعي هؤلاء المنافقون إلى حكم الله تعالى الوارد في كتابه، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم تراهم يعرضون إعراضًا[1].

فإن قيل: ما الفرق بين الإعراض، والصدود، والتولي؟ فالجواب: أنّ الإعراض هو أخذ جانب بعيد عن المعرض عنه[2]، أمّا الصدود فهو من الصدّ وهو الصّرف، ومن ثمّ يكون معنى صدّ عن الشيء أي: صرف عنه، وقد يكون الصّرف بالإقناع أو بالإكراه، أمّا التولي فهو عدم الانتفاع[3].

اثر تحكيم الشريعة على المجتمع

أحكام الشريعة إلهية المصدر، فالذي خلق يعلم مخلوقه وما يحتاجه، فمما لا ريب فيه أن لتحكيم الشريعة الإسلامية أثرًا بالغًا في رفعة الأمة، وتقدّمها وازدهارها، ويرجع هذا الفضل العظيم للشريعة الإسلامية على الأمة المنقادة لها إلى عدة عوامل، منها:

١. أحكام الشريعة الإسلامية تفضّ النزاعات بين المتخاصمين على أساس العدل.
٢. أحكام الشريعة الإسلامية تنصف المظلوم، وتعيد له حقوقه المنزوعة.
٣. أحكام الشريعة الإسلامية تردع الظالم مهما كان منصبه، وتنزل بحقه العقوبة المناسبة.
٤. أحكام الشريعة الإسلامية تعتمد ميزان التقوى كأساس للتفاضل بين الناس في المجتمع.

هذه العوامل جعلت لهذه الشريعة الغراء أطيب الأثر على المجتمع المسلم، ويتمثل هذا الأثر فيما يأتي:

- **انتشار العدل في المجتمع.**

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ

(١) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٣١٣.
(٢) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٠٢.
(٣) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٨/ ٢٦١، الكليات، الكفوي ص٣٠٩.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

فهذه الآية الكريمة تأمر المؤمنين بأن يكونوا على أتم الجاهزية لتطبيق كل ما يأمرهم به، والابتعاد عن كل ما ينهاهم عنه، وألّا تدفعهم كراهيتهم لقوم على ظلمهم، أو ظلم غيرهم، ثم تبين أن التزام العدل في الأقوال والأفعال هو الأقرب إلى تحقيق التقوى في النفوس، وبعد ذلك تحذّر الآية من مخالفة التعليمات الواردة فيها من خلال التأكيد على مراقبة الله تعالى لسلوك عباده[(١)].

❁ سيادة الأمن داخل المجتمع.

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء: ٧٥].

تحث هذه الآية الكريمة المؤمنين على الجهاد في سبيل الله تعالى نصرة للمستضعفين في الأرض، ورفعًا للظلم والجور عنهم، وتوفيرًا للأمن لهم، فهم أحوج ما يكونون لذلك، لاسيما وأن الظّلمة يستأسدون في حملاتهم الشرسة ضد الضعفاء من النساء والشيوخ والأطفال، الذين لا حول ولا قوة لهم إلا بالله العظيم[(٢)].

❁ تعزيز الوحدة بين أفراد المجتمع.

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

يأمر الله تعالى عباده بالالتفاف ليكونوا جماعة واحدة حول شريعة الله تعالى التي بفضلها منّ الله تعالى على عباده بالألفة والمحبة، بعد الفرقة والعداوة، فصاروا إخوانًا يرحم بعضهم بعضًا، ويؤازر بعضهم بعضًا، بعد أن كادت عداوتهم تتسبب في هلاكهم، ثم بيّن سبحانه أن الغاية من البيان السابق هي هداية المجتمع، والحفاظ على وحدته[(٣)].

❁ ترسيخ مبدأ المساواة في المجتمع.

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

والمعنى: يبيّن الله تعالى لعباده في هذه الآية الكريمة أن ميزان التفاضل بينهم هو

---

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٠.

(٢) انظر: أوضح التفاسير، محمد الخطيب، ص١٠٤، التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٩٠.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٣١.

التقوى فقط، وليس شيئًا سوى التقوى، كما يؤكد سبحانه على علمه بأحوال عباده، وقدرته على التمييز بينهم بحسب مراقبتهم له سبحانه، وخشيتهم منه[1].

❁ **إيجاد مجتمع متكافل.**

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٣-٢٧٤].

والمعنى: يحث الله تعالى المؤمنين في هاتين الآيتين على تحقيق التكافل الاجتماعي من خلال مدّ يد العون لإخوانهم المحتاجين غير القادرين على كسب ما يسدّ حاجتهم، والذين تمنعهم العفة عن طلب المساعدة من الآخرين، ويأتي هذا الحث من خلال سبيلين، الأول: التشجيع على تقديم يد العون للمحتاجين سواءً أكانت المعونة قليلة أم كثيرة، الثاني: التشجيع على المداومة على الإنفاق لضمان استمرارية انتفاع المحتاجين بما يقدّم لهم من نفقات[2].

❁ **إيجاد مجتمع متعلم.**

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

يبرز الحق جل وعلا في هذه الآية علو شأن العالمين العابدين من العلماء، وطلبة العلم الذين هم دائمو التذكر لعظمة الخالق من خلال التفكر في إبداع الخلق؛ فيكون ذلك دافعًا لهم للزوم طاعة الله تعالى[3].

❁ **إيجاد مجتمع طاهر.**

ويقصد بالطهارة ما يأتي:

١. الطهارة النفسية.

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ١٢٣.

(٢) انظر: التفسير المنير، د. وهبة الزحيلي ٣/ ٧١.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٢٤٥.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣٠-٣١].

والمعنى: في هاتين الآيتين الكريمتين يأمر الله تعالى عباده المؤمنين رجالًا ونساءً بما يحفظ المجتمع المسلم عفيفًا طاهرًا، من غضٍّ للبصر عن النظر إلى ما حرم الله تعالى، وحفظٍ للفرج عن قضاء الشهوة في ما حرّم، ثم يخص النساء بالأمر بإخفاء ما يثير الفتنة من الزينة، وبارتداء الحجاب الذي يسترها ويصونها، وألّا يظهرن ما عندهن من الزينة إلّا لأزواجهن، أو آبائهن، أو آباء أزواجهن، أو أبنائهن، أو أبناء أزواجهن، أو إخوانهن، أو أبناء إخوانهن، أو أبناء أخواتهن، أو النساء المؤمنات، أو ما ملكن من العبيد، أو البله من الرجال الذين لا حاجة لهم في النساء، أو الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم من الذين لا علم لهم بعورات النساء.

ثم نهاهن عمّا كان سائدًا في الجاهلية من ضرب النساء عند سيرهن بأرجلهن ليسمع صوت ما يخفين من الزينة كالخلاخيل وغيرها، ثم يعمم الله تعالى الأمر للمؤمنين والمؤمنات بالتوبة إلى الله تعالى من كل ما قد يكون بدر منهم من المخالفات خصوصًا ما يتعلق بخدش الحياء والعفة[(١)].

٢. الطهارة البدنية.

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

والمعنى: يأمر الله تعالى في هذه الآية الكريمة العباد بما يحفظهم طاهرين أصحّاء، من المحافظة على النظافة الشخصية، وعدم الإسراف في تناول الأطعمة والأشربة، ثم علل الحق جل وعلا هذه الأوامر بأنه يبغض المتجاوزين لحدود الاعتدال في سائر الأمور[(٢)].

* إيجاد مجتمع قوي عزيز مسالم.

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٦٠ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦٠-٦١].

والمعنى: يأمر الله تعالى عباده المؤمنين في هاتين الآيتين أن يكونوا على أتم الاستعداد والجاهزية لحماية أنفسهم ممّا

(١) انظر: المصدر السابق ٦/ ١٧٠، التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٣٥٣.
(٢) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص ١٥٤.

يهددهم من الأخطار القادمة من ناحية أعداء الإسلام والمسلمين في كل مكان وزمان، ودلّهم على الوسيلة التي يحقّقون من خلالها الأمن لأنفسهم، وهي امتلاك القوة بكافة أنواعها ووسائلها، وحثّ على الإنفاق في سبيله لتيسير ذلك، ثم وضّح الموقف الذي ينبغي على المؤمنين أن يتخذوه في حالة طلب أعدائهم للسّلام معهم، وهو الموافقة شريطة أن تكون مبادئ السلم محقّقةً العزة للمؤمنين، متفقةً مع أحكام الشريعة الإسلامية[1].

موضوعات ذات صلة

الحرية، الخلافة، السياسة، الشورى، العدل

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٢٤-٣٢٥.





عناصر الموضوع

مفهوم الحكمة

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الحاء والكاف والميم أصل واحد، ومعناه المنع، وأول ذلك الحكم، وهو المنع من الظلم، وسميت حكمة الدابة؛ لأنها تمنعها، ويقال: حكمت السّفيه وأحكمته، إذا أخذت على يديه»[١].

قال جريرٌ[٢]:

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم   إنّي أخاف عليكم أن أغضبا

والحكمة هذا قياسها؛ لأنها تمنع من الجهل، والمحكّم: المجرب المنسوب إلى الحكمة[٣].

والحكيم، هو ذو الحكمة، والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها: حكيم، وعرّف الحكم في اللغة بأنه الحكمة من العلم، وصاحب الحكمة هو المتقن للأمور.

ولو تدبرنا معاني الحكمة في اللغة على نحو ما سبق لوجدنا أن مدارها على شيئين: أولهما: المنع، لأنها تحكم صاحبها أو المتصف بها من الوقوع فيما يذم عليه أو يلحقه الندم، وثانيهما: الفطنة في تدبير الأمور وحسن إدارتها، من حيث تقديم الأهم على المهم، وتقديم الفاضل على المفضول[٤].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

للحكمة في الاصطلاح تعريفات عدة نختار منها ما يأتي:

أنّ الحكمة هي: «معرفة الحق والعمل به، والإصابة في القول والعمل، وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن، والفقه في شرائع الإسلام، وحقائق الإيمان، وهذا التعريف للإمام مجاهد والإمام مالك، وقد قال عنه ابن القيم: «إنه أحسن ما قيل في الحكمة»[٥].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٩١.
(٢) بيت جرير في: ديوان المعاني، العسكري ١/ ٨٩، خزانة الأدب، البغدادي ٩/ ٢٣٦.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ١٤٣.
(٤) انظر: الحكمة، ناصر العمر ص٩.
(٥) التفسير القيم، ابن القيم ص٢٢٦.

أنها «ضرب من العلم يمنع من ركوب الباطل»[1].

أنها «خروج نفس الإنسان إلى كمالها الممكن»[2].

ومن التعريفات المعاصرة للحكمة:

أ- أنها «العلوم النافعة والمعارف الصائبة، والعقول المسددة، والألباب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال»[3].

ب- أنها: «القصد والاعتدال، وإدراك العلل والغايات، والبصيرة المستنيرة التي تهديه للصالح الصائب من الحركات والأعمال»[4].

ج- أنها «وضع الشيء في موضعه»[5].

د- أنها: «فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي»[6].

التعريف المختار:

الذي يمكن للباحث اختياره استخلاصًا من التعريفات السابقة أنّ الحكمة «ملكةٌ فطريةٌ أو مكتسبةٌ يمكن بها وضع الأمور في مواضعها أقوالا وأفعالا وأحكامًا وفق روية ودراية».

فالصلة بين المعنى الاصطلاحي واللغوي وثيقة جدًّا؛ إذا كلاهما يدلان على تدبير الأمور وحسن إدارتها والمنع من ركوب الباطل.

---

(١) نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ١/ ٢٦٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٣٢.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٣١٢.

(٥) انظر: معجم لغة الفقهاء، قلعجي والقنيبي ص ١٨٤، مفهوم الحكمة في الدعوة إلى الله، ناصر الحميد ص ٢٩.

(٦) الحكمة، ناصر العمر ص١٩.

الحكمة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أحكم) في القرآن الكريم (١٢٣) مرة[١].

والصيغ التي جاءت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود:١]
الفعل المضارع	١	﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٢﴾ [الحج:٥٢]
المصدر	٢٠	﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩]
الصفة المشبهة	٩٧	﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النمل:٦]
اسم التفضيل	٢	﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ [التين:٨]
اسم المفعول	٢	﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران:٧]

وجاءت الحكمة في القرآن على خمسة وجوه[٢]:

أحدها: وضع الأشياء مواضعها، ومنه قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨﴾ [التغابن:١٨]، يعني: الموصوف بالحكمة، لا يدع معاملة الناس بما تقضيه الحكمة من وضع الأشياء مواضعها، ونوط الأمور بما يناسب حقائقها.

والثاني: الموعظة، ومنه قوله تعالى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾ [القمر:٥]، يعني: موعظة قد بلغت الغاية، ووصلت إلى النهاية.

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٢١٣-٢١٥، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الحاء ص ٤٧٤-٤٥٠.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص١٧٤، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٢٦١-٢٦٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٨/ ٢٩١.

والثالث: السنة، ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة:٢]، يعني: القرآن والسنة.

والرابع: العلم والفهم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمان:١٢]، يعني: العلم والفهم.

والخامس: النبوة: ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء:٥٤]، يعني: النبوة.

الألفاظ ذات الصلة

١ العلم:

العلم لغةً:

نقيض الجهل، والمعرفة، واليقين، والعلّامة: النسّابة، وهو من العلم[١]، ويقال: «علمت الشيء أعلمه علمًا: عرفته»[٢].

العلم اصطلاحًا:

عرفه الجرجاني: «العلم هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، ونقل عن الحكماء فقال: هو حصول صورة الشّيء في العقل»[٣].

وأنكر ابن العربي تعريف العلم لوضوحه وقال: «العلم أبين من أن يبين»[٤]، وأنكر على من تصدى لتعريف العلم.

الصلة بين العلم والحكمة:

يمكن إبرازها في الآتي:

١. أن العلم يشبه الحكمة من حيث كون كلًّا منهما يفيد المرء ويفيد غيره، ويورث صاحبه قبولًا ومكانة ورفعة بين الناس.

٢. أن الحكمة ضرورية لطلب العلم وتعليمه، فمن التزم بالحكمة أحسن التعلم إن كان تلميذًا، والتعليم إن كان معلمًا.

٢ القضاء:

الفقه لغةً:

«العلم بالشيء، والفهم له، والفطنة. وغلب على علم الدين؛ لشرفه»[٥].

الفقه اصطلاحًا:

هو الإصابة والوقوف على المعنى الخفي الذي يتعلّق به الحكم، وهو علمٌ مستنبطٌ بالرأي

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٣٠٨٣، تهذيب اللغة، الأزهري، ٢/ ٤١٨.
(٢) الصحاح، الجوهري، ٥/ ١٩٩٠.
(٣) التعريفات، ص ١٩١.
(٤) فتح الباري، ابن حجر، ١/ ١٤١.
(٥) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ١٢٥٠.

والاجتهاد، ويحتاج فيه إلى النظر والتأمّل[١].

الصلة بين الفقه والحكمة:

أن الفقه طريق إلى الحكمة، فكل من تفقه في دينه، ووقف على شيء من أسرار الأحكام الشرعية، وأعمل ذهنه في استنباطها كان حكيمًا في تصرفاته، متزنًا في أفعاله وأقواله.

٣ القضاء:

الفطنة لغةً:

الفطنة بالكسر وسكون الطاء المهملة لغة: هي الفهم، وفي الصحاح هي كالفهم، وهذه قد تكون جبليّة وقد تكون مكتسبة، كما أنّ عدم الفطنة قد يكون جبليّا وقد يكون عارضًا[٢].

الفطنة اصطلاحًا:

تعرف في الاصطلاح بأنها «جودة تهيؤ النفس لتصوّر ما يرد عليها من الغير»[٣].

وتعرف كذلك بأنها «الفطنة: سرعة ما يقصد إشكاله»[٤].

الصلة بين الفطنة والحكمة:

أن الحكمة تنبني على الفطنة، إلا أن الفطنة فيها جانب معنوي به تدرك بواطن الأمور ومراميها، مما يؤدي إلى الحكمة في التصرفات، ولهذا فإن الحكيم لابد أن يكون فطنًا.

---

(١) انظر: التعريفات، الجرجاني، ص١٦٨.
(٢) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٣٥/ ٥١٠.
(٣) كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي ٢/ ١٢٧٩.
(٤) مقاليد العلوم، السيوطي ص٢٠٠.

الحكمة نعمة الهبة

أولًا: الحكة نعمة:

الحكمة نعمة من نعم الله تعالى التي ينعم بها على من يشاء من عباده، يصدق ذلك قول الله تعالى ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

قال الشيخ المراغي في تفسير قوله تعالى:«﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾ أي: إنه تعالى يعطى الحكمة والعلم النافع المصرّف للإرادة لمن يشاء من عباده، فيميز به الحقائق من الأوهام، ويسهل عليه التفرقة بين الوسواس والإلهام وآلة الحكمة العقل المستقل بالحكم في إدراك الأشياء بأدلتها، وفهم الأمور على حقيقتها -ومن أوتى ذلك عرف الفرق بين وعد الرّحمن ووعد الشيطان، وعضّ على الأول بالنواجذ وطرح الثاني وراءه ظهريًا، ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي: ومن يوفقه الله لهذا النوع النافع من العلم، ويرشده إلى هداية العقل، ووجهه الوجهة الصحيحة- فقد هدى إلى خيرى الدنيا والآخرة، فهو يسخر القوى التي خلقها الله له من سمع وبصر وشعور ووجدان في النافع من الأشياء، ويعدّها لتنفيذ ما يرغب فيه، ثم بعدئذ يفوض الأمر إلى بارئه الذي فطره وسوّاه، ومنه مبدؤه وإليه منتهاه، وبهذا لا يستسلم لوساوس الشيطان، ولا يقض مضجعه ما يجده من مكدرات الحياة وآلامها»(١).

وقد فسرت الحكمة في هذا الموضع بتفسيرات عدة أشهرها ما يأتي:

١. أن الحكمة هي الإصابة في القول والفعل، روي هذا عن مجاهد(٢).
٢. أن الحكمة هي العقل في الدين، روي هذا عن عبد الرحمن بن زيد(٣).
٣. أن الحكمة هي الفهم، وهو مروي عن إبراهيم النخعي(٤).
٤. أن الحكمة هي النبوة، وهو مروي عن ابن عباس والسدي(٥).
٥. أن الحكمة هي علم القرآن، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه وأمثاله، وهذا مروي عن قتادة(٦).
٦. أن الحكمة هي الخشية، وهو مروي

---

(١) انظر: تفسير المراغي ١/ ٤١-٤٢ بتصرف.
(٢) جامع البيان، الطبري ٥/ ٥٧٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٥٧٨، تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٥٣٢.
(٤) انظر: المصادر السابقة.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٥٧٩، تفسير السمرقندي ١/ ١٧٩.
(٦) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١/ ٢٥٢.

عن الربيع بن خيثم[1].

٧. أن الحكمة هي المعرفة بالدين والفقه فيه والاتباع له، حكاه ابن وهب عن مالك[2].

وأخرج ابن أبي حاتم عن مالك قوله: «وإنه ليقع في قلبي، أن الحكمة هو الفقه في دين الله؛ وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله، ومما يبين ذلك أنك تجد الرجل عاقلًا في أمر الدنيا، إذا نظر فيها، وتجد آخر ضعيفًا في أمر دنياه، عالمًا بأمر دينه، بصيرًا به، يؤتيه الله إياه، ويحرمه هذا، فالحكمة: الفقه في دين الله»[3].

ولا مانع من إطلاق الحكمة على كل المعاني السابقة، يقول الإمام الطبري بعد أن ذكر هذه المعاني: «إنها مأخوذة من «الحكم» وفصل القضاء، وأنها الإصابة بما دل على صحته، فأغنى ذلك عن تكريره في هذا الموضع، وإذا كان ذلك كذلك معناه، كان جميع الأقوال التي قالها القائلون الذين ذكرنا قولهم في ذلك داخلًا فيما قلنا من ذلك، لأن الإصابة في الأمور إنما تكون عن فهم بها وعلم ومعرفة.

وإذا كان ذلك كذلك، كان المصيب عن فهم منه بمواضع الصواب في أموره مفهمًا خاشيًا لله فقيهًا عالمًا، وكانت النبوة من أقسامه، لأن الأنبياء مسددون مفهمون، وموفقون لإصابة الصواب في بعض الأمور، «والنبوة» بعض معاني الحكمة، فتأويل الكلام: يؤتي الله إصابة الصواب في القول والفعل من يشاء، ومن يؤته الله ذلك فقد آتاه خيرًا كثيرًا»[4].

ولما كانت الحكمة نعمة كان إيتاؤها من رضا الله تعالى على المرء، حبًّا لها، ورفعة لمنزلته، وجزاء له على طاعته وامتثاله لأوامر الله تعالى واجتناب نواهيه، وقد ينعم الله تعالى على المرء في شبابه بالطاعة وييسر له سبلها ليؤهله بعد ذلك لتلقي الحكمة.

روي عن الحسن البصري قوله: «من أحسن عبادة ربه في شبيبته آتاه الله الحكمة في اكتهاله»[5].

ثانيًا: تعلّم الحكمة:

الحكمة هبة وعطية من الله يهبها من يشاء من عباده الصالحين، أما كونها هبة وعطية فهي نعمة من نعم الله تعالى التي ينعم بها على أحد من خلقه، وهذه درجة سامية من درجات الحكمة، ولكن يمكن في الوقت ذاته اكتساب الحكمة أو تعلمها.

وأما كونها فطرية فقد تقدم ذكر الآية الصريحة في أن الحكمة نعمة يؤتيها الله

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٤٤.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٥٧٨.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٥٣٢.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٥٧٩.
(٥) أخرجه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم، ٦/ ٢٤٠، رقم ٢٥٧٩.

تعالى لمن يشاء.

وورد في السنة كذلك ما يمكن الاستئناس به على فطريتها، وذلك في قول النبي صلى الله عليه وسلم لأشجّ عبد قيس: (إنّ فيك لخلقين يحبّهما الله: الحلم والأناة)[(١)]، فقال: يا رسول الله، أنا تخلّقتهما، أو جبلني الله عليهما؟ قال: (بل الله جبلك عليهما). قال: الحمد للّه الّذي جبلني على خلقين يحبّهما الله ورسوله[(٢)].

ووجه الاستئناس بالحديث هنا أن الحلم والأناة وإن كان خلقين مستقلين إلا أن منبعهما الحكمة، فالحكيم تدفعه حكمته إلى الحلم والأناة.

وأما عن كونها مكتسبة فذلك بأن ييسر الله تعالى للمرء مخالطة الحكماء ومجالسة العلماء والإطلاع على التجارب والخبرات واكتساب الصفات والخلال التي تؤهله ليكون في مصاف الحكماء ويتعاطي أسباب الإخلاص، والتفكر والاعتبار بالحوادث، والصمت إذا خاض الإنسان فيها، كلها من الأسباب المعينة على الاقتباس من نور الحكمة وكل ذلك بتوفيق الله وإعانته.

وروي عن الإمام مالك؛ أنّه بلغه أنّ لقمان الحكيم أوصى ابنه فقال: «يا بنيّ جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك؛ فإنّ الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل السّماء»[(٣)].

وقد استنبط الشيخ محمد الطاهر بن عاشور كون الحكمة مكتسبة من الحوار الذي دار بين سيدنا سليمان عليه السلام وملئه حول إمكانية إحضار عرش ملكة سبأ، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)﴾ [النمل: ٣٨ - ٤٠].

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: «وهذه المناظرة بين العفريت من الجن والذي عنده علم من الكتاب ترمز إلى أنه يتأتى بالحكمة والعلم ما لا يتأتى بالقوة، وأنّ الحكمة مكتسبة لقوله: عنده علم من الكتاب، وأن قوة العناصر طبيعة فيها، وأن الاكتساب بالعلم طريق لاستخدام القوى التي لا تستطيع استخدام بعضها بعضًا. فذكر

(١) إلى هنا أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله، رقم ١٧.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، في مسند الوازع بن زارع العبدي، ٣٩/ ٤٩٠، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني، ٣/ ٣٠٤، رقم ١٦٨٤، والخرائطي في مكارم الأخلاق، باب فضل الحلم والرفق والأناة ١/ ٣٣٢، رقم ٢٩.

(٣) تنوير الحوالك، السيوطي ٣/ ١٦١.

في هذه القصة مثلًا لتغلب العلم على القوة، ولما كان هذان الرجلان مسخرين لسليمان كان ما اختصا به من المعرفة مزية لهما ترجع إلى فضل سليمان وكرامته أن سخر الله له مثل هذه القوى»[(١)].

وأيًّا كان الأمر من كون الحكمة فطرية أو مكتسبة، فإن كليهما يستلزم من المرء العمل بها وتعليمها، وإلا دخل في عداد واحد من اثنين، الأول: العالم الذي لا يعمل بعلمه، والثاني: العالم الذي يكتم علمه، وكلاهما مذموم.

أما الأول فمذموم بقول الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢﴾ [الصف: ٢].

وأما الثاني فمذموم بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما (يجاء بالرّجل يوم القيامة فيلقى في النّار، فتندلق أقتابه في النّار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النّار عليه فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه)[(٢)].

وروي أن سليمان بن عبد الملك سأل أبا حازم (أحد الزهاد بالمدينة) فقال: يا أبا حازم من أعقل النّاس ؟ قال: من تعلم الحكمة وعلمها النّاس، قال: فمن أحمق النّاس؟ قال: من دخل في هوى رجل ظالم[(٣)].

ويمكن بيان أوجه الفرق بين الحكمة الفطرية والحكمة المكتسبة، أو الحكمة التي يؤتيها الله والحكمة التي يتعلمها المرء على هذا النحو:

أنّ الحكمة التي يؤتيها الله تعالى إنما يؤتيها لمن أحب من خلقه، فهي نور لا يؤتيه لعاصٍ، أما تعلم الحكمة فقد ينالها الطائع والعاصي، فتكون للطائع نعمة، وعلى العاصي قد تكون استدراجًا ونقمة.

أعظم من الحكمة التى يتعلمها وأكثر إفادة من المكتسبة وفي كل خير، وذلك لأن علم البشر قاصر، قال الله تعالى ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [يوسف:٧٦].

أنّ الحكمة المؤتاة من الله تعالى هي علم لدني، كما في حالة الخضر عليه السلام، ولقمان عليه السلام، أما الحكمة التي يتعلمها المرء فتأتي من طرق عدة، وبدرجات متفاوتة، فقد يتعلمها المرء من الإنسان، وقد يتعلمها من الحيوان.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٢٧١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب: صفة النار وأنها مخلوقة، رقم ٣٢٦٧.
(٣) المنهج المسلوك في سياسة الملوك، الشيزري ص٧١٧، مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة ص١٣٥.

الحكمة من صفات الله تعالى

وصف الله تعالى نفسه بالحكمة، وسمى نفسه الحكيم في آيات عديدة بلغت أكثر مائة موضع، من كتاب الله عز وجل، فالحكيم من أسماءالله الحسنى، وأكثر ما ورد من اسم «الحكيم» في القرآن الكريم ورد مقترنًا بغيره من الأسماء؛ كالعزيز والعليم والخبير والتواب ونحو ذلك.

قال ابن منظور: «الله سبحانه وتعالى أحكم الحاكمين، وهو الحكيم، له الحكم سبحانه وتعالى. قال اللّيث: الحكم الله تعالى. وقال الأزهريّ من صفات الله: الحَكَم والحَكِيم والحَاكِم، ومعاني هذه الأسماء متقاربة، وعلينا الإيمان بأنّها من أسمائه. وقال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى (الحكم) و(الحكيم) وهما بمعنى الحاكم، وهو القاضي فهو فعيل بمعنى فاعل، أو هو الّذي يحكم الأشياء ويتقنها فهو فعيل بمعنى مفعل، وقيل: الحكيم: ذو الحكمة وهي عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم»[1].

ولهذه التسمية ولهذا الاقتران معان دار حولها العلماء، أتناول ما تيسر منها على هذا النحو:

أولًا: معنى الحكمة في حق الله تعالى:

الحكمة في حق الله تعالى تعني صفة عظيمة من صفاته جل وعلا، واسمًا من أسمائه الحسنى، تتعلق بالعلم والإحاطة بخلقه، وتدبير شؤونهم، وتشريعاته الصالحة لكل زمان ومكان، ورحمته التي وسعتهم بتقدير وتدبير محكمين.

ولذلك فإن اسم الله تعالى «الحكيم» تتعدد معانيه وتتسع حسب المواضع الكريمة التي ورد فيها في كتاب الله تعالى، وكلها تصف المولى جل وعلا بالحكمة التي سبق ذكر معانيها.

فالحكيم جل وعلا له في خلقه شئون، وله في تدبير أمورهم إرادة لا يعتريها العبث، ولا يدخلها الخلل، قال تعالى مبينًا جوانب حكمته في الخلق: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

فالحكيم جل وعلا جعل الناس متفاوتين في المعايش والأوصاف، كما قال ابن القيم: «الله سبحانه يحب أن يشكر، ولذا فاوت بين عباده في صفاتهم الظاهرة والباطنة في خلقهم وأخلاقهم وأديانهم وأرزاقهم ومعايشهم وآجالهم، فإذا رأى المعافى المبتلى والغنيّ الفقير والمؤمن الكافر عظم شكره لله، وعرف قدر نعمته عليه، وما فضّله به على غيره، فازداد شكرًا وخضوعًا واعترافًا بالنعمة، فالضد يظهر حسنه الضد،

(١) لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ١٤٠.

ويضدها تتبين الأشياء»[1].

والحكيم سبحانه وتعالى فاضل بين الناس، فوفّق قومًا للدين، ووكل قومًا لأنفسهم فاختاروا الكفر، ولا يعجز الله هدايتهم، ولو شاء لهدى الناس أجمعين، لكنه حكيم، جعل الكفر والإيمان، وسلط الشيطان على بني الإنسان حكمة منه[2].

قال ابن القيم: «في خلق إبليس من الحكم والمصالح والخيرات التي ترتبت على وجوده ما لا يعلمه إلا الله، فالله سبحانه لم يخلقه عبثًا، ولا قصد بخلقه إضرار عباده وهلاكهم، فكم لله في خلقه من حكمة باهرة، وحجة قاهرة، وآية ظاهرة، ونعمة سابغة؛ وهو وإن كان للأديان والإيمان كالسموم للأبدان ففي إيجاد السموم من المصالح والحكم ما هو خير من تفويتها»[3].

وللعلماء كلام طيب في معنى الحكمة في حق الله تعالى إما على جهة الإطلاق أو مستفادًا من الآيات القرآنية الورادة في الحكمة، وأورد هنا طرفًا من كلامهم وتفسيراتهم على هذا النحو:

قال الغزاليّ: «الحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، والله عزّ وجلّ هو الحكيم الحقّ، لأنّه يعلم أجلّ الأشياء بأجلّ العلوم، إذ أجلّ العلوم هو العلم الأزليّ الدّائم الّذي لا يتصوّر زواله، المطابق للمعلوم مطابقة لا يتطرّق إليه خفاء ولا شبهة ولا يتّصف بذلك إلّا علم الله سبحانه وتعالى»[4].

وقال الشيخ ناصر السعدي ما ملخصه: «الحكيم: الموصوف بكمال الحكمة وبكمال الحكم بين المخلوقات، فالحكيم هو واسع العلم، والاطّلاع على مبادئ الأمور وعواقبها، واسع الحمد، تام القدرة، غزير الرحمة، فهو الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها في خلقه وأمره، فلا يتوجّه إليه سؤال، ولا يقدح في حكمته مقال.

وحكمته نوعان:

النوع الأول: الحكمة في خلقه؛ فإنه خلق الخلق بالحق ومشتملًا على الحق، وكان غايته والمقصود به الحق، خلق المخلوقات كلها بأحسن نظام، ورتّبها أكمل ترتيب، وأعطى كل مخلوق خلقه اللّائق به، بل أعطى كلّ جزء من أجزاء المخلوقات وكلّ عضو من أعضاء الحيوانات خلقته وهيئته، فلا يرى أحد في خلقه خللًا، ولا نقصًا.

---

(١) شفاء العليل، ابن القيم ص٢٢١.
(٢) انظر: تأملات في اسم الله تعالى الحكيم، منصور الصقعوب، خطبة بموقع ملتقى الخطباء ص٥ بتصرف.
(٣) شفاء العليل، ابن القيم ص١٤٨.
(٤) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، الغزالي ص١٢٠.

النوع الثاني: الحكمة في شرعه وأمره، فإنه تعالى شرع الشرائع، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل ليعرفه العباد ويعبدوه، فأي حكمة أجلّ من هذا؟ وأيّ فضل وكرم أعظم من هذا، فإنّ معرفته تعالى وعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص العمل له وحمده، وشكره والثّناء عليه أفضل العطايا منه لعباده على الإطلاق، وأجلّ الفضائل لمن يمنّ الله عليه بها»[(١)].

وإذا نظرنا إلى اسم الله تعالى الحكيم، لوجدناه لم يأت في القرآن الكريم مفردًا قط، وإنما مقرونًا باسم آخر على نحو ما سيتضح لاحقًا.

وللعلماء كلام طيب في تفسير اسم الحكيم جل وعلا، منه قول ابن القيم: «اسم الحكيم له سبحانه من لوازمه ثبوت الغايات المحمودة المقصودة له بأفعاله، ووضعه الأشياء في مواضعها، وإيقاعها على أحسن الوجوه»[(٢)].

وقول العسكري: «وتسمية الله بأنه حكيم على وجهين:

أحدهما: يستحقه لذاته، وهو أنه عالم.

والآخر: يستحقه لفعله، وهو أن أفعاله محكمة.

وفعيل بمعنى مفعل معروف في اللغة، يقال: سمع بمعنى سميع، قال عمرو بن معدي كرب: أمن ريحانة الداعي السميع»[(٣)].

ثانيًا: حكمة اقتران صفة الحكمة بصفات الله الأخرى:

وردت الحكمة مقترنة بصفات أخرى لله عز وجل، حيث جاء اسم الحكيم مع أسماء أخرى في عشرات الآيات المكية والمدنية على اختلاف مقاصد هذه الآيات، ولا يتسع المقام لسردها بالتفصيل، ولكن اكتفي بالإشارة إلى ذكر ذلك إجمالًا، ثم استلهام بعض المعاني من مواطن بعينها.

العزيز الحكيم:

جاء اسم الله تعالى (الحكيم) مقرونًا باسمه (العزيز) جل وعلا في (٤٤) موضعًا في القرآن الكريم[(٤)].

وكل آية ورد فيها الاسمان الكريمان، لها مدلولها ومعانيها المناسبة للمقام، المبسوطة في مواضعها من كتب التفسير.

فعلى سبيل المثال في قول الله تعالى ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ [آل عمران:٦].

يقول الطبري: «أخبر جل ثناؤه خلقه

(١) انظر: الثمر المجتنى مختصر شرح أسماء الله الحسنى، ناصر السعدي ص٢٨-٣١.
(٢) التفسير القيم، ابن القيم ص٣١.

(٣) الوجوه والنظائر، العسكري ص١٨٠.
(٤) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد عبد الباقي ص٢١٤-٢١٥، موسوعة نضرة النعيم ٥/ ١٦٨٠.

بصفته، وعيدًا منه لمن عبد غيره، أو أشرك في عبادته أحدًا سواه، فقال: «هو العزيز» الذي لا ينصر من أراد الانتقام منه أحدٌ، ولا ينجيه منه وألٌ ولا لجأ، وذلك لعزته التي يذلّ لها كل مخلوق، ويخضع لها كل موجود، ثم أعلمهم أنه «الحكيم في تدبيره وإعذاره إلى خلقه، ومتابعة حججه عليهم، ليهلك من هلك منهم عن بيّنة، ويحيا من حيّ عن بينة»[(١)].

وفي قوله جل شأنه: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

يقول الطبري في معناها: «العزيز في انتقامه من أهل الكفر بأيدي أوليائه من أهل طاعته، الحكيم في تدبيره لكم أيها المؤمنون على أعدائكم من أهل الكفر، وغير ذلك من أموره»[(٢)].

العليم الحكيم:

جاء اسم الله تعالى (الحكيم) مقترنًا باسمه (العليم) جل وعلا، في (٣٣) موضعًا في القرآن الكريم[(٣)].

وجميع المواضع التي وردت فيه العلم مقترنًا بالحكمة لكل موضع منها معناه المناسب للآيات الواردة فيه.

والناظر في المواضع يجد أن (٣١) موضعًا منها سبق العلم الحكمة، وموضعين فقط سبقت الحكمة العلم:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤].

وذكر الطبري في تفسيرها أنه سبحانه وتعالى الحكيم: في تدبير خلقه، وتسخيرهم لما يشاء، العليم بمصالحهم[(٤)].

وذكر ابن كثير أن المعنى: حكيم في أقواله وأفعاله[(٥)].

ولهذا فإن العبد إذا علم أن الحكيم سبحانه وتعالى هو المدبر للأمور المتقن لها والموجد لها على غاية الإحكام والإتقان والكمال، والواضع للأشياء في مواضعها، والعالم بخواصها ومنافعها الخبير بحقائقها ومآلاتها.. فإذا عرف العبد ذلك وتيقن هذا المعنى وأن كل ما يجري في هذا الكون هو لحكمة بالغة أرادها الله تبارك وتعالى -علم هذه الحكمة من علمها وجهلها من جهلها- كان لهذه المعرفة الأثر البالغ في حياته وتصرفاته ونظرته للكون والحياة وعاش مطمئن القلب قرير العين مفوضًا الأمر كله إلى الله تعالى متقنًا لعمله محسنًا لعبادته،

(١) جامع البيان، الطبري ٦/ ١٦٨-١٦٩.
(٢) المصدر السابق ٧/ ١٩١-١٩٢.
(٣) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد عبد الباقي ص٢١٤-٢١٥، موسوعة نضرة النعيم ٥/ ١٦٨٠.
(٤) انظر: جامع البيان، ٢١/ ٦٥٣.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ٧/ ٣٩٣.

ومتيقنًا أن كل ما يجري في الكون والحياة هو من تقدير الحكيم العليم اللطيف الخبير الذي لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه[(١)].

والثاني: في قوله جل شأنه: ﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٣٠].

والمعنى: أنه تعالى حكيم في تدبيره خلقه، عليم بمصالحهم، وبما كان وبما كائن، وقيل: عليمٌ بما تستحقّون من الكرامة، حكيم في أقواله وأفعاله[(٢)].

ومن لطائف الآية ما ذكره الرازي قائلًا: «إن قيل: لم قال هاهنا الحكيم العليم، وقال في هود: (حميد مجيد)؟ نقول: لما بينا أن الحكاية هناك أبسط، فذكروا ما يدفع الاستبعاد بقولهم: أتعجبين من أمر الله، ثم لما صدقت أرشدوهم إلى القيام بشكر نعم الله، وذكروهم بنعمته بقولهم: حميد، فإن الحميد هو الذي يتحقق منه الأفعال الحسنة، وقولهم: مجيد، إشارة إلى أن الفائق العالي الهمة لا يحمده لفعله الجميل، وإنما يحمده ويسبح له لنفسه، وهاهنا لما لم يقولوا: أتعجبين، إشارة إلى ما يدفع تعجبها من التنبيه على حكمه وعلمه، وفيه لطيفة وهي أن هذا الترتيب مراعى في السورتين، فالحميد يتعلق بالفعل، والمجيد يتعلق بالقول، وكذلك الحكيم هو الذي فعله، كما ينبغي لعلمه قاصدًا لذلك الوجه بخلاف من يتفق فعله موافقًا للمقصود اتفاقًا، كمن ينقلب على جنبه فيقتل حية وهو نائم، فإنه لا يقال له: حكيم، وأما إذا فعل فعلًا قاصدًا لقتلها بحيث يسلم عن نهشها، يقال له: حكيم»[(٣)].

الحكيم الخبير:

جاء اسم الله تعالى (الحكيم) مقترنًا باسمه (الخبير) في أربعة مواضع من كتاب الله عز وجل.

ولو تتبعنا آثار اسمي الحكيم والخبير لوجدنا أن الله سبحانه الحكيم الخبير الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها، فلا يضع الشيء في غير موضعه، ولا ينزله غير منزله، التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته.

فلا يضع الحرمان والمنع موضع العطاء والفضل، ولا الفضل والعطاء موضع الحرمان والمنع، ولا الثواب موضع العقاب، ولا العقاب موضع الثواب، ولا الخفض موضع الرفع، ولا الرفع موضع الخفض، ولا العز مكان الذل، ولا الذل

(١) انظر: معنى اسم: الحكيم وأثره على المسلم، فتوى رقم ١٧١٨١٩، موقع إسلام ويب، منشور بتاريخ الخميس ٢٤ صفر ١٤٣٣ / ١٩-١-٢٠١٢ م.

(٢) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١١/ ٧٠٥٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٩٣.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ١٧٨.

مكان العز، ولا يأمر بما ينبغي النهي عنه، ولا ينهى عما ينبغي الأمر به.

فهو أعلم حيث يجعل رسالته، وأعلم بمن يصلح لقبولها، ويشكره على انتهائها إليه ووصولها، وأعلم بمن لا يصلح لذلك ولا يستأهله، وأحكم من أن يمنعها أهلها، وأن يضعها عند غير أهلها.

فلو قدر عدم الأسباب المكروهة البغيضة له لتعطلت هذه الآثار، ولم تظهر لخلقه، ولفاتت الحكم والمصالح المترتبة عليها، وفواتها شر من حصول تلك الأسباب[1].

ولو تتبعنا بعضًا من مواضع اقتران اسم الحكيم باسم الخبير لوجدنا فيها معان كثيرة على هذا النحو:

أولها: قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨].

وقد فسرها الطبري هنا بقوله: «يعني تعالى ذكره بقوله: (وهو)، نفسه، يقول: والله الظاهر فوق عباده، ويعني بقوله: (القاهر)، المذلّل المستعبد خلقه، العالي عليهم، وإنما قال: (فوق عباده)؛ لأنه وصف نفسه تعالى ذكره بقهره إياهم. ومن صفة كلّ قاهر شيئًا أن يكون مستعليًا عليه.

فمعنى الكلام إذًا: والله الغالب عباده، المذلّلهم، العالي عليهم بتذليله لهم، وخلقه إياهم، فهو فوقهم بقهره إياهم، وهم دونه وهو الحكيم، يقول: والله الحكيم في علّوه على عباده، وقهره إياهم بقدرته، وفي سائر تدبيره الخبير، بمصالح الأشياء ومضارّها، الذي لا يخفي عليه عواقب الأمور وبواديها، ولا يقع في تدبيره خلل، ولا يدخل حكمه دخل»[2].

وقال الإمام البقاعي في هذه الآية: «﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾ أي الذي يعمل مراده كله، ويمنع غيره مراده إن شاء، وصوّر قهره وحقّقه لتمكن الغلبة بقوله: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ وكل ما سواه عبد؛ ولما كان في القهر ما يكون مذمومًا، نفاه بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ أي: وحده ﴿الْحَكِيمُ﴾ فلا يوصل أثر القهر بإيقاع المكروه إلا لمستحق، وأتم المعنى بقوله ﴿الْخَبِيرُ﴾ أي: بما يستحق كل شيء، فتمت الأدلة على عظيم سلطانه وأنه لا فاعل غيره»[3].

وثانيها: في السورة نفسها: ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ عَٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣].

وثالثها: في أول سورة سبأ في قول الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ١٩٠.

(٢) جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٨٨.

(٣) نظم الدرر، البقاعي ٧/ ٣٩-٤٠.

﴿الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١].

ورابعها: في قوله جل شأنه: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

والمعنى هنا: أنه سبحانه وتعالى حكيم بتدبير الأشياء وتقديرها، خبير بما تؤول إليه عواقبها(١).

وفسرها قتادة وأبو العالية بأنه سبحانه وتعالى حكيم في أمره خبير بخلقه(٢).

أما بقية الأسماء فنجد أن اقتران اسم الحكيم بها مرة واحدة وذلك كأسماء:

❁ التواب:

جاء مقترنًا باسم (الحكيم) في قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠].

وهنا جاءت الآية جواب «لولا متروك»، والمعنى -والله أعلم-: ولولا فضل الله عليكم لنال الكاذب لما ذكرنا عذابٌ عظيم(٣).

وقيل المعنى: «ولولا فضل الله عليكم أيها الناس ورحمته بكم، وأنه عوّاد على خلقه بلطفه وطوله، حكيم في تدبيره إياهم، وسياسته لهم، لعاجلكم بالعقوبة على معاصيكم وفضح أهل الذنوب منكم بذنوبهم، ولكنه ستر عليكم ذنوبكم وترك فضيحتكم بها عاجلا رحمة منه بكم، وتفضلا عليكم»(٤).

❁ الحميد:

جاء مقترنًا باسم (الحكيم) في قول الله تعالى في وصف القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

وقد فسر بعض العلماء (الحكيم) هنا بأنه الذي لا يلحقه الخطأ في تدبيره أو في حكمه، و(الحميد) بأنه الذي لا يلحقه الذم في فعله(٥).

❁ العلي:

جاء مقترنًا باسم (الحكيم) في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

وهذه الآية الكريمة واردة في بيان أقسام الوحي إلى الأنبياء والرسل عليهم السلام، وقد ختمها الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

والمعنى كما ذكره الرازي: أنه تعالى ﴿عَلِيٌّ﴾ عن صفات المخلوقين

(١) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٢٨.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٩٦.
(٣) معاني القرآن، وإعرابه، الزجاج ٤/ ٣٣، الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٦٨.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١١٥.
(٥) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٩/ ٨٨.

﴿حَكِيمٌ﴾ يجري أفعاله على موجب الحكمة[1].

❁ الواسع:

جاء مقترنًا باسم (الحكيم) في قول الله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠].

وهذه الآية وردت في مسألة التفرقة بين الزوجين حين تتعذر الحياة بينهما على النحو الصحيح، فإذا كان الله تعالى قد علق الغنى على النكاح في موضع، فقد علقه في هذا الموضع على الفرقة.

ويؤيد هذا ما روي عن الحسن بن علي أنه كان طلق زوجته، فقيل: له في ذلك، فقال: إني رأيت الله تعالى علق على الأمرين غنى، فقال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

وقال: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٠][2].

والواسع: عام في الغنى، والقدرة، والعلم، وعقبه بالحكم، منبهًا أن السعة ما لم يكن معها الحكمة، والعلم، كان إلى الفساد أقرب منها إلى الصلاح[3].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٦١٤.
(٢) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ٤/ ١٨٦.
(٣) انظر: المصدر السابق.

وصف القرآن الكريم بالحكمة

القرآن الكريم له أسماء عدة وأوصاف مختلفة بعضها ذكر في القرآن نفسه، وبعضها ورد في السنة النبوية، ومن ذلك وصفه بالحكمة في أكثر من موضع.

قال الرازي في معرض ذكره لأسماء القرآن الكريم: «ثامنها: الحكم، والحكمة، والحكيم، والمحكم.

أما الحكم فقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧].

وأما الحكمة فقوله: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٥].

وقوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

وأما الحكيم فقوله: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يس: ١ - ٥]، وأما المحكم فقوله: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]»[4].

وبيان معاني هذه المواضع على هذا النحو:

أولًا: وصف القرآن بالحكمة في معرض القسم به في مطلع سورة يس: قال تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، ٢/ ٢٦١.

﴿الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ⑤﴾ [يس: ١ - ٥].

والحكيم هنا فسر بتفسيرات عدة أشهرها ما يلي:

١. ما ذكره الطبري أنه «المحكم بما فيه من أحكامه، وبيّنات حججه»[(١)].

٢. ما ذكره الزجاج بأن «آياته أحكمت وبيّن فيها الأمر والنهي والأمثال وأقاصيص الأمم السالفة»[(٢)].

٣. ما ذكره الرازي في موضع بأنه -أي: القرآن- ذو حكمة بمعنى أنه ناطق بها كأنه حي يتكلم[(٣)].

٤. ما ذكره الرازي في موضع آخر بأنه بمعنى «الحاكم»[(٤)].

ومما سبق ذكره نجد ما يشبه اتفاق المفسرين على أن الحكيم هنا بمعنى المحكم[(٥)].

ثانيًا: في قول الله تعالى ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨].

والمراد ذلك الذي نقصّه عليك في شأن عيسى، من الدلائل الواضحة على صحة رسالتك، وصحة القرآن الحكيم الذي يفصل بين الحق والباطل، فلا شك فيه ولا امتراء.

وأكثر المفسرين قالوا بأن الذكر الحكيم هنا هو القرآن الكريم، حيث روي هذا عن ابن عباس رضي الله عنه والضحاك ومحمد بن جعفر بن الزبير، كما رواه عنهم الطبري[(٦)].

فابن عباس رضي الله عنهما فسره بأنه «الكامل في حكمته».

ومحمد بن جعفر فسره بقوله: «القاطع الفاصل الحقّ، الذي لم يخلطه الباطل من الخبر عن عيسى وعما اختلفوا فيه من أمره، فلا تقبلنّ خبرًا غيره»[(٧)].

ثالثًا: تسمية القرآن بالحكمة في قوله جل شأنه: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: ٥].

حيث فسرها غير واحد في هذا الموضع بالقرآن الكريم[(٨)].

وجاء في السنة النبوية أحاديث تصف القرآن الكريم بالحكمة، أو مفسرة لوصفه بذلك منها ما يأتي:

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٩٠.
(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٢٧٧.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٥١، مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٩٥.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣١٥.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٩٠، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٢٧٧، تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٤/ ٣٨، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٩/ ٦٠٠٠.
(٦) جامع البيان، الطبري ٦/ ٤٦٧.
(٧) المصدر السابق.
(٨) انظر: تفسير مقاتل ٤/ ١٧٧، جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٧٥٢، تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٤/ ٣١٦.

ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (القرآن حكمة، فمن تعلم القرآن في شبيبته خلط بلحمه ودمه، ألا وإن النار لا تمس قلبًا وعى القرآن، ولا جسدًا اجتنب محارمه وأحل حلاله وآمن بمحكمه ووقف عند متشابهه ولم يبتدع فيه)[١].

وخلاصة ما يمكن استنباطه من وصف القرآن الكريم بالحكمة فيما مر ذكره من مواضع ما يأتي:

١. أنه وصف بذلك لكونه مستقرا فيه الحكمة وهي حقائق المعارف وما يتفرع عليها من الشرائع والعبر والمواعظ.
٢. أن الحكمة من الصفات السامية التي يتحلى بها المؤمن، وأن الرجوع إلى كتاب الله تعالى في كل أمور الإنسان هو عين الحكمة ومنبع الصواب إذ فيه الحل لكل ما يشكل عبر العصور والأزمان.
٣. أن كل ما أتى به الحكماء ويأتون، وما نطق به البلغاء ينطقون، مرده إلى كتاب الله تعالى سواء أدركوا ذلك أم لم يدركوا، وحسبك من آيات الله تعالى آيات جمعت فأوعت، وبلاغة للفصحاء أعيت.

(١) أخرجه البيهقي في السنن الصغرى رقم ٩٨٩ كتاب فضائل القرآن، باب التّرغيب في تعلّم القرآن وتعليمه وتلاوته، وفي شعب الإيمان رقم٢٦٩٦ فصل في تنوير موضع القرآن.

وصف الرسل والصالحين بالحكمة

أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أنّ الحكمة نعمة يؤتيها من يشاء من عباده، نبيًّا كان أو غير نبي، مع ما أودعه في الرسل والأنبياء خاصة من صفات فطرية مادية ومعنوية فاقوا بها غيرهم، وذلك تأهيلًا لمهتمهم السامية، ورفعًا لمكانتهم، وقد تقدم الكلام على نعمة إيتاء الحكمة، وما ورد في تفسير الحكمة في الآية.

ومن خلال تتبع آيات القرآن الكريم يجد المرء وصفًا من الله تعالى لبعض أنبيائه ورسله بالحكمة، وكذا بعض الصالحين من عباده من غير الأنبياء، وهو ما أتناوله في هذا المبحث على النحو الآتي:

أولًا: الأنبياء والرسل عليهم السلام والحكمة:

أنعم الله سبحانه وتعالى على جميع أنبيائه ورسله بنعمة الحكمة بكل جوانبها في التعلم والتعليم والممارسة والتطبيق، في الأقوال والأفعال، وهذه سمة جميع الأنبياء والرسل حتى يستطيعوا أن يقوموا بمهمتهم التي أوكلها الله تعالى لهم على أكمل وجه، وحتى تثمر دعوتهم.

والقرآن الكريم يورد مواطن إيتاء الأنبياء الحكمة على وجوه شتى، بعضها منصوص عليه بلفظ الحكمة، وبعضها بلفظ الحكم أو الفهم، أورد منها هنا أقوال من فسّرها بالفهم والعلم ونحوه من معاني الحكمة.

١ . حكمة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام.

امتن الله تعالى على نبيه أبي الأنبياء الخليل إبراهيم عليه السلام بنعمة الحكمة، حيث دعا بذلك سيدنا إبراهيم، فقال كما جاء في القرآن ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣].

فقد فسرت الحكمة هنا بالعلم والفهم، كما هو مروي عن مقاتل وغيره، أو: البيان على الشيء على ما توجبه الحكمة[1]، وهناك من فسرها بالنبوة[2].

وفي موطن آخر تشير آية كريمة إلى النعم التي أنعم الله تعالى بها على آل إبراهيم عليه السلام ومنها الحكمة، وذلك قوله ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٥٤].

وقد فسر البعض الحكمة هنا بأنها المعرفة بالدين والفقه فيه[3].

وهذه الآية تشمل من آل إبراهيم سيدنا موسى وداود وسليمان عليهم وعلى نبينا

(١) انظر: تفسير مقاتل ٣/ ٢٦٩، الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ١٧٠.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٨١.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٨٧، زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٤٢١.

الصلاة والسلام[1].

ومن لطائف الآية كما ذكر بعض المفسرين: «أن هذا إلزام لليهود بما يعترفون به ولا ينكرونه وهو مسلّم عندهم، أي: ليس ما آتينا محمدًا وأصحابه من فضلنا بأبدع حتى تحسدهم اليهود على ذلك، فهم يعلمون بما آتينا آل إبراهيم وهم أسلاف محمد صلى الله عليه وسلم وأبناء أعمامه، وفيه حسم لمادة حسدهم واستبعادهم المبنيّين على توهم عدم استحقاق الحسود ما أوتيه من الفضل ببيان استحقاقه له بطريق الوراثة كابرًا عن كابر، وإجراء الكلام على سنن الكبرياء بطريق الالتفات لإظهار كمال العناية بالأمر»[2].

٢. حكمة كليم الله موسى عليه السلام.

أنعم الله على كليمه موسى عليه السلام بالنجاة من بطش فرعون وكيده، وعاش ما قدر الله تعالى له في مدين ثم عاد إلى مصر رسولًا إلى فرعون وملئه، فدار بينهما الحوار المذكور في سورة الشعراء، الذي ذكر فيه نبي الله موسى نعم الله تعالى عليها، ومن بينها الحكمة التي رزق إياها وهو في مقتبل عمره، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤].

قال محمد بن إسحاق: «آتاه الله حكمًا وعلمًا، أي: فقهًا في دينه ودين آبائه وعلمًا بما في دينه من شرائعه وحدوده»[3].

وفي قول الله تعالى ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:٢١].

نجد أن الله تعالى قد ذكر الحكمة مع الرسالة مما يدل على أنهما متغايران، وأن الحكمة هنا ليس مقصودًا بها الرسالة، بل المقصود بها العلم والفهم، كما ذكره مقاتل بن سليمان وتبعه بعض المفسرين[4].

٣. حكمة نبي الله داود عليه السلام.

نبي الله داود عليه السلام أحد أنبياء بني إسرائيل جمع الله تعالى له الملك والنبوة في بيته له ولابنه سليمان عليه السلام، وقد كان داود جنديًّا في جيش طالوت، فامتن الله تعالى بقتل جالوت ورزقه الله تعالى بعد ذلك الملك والحكمة، فسار بها في الناس معلمًا وحاكمًا ومرشدًا.

وجاء النص الصريح على نعمة إيتاء سيدنا داود الحكمة في موضعين، والحكم الذي فسر بمعنى الحكم في موضع ثالث

(١) انظر: السراج المنير، للشربيني ١/ ٣١٠، فتح البيان، القنوجي ٣/ ١٥٠.
(٢) فتح البيان، القنوجي ٣/ ١٤٩-١٥٠.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٥٢.
(٤) انظر: تفسير مقاتل ٣/ ٢٦٠، تفسير السمرقندي ٢/ ٥٥٢، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٣٣٧.

من كتاب الله تعالى:

أولًا: في قصة طالوت وجالوت في قول الله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٥١].

ثانيًا: في قول الله تعالى ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٧٩].

والقصة مبسوطة في حكمة سيدنا سليمان عليه السلام.

ثالثًا: قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص:٢٠].

والحكمة المذكورة في آية ص فسرها ابن عباس رضي الله عنهما والقاضي شريح بأنها الفهم[1].

وفسرها السدي ومجاهد بأنها النبوة، وفسرها أبو العالية بأنها العلم بكتاب الله، وفسرها قتادة بأنها السنة[2].

وأما فصل الخطاب ففسرت بتفسيرات عدة منها: أنها الشهود والبينات، وفسرت بعلم القضاء، وهذا ما روي عن القاضي شريح وعامر الشعبي وقتادة[3].

ومنها أنها قوله في الخطبة (أما بعد)، حيث روي أن أول من قالها سيدنا داود عليه السلام.

قال ابن الخطيب: «فصل الخطاب عبارة عن كونه قادرًا على التعبير على كل ما يخطر بالبال ويحضر في الخيال، بحيث لا يخلط شيئًا بشي وبحيث يفصل كلّ مقام عن ما يخالفه، هذا معنى عامّ يتناول فصل الخصومات ويتناول الدعوة إلى الدين الحق ويتناول جميع الأقسام»[4].

٤. حكمة نبي الله سليمان عليه السلام.

وصف القرآن نبي الله سليمان عليه السلام بما يدل على الحكمة معنويًا لا لفظيًا في هذه المواضع منها:

- واقعة الحكم في الغنم التي نفشت في الحرث:

قال تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٧٢، تفسير السمرقندي ٢/ ٦٠٥.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ١٦٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٧٣، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦/ ٣٩٣.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٧٣، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٣٢٥.

﴿فَهِمِينَ﴾ [الأنبياء:٧٨-٧٩].

وهذه الآية واقعة في سياق قصة الغنم التي نفشت في الحرث، وكان داود عليه السلام ملكًا نبيًّا يحكم بين الناس فوقعت هذه النازلة، وكان سليمان عليه السلام كبيرًا يجلس على الباب الذي يخرج منه الخصوم، وكانوا يدخلون إلى داود من باب آخر، فتخاصم إليه رجل له زرع، دخلت حرثه غنم رجل فأفسدت عليه، فرأى داود دفعها إلى صاحب الحرث، فخرجا على سليمان، فشكى صاحب الغنم فجاء سليمان فقال: يا نبي الله، إني أرى ما هو أرفق بالجميع، أن يأخذ صاحب الغنم الحرث يقوم عليه ويصلحه حتى يعود كما كان، ويأخذ صاحب الحرث الغنم في تلك المدة ينتفع بمرافقها من لبن وصوف ونسل، فإذا عاد الحرث إلى حاله، صرف كل مال صاحبه إليه، فرجعت الغنم إلى ربها والحرث إلى ربه، فقال داود: وفقت يا بني، وقضى بينهما بذلك[(١)].

والقصة تدل على أن الحكم كان بالاجتهاد لا بالوحي، وأنهما عليهما السلام حكما فيها معًا، كل منهما بحكم مخالف لحكم الآخر، ولو كان وحيًا لما وقع اختلاف في الحكم، وقد أصاب سيدنا سليمان عليه السلام في حكمه، واستحق الثناء على ذلك، وأثني على أبيه داود عليه السلام كذلك، وذلك قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

ويفيد قوله جل شأنه: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾ أنه فهمه إياها من نصوص ما كان عندهم من الشرع، لا أنه أنزل عليه فيها وحيًا جديدًا ناسخًا؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾ أليق بالأول من الثاني، كما ترى[(٢)].

وقدم سليمان في الذكر على داود لتوفر علمه، وتأخر ذكر داود لتشريفه بذكر كتابه، وإبرازه في جملة مستقلة له بالذكر ولكتابه، فما فاته من التقديم اللفظي حصل به التضعيف من التشريف المعنوي[(٣)].

وهذه الآية استفاد منها بعض المفسرين أنّ تخصيص سليمان عليه السلام بالتفهيم دليل على أنه لم يفهّم داود ذلك، ويدل على ذلك وجوه:

أولها: أن إشراكه عزّ وجلّ إياهما جميعًا في الحكم والعلم وغيره؛ حيث قال: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ﴾، وقال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، ذكر ما كانا مشتركين فيه، وخص سليمان بالتفهيم؛ فدل التخصيص بالشيء أحدهما والإشراك في الآخر على أنه كان مخصوصًا به دون الآخر.

والثاني: أن هذه الأنباء إنما ذكرت لنا

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٣٠٦.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ١٧٠.

(٣) البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٤١٣.

لنستفيد بها علمًا لم يكن، فلو لم يكن سليمان مخصوصًا بالفهم دون داود، لكان لا يفيدنا سوى الحكم والعلم، وكنا نعلم أنهما قد أوتيا حكمًا وعلمًا، وكانا يحكمان بالعلم، فإذا كان كذلك، فدل التخصيص بالتفهيم لأحدهما على أن الآخر لم يكن مفهما ذلك، والله أعلم.

والثالث: فيه دلالة: أن المجتهد إذا حكم وأصاب الحكم أنه إنما أصاب بتفهيم الله إياه وبتوفيقه؛ حيث أخبر أنه قد آتاهما جميعًا العلم، ثم خص سليمان بالتفهيم، والتفهيم هو فعل الله؛ حيث أضاف ذلك إلى نفسه[(١)].

❁ واقعة التثبت في قبول الأخبار:

وذلك في قوله تعالى ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل:٢٧].

والآية فيها دليل على أن الإمام يجب عليه قبول عذر رعيته، ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم؛ لأن سليمان عليه السلام لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه، وإنما صار صدق الهدهد عذرًا؛ لأنه أخبر بما يقتضي الجهاد، وكان سليمان عليه السلام حبب إليه الجهاد، وقد قبل عمر رضي الله عنه عذر النعمان بن عدي ولم يعاقبه، ولكن للإمام أن يمتحن ذلك إذا تعلق به حكم من أحكام الشريعة[(٢)].

واقعة إرسال الكتاب إلى ملكة سبأ، وذلك في قول الله تعالى: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾[نمل:٢٨].

ففي الآية أمر للهدهد بالتولي حسن أدب ليتنحى حسب ما يتأدب به مع الملوك، بمعنى: وكن قريبًا حتى ترى مراجعتهم. وقال ابن زيد: أمره بالتولي بمعنى الرجوع إليه؛ أي: ألقه وارجع. ﴿فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل:٢٨][(٣)].

❁ واقعة الإتيان بعرش ملكة سبأ وتغيير معالمه، واستعراض عظمة الملك أمامها لاختبارها:

وذلك في قول الله تعالى:﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٤١].

وقوله بعد ذلك بآياتين: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل:٤٤].

وهذا دليل على إرادة نبي الله سليمان عليه السلام إبراز نعمة الله تعالى عليه، وإتيانه من القدرة والملك ما يأتي به بعرشها

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٧/ ٣٦٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٢٦.
(٣) المصدر السابق ١٣/ ١٢٧.

في لمح البصر، ثم تنكيره لها بهذه الصورة لينظر هل تقبل دعوة الهدى أم تعاند؟، ولقد كانت الأولى حيث هداها الله تعالى للإيمان.

٥. حكمة نبي الله يوسف عليه السلام.

ذكر الله تعالى نعمته على نبيه يوسف عليه السلام وهي إيتاء العلم والحكمة وهو في مقتبل عمره، فقال جل شأنه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٢٢].

فقد فسر الحكم هنا بالحكمة، قال الزجاج: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي جعلناه حكيمًا عالمًا، وليس كل عالم حكيمًا، الحكيم العالم المستعمل علمه، الممتنع من استعمال ما يجهل فيه»[1].

وفسر مجاهد وغيره حكمة سيدنا يوسف عليه السلام بأنها العلم والفهم أو العقل والعلم، وذلك قبل أن ينعم الله تعالى عليه بالنبوة[2].

وفسرها عبد الرحمن بن زيد بأنها تأويل الكلام، العلم والحلم، على ما هو معروف من السورة من أن يوسف عليه السلام كان أعبر الناس[3].

(١) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٩٩.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٣، الكشف والبيان، الثعلبي ٥/ ٢٠٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري١٣/ ١٦، تفسير

ويمكن إبراز بعض جوانب حكمة سيدنا يوسف عليه السلام في العناصر الآتية:

- حكمته عليه السلام في امتناعه عن المعصية وعدم استجابته لامرأة العزيز، خوفًا من الله تعالى، وحفظًا لنعمة التربية التي رباها إياه عزيز مصر.

قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف: ٢٣].

وهذا من تمام عصمته، وكمال حكمته عليه السلام، فقد ترك المعصية خوفًا من الله تعالى، ثم صيانة للمعروف الذي أسداه إليه العزيز.

- حكمته عليه السلام في اختيار بلية السجن على بلية الاستجابة لكيد النساء، لما في الاستجابة لهن من الوقوع في الفحشاء ومعصية الله تعالى.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: ٣٣].

وهذا من صعب الابتلاء الذي وقع فيه سيدنا يوسف عليه السلام، كما يفيده كلام الماوردي: «الاختبار مقرون بالاختيار، ولو تمنّي العافية بدل ما كان يدعى إليه لعلّه كان يعافى، ولكنه لما قال: ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا

ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٠٣.

﴿يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ طولب بصدق ما قال، ويقال: إن يوسف عليه السلام نطق من عين التوحيد حيث قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ مِنكُمَا﴾ فقد علم أن نجاته في أن يصرف سبحانه البلاء عنه لا بتكلّفه ولا بتجنبه»[(1)].

❁ **حكمته عليه السلام في دعوة رفقائه في السجن إلى الله تعالى برفق ولين، واختيار الوقت المناسب لدعوتهم حين عرضوا عليه الرؤيا، وذلك في الآيات** (٣٧-٤٠).

ومن ذلك ما جاء في قول الله تعالى ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٠﴾ [يوسف: ٣٩-٤٠].

وهنا مواعظ وعبر في دعوة سيدنا يوسف عليه السلام استفاد منها الدعاة من بعده، فالداعية الحكيم هو من ينتهز الفرصة السانحة لنشر دعوته، ويتفهم حال المدعوين ومدى تأهلهم لاستقبال دعوته، ويحتج عليهم بالبراهين الساطعة، وهذا باب واسع معروف في منهج الدعوة إلى الله تعالى.

❁ **حكمته عليه السلام في عدم استعجال الخروج من السجن حين جاءه رسول الملك حتى يستبين وجه الحق وتظهر براءته.**

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝٥٠﴾ [يوسف: ٥٠].

ولقد كان عدم استعجال سيدنا يوسف عليه السلام من العجائب، ولكنه عاد عليه بالخير العاجل، وهذا عكس ما حصل في طلب الإمارة، فإن كثيرًا من المفسرين ذكر أنه لما لم يتعجل في الخروج من السجن، آتاه العفو سريعًا، ولما طلب الإمارة -مع كونه أهلًا لها، فإنها تأخرت فترة، وكله بقدر الله تعالى الذي يدبر كل أمر، وقيل: إن سبب التأخير أنه لم يقل: إن شاء الله[(2)].

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(رحم اللّه أخي يوسف، لو لبثتُ في السّجن، ثمّ جاءني الدّاعي لأسرعت)**[(3)].

قال ابن عادل الدمشقي نقلًا عن ابن الخطيب: «وهذا من العجائب؛ لأنه لما تأبى

---

(١) لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ١٨٣.

(٢) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٥/ ٢٣٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢١١.

(٣) أخرجه أحمد في الزهد رقم ٤١٩، ص٦٨. قال السيوطي في الفتح الكبير ٢/ ١٢٥: إنه من مراسيل الحسن. وحَسَّنَ العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٤٢٧ بعض طرقه، ونقل عن المناوي تحسين بعض طرقه كذلك.

عن الخروج من السّجن، سهّل الله عليه ذلك على أحسن الوجوه، ولما سارع في ذكر هذا الالتماس، أخّر الله ذلك المطلوب عنه، وهذا يدلّ على أنّ ترك التّصرف والتفويض إلى الله تعالى أولى»[1].

❁ حكمته عليه السلام في تأويل رؤيا الملك، وتدبير أمور مصر في سني المجاعة على غرار تأويله.

قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: ٤٦-٤٩].

❁ حكمته عليه السلام في طلب الإمارة حيث لم يكن بمصر حينئذ من هو أهل لها.

قال تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف: ٥٥].

وفي هذا دليل على جواز أن يخطب الإنسان عملًا يكون له أهلًا وهو بحقوقه وشروطه قائم[2].

ولا يخالف هذا ما ورد في حديث عبد الرحمن بن سمرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: (يا عبد الرّحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة، فإنّك إن أوتيتها عن مسألةٍ وكلت إليها، وإن أوتيتها من غير مسألةٍ أعنت عليها، وإذا حلفت على يمينٍ، فرأيت غيرها خيرًا منها، فكفّر عن يمينك وأت الّذي هو خيرٌ)[3].

لأن سؤال سيدنا يوسف للإمارة أجاب عنه العلماء بأجوبة ذكرها الإمام القرطبي:

منها: أن يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم، فرأى أن ذلك فرض متعين عليه فإنه لم يكن هناك غيره.

ومنها: أنه لم يقل: إني حسيب كريم، ولا قال: إني جميل مليح، إنما قال ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ فسألها بالحفظ والعلم، لا بالنسب والجمال على الرغم من توفر الحسب والنسب والجمال فيه.

ومنها: أنه إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه، وصار ذلك مستثنى من قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١١/ ١٣٦.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٥٠.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب منه، رقم ٦٦٢٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب: ندب من حلف يمينًا فرأى غيرها خيرًا منها، أن يأتي الّذي هو خيرٌ، ويكفّر عن يمينه، رقم ١٦٥٢.

﴿أَتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢].

ومنها: أنه رأى ذلك فرضًا متعينًا عليه، لأنه لم يكن هنالك غيره[1].

والولاية لا تذم إذا كان المتولي لها يقوم بما يقدر عليه من إقامة الشرع، وإيصال الحقوق إلى أهلها، وأنه لا بأس بطلبها إذا كان أهلًا، وأعظم كفاءة من غيره، وإنما المذموم إذا لم يكن فيه كفاءة، أو كان موجودًا من هو أمثل منه أو مثله، أو لم يرد بها إقامة أمر الله، بل أراد الترؤس والمأكلة المالية[2].

ومن لطائف الآية ما يأتي:

أ. ما ذكره ابن عطية أن يوسف عليه السلام -بحكمته- قد فهم من الملك أنه عزم على تصريفه والاستعانة بنظره في الملك، فألقى يده في الفصل الذي تمكنه فيه المعدلة ويترتب له الإحسان إلى من يجب ووضع الحق على أهله وعند أهله[3].

ب. ما ذكره البيضاوي أن فيها دليل على جواز طلب التولية وإظهار أنه مستعد لها والتولي من يد الكافر إذا علم أنه لا سبيل إلى إقامة الحق وسياسة الخلق إلا بالاستظهار به[4].

ج. أن وصف سيدنا يوسف نفسه بأنه (حفيظ عليم) فيه معان عدة ذكرها المفسرون؛ منها: أنه حفيظ بتقدير أمور الخزائن أو البلاد، عليمٌ بساعة الجوع حين يقع، ومنها: أنه يقصد حفيظ لما وليتني عليم بجميع ألسن الغرباء الّذين يأتونك، ومنها: أن المعنى حافظ لما استودعتني، عالم بما وليتني، ومنها أنه حافظ للأنساب عالم بالألسن، أي: اللغات[5].

د. أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه من الصفات الكاملة، من العلم وغيره، إذا كان في ذلك مصلحة وسلم من الكذب، ولم يقصد به الرياء، لقول يوسف عليه السلام هذا[6].

❁ **حكمته عليه السلام في حواره مع إخوته وهو يذكرهم بما فعلوه معه تلميحًا لا تصريحًا.**

قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف:

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢١٦-٢١٧.
(٢) تيسير اللطيف المنان، السعدي ص ٢٨٢.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٥٥.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٦٨
(٥) انظر: تفسير مقاتل ٢/ ٣٤٠، جامع البيان، الطبري١٦/ ١٤٩.
(٦) تيسير اللطيف المنان، السعدي ص ٢٨٢.

٨٩ - ٩٠].

✿ حكمته عليه السلام في تدبير حيلة استبقاء أخيه معه، وهي الواردة في قصة الصاع وإخفائه في الطعام، وما تلى ذلك من أحداث، وذلك في الآيات (من ٧٠-٨٠).

٦. حكمة نبي الله لوط عليه السلام.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤].

حيث فسر البعض الحكم هنا بالحكمة والعلم بالله تعالى[١].

٧. حكمة نبي الله عيسى عليه السلام.

وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران:٤٨].

وقوله جل شأنه: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة:١١٠].

والحكمة هنا فسرت بأنها «تعليم العلوم وتهذيب الأخلاق؛ لأن كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به، ومجموعهما هو المسمى بالحكمة»[٢].

(١) التفسير المظهري، محمد ثناء الله ٦/ ٢١٠.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٢٦.

٨. حكمة نبي الله يحيى عليه السلام.

وذلك في قول الله تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢].

فقد فسر مقاتل ومعمر بن راشد وأبو العالية وغيرهم الحكمة هنا بأنها العلم والفهم، حيث أعطي الفهم لكتاب الله في حال صباه قبل بلوغه أسنان الرجال، حتى روي أنه أوتي الحكمة وهو ابن ثلاث سنين، وكان لا يلعب مع الصبيان، ويقول: ما للعب خلقنا[٣].

٩. حكمة عشرة من الأنبياء ورد ذكرهم إجمالًا.

وهذا ما جاء في آية (وتلك حجتنا) وما تلاها في سورة الأنعام حيث ذكر الله تعالى عشرة من الأنبياء هم: نوح وإسحاق ويعقوب وأيوب وهارون وزكريا وإلياس وإسماعيل واليسع ويونس.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ

(٣) انظر: تفسير مقاتل ٢/ ٦٢٢، جامع البيان، الطبري ١٨/ ١٥٥، تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ١٤٠٠.

وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنعام: ٨٣- ٨٩].

حيث ذكر من تفسيرات الحكم هنا أنها «العلم والفقه والفهم»[١].

١٠ . حكمة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا جاء منصوصًا عليه في دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام، واستجابة الله تعالى لهذه الدعوة وامتنانه على الناس بإرسال خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

فكانت الاستجابة من الله تعالى لدعوة خليله إبراهيم عليه السلام بأن أرسل نبيه محمد صلى الله عليه وسلم خاتمًا للإنبياء والمرسلين، وآتاه ما لم يؤت أحد من الأنبياء قبله، وبين فضل نبوته على الناس، فقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

وفي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤][٢].

قال ابن وهب: قلت لمالك: ما الحكمة؟ قال: المعرفة بالدين، والفقه في الدين، والاتباع له[٣].

وقال ابن زيد: الحكمة: الدين الذي لا يعرفونه إلا به صلى الله عليه وسلم، يعلمهم إياها، والحكمة: العقل في الدين، والحكمة: شيء يجعله الله في القلب، ينور له به[٤].

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٤/ ١٥٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٣٩٩.

(٢) انظر: معجم الأعلام والموضوعات في القرآن، عبدالصبور مرزوق ٢/ ٥٥٣-٥٥٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٨٧.

(٤) انظر: المصدر السابق.

ثانيًا: الصالحون والحكمة:

أنعم الله تعالى على بعض عباده الصالحين بالحكمة، ويعد لقمان عليه السلام أشهر حكيم عبر تاريخ البشرية، حيث نص القرآن الكريم صراحة على إتيان الله تعالى الحكمة له كنعمة من النعم التي يؤتيها الله تعالى من يشاء من عباده، فقال جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان:١٢].

والحكمة الواردة في الآية جاء في تفسيرها عن مجاهد وقتادة وغيرهما أنها «الفقه والعقل والإصابة في القول في غير نبوّة»[(١)].

ولا مجال للحديث هنا عن صفة لقمان عليه السلام ونسبه والزمن الذي عاش فيه، فالذي يعنينا هنا حكمته التي صرح بها القرآن الكريم والتي تعددت جوانبها على حد قول بعض المفسرين: «وحكمة لقمان مأثورة في أقواله الناطقة عن حقائق الأحوال والمقربة للخفيات بأحسن الأمثال، وقد عني بها أهل التربية وأهل الخير، وذكر القرآن منها ما في هذه السورة، وذكر منها مالك في «الموطأ» بلاغين في كتاب «الجامع» وذكر حكمة له في كتاب «جامع العتبية» وذكر منها أحمد بن حنبل في «مسنده» ولا نعرف كتابًا جمع حكمة لقمان»[(٢)].

وقد وردت آثار كثيرة عن حكمة لقمان وصفتها وكيف استعملها، وطائفة منها أقوالًا وأفعالًا، ما لا يتسع المقام هنا لذكره تفصيلًا، ويكفي إيراد بعضه.

فعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه ذكر لقمان الحكيم فقال: «ما أوتي ما أوتي عن أهل، ولا مال، ولا حسب ولا خصال، ولكنه كان رجلًا صمصامة[(٣)] سكيتًا، طويل التفكير عميق النظر، لم ينم نهارًا قط ولم يره أحد يبزق ولا يتنحنح ولا يبول ولا يتغوط ولا يغتسل ولا يعبث ولا يضحك، كان لا يعيد منطقًا نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه وكان قد تزوج وولد له أولاد فماتوا فلم يبك عليهم، وكان يغشى السلطان ويأتي الحكماء لينظر ويتفكر ويعتبر، فبذلك أوتي ما أوتي»[(٤)].

وهل حكمة لقمان فطرية أم مكتسبة؟

الذي نص عليه القرآن الكريم أن حكمة لقمان عليه السلام هي نعمة أنعم الله تعالى عليه بها، ولكن هذا لا يمنع أن من تمام نعمة الله تعالى عليه أن يوفقه لاكتساب شيء من

(١) انظر: المصدر السابق ٢٠/ ١٣٤.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ١٥٠.

(٣) الصمصامة: اسم للسيف القاطع، وللرجل القوي.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٩٨ رقم١٧٥٣٧، الدر المنثور، السيوطي ٦/ ٥١٢-٥١٣.

الحكمة من خلال التجارب والأحوال، والتمسك بالطاعات والبعد عن المعاصي، ويكون هذا من إيتاء الحكمة بإيتاء أسباب نيلها.

يؤيد هذا ما روي أن لقمان عليه السلام قيل له: «بم نلت هذه الحكم، وقد كنت راعيًا؟ فقال: بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك ما لا يعنيني»[1].

وروي أيضًا عنه قوله: «إنّي تعلّمت الحكمة من الحمقى، والأدب ممّن ليس له أدبٌ فإنّي كلّما رأيت منهم فعلًا مخالفًا لطبعي وقبيحًا في منظري تعوّدت المخالفة»[2].

وحكي عنه أنّه قال: إنّي تعلّمت الحكمة من العميان، فإنّهم لا يضعون أقدامهم قبل الفحص، فإنّ وجدوا فيه تمكينًا يضعون ويمشون، وإلّا فيتركون ويطلبون جهةً أخرى فيها تمكينٌ؛ فلذا لا أفعل شيئًا بلا تأمّل ما فيه، وفي عاقبته[3].

ثالثًا: معالم الحكمة عند الأنبياء والصالحين:

من خلال ما تقدم ذكره في المبحث السابق يمكن هنا إجمال معالم الحكمة عند الأنبياء الصالحين على النحو الآتي:

١ . من معالم الحكمة عند الأنبياء:

١ . مخاطبة الأنبياء أممهم على قدر عقولهم، ومراعاة مقتضى أحوالهم على اختلاف أقدارهم وأعمارهم.

٢ . الترفق واللين في مخاطبة الولاة المعاندين ومحاورتهم، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، ومن أمثلة ذلك حوار سيدنا إبراهيم عليه السلام مع النمروذ، وحوار موسى عليه السلام مع فرعون في سورة الشعراء وغيرها من السور.

٣ . اللين في مخاطبة الأهل والأقارب كالوالدين والأبناء، والحرص على استجابتهم للدعوة إنقاذًا لهم من النار، ومن أمثلة ذلك حوار سيدنا نوح مع ابنه في سورة هود وحوار سيدنا إبراهيم عليه السلام مع أبيه في سورة مريم.

٤ . استعمال الحجج القوية، والبراهين الظاهرة في دعوة الأنبياء لقومهم، لإقامة الحجة عليهم وإقناعهم باتباع الأنبياء، وذلك واضح في حوارات جميع الأنبياء والتي ورد طرف منها في

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد ص ٤٩، والطبري في تفسيره ٢١/ ٦٧، وابن أبي شيبة في مصنفه رقم ٣٤٢٥٧/ ٧٤، باب كلام لقمان عليه السلام.

(٢) انظر: بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية، الخادمي ٢/ ٢٩٤.

(٣) انظر: المصدر السابق ٣/ ٦٥.

سور الأعراف وهود والشعراء.

٥. تباين أساليب الأنبياء والمرسلين في دعوة أتباعهم، واختيار كل نبي ما يناسب قومه من الطرق، وإن كان الجميع يتفقون على جعل الحكمة أساسًا واضحًا، من أسس الدعوة، وطريقًا من طرقها.

٢. معالم الحكمة عند الصالحين:

١. استعمال الحكماء الصالحين الحكمة فيما وضعت له من إرشاد الناس وتعليمهم بالقول والفعل، وذلك من باب شكر المنعم جل وعلا.

٢. سير الحكماء الصالحين في الناس بالحسنى، بحيث لا يرتكبوا قبيحًا من الأفعال، ولا يصدر عنهم خبيثًا من الأقوال تؤثر عنهم.

٣. حرص الحكماء من الدعاة المخلصين على مخاطبة الناس على قدر عقولهم، ومراعاة أحوالهم، وضبط ذلك الخطاب بضابط الحكمة، ويفعله بما يناسب ظروف وأحوال المخاطبين، وسير السلف الصالح في هذا الشأن كثيرة ناصعة البياض .

مجالات الحكمة

الحكمة مطلوبة في كل شيء قولًا وعملًا، وأي مجال تدخله الحكمة يكون صالحًا، ويكتب له النجاح والفلاح، وهذه أبرز مجالات الحاجة إلى الحكمة:

أولًا: الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى:

الدعوة إلى الله تعالى من المهام السامية، حيث إنها في المقام الأول وظيفة الإنبياء والرسل، ثم وظيفة فئة من أتباعهم وهم العلماء والمصلحون، وإمامهم في هذا سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم الذي نزل عليه قول الله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [النحل:١٢٥].

وقد فسرت الحكمة هنا بأنها كتاب الله تعالى، والموعظة الحسنة، هي العبر التي هي حجة عليهم مما ذكرهم به من الآيات في كتابه، وفسرت الحكمة أيضًا بأنها النبوة، والموعظة بأنها القرآن[١].

وفسر الرازي (الحكمة) بالمقالة المحكمة الصحيحة، وهي الدليل الموضح

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٢٢٣، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٦/ ٤١١٥.

للحق المزيل للشبهة و«الموعظة الحسنة»، وهي التي لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها وتقصد ما ينفعهم فيها[(١)].

ويمكن القول بأن الحكمة في الدعوة تكون بوضع الدعوة في موضعها، ومخاطبة كل واحد بما يناسب حاله ويليق به، إذ إن هذا أقرب لحصول المقصود منه، ولا شك أن الحكمة في الدعوة لها أهمية كبيرة، وذلك لأن «الحكمة إذا اقترنت بالدعوة فإنها تقوي الأمل واليقين، وترتفع بالمدعوين إلى مستوى الشعور بالمسئولية والتكليف، وإذا ما تأكد فيها هذا الشعور فسوف تتغير طباعهم وتعتدل مسالكهم ويصح توجيههم، فحق على الداعي إلى الله أن يعمل على إيقاظ هذا الشعور بالتي هي أحسن»[(٢)].

أساليب الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى:

من أبرز مقومات الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى ما يلي:

١. معرفة طبائع الناس، وطبقات المدعوين.

وذلك لأن الناس ليسوا جميعًا على شاكلة واحدة، بل هم مختلفون في الميول والأهواء، والعقل والذكاء، والشدة واللين، وبناء عليه فإنه من مقومات الحكمة أن يعي الداعية ذلك جيدًا حتى تثمر دعوته وتؤتي أكلها[(٣)].

ويؤيد ذلك قول ابن مسعود رضي الله عنه «ما أنت بمحدّثٍ قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم، إلّا كان لبعضهم فتنةً»[(٤)].

وقول علي رضي الله عنه «حدّثوا النّاس، بما يعرفون أتحبّون أن يكذّب اللّه ورسوله»[(٥)].

ودلالتهما واضحة على ضرورة مراعاة حال المدعو، حتى لا تؤدي الدعوة إلى فتنة أو نسبة الكذب لله تعالى أو لرسوله صلى الله عليه وسلم.

٢. النظر في الظروف الزمانية والمكانية.

من حكمة الداعية تخير الأوقات وانتهاز المناسبات، بحيث تقع دعوته في الموقع الصحيح، وهذا معلم كبير ومؤثر من معالم الحكمة وتلمسها، فلا يلقي المرء موعظته إلا في مكان مناسب، وفي وقت يحسن الإلقاء فيه، أما إذا كان المكان والزمان غير مناسبين، أو كان الناس عنه منصرفين، وعن

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٦٤٤.
(٢) انظر: مفهوم الحكمة في الدعوة إلى الله، صالح الحميد ص٤.
(٣) انظر: المصدر السابق ص٢٧.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، في المقدمة ١/ ١١.
(٥) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب العلم، باب من خصّ بالعلم قومًا دون قومٍ، كراهية أن لا يفهموا.

حديثه غير راغبين فلا يتلكم[1].

ويؤيد هذا حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال:(كان النّبيّ صلى الله عليه وسلم (يتخوّلنا بالموعظة في الأيّام، كراهة السّآمة علينا)[2].

وفي رواية للبخاري: عن أبي وائلٍ، قال: كان عبد اللّه يذكّر النّاس في كلّ خميسٍ، فقال له رجلٌ: يا أبا عبد الرّحمن لوددت أنّك ذكّرتنا كلّ يومٍ؟ قال: أما إنّه يمنعني من ذلك أنّي أكره أنّ أملّكم، وإنّي أتخوّلكم بالموعظة، كما كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يتخوّلنا بها، مخافة السّآمة علينا»[3].

٣. التلطف في الدعوة بالقول الحسن والأسلوب اللين.

القول الحسن إذا أحكم صاحب الدعوة قوله وسدد لفظه، وألان جانبه للناس فقد أوتي من الحكمة بابًا عظيمًا، يقول الله عز وجل: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

ويقول طلحة بن عمر: قلت لعطاء: إنك رجل يجتمع عندك ناس ذوو أهواء مختلفة وأنا رجل في حدة، فأقول لهم بعض القول الغليظ؟ فقال: لا تفعل. يقول الله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

يقول عطاء: فدخل في هذه الآية اليهود والنصارى فكيف بالحنيفي[4].

وإذا كان المدعو ذا قرابة أو ولاية أو سلطة أو سطوة على الداعية، فينبغي أن يترفق الداعية به، والأمثلة في هذا القرآن منها دعوة سيدنا إبراهيم لأبيه والتي وردت مبسوطة في قول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم: ٤١-٤٥].

والآيات واضحة الدلالة على مدى حكمة سيدنا إبراهيم عليه السلام واستعماله التلطف والتودد مع أبيه في الحوار على الرغم من عناد الأب وكفره، ومع ذلك فقد حفظ خليل الرحمن لأبيه مودة الأبوة ومكانتها، ولم يأل جهدًا في دعوته، بل والاستغفار له.

(١) انظر: مفهوم الحكمة في الدعوة إلى الله، الحميد ص٣١، أدب الموعظة، محمد بن إبراهيم الحمد ص٣٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب ما كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يتخوّلهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا رقم٦٨، ومسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب الاقتصاد في الموعظة رقم٢٨٢١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب: من جعل لأهل العلم أيامًا معلومة، رقم٧٠.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي٢/ ١٦.

ومنها دعوة موسى وهارون عليه السلام لعدو الله فرعون، حيث أمرهما القول بالقول اللين في قول الله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٤].

والقصد من القول اللين ومعناه أمور عدة، منها: أن لا يبقى له حجة، ولا يقبل له معذرة، ومنها: أن ذلك لرعاية حقّ تربية فرعون لموسى فالوالد أولى بالرّفق[(١)].

ومن أحكام الآية الكريمة -كما ذكره الإمام القرطبي- أنها «دليل على جواز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن ذلك يكون باللين من القول لمن معه القوة، وضمنت له العصمة، ألا تراه قال: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه:٤٤].

وقال: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

فكيف بنا فنحن أولى بذلك. وحينئذ يحصل الآمر أو الناهي على مرغوبه، ويظفر بمطلوبه، وهذا واضح»[(٢)].

ثانيًا: الحكمة في التعليم:

التعليم من المواطن التي تتطلب قدرًا كبيرًا من الحكمة، وذلك لأنه مهمة تنتقل بالمرء من مرحلة الجهل إلى مرحلة العلم، وكلا المرحلتين يختلف عن الآخر، فيتطلب لكل حالة حكمتها، والتعليم لا يستغني عنه المجتمع بكل فئاته، ولهذا يستلزم الأمر أن يكون المعلّم على قدر كبير من الحكمة التي تعينه على اداء مهمته.

ولو رجعنا إلى كتاب الله تعالى لوجدنا أمثلة كثيرة تبرهن على الحكمة في التعليم والتعلم، ومن ذلك قصة موسى والخضر.

وهذه القصة تفيض عبرًا وعظات فيما يتعلق بشأن التعليم وغيره.

والقصة اشتملت كما هو معروف على الآيات (٦٠-٨٢) من سورة الكهف.

ومن ملامح الحكمة في القصة ما يأتي:

- أنّ الخضر كان يبني أحكامه على الحقائق والأسرار، حيث ذكر مبررات فعله بعد فراغه منها جميعًا[(٣)].
- أنه استعمل الحكمة في كل أموره، حيث «أسند الإرادة في قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ إلى نفسه لأنه المباشر للتعييب، وثانيًا في قوله: ﴿فَأَرَدْنَا﴾ إلى الله وإلى نفسه، لأنّ التبديل بإهلاك الغلام وإيجاد الله تعالى بدله، وثالثًا في قوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ إلى الله وحده لأنه لا مدخل له في بلوغ الغلامين، أو لأن الأول في نفسه شرّ والثالث خير والثاني ممتزج، أو لأنه لما ذكر العيب أضافه إلى إرادة نفسه، ولما ذكر القتل

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٢٣٤، نظم الدرر، البقاعي ١٢/ ٢٩٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٩٩.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٢٠٢.

عبر عن نفسه بلفظ الجمع تنبيهًا على أنه من العظماء في علوم الحكمة، فلم يقدم على هذا القتل إلا لحكمة عالية، ولما ذكر رعاية مصالح اليتيمين لأجل صلاح أبيهما أضافه إلى الله تعالى لأنّ التكفل بصلاح الأبناء لرعاية حق الآباء ليس إلا لله تعالى»[(١)].

- أنّ الحكيم المحقق هو الذي يبني أمره على الحقائق لا على الظاهر، فإذا رأيت ما يكرهه طبعك وينفر عنه عقلك فاعلم أن تحته أسرارًا خفية وحكمًا بالغة، وأن حكمته ورحمته اقتضت ذلك[(٢)].

ومن ملامح الحكمة في التعليم كذلك ما يأتي:

- أن لا يشق المعلم أو الفقيه على الناس في الأحكام ويخفف على نفسه، فقد قال رويم: «من حكم الحكيم أن يوسع على إخوانه في الأحكام ويضيق على نفسه فيها؛ فإن التوسعة عليهم اتباع العلم والتضييق على نفسه من حكم الورع»[(٣)].

- مخاطبة الناس على قدر عقولهم، «فالواجب على الحكيم والعالم النحرير أن يقتدي بالنبي صلى الله عليه وسلم فيما قال وما فعل، فقد كان عليه الصلاة والسلام يخاطب الناس على قدر عقولهم، ومواقفه في ذلك لا تحصى.

ويؤيد ذلك ما تقدم ذكره من قول ابن مسعود رضي الله عنه: «ما أنت بمحدّثٍ قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم، إلّا كان لبعضهم فتنةً»[(٤)].

وقيل لبعض الحكماء: «ما بالك لا تطلع أحدًا على حكمة يطلبها منك، فقال: اقتداءً بالباري جلّ وعلا حيث قال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]»[(٥)].

ثالثًا: الحكمة في التعامل مع الخلق:

يتطلب التعامل مع الناس قدرًا من الحكمة تناسب كل إنسان، وتناسب كل موقف من المواقف، ومن أبرز ملامح الحكمة في التعامل مع الناس حسن الخلق معهم.

وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣].

وفي معنى الحسن هنا أقوال طيبة للمفسرين، منها: قول الحسن أن المراد به: لين القول، من الأدب الحسن الجميل والخلق الكريم، وهو مما ارتضاه الله وأحبه،

---

(١) السراج المنير، الشربيني ٢/ ٣٩٩.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٢٠٢.
(٣) الرسالة القشيرية، ١/ ٨٥.
(٤) سبق تخريجه قريبًا.
(٥) انظر: الذريعة إلى مكارم الشريعة، الأصفهاني ص١٨٠.

ومنها: قول أبي العالية: إنه المعروف، ومنها: قول الماوردي: إن المعنى: خالقوا الناس بخلق حسن[1].

ولا مانع من إرادة كل تلك المعاني، وذلك لأن الحسن يشملها جميعًا، والناس يرضيها حسن التعامل، ويتأتى بمعاملة الناس ما لا يتأتى غيرها.

وفي حديث أبي ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اتّق اللّه حيثما كنت، وأتبع السّيّئة الحسنة تمحها، وخالق النّاس بخلقٍ حسنٍ)[2].

قال الأحوذي في معنى (وخالق النّاس بخلقٍ حسنٍ): «أي: تكلف معاشرتهم بالمجاملة في المعاملة، وغيرها من نحو طلاقة وجه، وخفض جانب، وتلطف وإيناس، وبذل ندى، وتحمل أذى، فإن فاعل ذلك يرجى له في الدنيا الفلاح، وفي الآخرة الفوز بالنجاة والنجاح»[3].

آثار الحكمة

الحكمة سمة من سمات الأنبياء والصالحين والعلماء العاملين، وهي نعمة من الله تعالى يؤتيها من يشاء، وتحقق للمرء فوائد وتعود عليه بآثار طيبة أبرزها ما يأتي:

١. تحصيل الخير الكثير.

أخبر الله تعالى في كتابه العزيز أن من رزق الحكمة فقد رزق خيرًا كثيرًا، فقال جل شأنه: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

والخير الكثير مفسر لدى العلماء تبعًا لتفسيرهم للحكمة، فمن رأى أنها القرآن فسّر الخير الكثير بما يترتب على حفظ القرآن وفهمه من علوم ومعارف، وكذا من فسرها بالنبوة أو فسرها بالسنة على نحو ما تقدم ذكره في معاني الحكمة، ومهما أوتي المرء من الحكمة ومن العلوم والمعارف فهو وإن كان كثيرًا في مقاييس البشر لكنه قليل إذا نظرنا إلى علم الله تعالى.

وقد روي في هذا الشأن عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «قالت اليهود: يا محمد تزعم أنا قد أوتينا الحكمة، وفي كتابك: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

ثمّ يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٢٩٦، النكت والعيون، الماوردي ١/ ١٥٤.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، حديث أبي ذر الغفاري، ٣٥/ ٢٨٤، رقم ٢١٣٥٤، والترمذي في كتاب البر، باب معاشرة الناس، رقم ١٩٨٧.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٦/ ١٠٤.

﴿قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

فكيف يكون هذا؟ فأنزل الله تعالى ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩] حِكَمَه وعجائبه»[١].

وإذا جرينا على تفسير الحكمة بأنها القرآن على نحو ما تقدم في معانيها، فيكون «من أوتي القرآن أوتي خيرًا كثيرًا، أوتي صحة في جسم وطهارة في نفس، وكمالًا في عقل، وسعة في مال، وعزة في تواضع، وشدة في رحمة، ورسوخًا في علم، وصدقًا في قول»[٢].

ومن الخير المتحصل من الحكمة أنها سبب من أسباب السعادة، فالسعادة تكمن في المقام الأول في قوى النفس، أي: في اتصافها بالفضائل والمكرمات.

يقول ابن مسكويه فيما يحكيه عن حكماء الإغريق واليونان: «لما قسّموا السعادة جعلوها كلها في قوى النفس التي ذكرناها في أول الكتاب، (وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة)، وأجمعوا على أن هذه الفضائل هي كافية في السعادة ولا يحتاج معها إلى غيرها من فضائل البدن ولا ما هو خارج البدن، فإن الإنسان إذا حصل تلك الفضائل لم يضره في سعادته أن يكون سقيما ناقص الأعضاء مبتلي بجميع أمراض البدن، اللهم إلا أن يلحق النفس منها مضرة في خاص أفعالها مثل فساد العقل ورداءة الذهن وما أشبهها. وأما الفقر والخمول وسقوط الحال وسائر الأشياء الخارجة عنها فليست عندهم بقادحة في السعادة ألبتة»[٣].

٢. إصابة الحق.

من آثار الحكمة توفيق الله تعالى صاحبها إلى إصابة الحق في أقواله وأفعاله، وذلك لأن حكمته ترشده إلى حسن الفعال، وصحيح الأقوال، ولهذا كان ما يصدر عن الحكماء من أفعال وأقوال تراثًا تتناقله الأجيال، وعبرا تتردد عبر الأزمنة.

ويستفاد أثر الحكمة في إصابة الحق قولا وعملا من قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

فإنه تعالى «لما ذكر أحوال المنفقين للأموال فيما سبق من الآيات، وأن الله

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٢٨، الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ٢٠٢، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٢٢.

(٢) الأدب النبوي، محمد عبد العزيز الشاذلي ص١٩١.

(٣) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ابن مسكويه ص٩٢، وهذا هو المنهج الذي أخذ به حجة الإسلام الغزالي في حديثه عن أمهات الفضائل حيث جعلها أربعة الحكمة والشجاعة والعدل والعفة.
انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ٣/ ٥٥، ٤/ ٤٢٥، إلا أنه في الموضع الثاني نسبها للإمام الشافعي رحمه الله.

أعطاهم، ومن عليهم بالأموال التي يدركون بها النفقات في الطرق الخيرية، وينالون بها المقامات السنية، ذكر ما هو أفضل من ذلك، وهو أنه يعطي الحكمة من يشاء من عباده، ومن أراد بهم خيرًا من خلقه، والحكمة هي العلوم النافعة، والمعارف الصائبة، والعقول المسددة، والألباب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال، وهذا أفضل العطايا، وأجل الهبات»[(١)].

وقال أحد المعاصرين مبينًا ثمرة الحكمة في إصابة الحق في القول والعمل: «الحكمة كما قال الجمهور: العلم والفقه والقرآن، فهي لا تختص بالنبوة، بل هي أعم منها، وأعلاها النبوة، والرسالة أخص، وذلك يرشد إلى تمييز الحقائق من الأوهام، والتفرقة بين الوسواس والإلهام، وآلة الحكمة: العقل، فمن عرف ما في القرآن من أحكام وأسرار، وأدرك بسلامة عقله ما في الإنفاق من فوائد تعود على الأمة بالخير وعلى المنفق بالثواب الجزيل، لم يتأثر بوساوس الشيطان، ولم يتردد في البذل والإنفاق في سبيل الله»[(٢)].

ومن فوائد الحكمة كذلك أنّها تدلّ على المعرفة بالله عزّ وجلّ مع نفاذ البصيرة وتهذيب النّفس وتحقيق الحقّ للعمل بمقتضاه والبعد عمّا سواه[(٣)].

٣. صيانة العقل من الشطط والسفه.

الحكمة سمة عالية، وهدية غالية تصان بها العقول، وتحفظ بها النفوس من السفه والشطط، والطيش والهوى -أعني عقول ونفوس المتصفين بها- ولهذا اشتملت الحكمة كما ذكره بعض العلماء على: الذكاء والذكر والتعقل وسرعة الفهم وقوته وصفاء الذهن وسهولة التعلم، وبهذه الأشياء يكون حسن الاستعداد للحكمة[(٤)].

والناظر في آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن العقل يجد أنها تعلي من شأن العقل كثيرًا، وتبين مكانته، وتحث على التفكير في كل شيء التفكير في خلق الله تعالى، والتفكير في عواقب الأمور قبل الإقدام على شيء منها.

والحكيم يستعمل حكمته في كل شيء، فيصون عقله من سوء التفكير، وعليه يصون نفسه من سوء الصنيع، فلا تعتري تصرفاته سفاهة ولا يطرأ عليها شطط أو خلل.

٤. الذكر الحسن.

من آثار الحكمة حسن الذكر بين الناس في حياة الإنسان وبعد مماته، ولذلك فإن صاحب الحكمة يلبس صاحبها تاج الكرامة

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٥٧.
(٢) التفسير المنير، وهبة الزحيلي ٣/ ٦٤.
(٣) انظر: موسوعة نضرة النعيم، ٥/ ١٧٠٥.
(٤) انظر: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ابن مسكويه ص ٢٧.

في الدّنيا والآخرة، وينفع الله تعالى بها طلّاب العلم ومريدي الخير.

وليس أدل على ذلك من سيدنا لقمان عليه السلام الذي ذكره الله تعالى في كتاب الله العزيز في آيات تتلى ويتعبد بها، في سورة تحمل اسمه ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان: ١٢].

فحكمته عليه السلام جعلت منه رجلًا ذا منزلة كبيرة بين الناس حيث بلغ الفضل عليهم بالوعظ والتعليم والهدي والإرشاد، كما أشار إليه الرازي في تفسيره: آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكرًا في نفسه وحين جعلناه واعظًا لغيره، وهذا لأن علو مرتبة الإنسان بأن يكون كاملًا في نفسه ومكملًا لغيره.

فقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾ وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ [لقمان: ١٣].

إشارة إلى التكميل، وفي هذا لطيفة وهي أن الله ذكر لقمان وشكر سعيه حيث أرشد ابنه ليعلم منه فضيلة النبي عليه السلام الذي أرشد الأجانب والأقارب، فإن إرشاد الولد أمر معتاد، وأما تحمل المشقة في تعليم الأباعد فلا، ثم إنه في الوعظ بدأ بالأهم، وهو المنع من الإشراك[1].

ومن آثارها في الشأن كذلك أن صاحبها يكون كالغيث حيثما حلّ نفع، وأينما وضع أفاد، فيتعلّم منه الكبير والصّغير، ويكون مصدر خير بإذن الله[2].

والحكمة ترفع الإنسان درجات وتشرّفه، وتزيد من مكانته بين النّاس، فقد روي عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**إنّ الحكمة تزيد الشّريف شرفًا، وترفع العبد المملوك حتّى تجلسه مجالس الملوك**)[3].

وقد روي عن عبيد اللّه بن عمر بن عبد الوهّاب بن محمّدٍ المكّيّ قال: «قال لقمان لابنه: يا بنيّ، جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك؛ فإنّ اللّه تبارك وتعالى ليحيي القلوب بنور الحكمة، كما يحيي الأرض الميتة بوابل السّماء»[4].

فكون الإنسان ممدوح الخلال، مأثور المحامد، يعتمد على مدى استقامته على

(١) مفاتيح الغيب، ٢٥/ ١١٩.

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم، الحكمة ٥/ ١٧٠٥.

(٣) أخرجه الماوردي في أدب الدنيا والدين ص٤١، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ١٧٣، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١/ ٨٤ رقم٧١.
وقد ضعفه العراقي في المغني عن حمل الأسفار ١/ ٢٣، وحكى أنه من قول أنس والحسن وليس مرفوعًا.

(٤) أخرجه أحمد في الزهد، رقم٥٥٢، ص٨٩، وابن المبارك في الزهد والرقائق رقم١٣٨٧، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله/ رقم ٦٧٤.

دين الله تعالى ظاهرًا وباطنًا، وقيامه بالواجبات الدينية والدنيوية، والتحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل، وهذا من الحكمة التي لا ينبغي أن يغفل عنها المرء، قال ابن القيم: «فإن أدب المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره، فما استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب»[(١)].

٥. التوفيق في الإصلاح بين الناس.

من آثار الحكمة توفيق الله تعالى صاحبها في الإصلاح بين الناس، ولهذا نجد القرآن الكريم يشير في قضية الصلح بين الزوجين إلى ضرورة توفر النية الحسنة في الصلح سواء كانت النية من طرفي النزاع أو من الحكم القاشم بالصلح.

قال تعالى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء: ٣٥].

وأكثر المفسرين على أن المقصود بقوله تعالى ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا﴾ يعني: الحكمين، حيث روي ذلك عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم[(٢)]، ولا يتحقق الصلح على إيديهما إلا إذا اتصفا بالحكمة، وذلك لأنهما يتدخلان بين شخصين بينهما من الخصوصية والخفاء والستر ما ليس بين غيرهما، لما للحياة الزوجية من خصوصيتها المعروفة.

وحكمتهما تظهر في تقديري في الأمور التالية:

- إخلاص النية في الصلح، بحيث يحققه الله تعالى على أيديهما، وعدم التأثر بالهوى أو الميل لطرف على حساب الطرف الآخر.
- رأب الصدع والشقاق بين الزوجين على وجه السرعة وعدم التراخي فيه، لأن التراخي يزيد الأمر تعقيدًا.
- الحرص على كتمان ما يبوح به الزوجان من أسرار وخفايا في العلاقات الزوجية، وذلك لأن حفظ السر أمانة، والأمانة من الإيمان.

٦. الثواب العظيم في الآخرة.

والحكمة تدعو صاحبها للعمل على وفق الشّرع، فيصيب في القول والفعل والتّفكير، ويسير على هدى وبصيرة، فالحكمة تدفع المرء إلى التحلي بالفضائل واجتناب الرذائل، وتدعوه إلى القول العدل، والحكم بالعدل، وهذا كله من طرق نيل الثواب في الآخرة.

ويمكن استنباط نيل صاحب الحكمة

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٣٦٨.
(٢) انظر: تفسير مقاتل ١/ ٣٧١، تفسير عبدالرزاق الصنعاني ١/ ٤٥٥، جامع البيان، الطبري ٨/ ٣٣٢.

الثواب في الآخرة من عموم قول الله تعالى ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢٦٩].

قال السعدي في تفسير الآية الكريمة: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾: «لأنه خرج من ظلمة الجهالات إلى نور الهدى، ومن حمق الانحراف في الأقوال والأفعال، إلى إصابة الصواب فيها، وحصول السداد، ولأنه كمل نفسه بهذا الخير العظيم، واستعد لنفع الخلق أعظم نفع، في دينهم ودنياهم، وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة، التي هي وضع الأشياء مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل الإقدام والإحجام في موضع الإحجام»[(١)].

قال أبو القاسم الجنيد بن محمد، وقد سئل: بم تأمر الحكمة؟ قال: (تأمر الحكمة بكلّ ما يحمد في الباقي أثره، ويطيب عند جملة النّاس خبره، ويؤمن في العواقب ضرره)[(٢)].

٧. تأليف القلوب.

من الآثار الطيبة للحكمة أنها تورث صاحبها ألفة بين الناس وقبولًا، فصاحب الحكمة محبوب من الناس، مقبول قوله، محمود فعله، يقبل عليه الناس لينهلون من حكمته أو يسترشدوا برأيه.

وقد أشار القرآن الكريم إلى نعمة الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين جميعًا، أو على الأوس والخزرج خاصة، حيث جمعهم وألف بين قلوبهم، وأزال ما كان بينهم من ضغينة الجاهلية وعدائها، وذلك بتوفيق الله عز وجل، ثم بحكمة النبي محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

فقال جل شأنه ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣].

ويستنبط من الآيتين الكريميتين أن الحكمة سبب من أسباب تأليف القلوب واجتماعها حيث ختمت الآية بوصف الله تعالى بالحكمة، وحكمة الرسول صلى الله عليه وسلم من نعم الله تعالى التي أنعم بها عليه.

ومن لطائف الآية ما يشير إليه النيسابوري من كون الائتلاف والمحبة سببه حسن الدعوة وحسن الأسلوب، حيث يقول ما ملخصه: «المحبة لا تحصل إلا عند تصور

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٥٧.
(٢) موسوعة الأخلاق، موقع الدرر السنية.

حصول خير من المحبوب. ثم إن كان سبب انعقاد المحبة أمرًا سريع التغير كالمال أو الجاه أو اللذة الجسمانية كانت تلك المحبة بصدد الزوال والاضمحلال، وإن كان سبب انعقاد المودة كمالًا حقيقيًا روحانيًا دائمًا، لم يتصور لها تغير وزوال.

ثم إن العرب كانوا قبل مقدم النبي صلى الله عليه وسلم مقبلين على المفاخرة والتسابق في المال والجاه والتعصب والتفرق، فلا جرم كانوا متحابين تارة ومتباغضين أخرى، فلما جاءهم النبي صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى عبادة الله تعالى والإعراض عن الدنيا والإقبال على تحصيل السعادة الأبدية الروحانية توحد مطلبهم صاروا إخوانًا متراحمين متحابين في الله ولله»[(١)].

ومن علامات ائتلاف القلوب على الحكيم: أن تجده محبوبًا بين الناس مقبولًا، وقد ذهب بعض العلماء إلى وجوب هذا الحب، فقد أشار ابن مسكويه إلى ضرورة حب الحكماء وإكرامهم لما لهم من أثر طيب في تربية النفوس وتهذيب الطباع[(٢)].

٨. الغبطة لصاحب الحكمة.

من ثمرة إيتاء الحكمة أن تجد صاحبها مغبوطًا من الناس، نظرًا لما تحصل عليه من هذه النعمة القيمة التي يزن بها أموره وتصرفاته، ففي الصحيحين عن عبد اللّه بن مسعودٍ قال: قال النّبيّ صلى الله عليه وسلم: **(لا حسد إلّا في اثنتين: رجلٌ آتاه اللّه مالًا فسلّط على هلكته في الحقّ، ورجلٌ آتاه اللّه الحكمة فهو يقضي بها ويعلّمها)**[(٣)].

وتسمية ذلك في الحديث (حسدًا) ليس على سبيل الذم، لأن الحسد نوعان: محمود ومذموم، فالمحمود هو أن تتمنى أن يكون لك ما لأخيك المسلم من الخير والنعمة ولا يزول عنه خيره، وقد يجوز أن يسمى هذا منافسة، ويؤيده قول الله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦][(٤)].

والمذموم هو أن تتمنى زوال نعمة الله عن أخيك المسلم، وسواء تمنيت مع ذلك أن تعود إليك أو لا، وهذا النوع الذي ذمه الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝٥٤﴾ [النساء: ٥٤].

وإنما كان مذمومًا؛ لأن فيه تسفيه الحق

(١) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٣/ ٤١٤.
(٢) انظر: تهذيب الأخلاق، ابن مسكويه ص١٦١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة، رقم٧٣، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، رقم٨١٦.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٧١.



سبحانه، وأنه أنعم على من لا يستحق [1].

وفي معناها يقول قتادة: حسدوا هذا الحيّ من العرب على ما آتاهم الله من فضله، بعث الله منهم نبيًّا، فحسدوهم على ذلك[2].

موضوعات ذات صلة

الباطل، الحق، الدعوة، اللهو

(١) المصدر السابق ٢/ ٧١.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٤٧٨.



عناصر الموضوع

مفهوم الحمد

أولًا: المعنى اللغوي:

يقول ابن فارس: «الحاء والميم والدال، كلمة واحدة وأصل واحد، يدل على خلاف الذم، يقال: حمدت فلانًا أحمده، ورجل محمود ومحمد: إذا كثرت خصاله المحمودة غير المذمومة»[١].

ويقال: حمدت الرجل أحمده حمدًا: إذا رأيت منه فعلًا محمودًا، وأحمدت الأرض أحمدها إحمادًا: إذا رضيت سكناها أو مرعاها[٢].

ومن أسماء الله سبحانه وتعالى (الحميد)، أي: المحمود على كل حال، فعيل بمعنى مفعول[٣]، ولهذا سمي نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم[٤].

ويقول العرب: حماداك أن تفعل كذا، أي: غايتك وفعلك المحمود منك غير المذموم، ويقال: أحمدت فلانًا: إذا وجدته محمودًا. قال الفرزدق:

فلم تجرِ إلا جئت في الخير سابقًا ... ولا عدت إلا أنت في العود أحمد[٥]

ويستخلص مما سبق أن الحمد: الوصف بالكمال في الخصال الحسنة بحسب الموصوف، مع سلامتها من عارض الذم والعيب والنقص.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

ذكر الجرجاني عدة تعريفات لـ (الحمد) باعتبارات مختلفة، وهي:

الحمد: هو الثناء على الجميل من جهة التعظيم من نعمة وغيرها.

الحمد القولي: هو حمد اللسان وثناؤه على الحق بما أثنى به على نفسه على لسان أنبيائه.

الحمد الفعلي: هو الإتيان بالأعمال البدنية ابتغاء لوجه الله تعالى.

الحمد الحالي: هو الذي يكون بحسب الروح والقلب، كالاتصاف بالكمالات العلمية والعملية، والتخلق بالأخلاق الإلهية.

---

(١) مقاييس اللغة ٢/ ١٠٠.
(٢) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ٥٠٥.
(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١/ ٤٣٦.
(٤) انظر: الصحاح، الجوهري ٢/ ٤٦٧.
(٥) لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٥٨.



الحمد اللغوي: هو الوصف بالجميل على جهة التعظيم والتبجيل باللسان وحده.

الحمد العرفي: فعل يشعر بتعظيم المنعم بسبب كونه منعمًا، أعم من أن يكون فعل اللسان أو الأركان[1].

ويجمع بين هذه التعريفات ما عرفه به ابن القيم بقوله: «إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه»[2].

فالمعنى الاصطلاحي لا يخرج عن معناه اللغوي؛ إذ كلاهما يدلان على إخبار عن محاسن المحمود.

(١) التعريفات ص٩٣.
(٢) بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ٩٣.

الحمد في الاستعمال القرآني

وردت مادة (حمد) في القرآن الكريم (٦٨) مرة[١].

والصيغ التي جاءت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ [آل عمران:١٨٨]
المصدر	٤٣	﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢]
اسم الفاعل	١	﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ﴾ [التوبة:١١٢]
اسم المفعول	٥	﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء:٧٩]
الصفة المشبهة	١٧	﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٢٦٧﴾ [البقرة:٢٦٧]
أفعل التفضيل	١	﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]

وجاء الحمد في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو: الثناء بالفضيلة[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الحاء، ص٤٥٣-٤٥٤.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٠٠، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٤٩٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الشكر:

الشكر لغة:

هو عرفان الإحسان ونشره[١]. وقال الرازي: الشكر الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف[٢].

الشكر اصطلاحًا:

هو عرفان الإحسان، والاعتراف بالنعمة، وأداء ما يترتب عليه، والقيام بحق مسديها[٣].

قال ابن قيم الجوزية: «الشكر: ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافًا وعلى قلبه شهودًا ومحبة وعلى جوارحه انقيادًا وطاعة»[٤].

الصلة بين الحمد والشكر:

أولًا: مما تقدم يتبين أن الحمد لا يكون إلا باللسان، وأما الشكر فإنه يكون باللسان وغيره، ودليله قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

فالحمد من جهة ما يكون به أخص من الشكر.

ثانيًا: سبق البيان أن الحمد يكون على جميع أسماء الله وصفاته وأفعاله، وأما الشكر فإنه لا يكون إلا على النعم[٥].

فالحمد من جهة ما يكون عليه أعم من الشكر، فهما بينهما عموم وخصوص، كما قرره المحققون من أهل العلم[٦].

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٠/ ١٠.
(٢) مختار الصحاح ص ٣٤٤.
(٣) انظر: العين، الفراهيدي ٥/ ٢٩٢، جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٧٣٢، الصحاح، الجوهري ٢/ ٧٠٢، المخصص، ابن سيده ٣/ ٤٢٤.
(٤) مدارج السالكين ٢/ ٢٤٤.
(٥) انظر: غريب القرآن، ابن قتيبة ص٢٠.
(٦) انظر: تفسير القرآن، أبو المظفر السمعاني ١/ ٣٥، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، الثعلبي ١/ ١٠٨، الكشاف، الزمخشري ١/ ٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٢٨.

٢ المدح:

المدح لغة:

هو وصف المحاسن بكلام جميل، يقابله الهجاء[١].

المدح اصطلاحًا:

هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري قصدًا[٢].

الصلة بين الحمد والمدح:

المدح يستعمل فيما يكون من الإنسان باختياره، ومما يصدر منه أو يجبل عليه ويكون فيه بالتسخير، فقد يمدح الإنسان على جمال هيئته، كما يمدح بحسن خلقه وسخائه وعلمه، والحمد يكون في الثاني ولا يكون في الأول[٣]، وهذا باعتبار المخلوق بينما هو باعتبار الخالق فهو يكون في الصفات الذاتية والفعلية، وذلك أن صفات الله الذاتية والفعلية متعدية بالإنعام على من عبده.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٠٨، العين، الفراهيدي ٣/ ١٨٨.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص١١٦.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٥٦.



حمد الله تعالى لنفسه

لقد حمد الله سبحانه وتعالى نفسه في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، على أمور متنوعة، منها:

أولًا: حمد الله لنفسه على ربوبيته العامة والخاصة:

أول ما حمد الله نفسه عليه في مفتتح كتابه العزيز: ربوبيته العامة.

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

ثم نثر ذلك على بعض مظاهرها في ثنايا كتابه في سور متعددة، والأمر الذي قام الدليل على إثباته في فضل سور القرآن، هو أن أعظم سورة فيه هي الفاتحة، حيث جاء الحديث عن أبي سعيد بن المعلّى، قال: (كنت أصلّي في المسجد، فدعاني رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فلم أجبه، فقلت: يا رسول اللّه، إنّي كنت أصلّي، فقال: (ألم يقل اللّه: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤])، ثمّ قال لي: (لأعلّمنّك سورةً هي أعظم السّور في القرآن، قبل أن تخرج من المسجد). ثمّ أخذ بيدي، فلمّا أراد أن يخرج، قلت له: ألم تقل: لأعلّمنّك سورةً هي أعظم سورةٍ في القرآن، قال: (﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] هي السّبع المثاني، والقرآن العظيم الّذي أوتيته)[1].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال، وتضمنتها أكمل تضمن، فاشتملت على التعريف بالمعبود تبارك وتعالى بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارها عليها، وهي: الله، والرب، والرحمن.

وبنيت السورة على الإلهية والربوبيّة والرحمة»[2].

وهي أيضًا بمثابة الديباجة للقرآن، حيث حوت على وجازتها وجزالتها، عامة ما جاء في القرآن من معاني في آيات سبع، فكانت كل آية منها جامعة لما في بابها من المعاني، وأول هذه الآيات هي قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢][3].

لذلك يمكن القول بأنها أجمع آية للمحامد كلها، فالله سبحانه وتعالى قد أثبت فيها الحمد لنفسه حالة كونه موصوفًا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في فاتحة الكتاب، ٦/ ١٧، رقم ٤٤٧٤.

(٢) التفسير القيم، ابن القيم ص١١.

(٣) وردت هذه الجملة في مواضع أخر من كتاب الله تعالى؛ فوردت في سور: الأنعام: ٤٥، يونس: ١٠، الصافات: ١٨٢، الزمر: ٧٥، غافر: ٦٥، وقد جاءت في معرض التعقيب على مظهر من مظاهر الربوبية كما سيأتي بيانه لاحقًا.

بربوبيته لكل مربوب، وهم العالمون وكل ما سوى الله عالم، والرب يطلق في اللغة على المالك، والسيد، والمدبّر، والمربّي، والقيم، والمنعم؛ والمتمم، ولا يطلق مفردًا إلا على الله عز و جل، وإذا أطلق على غيره أضيف، فقيل: رب كذا. ورب كل شيء: مالكه ومستحقه[(١)].

فهو باعتبار اجتماع هذه المعاني كلها فيه، وبالنظر إلى آثارها في مخلوفاته يسلّم المتأمل، ويقر المتفكر بأنه حاز أعظم وأجل مراتب الحمد سبحانه وتعالى.

وتوحيد الربوبية عرّفه أهل العلم بأنه: «إفراد الله بأفعاله؛ من خلق، ورزق، وإحياء، وإماتة، وإعطاء، ومنع، وضر، ونفع...، إلخ»[(٢)]، والأفعال بآثارها لا تنفك عن انصباغها بصفات فاعلها، والحاصل بعد ذلك أن الحمد على الربوبية، هو حمد عليها مطابقة، وعلى صفات صاحبها تضمنًا والتزامًا، وبهذا كانت هذه الآية هي أجمع آية لإثبات الحمد لله سبحانه وتعالى، خاصة أنها مبتدأ الكلام وافتتاحه، ولم تأت تعقيبًا على فعل بذاته، أو وصف بعينه، أو أمر مخصوص، فكان المراد منها الإطلاق على جميع الأفعال، وكامل الأوصاف، مما يوجب لله حق الألوهية، فبحمد الله جل جلاله في هذه الآية ثبتت حقوق الله جميعًا، ألا وهي: توحيده ربًا، أي: في أفعاله، وتوحيده في أسمائه وصفاته، وتوحيده في ألوهيته.

الحمد على بعض مظاهر الربوبية العامة:

لاشك أن الله سبحانه وتعالى يحمد على كل فعل منه، وجميع أفعاله وصفاته فيها تربية لخلقه، إلا أن هناك آيات ذكر الله تعالى فيها بعض معالم ربوبيته، المستوجبة لحمده بما ذكر فيها أفعال كانت آثارها مستوعبة لجميع مخلوقاته، أو لجميع المكلفين على وجه التحديد، فمنها خلقه للسماوات والأرض، وجعله الظلمات والنور، وإنزال المطر، وإحياء الأرض به، وانفراده بالملك لخلقه، وأنه هو الذي بدأ الخلق ونوع وأبدع، وفرق وجمع، وجعل ملائكة رسلًا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع، ويرحم خلقه فينزل عليهم ما يخرج به قوتهم، بعد حصول قنوطهم، وهو رب السماوات ومن فيها، ورب الأرض ومن عليها، ورب العالمين أجمعين، وقد جاءت هذه المظاهر على وجه التخصيص في الآيات الواردة في كتاب الله عز و جل، كما

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٨/ ٢٥٦، الزاهر، أبو بكر الأنباري ١/ ٤٦٧، الصحاح، الجوهري ١/ ١٣٠، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٨٢، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٤٠٠، تاج العروس، الزبيدي ٢/ ٤٥٩.

(٢) المفيد في مهمات التوحيد، عبدالقادر بن محمد عطا صوفي ص٦٣.

سيبين في هذا المطلب إن شاء الله تعالى.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١].

يحمد الله نفسه في هذه الآية على أنه خلق السموات والأرض، خصهما بالذكر؛ لأنهما أعظم مخلوقاته فيما يراه العباد وفيهما العبر والمنافع للعباد، وجعل الظلمات والنور، والجعل بمعنى الخلق، وقال الواقدي: «كل ما في القرآن من الظلمات والنور فهو الكفر والإيمان، إلا في هذه الآية فإنه يريد بهما الليل والنهار»، وقال غيره: «ويدخل في ذلك الإيمان والكفر، وظلمة القلب والوجه ونور القلب والوجه»[(١)].

وفي الآية الآتية إلزام لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية على وجوب التسليم بتوحيد الألوهية، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

فأنت لو سألتهم من خلق السماوات والأرض، ومن نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، ومن بيده تدبير جميع الأشياء؟ ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ وحده، ولاعترفوا بعجز غيره عن القيام بشيء من ذلك، فقل: الحمد لله، الذي خلق العالم العلوي والسفلي، وقام بتدبيرهم ورزقهم، وبسط الرزق على من يشاء، وضيقه على من يشاء؛ حكمة منه، ولعلمه بما يصلح عباده وما ينبغي لهم[(٢)].

ذكر الله سبحانه وتعالى عموم ملكه، وأن جميع ما في السماوات والأرض -وهذا شامل لجميع العالم العلوي والسفلي- أنه ملكه، يتصرف فيهم بأحكام الملك الكونية والشرعية والجزائية، وهو واسع الغنى، وأن أعمال الناس الصالحة لا تنفع الله شيئًا فهو غني عنهم، وعن أعمالهم، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٥- ٢٦].

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن سعة حمده، وأن حمده من لوازم ذاته، فلا يكون إلا حميدًا من جميع الوجوه، فهو حميد في ذاته، وهو حميد في صفاته، فكل صفة من صفاته، يستحق عليها أكمل حمد وأتمه، لكونها صفات عظمة وكمال، وجميع ما فعله وخلقه يحمد عليه، وجميع ما أمر به ونهى عنه يحمد عليه، وجميع ما حكم به في

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٠٨.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٣٥.

العباد وبين العباد، في الدنيا والآخرة، يحمد عليه[1].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

أثنى جل جلاله على نفسه بهذا الحمد العظيم، مقترنًا بكون مبدأ الخلق منه جل جلاله، وأنه جعل الملائكة رسلًا على هيئات متعددة، وذلك يدل على أن خلقه للسماوات والأرض، وما ذكر معه يدل على استحقاقه للحمد لذاته لعظمته وجلاله وكمال قدرته، لما في خلق السماوات والأرض من النعم على بني آدم، فهو بخلقهما مستحق للحمد لذاته، ولإنعامه على الخلق بهما، وكون خلقهما جامعًا بين استحقاق الحمدين المذكورين[2].

يخبر الله سبحانه وتعالى أنه ينزل المطر على عباده بعد انتظاره مدة طويلة أورثتهم يأسًا من نزول المطر، حتى استحق التعبير عنه بالغيث بإزالته علامات اليأس والبؤس والشقاء عن وجوههم، لينشر بذلك المطر رحمته بما نتج عنه من الخيرات والبركات والأرزاق التي انتظروها بفارغ الصبر، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨].

فهو سبحانه وتعالى الذي يتولى عباده بالإحسان والفضل والإنعام؛ وهذا لأن الله حميد في أفعاله وتصرفاته[3]، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: ٣٦].

يخص الله سبحانه وتعالى نفسه بالحمد على أياديه على خلقه، فإياه فاحمدوا، وله فاعبدوا، فكل ما بكم من نعمة فهو مصدرها، وليس لأحد سواه في أدنى أثر أو فضل، فهو مالك السموات السبع، ومالك الأرضين السبع، ومالك جميع ما فيهنّ[4].

الحمد على ربوبيته الخاصة وبعض مظاهرها:

إن الله سبحانه وتعالى الذي ربى جميع مخلوقاته بربوبيته العامة؛ لتستقيم الحياة الكونية على هذا النحو البديع، وكذلك كان شأنه مع الحياة الشرعية التي جعل لها ما تستقيم به، من إنزال الكتب المنظمة لحياتهم على وجه محكم، لا عوج فيها ولا ظلم؛ بحيث تنظم علاقاتهم مع كل من يتصلون به، وأرسل إليهم الرسل؛ ليقتدوا بهم، وليهتدوا بهديهم، ورعى من استجاب له رعاية خاصة يصلحون بها بحسب

(١) انظر: المصدر السابق ص٦٥٠.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٢٧٦.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، الطنطاوي ١٣/ ٣٦.
(٤) انظر: تفسير المراغي، ٢٥/ ١٦٧.

منازلهم، وأكرم أهل طاعته، وأهلك من عصاه، في الدنيا والآخرة، وقد جاءت هذه المظاهر مقرونة بالحمد في القرآن الكريم، بعد تتبع البحث لها على النحو الآتي:

١ . حمد الله لنفسه على إنزال الكتب.

يحمد الله سبحانه وتعالى نفسه في آيات عدة من كتابه على نعمة هي من أجل النعم على عباده، بأن أنزل لهم الكتب التي تتحقق لهم بها المنافع في الدنيا والآخرة، وذلك أنّ ما وهبهم إياه بمقتضى ربوبيته العامة لا يكون نعمة إلا إذا عمل فيه بمقتضى ربوبيته الخاصة، فجاءت هذه الكتب متضمنة لإصلاح الحياة، من غير اعوجاج، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ [الكهف: ١] وعلى طريق واضح بيّن قويم، ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

ولا يعلم حقيقة هذه الهداية إلا من أقبلوا على هذه الكتب وقرءوها، وتدبروا معانيها، وطبقوها واقعًا عمليًّا في حياتهم، فعاشوا بها الحياة الهانئة، ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

بخلاف الذين أعرضوا عنها فإنهم لم يرفعوا بعلومهم الدنيوية رأسًا، وإن دالت لهم الدولة ساعة من الزمن، فهم على الباطل، والباطل لا يثبت بل هو مدموغ، وعاقبته إلى زوال، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

وأما هذه الكتب فما فيها من الباطل شيء، بل كل ما فيها حق وصدق وعدل ورحمة وحكمة من حكمة الحميد في أقواله وأفعاله وتشريعاته[1].

٢ . حمد الله لنفسه على إرسال الرسل.

يختم الله سبحانه وتعالى سورة الصافات بتسبيح نفسه وحمدها، بقوله عز وجل: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

وهي من السور التي تخصصت في بيان أحوال الرسل مع أممهم ما بين الإجمال والتفصيل القليل، وبيان ما أعقبهم الله على قيامهم بحقه وحق رسالته من توفيقهم، وإهلاك أعدائهم، وتمكينهم في الأرض، وحسن الثناء في الآخرين، وجزائه لهم بما جعله للمحسنين، وقد جعل السلام على المرسلين في خاتمة السورة واقعًا بين تسبيحه وحمده؛ إشارة إلى أن من

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ١٠٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٢٠، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥٩٥، أيسر التفاسير، الجزائري ٣/ ٢٣٦.

مقتضيات تنزهه عن النقص وحمده بصفات الكمال؛ إرسال الرسل هداية للناس، وإقامة للحجة[(١)]، وقد حبا الله سبحانه وتعالى الرسل بصفات الكمال البشري الحميدة، الأمر الذي يؤهلهم لأن يكونوا قدوة للعالمين، وهو لم يرسلهم لحاجة به للخلق، بل هو غني عنهم، ولكنه غني حميد، فمع غناه عنهم لم يحرمهم من إرسال الرسل الذين يهدونهم إلى الحق، وهم على أحسن خلق، ولهم أحسن سيرة، وقد حمد نفسه على ذلك بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: ٦][(٢)].

٣. حمد الله لنفسه على فضله في إهلاك الكافرين.

يبين الله سبحانه وتعالى أنه أرسل رسلًا للأمم السابقة، فكذبوهم؛ فابتلاهم الله بالشدة والفقر والأمراض والعلل؛ لعلهم يلجئون إلى الله بالدعاء، ويؤمنون برسل الله ويصدقونهم، فما فعلوا!. ثم نهج معهم نهجًا آخر بأن بدّلهم مكان الفقر والشدة السعة في الرزق، ومكان المرض والأسقام الصحة والعافية؛ لعلهم يشكرون الله على نعمه، فما فعلوا!. فأمهلهم الله تبارك وتعالى مدة ثم قطع دابرهم وأهلكهم، يقول جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٥].

وفي النصر والتأييد من الله لرسله بأن يقطع حجة الكافرين ويهلكهم من الربوبية الخاصة لأنبيائه وأوليائه ما حمد الله نفسه عليه، وهو للحمد أهل[(٣)].

ثانيًا: حمد الله لنفسه لإثبات الكمال له وحده:

١. حمد الله لذاته على كمال حياته، وتفرده بالألوهية.

الحياة الكاملة هي الحياة التي لا يعتريها نقص بنوم، أو مرض، أو موت، أو سآمة، أو أي عارض من عوارض النقص في حياة المخلوقين، وقد انفرد الله عز و جل به عن

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٢/ ١٥٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١٩٨، التفسير المنير، الزحيلي ٢٣/ ١٥٨.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٩/ ٥٠٥، محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٢٠٦، التفسير الواضح، الحجازي ٣/ ٦٥٩.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٦٤، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٢٤، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ١٣٤، محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٣٦١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٥٦.

سائر الموجودات، يقول جل جلاله: ﴿هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥].

يثبت الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الحياة الكاملة الدائمة لنفسه، وأن كل من عداه لهم أعمار محدودة، وأزمان معدودة، وآجال مكتوبة، تنتهي بها حياتهم، وأنه هو المتفرد بالألوهية حقًّا، وأن نسبتها لغيره زعم باطل، وذلك بما له من الحمد على كماله الذي لم يبلغه سواه، لا في ذاته ولا في صفاته[(١)].

٢. حمد الله لذاته بتنزهه عن المثيل والشريك.

يضرب الله سبحانه وتعالى الآية التالية مثلًا لنفسه ولمن عبد من دونه برجلين: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥].

أحدهما حر مالك لأمر نفسه ولماله يتصرف فيه كيف يشاء، ويأمر وينهى كيفما أراد، والآخر عبد مملوك هو وماله لسيده، ليس له من الأمر والنهي شيء، فالحر جعله الله مثلًا لنفسه -وله المثل الأعلى- والعبد مثلًا لمن عبد من دونه، فأيهما أكمل[(٢)]، والفرق بينهما في الكمال هو دون الفرق بين الله ومخلوقاته بكثير، فالفرق بين الحر والعبد هو باعتبارات مقيدة من بعض الوجوه، ولكن الفرق بين الله ومخلوقاته مطلق، فالله له الكمال من كل وجه، والمخلوق ناقص من كل وجه.

مثل آخر ضربه الله لعبادة الله وحده، وعبادة الشرك به، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

فالله وحده أمره واحد، ونهيه واحد، وكله حكمة ورحمة، بخلاف الشركاء الذين لكل واحد منهم وجهة ورأي مختص به، وبذلك يكون لكل واحد فيهم أمر يختلف عن الآخر، ونهي لايتفق فيه مع غيره، ولهم أهواء ومصالح يتناحرون عليها، ولايعبئون لذلك بمصلحة من عبدوهم، وشأنهم على النقيض من أمر الله سبحانه وتعالى ونهيه[(٣)].

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٦٧، محاسن التأويل القاسمي، ٨/ ٣١٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ١٩٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٤١، التفسير المنير، الزحيلي ٢٤/ ١٥٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٦٢، أنوار التنزيل، البيضاوي، ٣/ ٢٣٤، درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية ٨/ ٥٢٨، الأمثال في القرآن، ابن القيم ص٢١.

(٣) انظر: جامع المسائل، ابن تيمية ٦/ ١٧٧، الأمثال في القرآن، ابن القيم ص٥٤، الأمثال القرآنية، الجربوع ١/ ٩٥.

فالله غني عن ذلك؛ لذا فأوامره ونواهيه كلها في مصلحة العبد، ونفعها مردود عليه، يقول الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: (ياعبادي إنكم لن تبلغوا ضرّي فتضرّوني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني)[1]، فمن كان هذا حاله فهو الكامل المستحق لأن يفرد في العبادة، وغيره على عكس ذلك.

ثالثًا: حمد الله لنفسه حمدًا ملء خلقه:

١. حمد الله لنفسه حمدًا يستغرق الزمان.

يحمد الله سبحانه وتعالى نفسه في هذه الآية، يقول فيها: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠].

حمدًا استغرق الزمان؛ وذلك لأنه هو الإله المتفرد بالألوهية على مدار الزمان، وأن الإفضال والإنعام فيه منه وحده لا شريك له، وأنه جعل الأولى مزرعة للآخرة، وهو الذي له الحكم في الآخرة لئلا يضيع عمل عامل في الدنيا فلا يحصل له الأجر في الآخرة، أويفلت طاغ أو ظالم في الدنيا فلا ينال جزاءه، وأن من أنكر ألوهيته في الدنيا فسيقر له بها في الآخرة[2].

٢. حمد الله لنفسه حمدًا يستوعب المكان.

أثبت الله تعالى الحمد المطلق لنفسه في السماوات والأرض؛ لأن كل ما فيهما دال على كماله وجلاله واقتداره واتقانه دلالة ظاهرة، خضع كل ما في السماوات والأرض لأن يسبحوا له، طوعًا أو كرهًا.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن:١].

فاستحق بذلك أن يشهد لنفسه بالحمد صدقًا وعدلًا، وأن يعترف له بذلك كل شيء فيهما[3].

٣. حمد الله نفسه حمدًا يشمل الزمان والمكان معًا.

يعلن الله جل جلاله أن الحمد ثابت لذاته، ومن موجبات ذلك ملكيته التامة لكل ما في السماوات والأرض، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ:١].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم الظلم، ٨/ ١٦، رقم ٦٦٦٤.
(٢) انظر: الهداية الى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٨/ ٥٥٦٦، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٢٣، تفسير المراغي،٢٠/ ٨٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ١٦٧، التفسير الميسر، مجموعة من العلماء ص ٣٩٣.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٢٨٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٦٦، التفسير الواضح، الحجازي ٣/ ٦٨٤، أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٣٦٠.

وهو حمد ملء المكان، وممتد إلى انتهاء الزمان، لا منازع ولا شريك، فحمده كامل شامل قد ملأ المكان وأحاط بالزمان[(١)].

٤ . حمد الله لنفسه حمدًا مقرونًا بالتسبيح ملء المكان على مدار الأزمان.

يأمر الله سبحانه وتعالى عباده بتسبيحه في الأوقات الأربعة، ذكرها في آية من سورة الروم بقوله جل وعلا: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [الروم: ١٧-١٨].

وهذه هي الأوقات الممتدة على مدار النهار والليل[(٢)]، وهذا على سبيل الإنشاء والطلب، وجعل جملة الحمد الخبرية متوسطة بين الأوقات المأمور بالتسبيح فيها؛ ليبين أنه ثابت ملء السماوات والأرض وفي كل وقت[(٣)]؛ لما له من كمال الصفات وجميل الأفعال في كل زمان ومكان، فله الحمد حمدًا كثيرًا، وسبحانه وتعالى بكرة وأصيلًا.

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٤١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٩٤، نظم الدرر، البقاعي ١٥/ ٤٢٩.

(٢) ولهذه الآيات التي ورد الحمد فيها معتبرًا للزمان والمكان نظائر سنوردها في مواضع أخر.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٥٤، روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٦٦.

موجبات الحمد

أولًا: التمجيد والثناء:

حمد الله سبحانه وتعالى ذاته في آيات كثيرة، وكان لذلك الحمد موجبات عدة، منها:

١ . حمد الله والثناء عليه بمقتضى أسمائه الحسنى، وتنزهه عن الولد والشريك والولي.

يأمر الله سبحانه وتعالى عباده في خواتيم سورة الإسراء أن يدعوه بأي اسم من أسمائه؛ لأنها الحسنى البالغة في الحسن غايته في ألفاظها ومعانيها، وهي معانٍ ذات دلالات متعددة، منها:

- **دلالة مطابقة**: وهي أن الله يتصف بصفة جاء بها هذا المعنى، ودلالة تضمن: وهي أن اتصافه بهذا المعنى الحسن يتضمن الكمال.
- **دلالة التزام**: وهي أن كمال الله في هذه الصفة يستلزم اتصافه بصفات الكمال التي لا تتحقق هذه الصفة إلا بها[(٤)].
- **دلالة اقتضاء**: وهي أن اتصاف الله بهذه الصفات التي جاءت بها المعاني المأخوذة من أسمائه الحسنى يقتضي الإقرار بأن الله سبحانه وتعالى مستحق

(٤) انظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، ابن عثيمين ص١١.

للحمد بها[1].

يقول سبحانه وتعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء:١١٠-١١١].

فالقارئ لهاتين الآيتين يجد أن الله سبحانه وتعالى عقّب بحمد نفسه مع زيادة بيان لموجبات أخرى للحمد، وهي أنه لم يتخذ الولد؛ فالذي يتخذ الولد سيأتي عليه يوم ويكون مربوبًا لولده الذي سيقوم على رعايته والقيام على شئونه؛ لأن هذه هي سنة الأسرة، وأنه تنزه عن الشريك الذي يكون مماثلًا ومنازعًا لشريكه، وله سلطان يضاهي سلطانه، قد يحول بينه وبين أمر قضاه فلا يستطيع أن يمضيه، وأنه لا يحتاج إلى حليف يستنصر به من هزيمة قد تلحق به الذل، تعالى وتقدس ربنا عن كل عيب ونقص، وله الحمد المطلق والثناء كما أثنى على نفسه فليس أحد يستطع الثناء عليه بما هو أهله إلا هو[2].

وهذا من دلائل كبريائه جل جلاله، «وتكبيره تعالى وتنزيهه يكون:

- بتكبيره في ذاته، باعتقاد أنه واجب الوجود لذاته، وأنه غني عن كل موجود.
- بتكبيره في صفاته، باعتقاد أنه مستحق لكل صفات الكمال، منزه عن صفات النقص.
- بتكبيره في أفعاله، فتعتقد أنه لا يجري شيء في ملكه إلا وفق حكمته وإرادته.
- بتكبيره في أحكامه، بأن تعتقد أنه ملك مطاع، له الأمر والنهى، والرفع والخفض، وأنه لا اعتراض لأحد عليه في شيء من أحكامه، يعزّ من يشاء، ويذلّ من يشاء.
- تكبيره في أسمائه، فلايذكر إلا بأسمائه الحسنى، ولا يوصف إلا بصفاته المقدسة»[3].

٢. حمد الله والثناء عليه بمقتضى تفرده بالملك الأبدي للموجودات.

يحمد الله نفسه في آية من كتابه على أن ما في السماوات والأرض كلهم له ملك وعبيد، يتصرف فيهم بحمده، حمدًا دائمًا مستمرًا لا ينقطع إلى يوم القيامة؛ لأنه في الآخرة، يظهر من حمده، والثناءعليه، ما لا يكون في الدنيا، فإذا قضى الله سبحانه وتعالى بين الخلائق كلهم، ورأى الناس

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٨٠، محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٥٢٢.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣٤٥، لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٥٠، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣١٧.
(٣) تفسير المراغي، ١٥/ ١١١.

والخلق كلهم، ماحكم به، وكمال عدله وقسطه، وحكمته فيه، حمدوه كلهم على ذلك، حتى أهل العقاب ما دخلوا النار إلا وقلوبهم ممتلئة من حمده، وأن هذا من جراء أعمالهم، وأنه عادل في حكمه بعقابهم[(١)]، يقول تعالى: ﴿...وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

أما ظهور حمده لأهل الجنة فذلك لما يظهر لأهل الجنة من عظمة ربهم، وجلاله، وجماله، وسعة كماله حين يرونه، ما يوجب له كمال الحمد، والثناء عليه[(٢)]، يقول الله عز وجل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١].

وأورد ابن جرير في تفسيره ما معناه: «أن الحمد التام الكامل كله للمعبود الذي هو مالك جميع ما في السماوات السبع وما في الأرضين السبع دون كل شيء سواه، لا مالك لشيء من ذلك غيره، فالمعنى: الذي هو مالك ذلك جميعه، وله الحمد التام الكامل في الآخرة كالذي هو له ذلك في الدنيا العاجلة؛ لأن كل من في السماوات والأرض في الدنيا هو الذي خلقهم وأوجدهم من العدم، وهو المتصرف فيهم، والمالك لهم ملكًا تامًّا خالصا دون ما سواه في عاجل الدنيا وآجل الآخرة، وهو الحكيم في تدبير خلقه، الخبير بهم وبما يصلحهم، وبما عملوا، وماهم عاملون، محيط بجميع ذلك»[(٣)].

٣. تمجيد الله بمقتضى غناه عن عباده.

يخاطب الله سبحانه وتعالى الناس جميعًا معلمًا إياهم ومعلنًا لهم بأنه خلقهم وهو غني عنهم، وذلك بأنهم فقراء محتاجون لمن يدبر أمورهم من كل وجه، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

وليس أحد إلا الله عز و جل يقوم بهذا الأمر، فهم الفقراء بكل أنواع الفقر، وهو الغني بكل أنواع الغنى، محمود في غناه؛ ولولا ذلك لما تنعموا في هذه الحياة، ولما قامت للكافرين منهم قائمة كالذين خاطبهم موسى عليه السلام بهذا الخطاب.

يقول مولانا جل في علاه: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

وبيّن لهم أنه غني عن إيمانهم به وعبادتهم له، وإذا رأوا أنهم لا يحتاجون

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٣١.

(٢) انظر: فتح البيان، القنوجي ١١/ ١٦١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٧٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٣٥، التفسير الوسيط، الطنطاوي ١١/ ٢٦٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٤٦.

إلى الله بكونهم يرزقون، ويأكلون ويتمتعون بشتى أنواع الملذات، فما ذلك إلا لأنه حميد في غناه، يرزق ويعطي ويمد ويزيد، حتى وإن كفر به من خلقه من كفر، وكان رده على نبيه إبراهيم عليه السلام حين سأله أن يرزق من آمن من عباده ممن سكن البلد الحرام أنه سيرزق أيضًا من كفر منهم أيضًا.

وهذا ما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وهذا من كمال حمده أنه مع قدرته على حرمانهم بسبب امتناعهم عن أداء ما أوجبه عليهم، لم يمنعهم ما أوجبه لهم على نفسه على سبيل الوعد، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١] سبحانه جل جلاله.

ثانيًا: الإنعام:

إن نعم الله سبحانه وتعالى أمر لا يطيق إحصاءه إلا الله جل جلاله، وقد توقفنا مع الآية التي جمع الله سبحانه وتعالى لحمده فيها كل ما يقتضيه الحمد، وهي قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

وذلك أن تربية الله سبحانه وتعالى للعالمين جميعًا تشمل تربيته لهم بكل نعمة يحتاجون ليتم لهم التكيف والانسجام مع المحيط الذي يحيون فيه، سواء أكانت النعمة مادية أم معنوية، وبيان ذلك ما جاء في جواب موسى لفرعون حين سأله عن ربه، فقال عليه السلام كما جاء ذكره في القرآن: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠].

فقد أعطى كل شيء خلقه صورته وهيئته التي هي أليق به وأنسب له، وهداه للكيفية التي تناسب البيئة التي وجد فيها، وهذا من أعظم مظاهر الإنعام على كل المخلوقات؛ لذلك أخبر الله سبحانه وتعالى عن حالهم وانشغالهم بحمده عليه بقوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

إن هناك من الإنعام ما اختص الله به الناس دون غيرهم، ومنه ما فضل الله به بعض الناس على بعض؛ ولذلك نجد أنه يحمد نفسه عند ذكره لهذه النعم، أو أن من أكرمهم بها يحمدونه عليها على ما ستأتي الإشارة إليه، وسنجتهد في ترتيب الآيات بحسب فضل النعم المضمنة فيها من خلال نماذج نذكرها تقتضي حمد المنعم سبحانه وتعالى، وذلك فيما يأتي:

١ . نعمة إنزال الكتب ذات الصراط المستقيم الذي لا عوج له.

يختم الله عز و جل الآية الأولى من سورة إبراهيم باسمه الحميد، بقوله سبحانه وتعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]؛ ليكون فاصلة مناسبة لما ورد في الآية من ذكره لنعمة إنزال الكتب؛ التي يخرج الله بها الناس من ظلمات الكفر والضلال إلى نور التوحيد والرشاد، ليسيروا على صراط مستقيم، ينتهي بهم إلى رضا ربهم العزيز الحميد في إنعامه وإكرامه وجزائه.

وفي أول آية من سورة الكهف تقرير لما جاء في آية سورة إبراهيم، ولكن بصورة أخرى، ببيان استغراق المحامد كلها على إنزال الكتاب بدون عوج أو تعارض أو اختلاف، لا إبهام فيه ولا اضطراب، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ [الكهف: ١].

وذلك أن الاهتداء بهدي هذا الكتاب تستقيم عليه الحياة، بل والأرض والسماء وما فيهما، وبدون ذلك يكون الفساد، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].

فإن الحق الذي يجب عليهم أن يتبعوه، لا أن يتبع هو أهواءهم؛ هو ما كان فيه ذكرهم، ألا وهو القرآن، وإلا فإن السماوات والأرض وما فيهما سيكون فيه من الفساد بحسب إعراضهم عن الحق الذي في هذا الكتاب؛ لذلك فإن الساعة لا تقوم، ولا يأذن الله بخراب الدنيا حتى لا يبقى فيها من يؤمن بالله.

جاء في الصحيح عن عبد الرّحمن بن شماسة المهريّ، قال: «كنت عند مسلمة بن مخلّدٍ، وعنده عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال عبد الله: لاتقوم السّاعة إلّا على شرار الخلق، هم شرٌّ من أهل الجاهليّة، لا يدعون الله بشيءٍ إلّا ردّه عليهم، فبينما هم على ذلك أقبل عقبة بن عامرٍ، فقال له مسلمة: يا عقبة، اسمع ما يقول عبد الله، فقال عقبة: هوأعلم، وأمّا أنا فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: (لا تزال عصابةٌ من أمّتي يقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوّهم، لايضرّهم من خالفهم، حتّى تأتيهم السّاعة وهم على ذلك)، فقال عبد الله: أجل، (ثمّ يبعث الله ريحًا كريح المسك مسّها مسّ الحرير، فلاتترك نفسًا في قلبه مثقال حبّةٍ من الإيمان إلّا قبضته، ثمّ يبقى شرار النّاس عليهم تقوم السّاعة)»[1].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من

فالحمد لله الذي أنزل كتابًا لا عوج له تستقيم به الحياة في الدنيا والآخرة.

يبين الله سبحانه وتعالى موقف من أنعم الله عليهم بنعمة العلم، أن الذي يجدونه ويقرون به أن ما أنزله الله على نبيه صلى الله عليه وسلم هو الحق، ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ:٦].

وهو الهدى إلى الصراط المستقيم، الذي فيه أقوم الطرق إلى حياة كريمة صحيحة مطمئنة، وأنه يعطي كل ذي حق حقه، فلا ظلم ولا هضم، ولا كذب ولا وهم.

قال عز وجل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

صدقًا في أخباره الماضية والمستقبلة، وعدلًا في أحكامه الدينية والدنيوية.

٢. نعمة العلم وتفضيل الله به الأنبياء على غيرهم من الناس.

يخبرنا الله في آية من كتابه عما آتاه الله نبيّين كريمين من أنبيائه وهما داود وسليمان عليهما السلام حيث أنعم الله عليهما بالعلم الذي جعل الله الحظ الأوفر منه للأنبياء.

يقول عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:١٥].

وقد جعل الله العلم أنفس ما يتركونه من بعدهم، وهو الميراث الذي يستفاد من بعدهم، لا تركة لهم ينتفع بها سواه، قال صلى الله عليه وسلم: (من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك اللّه به طريقًا من طرق الجنّة، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإنّ العالم ليستغفر له من في السّموات، ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإنّ فضل العالم على العابد، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإنّ العلماء ورثة الأنبياء، وإنّ الأنبياء لم يورّثوا دينارًا، ولا درهمًا ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافرٍ)[1].

وقد علما أن هذا الذي أنعم الله به عليهما من العلم هو أفضل ما ينعم به على إنسان؛ لذلك فقد حمدا الله على أن فضّلهما بهذا العلم على كثير من عباده المؤمنين الذين ليسوا بأنبياء.

٣. نعمة هداية التوفيق ومن ثم إلى الجنة.

بعد أن يدخل أهل الجنة الجنة، ويتنعموا فيها بسلامة الصدر من العلل التي كان يتنغص بها عموم المؤمنين بحكم طبيعتهم

خالفهم، ٣/ ١٥٢٤، رقم ١٩٢٤.

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، ٣/ ٣١٧، رقم ٣٦٤١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ١٠٧٩، رقم ٦٢٩٢.

البشرية في الدنيا، وهو نعيم لا يعرف لذته إلا من بلغ من الخيرية مبلغًا، بحيث يترفع عن أن يتأذى بما يتأذى به سائر الناس من أنواع الأذى، إلا ما كان لأجل انتهاك حرمات الله، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وهو مقام سامٍ رفيع، قد بلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن عائشة رضي الله عنها قالت: (ما انتقم رسول اللّه صلى الله عليه وسلم لنفسه إلّا أن تنتهك حرمة اللّه، فينتقم للّه بها)[(١)]، وخواص المؤمنين ممن سار على هديه متمسكًا بسنته على وجه الكمال، وهذا للصحابة منه النصيب الأوفر، بحيث لا يذكر بينهم إلا الهنات من خلافه، فإنه ربما وجد منهم الاختلاف على حكم شرعي قد اجتهدوا فيه؛ فربما وقع القتال بينهم في تطبيق حكم شرعي اجتهد كل فريق منهم عن دليل وهدى، وقصد للحق، لا اتباع للهوى، فلم يحملهم هذا على تكفير بعضهم بعضًا، فقد حفظوا لأنفسهم أعراضهم من أن ينتهكوها، وأموالهم من أن يستحلوها، مما يدل على أن الأمر لم يكن على خلاف دنيوي، ولا انتصار للنفس، وعلى هذا الطريق سار جمع من الأئمة الأعلام، كالإمام أحمد الذي ثبت في الفتنة؛ إلا أنه كان يدعو لولاة أمر المسلمين الذين وقع له الأذى على أيديهم، وصفح عنهم وعفا[(٢)]، وما وجد في نفسه شيئًا إلا على من علم أنه لم يصدع بالحق عالمًا به، وكذا كان ابن تيمية رحمه الله مع خصومه، حين تمكن منهم، وقد كانوا لايألون جهدًا في التحريض عليه والتأليب عليه عند السلطان، ولما قدر عليهم عفا عنهم وصفح، وهذا بشهادتهم أنفسهم[(٣)]، وكان يقول: «ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إنّ حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة»[(٤)].

وما كان ذاك منه إلا لسلامة صدره رحمه الله، وما نسبة الفرق بين هذه السلامة لما في الجنة، إلا كالفرق بين ثمر الدنيا وثمر الجنة، وما بلغوا تلك المنزلة التي حمدوا الله عليها إلا بهداية الرحمن التي أكرمهم بها.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ٤/ ١٨٩، رقم ٣٥٦٠.

(٢) انظر: التعريف بكتاب محنة الإمام أحمد بن حنبل، محمد نغش ص٣٨٤.

(٣) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ١٤/ ٦١.

(٤) الوابل الصيب من الكلم الطيب، ابن القيم ص٤٨.

٤ . نعمة إقامة آياته الدالة عليه.

الحمد لله في الأولى والآخرة ومن جميع الخلق، خصوصًا أهل الاختصاص والصفوة من عباده، الذين كان رسول الله واحدًا منهم؛ على ما اختصهم به من رفعة الدرجات، وكمال القرب منه، وكثرة خيراته عليهم، سيريكم آياته أيها الناس عمومًا والمنكرين خصوصًا، فتعرفونها معرفة تدلكم على الحق والباطل، فلابد أن يريكم من آياته ما تستنيرون به في الظلمات، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيّ عن بينة[1]، وما الله بغافل عما تعملون.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣].

وهذا تفضل من الله عز و جل، وإنعام على الخلق؛ ليتيسر لهم الهدى، وتقوم الحجة على المعاندين، ولتطمئن بالحق نفوس المؤمنين، كما جاء عن إبراهيم حين سأل الله أن يريه ما تطمئن به نفسه.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

فاستجاب الله جل جلاله له وأراه ما طلب منه رؤيته.

٥ . نعمة نصر المرسلين والمؤمنين وإهلاك الكافرين.

يأمر الله نبيه نوحًا عليه السلام أن يشكر الله بالثناء عليه تعظيمًا وإجلالًا وفرحًا بفضله ورحمته؛ أن نجّاه من بطش قومه الذين استحبوا العمى على الهدى، ومن المعاناة التي كان يلاقيها هو ومن معه من المؤمنين استهزاءً وسخرية وإيذاءً في الدين والبدن[2].

يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

وفي هذا من الإنعام ما لا يستشعره ولا يعرف قدره على الحقيقة إلا من جرب إيذاء أعداء الله لعباده الموحدين، أو شاهد أو سمع -وكان له قدرة على تصور صحيح- بالغ الأذى والألم الذي يجده المؤمنون جراء ذلك.

لطالما وجد المسلمون في أنفسهم من العجب من حال الكفار في تنعمهم على الرغم من كفرهم بالله، وإمعانهم في إيذاء أعداء الله، وقد كانت هذه الفتنة مما يترتب عليه انتكاس ضعاف النفوس، ما يوهن من عزم المؤمنين الذين لولا فضل الله عليهم

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦١١.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، الطنطاوي ١٠/ ٢٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٥١.

لاتبعوا الشيطان، ومما يترتب عليه أيضًا التشكيك في طريق الإيمان، ثم ما أن يلبثوا أن يأتيهم الفرج من الله سبحانه وتعالى بإهلاك الظالمين؛ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

فهو أمر يوجب إثبات الحمد لله الذي لا يقضي أمرًا إلا لحكمة، ومن حكمته إمهال الظالمين، وتقليب أحوالهم ما بين ضراء وسراء لعلهم يعودون؛ وإن سبق في علمه عدم رجوعهم؛ فيفعل هذا لأجل إقامة الحجة عليهم، فالحمد لله على ما قضاه وقدره من تقليب الأمور، وتثبيت قلوب الموحدين[1].

بعد أن أتم الله على نبيه النعماء بنصره وفتح مكة له، وأقر عينه بدخول الناس في دين الله عز و جل، وبين له أن مهمته أنجزت على أحسن حال، أمره الله سبحانه وتعالى أن يتوجه إليه حامدًا مستغفرًا؛ ليبلغ به هذا العمل الذي أراد الله أن يختم لنبيه به، فأنزل الله سورة النصر.

يقول الله عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١-٣].

يقول العلامة الشنقيطي رحمه الله: «وهنا قرن التسبيح بحمد الله، وفيه ارتباط لطيف بأول السورة وموضوعها، إذ هي في الدلالة على كمال مهمة الرسالة بمجيء نصر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ولدينه، ومجيء الفتح العام على المسلمين لبلاد الله بالفعل أو بالوعد الصادق كما تقدم، وهي نعمة تستوجب الشكر ويستحق موليها الحمد، فكان التسبيح مقترنا بالحمد في مقابل ذلك وقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾؛ ليشعر أنه سبحانه المولي للنعم»[2].

وقد كان دخول الناس في دين الله قرة عين للنبي صلى الله عليه وسلم، فكم كان يحزنه إعراضهم، أما وقد أقر الله عينه بنصره على أعدائه، وانتشار الدين، فقد أوجب الله عليه أن يقوم بواجب حمده على هذه النعمة، وقد كان فيها إعلام النبي بإنجاز مهمته وأداء رسالته، فهو أيضًا إنعام آخر من الله يستوجب حمده عليه، وفيها إيذان بدنو أجل النبي صلى الله عليه وسلم وانتقاله إلى الرفيق الأعلى، وهو أمر يستدعي من النبي صلى الله عليه وسلم الإقبال على ما يحبه ربه سبحانه وتعالى من الأعمال، فأرشده تبارك وتعالى إلى الإقبال على التسبيح والحمد، ثناءً على الله، والاستغفار من

(١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٣/ ٢٠٢٤، فتح البيان، القنوجي ٤/ ١٤٣.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٩/ ١٤٠.

القصور الذي يتلبس بالعمل بطاعة الله أداءً لشكر الله على نعمه.

٦ . نعمة إنزال الغيث من السماء.

بين الله سبحانه وتعالى في مواضع كثيرة من كتابه ما يقر به الكفار الذين جحدوا حق التوحيد في الألوهية لله عز و جل، من أنه وحده هو الذي ينزل المطر من السماء، فيحيي لهم الأرض بعد موتها، فتصبح بعد أن كانت جدباء عديمة النفع مليئة بالخيرات التي يكون بها معاشهم، وهم مع ذلك لايعقلون أن تمام نفعهم لا يكون إلا بتوحيدهم لله ربهم[(١)].

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

وهذه الآية جاءت في سياق الحديث عن رزق الله لعباده، فيكون الحمد فيها متعلقه إنعام الله عليهم بنزول الغيث، الذي يأتيهم بالماء الذي جعل الله منه كل شيء حي، وقد قرر كثير من المفسرين أن مقام الحمد هنا هو الحمد على قيام الحجة على الكافرين[(٢)].

وهو أمر يحتمله النص، لكن السياق الذي جاء فيه الحمد أقرب لأن يوجّه ذلك لما لله على الناس من إنعام بإحياء الأرض بالمطر الذي ينزله الله عليهم من السماء، وهم لو بذلوا كل ما بوسعهم وتوسلوا لآلهتهم لكي تأتيهم بشيء من هذا لعجزوا عن القيام به؛ فله الحمد على ذلك حمدًا كثيرًا، فهو الذي ينزل المطر الغزير الذي أيسوا من نزوله ليغيث الله به البلاد والعباد، من بعد قنوطهم منه وانقطاعه عنهم مدة، فظنوا أنه لا يأتيهم.

يقول المولى جل جلاله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨].

وكانوا قد عملوا لذلك الجدب أعمالًا؛ فينزل الله الغيث وينشر به رحمته من إخراج الأقوات للآدميين وبهائمهم، فيقع عندهم موقعًا عظيمًا، ويستبشرون بذلك ويفرحون؛ وذلك أن الله هو الولي الذي يتولى عباده بأنواع التدبير، ويتولى القيام بمصالحهم دينًا ودنيا، فهو المحمود في ولايته وتدبيره[(٣)].

٧ . نعمة الذرية الصالحة.

جاء الخبر عن إبراهيم عليه السلام وحمده ربّه لما أكرمه به من الذرية بعد أن بلغ من الكبر عتيًّا، وذلك بعد أن انقطعت أسبابها، فقد كبرت زوجته سارة حتى

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٥٩، تفسير القرآن، أبو المظفر السمعاني ٤/ ١٩٢.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٦٧، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٤٦.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٣٢، تيسير الكريم الرحمن السعدي ص٧٥٩.

بلغت سنّ اليأس، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وقد كان طمعه انقطع بعد بلوغه من العمر مبلغًا ربما لا يولد لمثله فيه، فتأتيه البشرى به؛ وفي ذلك من الفرح والسرور أكثر مما في مجيء الولد المرتقب المتوقع مجيئه، وفيه من النعمة برعاية الولد لهما في حال ظنهما أن لا يكون لهما من يقوم على خدمتهما، وفيها أن هذين الولدين نبيان سيقومان بعده على دعوته التي جاء بها، وضحى من أجلها، الملة الحنيفية التي تنسب إليه، وفيها حصر النبوة في ذريته، ليصبح أبا الأنبياء[1].

والحمد مطلقًا، لا يكون إلا لله عز وجل، ودليله قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

وقد اقترن الحمد بأل الاستغراقية التي تفيد استغراق جميع المحامد وجعلها لله جل جلاله وحده[2]. والحمد مقيدًا، يجوز في حق غيره كما سبق بيانه في المعنى اللغوي، ودليله قول الله عز وجل: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

فقد أنكر عليهم حبهم أن يحمدوا بما لم يفعلوا، ولم ينكر عليهم حب الحمد مطلقًا، يقول السعدي رحمه الله: «ودلت الآية بمفهومها على أن من أحب أن يحمد ويثنى عليه بما فعله من الخير واتباع الحق، إذا لم يكن قصده بذلك الرياء والسمعة، أنه غير مذموم، بل هذا من الأمور المطلوبة، التي أخبر الله أنه يجزي بها المحسّنين له الأعمال والأقوال، وأنه جازى بها خواص خلقه، وسألوها منه، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]»[3].

وهو مما يجوز لغير الله سبحانه وتعالى، لكن بحسبه، فحمد الله يستلزم محبته وإجلاله وتعظيمه، وكذلك حمد الرسول يستلزم محبته وتوقيره وتعزيزه وإجلاله، وكذلك حمد الوالدين والعلماء وملوك العدل، وأما حمد الرب عبده فإنه يستلزم إعزازه لعبده، وإكرامه إياه، والتنويه بذكره، وإلقاء التعظيم والمهابة له في قلوب أوليائه[4].

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٣٢٠، تفسير المراغي، ١٣/ ١٦١، تفسير الشعراوي، ١٢/ ٧٥٨٢، التفسير الوسيط، طنطاوي ٧/ ٥٧٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ١٣٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص١٦١.
(٤) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ٩٤.

مقامات الحمد

إذا تأملنا المواطن التي ورد فيها الحمد، ظهر أنه ورد في سبعة مقامات، على ما سيأتي بيانه:

أولًا: الألوهية والتوحيد:

إن الألوهية والتوحيد يتطلبان الحمد على عدة أحوال، وقد جاءت مقامات الحمد فيه على النحو الآتي:

١ . الحمد في مقام التفرد بالألوهية.

الواجب أن يكون صاحب الحق في التأله وصرف العبودية واحد، فهذا ما يستقيم عليه الوجود، وبه ينتفي الاضطراب، يقول المولى عز وجل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

ولو أن الناس عملوا بمقتضى هذا المعنى، لما كانوا على هذه الحال التي يعيشونها، بل ولما بدا مثل هذا الفساد الذي ملأ السماوات والأرض، وما هو إلا ببعض ما كسبت أيديهم.

وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

ويقول أيضًا: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون:٧١].

فلو اتبع الحق أهواءهم في زعمهم أن الآلهة متعددة لكان ذلك سببًا في فساد السماوات والأرض[1]؛ حيث استنكروا الدعوة إلى توحيد الله سبحانه وتعالى كما قال عنهم جل جلاله: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٥].

فكان المقام الأول الذي يكون فيه الحمد هو كون الإله واحدًا، ألا وهو الله جل جلاله.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠].

يحمد الله سبحانه وتعالى نفسه في هذه الآية على أنه هو الإله المتفرد بألوهيته بدلالة ما تقدم من تدبيره لخلقه، وانفراده بذلك، فلو كان غيره معه شريك في ذلك، لكان الحاصل أن لا يكون التدبير على ما ذكره، فلو أراد إهلاك قوم، ربما خالفه شريكه، ولو أراد نصر آخرين ربما خالفه، ولو صح وجود غيره لما صح تفرده بالكمال، ولصار في الوجود معبودان يتنازعان طاعة العباد، ولشق عليهم هذا الأمر مشقة بالغة[2].

(١) انظر: تفسير القرآن، أبو المظفر السمعاني ٣/ ٤٨٣، محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٢٩٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ١٦٧.

وقد ضرب الله سبحانه وتعالى لذلك مثلًا ليظهر للمتأمل ما فيه من حرج: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

المثل المضروب هو لرجل مملوك لشركاء ذوي أخلاق سيئة، يتنازعون طاعته، ليسوا على وفاق، ورجل مملوك لرجل واحد، ليس له شريك لتحدث بينهما المشاكسة وما يؤدي إلى سوء الأخلاق، فهو واحد متفرد محمود في ذاته وأوصافه وأفعاله، فلا يمكن لعاقل أن يقول: إن حال العبد في الصورة الأولى كحال الثاني، لذلك فالذي يختار الموضع الأول للعبد ليكون على حاله، لا يمكن أن يدرج في عداد العلماء[(١)].

وفي الصورة الثانية يأتي بالحمد على ألوهيته التي تفرد بها ما يدعو العاقل للاستسلام لها، وهذا في قوله جل جلاله: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥]؛ لأنه يتصف بكمال الحياة المستلزم لكمال الصفات، ويأمر عباده أن يخلصوا له في عبادته، وجاء بعبادة هي من أحب العبادات إليه، ألا وهي الدعاء، حيث جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إنّ الدّعاء هو العبادة)[(٢)].

وهي سلاح العبد الذي إذا ما تسلح به كفي في كل ما يصلحه، وذلك بعد بيان فضله على الموجودات عامة والإنسان خاصة في الآيات السابقة لهذه الآية؛ مما يدعو السامع ليطمئن لإفراده لله بالعبادة[(٣)].

٢ . الحمد في مقام الربوبية المطلقة.

تقدم الحديث عن ربوبية الله المطلقة، وهو أمر إذا ما تأمله القارئ في كتاب الله عز و جل يعلم أنه مقام عظيم من مقامات الحمد، وذلك بالتفكر في إحكام الله لهذ الخلق العظيم، في خلقه وتدبيره وحفظه، يستحق استغراق المحامد كلها لهذا الرب العظيم؛ لذا افتتح كتابه بهذه الآية: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢].

فله الحمد التام، وإن عميت بصائر وطمست أبصار، فذهبت تسوي بين من كانت ربوبيته على هذه الحال، وبين سواه من خلقه، قال سبحانه وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١].

سبحانه وتعالى، وله الحمد والجلالة،

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٨٣، تفسير القرآن، أبو المظفر السمعاني ٤/ ٤٦٨.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، ص٣٢٧. وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد ص٢٦٥.

(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٧/ ١٠٤.

على عظمته وقدرته وكماله.

٣. الحمد في مقام تفرده بالقدرة الكاملة.

بأسلوب ضرب المثل مرة أخرى ينبه الله عباده على المعادلة الصحيحة بالقياس الصحيح لاختيار المعبود، ولكن بالمقارنة بين قدرتين، الأولى صاحبها عاجز ضعيف لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، وهو عالة على غيره، والثاني قادر نافع لنفسه، ويجري نفعه على غيره، فالفرق بينهما عظيم، وقد تساويا في الأصل والذات والهيئة والصورة، فكيف إذا افترقا في ذلك، بل الفرق بينهما من وجوه لا حصر لها[1].

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥].

وبعد المثل يقرر النتيجة الصحيحة للمعادلة بأن له الحمد، وأن غيره لا يستحق أن يذكر، ومن قبل غير هذا فهو من جنس من حرموا العلم النافع.

٤. الحمد في مقام تفرده بالأسماء الحسنى، وانتفاء الولد والشريك والولي.

تقدم الحديث عن هذه الأسباب لإثبات الحمد له جل جلاله؛ فإن له الأسماء الحسنى التي لا يصح منها للمخلوق إلا ألفاظها، وليس إلا في بعضها، أما من جهة المعاني، فلا مماثلة ولا تشابه ولا تناظر، وهو الغني عن الولد اختيارًا لا اضطرارًا، كما لا يرقى إلى مشاركته في شيء أحد، ولا يستنصر بأحد من ذلة، وإن أمر عباده بنصره، فهذا على سبيل التكليف والابتلاء مع غناه عنهم، وهو الذي له التكبير المطلق وجوبًا على عباده، لما جاء من تأكيد ذلك بالمصدر، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١٠-١١١].

٥. الحمد في مقام تنزهه عما نسب إليه من صفات النقص.

ختم الله سبحانه وتعالى سورة الصافات وهي من السور التي استعرضت أحوال الأنبياء مع أممهم بقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى

(١) انظر: الوجيز، الواحدي ص٦١٣، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ١٨٩، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٣٤.

﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢]؛ ليرد سبحانه وتعالى بذلك على العقائد التي حملتها تلك الأمم، وجاءت الرسل لمحوها من وصف الله بما تنزه عز و جل عن الاتصاف به من صفات النقص، فنزه نفسه عمّا حوته عقائدهم، وأثنى على الرسل لما جاءوا به من العقائد الصحيحة في الله سبحانه وتعالى، وأثبت الحمد مطلقًا له جلّ جلاله[1].

ثانيًا: إرسال الرسل وإنزال الكتب:

١ . الحمد في مقام فضل الله بإرسال الرسل.

لم يخلق الله سبحانه وتعالى الخلق عبثًا ولم يتركهم سدى، بل خلقهم لمهمة عبادته، وأرسل لهم من يبصرهم بطريق الهدى، ليخرجوهم من ظلمات الجهل، وينقذوهم من دياجير ظلم النفس، فقد خلقوا جهالًا، والظلم قرين الجهل، كما جاء وصف الإنسان في القرآن: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب:٧٢].

فكان إرسال الرسل من أعظم ما يدل على عظمة الله وفضله وعدله؛ لذا كان أرسال الرسل مقامًا من المقامات التي يستحق الله الحمد عليها، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩].

فالحمد لله، ومن معالم حمده في هذه الآية الرسل الذين أرسلهم سالمين من صفات النقص البشري، مبرئين من كل عيب[2]؛ ليرشدوا الناس إلى توحيد خالقهم، وبيان بطلان الشرك، وليكونوا لهم قدوة يتأسون بهم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [الممتحنة:٦].

وإنه لما لهذا الأمر من قدر عظيم في أفعال الله عز و جل، جعله مكتنفًا بالتسبيح والتحميد، مقدمًا له بالتسبيح، معقبًا عليه بالتحميد[3]، فقال سبحانه وتعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢].

٢ . الحمد في مقام إنزال الكتب.

مهمة الرسل كما سبق هي التعليم، لكنها مهمة مؤقتة بوقت محدد وتنتهي، والناس بعد الرسل يحتاجون لما يرجعون إليه عند الحاجة لتبين الحق، فما الذي يلجئون إليه، هل تركهم الله حيارى؟! جلّ الله أن يكون

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٢٣٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٠٩.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٤/ ١٨٤، التفسير الحديث، محمد عزة دروزة ٣/ ٢٩٤.

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٢١، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦/ ٣٦١.

منه مثل هذا؛ فإنه قد أنزل على رسله كتبًا ليحفظ الله لهم بها دينهم، وهم على ذلك ما حافظوا على هذه الكتب ولم يحرفوها أو يضيعوها، وهذا كان في الأمم السابقة، أما هذه الأمة فقد امتن الله عليها بأن تكفّل الله لها بحفظ كتابها من مثل هذا، لكن بقي لهم أن يحفظوه من الهجر والإعراض، والتصرف في المعاني على حسب الأهواء، فقد أنزل لهم كتابًا لا عوج له، قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ [الكهف:١].

وتكفّل لهم بالسلامة ما التزموا فيه الاستقامة، فقال جل جلاله: ﴿...فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

وحذرهم من فساد أحوالهم، إذا هم لم يتبعوه أفعالهم، في دنياهم وأخراهم، فقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٤].

وأي ضنك بعد الضنك الناتج عن ورطة الإعراض عن الهدى وتنكب طريقه، والتخبط والحيرة والسعي في غير سبيله الموصل إلى المصالح، فلك الحمد ربنا على ما أنزلته؛ لتستقيم به معايشنا وحياتنا[١].

ثالثًا: الخلق والتدبير:

١ . الحمد في مقام الخلق.

أمرٌ أقر به المشركون، ألا وهو خلق الله لهذا الوجود.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥].

ولم يتمكن الجاحدون من إقامة الحجة على إنكاره؛ بل إن أنفسهم مستيقنة به.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل:١٤].

فهو لقوة ثبوته، وشدة وضوحه أمر يدل على مقام الحمد لله تبارك وتعالى[٢].

٢ . الحمد في مقام التدبير.

إن من رحمة الله عز و جل أن تكفّل لعباده بما لا يطيقونه من الأعمال التي لا تقوم الحياة إلا بها، ومن بعض هذه الأعمال، إنزال الماء من السماء[٣].

وهي أيضًا من القضايا التي يسلّم بها الكافرون، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ

---

(١) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ص٣٧٦، نظم الدرر، البقاعي ١٢/ ٣٦٢.

(٢) انظر: تفسير، المراغي ١٩/ ١٢٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٠٢.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٤٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٨.

﴿لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

وهذا من كمال تدبيره لأمور عباده، مقام يتفرد بالحمد من كان له.

ومن تدبيره بعد أن فطر السماوات والأرض، أن خلق ملائكة مسخرة لطاعته بما كلّفهم به من الأوامر الشرعية التي يكون بها إصلاح العباد، والأمور الكونية التي يكون بها صلاح الكون على هيئات متباينة، كل بحسب ما أنيط به من مهام[(١)].

فالحمد له الملك العلّام، كما قال في هذا المقام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

وإن تدبيره جل جلاله لا ينحصر في هذا الفعل، فهو المدبر للعالمين أجمعين كما يقول: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية: ٣٦].

ومن تدبيره ما قد يخفى على كثير من خلقه، حيث يعتقدون أنهم هم القائمون به، فمنه ما يكون من التدبير المضاف إلى العباد، من قيامهم بالتصرفات، وهذا التدبير في حقيقته تدبير من الله[(٢)]، يقول سبحانه وتعالى في بيان جواب موسى عليه السلام الذي ألهمه إياه عند سؤال فرعون له عن ربه: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩-٥٠].

فالحمد لله أولًا وآخرًا، خالقًا ومدبرًا.

رابعًا: الرزق والإنعام:

١ . الحمد في مقام الرزق.

إن حمد الله في مقام الرزق يأتي في سياق الحديث عن الرزق الذي تكفل الله سبحانه وتعالى به لخلقه جميعًا المكلف منهم والمسخر، المؤمن منهم والكافر، والناظر في ما يظهر من كيفية قيام الله سبحانه وتعالى بهذا الأمر لتصيبه الدهشة والحيرة، غير أن من آمن بالله سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته تزول دهشته؛ لما يعلم من عظمة خالقه وكرمه وإحسانه لعباده، وإن أساءوا إليه، لكنه جل جلاله قد أمر عباده بأداء ما أوجب عليهم، فمنهم القائم بها على وجه التسخير، وهذا لا ثواب له ولا عقاب؛ لأنه لا خيار له، وهناك من كان الأمر متعلقًا باختياره، وهؤلاء لا يكون الرزق الذي رزقهم الله إنعامًا عليهم من كل وجه، فإنما هو إنعام من جهة كونه سببًا في طول عمرهم؛ لعلهم يستكثرون من الخير، وهؤلاء هم المؤمنون القائمون بشكر الله

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٣١٩، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٥٣.

(٢) انظر: روح المعاني الألوسي ١٣/ ١٦٠، أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٢٠٤.

على نعمه بطاعته فيما أمرهم به من القيام من الإنفاق والإحسان.

يقول عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة:٢٦٧].

أو لعلهم يتوبون إلى الله إن كانوا من أهل العصيان، وهو إنعام عليهم من جهة أنه سبب في استمرار جنسهم، لكن لا تكون النعمة تامة به إلا أن يكون عونًا على طاعة الله، والقيام بحق شكرها[١].

فقد يرزق الإنسان بالولد فيكون سببًا في هلاكه[٢]، وبالمال فيكون سببًا في عطبه[٣]، وبالزوجة فتكون سببًا في فساده[٤]، وبالصحة فتكون سببًا في طغيانه[٥]، وكذا في سائر ألوان الرزق[٦]، إن لم يحسن تسخيرها لخدمته وإعانته على طاعة الله، وقد تقدم من ألوان الحمد ومقاماته ما يعدّ من باب رزق الله، في الحمد على ربوبية الله العامة في رزقه لجميع المرزوقين، وربوبيته الخاصة في رزقه لخواص عباده الذين آمنوا به.

٢. الحمد في مقام الإنعام.

إنعام الله على عباده مقام لا يطيق العباد القيام بحق شكره إلا أن يستجيبوا لله فيما كلفهم به، وهو شكر يسير بالنسبة لما تغمدهم الله به من مظاهر الإنعام، فنعم الله لا تحصى.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

[النحل: ١٨].

فهي أعمال يطيقها من غير حرج ولا مشقة، وأقوال يقولها من غير كلفة ولا مؤنة، وإن عجز عن شيء أعاضه بما هو أهون منه سبحانه وتعالى من رب عظيم الإنعام على عباده، ولكن أكثرهم لا يعلمون، والأمر لا يمكن استعراض مظاهره، لكن التأمل في بعضها يكفي، وقد سبق الوقوف معه بشيء من التفصيل الموجز.

خامسًا: النصر والتأييد:

منذ خلق الإنسان وعدوه يتربص به، ويكيد له، ويقسم على إهلاكه، وهو عدو إن خلّي بينه وبين الإنسان، فإنه على ما توعد به لقادر، فهو يرى الإنسان هو وقبيله من

---

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية، سعيد بن علي بن وهف القحطاني ص١٩.
(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ١٠٣، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٢٣٨.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٦١٦، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٣١.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٦٨، أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٣٦٨.
(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ١٩٣..
(٦) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٣٨٠.

حيث لا يراهم، لكن الله سبحانه وتعالى أخسأه، وخنّسه، وقهره، وأبلسه من مراده، وهذا العدو قد كثر أتباعه وجنوده وخيلهم ورجلهم، لكنهم أمام من كان الله معه قليل، وقد أخبرنا عن نوح أنه تحدى قومه ولم يكن له سلاح إلا التوكل على الله.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

فالله سبحانه وتعالى هو الولي الحميد، الذي لا يتخلى عن أوليائه، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج:٨-١٠].

فقد توعدهم سبحانه وتعالى بجهنم وعذاب حريقها، وهو الذي لايعلم جنوده إلا هو، فجعل النصر حليفهم، والتأييد رديفهم، لو قاموا بما أرشدهم إليه.

١ . الحمد في مقام التأييد.

ما جاء رسول إلى أمة من الأمم إلا كذبوه، ولكن الله سبحانه وتعالى أقام حجتهم على أقوامهم، فأيدهم بالمعجزات، فأفحم مناوئيهم، وأبهت معاديهم، وألجم معانديهم، وأعجز مخالفيهم، فله الحمد على صدقه وعده في تأييد أوليائه، وإن من أظهر الأمثلة على ذلك رسول الله إبراهيم عليه السلام، فكم من موقف قطع الله حجة أعدائه، حين كسر آلهة قومه، وحين مناظرة النمرود الذي أخبر الله عنها في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وغيرها من المواقف التي أيد الله فيها إبراهيم، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:٨٣][(١)].

ومثل هذا كثير قد أيد الله عز و جل به رسله عليه السلام فكانت عاقبة المعاندين للحق قوله عز وجل: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥][(٢)]، وإن من تأييد الله لرسله بإقامة

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٣٦٠، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٣٩، مراح لبيد، محمد بن عمر الجاوي ١/ ١٥٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٤٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٥٠٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٦٣، أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤٨٦.

الحجة على مخالفيهم قطع لدابر القوم الذين ظلموا، فالحمد لله على كمال نصره لأوليائه بكل ألوان النصر والتأييد.

٢. الحمد في مقام النصر.

عجز أعداء الله وأعداء أوليائه عن تكذيبهم، وهذا مثال لأمة من هذه الأمم أمة فرعون.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

ولم يكتفوا بمجرد التكذيب، بل طغوا وبغوا سعيًا في ردهم عن دينهم، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر:٢٣-٢٦].

فشنوا حروبهم، بشتى صنوفها، النفسية، والإعلامية، والسياسية، والاقتصادية، والعسكرية، ولم يتركوا ميدانًا إلا ورفعوا فيه لواء حربهم على أهل الحق، ومن نصر الله فإن الله عز و جل ناصره[(١)].

يقول وهو أصدق القائلين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [غافر:٢٢].

وهذه سنة لله ماضية، لكن ربما لم يأت النصر على ما يريده أولياء الله من العجلة، فيتأخر؛ وما ذاك إلا لأن الله سبحانه وتعالى يعلم ما لا يعلمون، وإن في صبرهم على تأخره من الأجر الذي لو علموه لفرحوا بالابتلاء أكثر من فرحهم بالعافية[(٢)].

ولكن حكمة الله تقتضي أن يحجب عنهم ليسعوا في رفع البلاء، وإعمار الأرض الذي كلفهم الله به من القيام بألوان الطاعات ما بين صبر على الضراء، وشكر على السراء، ثم يأتيهم النصر في وقت لو تقدم عليه لما قرت أعين المؤمنين بما تقر به حين يأتي في وقته الذي وقّته الله له[(٣)].

وكذلك ما كان من نصر نبينا صلى الله

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٣٩، تفسير المراغي، ٢٤/ ٦٠، روح المعاني، الألوسي ١٢/ ٣١٥، التفسير الوسيط، طنطاوي ١٢/ ٢٧٨، التفسير المنير، الزحيلي ٢٤/ ١٠٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٣٧٢، التفسير القيم، ابن القيم ص١٤٧.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٣٩، تفسير المراغي، ٢٤/ ٦٠، روح المعاني، الألوسي ١٢/ ٣١٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٦.

عليه وسلم، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر:١-٣].

فالحمد كل الحمد، لله الذي يأتي بنصره في أنسب أوقاته، وأحسن هيئاته.

سادسًا: الهداية:

الهداية التي من الله على ضربين: هداية الدلالة والإرشاد، وهي هداية لجميع المخلوقات، فمنها ما يكون بالتسخير[(١)]، وهي شاملة لكل الأحياء والجمادات، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠].

ومنها ما يكون بالتخيير، وهي خاصة بالمكلفين من خلقه، وذلك بهداية الدلالة والإرشاد، وهداية أخرى غيرها هي هداية التوفيق والسداد، وكل منهما لها مقامها الذي يحمد الله عليه.

١. الحمد في مقام هداية الدلالة والإرشاد.

والهداية التي وردت في مقام الحمد هي الهداية التي يستوي فيها جميع من بلغتهم الرسالات، ونزلت عليهم الآيات البينات، بالهدايات الواضحات، ليخرجهم مولاهم من درك الظلمات، ووحل الضلالات، إلى طرق السعادة والكمالات، فله بذلك الفضل والمنة، لكن العباد منهم من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يزكِّ بها نفسًا، وهذا أمر يذم عليه من أعرض عن رحمة ربه، ورفض أن يكون من أهل حزبه.

إنها الهداية التي تمثلت بإرسال رسله، وإنزال كتبه، وبإقامة الآيات في الأنفس والآفاق على تقرير ما فطرهم عليه، ودعاهم إليه، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [النمل:٩٣].

لكن هذه لهداية وحدها وإن كانت كافية في بيان الحق، إلا أنها ليست التي تحصل بها النجاة والفوز والفلاح، يقول سبحانه وتعالى في بيان شأن أمة من الأمم التي هداها الله بهذه الهداية: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [فصلت:١٧].

فالحمد لله على بيان الحق[(٢)]، بأوضح الآيات، وأظهر المعجزات، إلا أن هناك مقامًا آخر للحمد على الهداية التي كانت سبب الخيرات.

٢. الحمد في مقام هداية التوفيق

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣١٧،٤٣٦.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٤/ ٢٣٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٣٠٧، تفسير المراغي، ٢٤/ ١١٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١٨.

والسداد.

وهي التي يقول الله سبحانه وتعالى فيها: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

فهي الهداية إلى سعادة الدارين، فالقائلون أهل الجنة بعد دخولها في الدار الآخرة، وأما عن حالهم في الدنيا فهم الذين ظفروا بالحياة الطيبة كما وعد الله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

فالحياة الخالية من الشقاء والضلال هي الحياة الطيبة؛ وما بلغوها إلا لأنهم وفقوا للقيام بأسبابها من الإيمان والأعمال الصالحات.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤].

وقد حازها من هذه الأمة الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢].

إنها هداية التوفيق والسداد من الله عز وجل، إنه فضل الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وهو أعظم فضل على العبد ليقوم بحمد الله عليه، مع غيره من الإفضال[(١)].

سابعًا: الإثابة والجزاء:

ما أعظمها من غاية ينالها من حبسوا أنفسهم عن ملذات الدنيا وشهواتها، وصبروا على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله، لينجز الله لهم وعده الذي آمنوا به، وعملوا من أجله.

يقول الله سبحانه وتعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

فقد فتح الله عليهم، وهداهم إلى خير القول في الآخرة، كما هدوا إلى مثله في الدنيا[(٢)].

فله الحمد على ما أنجزه لهم من الوعد الذي قد جاءتهم به الرسل، ويخبرنا الله عن حالهم بقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٤٣٩، الوجيز، الواحدي ص٧٣١، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٦٨، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١١٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٠٨، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٢٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٦٧، أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٤٨٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٢٣، التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٤/ ٧٢.

﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:٤٣].

نعيم دائم، وثواب طمعوا بتحصيله، ففاق الذي وجدوه ما توقعوه[(١)]، فصار مفتتح كلامهم بالتسبيح الذي ألهموه، أحشاؤه سلام عليهم وفيهم وبينهم، وأعلاه وأرقاه حمدهم لربهم جل في علاه[(٢)].

وهذا الخبر عنهم جاء في قول الله: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس:١٠].

وقد بين حالهم النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه جابرٌ، قال: سمعت النّبيّ صلى الله عليه وسلم، يقول: **(إنّ أهل الجنّة يأكلون فيها ويشربون، ولايتفلون، ولا يبولون، ولا يتغوّطون، ولا يمتخطون، قالوا: فما بال الطّعام؟ قال: جشاءٌ ورشحٌ كرشح المسك، يلهمون التّسبيح والتّحميد، كما تلهمون النّفس)**[(٣)].

فمقام التسبيح والتحميد مقام يقتضي الطهارة، وهم في تلك الحال في أطهر مكان وهو الجنة، وعلى أطهر حال، فلا نجس ولا قذر، فلا أجمل ولا أبهى مما هم عليه، فيتأهلون لتلك الرتبة، ويلهمون ما يحبه ربهم منهم ليزدادوا من فضله[(٤)]، ويتنعموا برضوانه، والحمد لله رب العالمين في هذا المقام حمدًا حتى يرضى، على ثوابه الذي به أهل الجنة أرضى.

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٨٥، محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٤٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٥٥.

(٢) انظر: تفسير القرآن، أبو المظفر السمعاني ٢/ ٣٦٨، التفسير الوسيط، طنطاوي ٧/ ٣٠.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشيًا، ٤/ ٢١٨٠، رقم ٢٨٣٥.

(٤) انظر: الهداية الى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١٠/ ٦٣٩٣، زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٧/ ٣٥٢٤، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، مجموعة علماء ص٢١١.

الحامدون

أولًا: الله الحامد الأعظم:

القرآن الكريم مليء بحمد الله عز وجل لنفسه، نحو قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

وقوله عز وجل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام:١].

وغير ذلك من الآيات التي سبق ذكرها.

ثانيًا: الملائكة عليه السلام:

الملائكة الكرام أكثر المخلوقات تسبيحًا وتحميدًا لله عز وجل.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧].

ويقول جل جلاله: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

وإن تسبيحهم لله وتحميدهم له بالنسبة لهم، كالطعام والشراب والنفس بالنسبة للإنسان، بل إنهم قد ألهموا القيام به[1]، كأنما هو عمل غريزي لا كلفة فيه، ولا يتودّع لسواه، يلتزم ولا يصدر عنه، ولا يترك لعداه، فهو نعيمهم وكمال لذتهم أن يقوموا بعبادة المولي به.

ثالثًا: الأنبياء عليهم السلام:

شواهد القرآن على حمد الأنبياء لربهم كثيرة، وقد جاءوا موصوفين بالحمد بصور مختلفة، فهم أهل الطاعة والاستجابة لأوامر الله سبحانه وتعالى.

فجاءت صفتهم على أنهم مأمورون به.

وقد وردت هذه الصفة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر:٣].

وجاءت لنبي الله نوح عليه السلام في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون:٢٨].

وجاءت بصيغة الإخبار عن نبيّين كريمين قال الله فيهما: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:١٥].

وكذلك لنبي الله موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

وهذه أمثلة لما جاء من حمد الأنبياء

(١) انظر: مراح لبيد، محمد بن عمر الجاوي ٢/ ٣٤٠.

والرسل لربهم، وإن كانت حالهم دوام الحمد، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول اللّه صلى الله عليه وسلم إذا رأى ما يحبّ قال: (الحمد للّه الّذي بنعمته تتمّ الصّالحات)، وإذا رأى ما يكره قال:(الحمد للّه على كلّ حالٍ)[1].

رابعًا: المؤمنون:

ومن جملة الحامدين: المؤمنون.

وقد ساروا على طريق الأنبياء، حتى استحقوا المدح والثناء بذلك، فقد أثنى الله عليهم في كتابه بقوله: ﴿التَّٰٓئِبُونَ الْعَٰبِدُونَ الْحَٰمِدُونَ السَّٰٓئِحُونَ الرَّٰكِعُونَ السَّٰجِدُونَ الْأَٰمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

وقد جاء في الثناء عليهم بيان أن من أبرز عباداتهم الحمد، حيث ذكرها أولًا، فالحمد صفة لازمة لهم، كما كانت للأنبياء عليه السلام أو غالبة على حالهم[2]، بحسب ما تقتضيه مقاماتهم، بينما العبادات الأخرى لها أوقات وأحوال خاصة، تؤدى فيها، أما الحمد فهم يحمدون الله قيامًا وركوعًا وسجودًا، ومجاهدين، وهم تاركون لما حرم الله، حافظون لحدوده، وهم قيام وهم نيام، وفي كل حال.

وعندما يدخل المؤمنون الجنة، يحمدون ربهم، مستشعرين عظيم إنعامه عليهم، حين يجدون ما وعدهم به.

يقول الله عنهم: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

فهم في هذه الحال قد بلغوا مأمنهم الذي يرجونه، وتحقق لهم النعيم الذي كانوا يسألونه[3].

خامسًا: سائر المخلوقات:

السماوات السبع وما حوين، والأرضون السبع وما طوين، بل كل مخلوق يسبح بحمد الله عز وجل[4].

يقول جل جلاله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وهذا التسبيح وهذا الحمد على الحقيقة، ولكن الإنسان بما أوتي من أدوات للإدراك

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، فضل الحامدين ٢/ ١٢٥٠، رقم ٣٨٠٣. وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ٥٣٠، رقم ٢٦٥.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٩/ ٢٦، تفسير المراغي، ١١/ ٣٣.

(٣) انظر: تفسير المراغي، ٢٤/ ٣٩.

(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ١٣٥، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٢/ ٢٩٦.

عاجز عن فقه هذا التسبيح[1]، فالله يقول: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ولم يقل: لا تسمعون أو ترون.

موضوعات ذات صلة:

الاستغفار، التسبيح، الذكر، الذنب، الشكر، المدح

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٥٧، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٢٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٥٩.







عناصر الموضوع

مفهوم الحوار

أولًا: المعنى اللغوي:

(الحاء والواو والراء) ثلاثة أصول: أحدها لون، والآخر الرجوع، والثالث أن يدور الشيء دورًا، وتعود أصل كلمة الحوار إلى (الحور) وهو الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، يقال: (حار بعدما كار)[(١)]، والحور النقصان بعد الزيادة؛ لأنه رجوع من حال إلى حال، والتحاور: التجاوب، تقول: كلمته فما حار إلي جوابًا، أي: ما رد جوابًا[(٢)]، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ [الانشقاق: ١٤].

أي: «لن يرجع»[(٣)]، وهم يتحاورون أي: يتراجعون الكلام، والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة[(٤)].

«تحاوروا: تراجعوا الكلام بينهم»[(٥)].

ويقصد بالمحاورة «المجاوبة ومراجعة النطق والكلام في المخاطبة»[(٦)].

إذن فالحوار لغة تعني المراجعة في الكلام بين اثنين فأكثر، فمعناه في اللغة واسع يشمل كل مناقشة بين اثنين أو أكثر في أي موضوع.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الحوار هو: «نوع من الحديث بين شخصين أو فريقين، يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة فلا يستأثر به أحدهما دون الآخر، ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة والتعصب»[(٧)].

الحوار هو: «محادثة بين شخصين أو فريقين، حول موضوع محدد، لكل منهما وجهة نظر خاصة به، هدفها الوصول إلى الحقيقة، أو إلى أكبر قدر ممكن من تطابق وجهات النظر، بعيدًا عن الخصومة أو التعصب، بطريق يعتمد على العلم والعقل، مع استعداد كلا الطرفين

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٢٨٧.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢٩٧.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٥١٥.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢١٨.
(٥) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ٤٨٧.
(٦) تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٣١٧.
(٧) الحوار، آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، يحي بن محمد زمزمي ص ٣٢.



لقبول الحقيقة ولو ظهرت على يد الطرف الآخر»[(١)].

ويلاحظ من التعاريف الثلاثة السابقة اتفاقهم على أن الحوار حديث متبادل بين طرفين أو أكثر، ويعجبني التعريف الثالث للدكتور بسام عجك، فهو تعريف جامع مانع مكتمل الأركان.

العلاقة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي:

هناك علاقة قوية بين معنى الحوار في اللغة والاصطلاح، فالحوار هو نشاط عقلي ولفظي يقدم المتحاورون الأدلة والحجج والبراهين التي تبرر وجهات نظرهم بحرية تامة من أجل الوصول إلى حل لمشكلة أو توضيح لقضية ما، وهذا ما يتفق عليه المعنيون.

ولم يرد لفظ (الحوار) في القرآن الكريم، وإن ورد أصل مادته (حور).

(١) الحوار الإسلامي المسيحي، بسام عجك، ص ٢٠

الألفاظ ذات الصلة

١ الجدل:

الجدل لغةً:

اللدد في الخصومة والقدرة عليها، وجادله أي: خاصمه مجادلة وجدالًا، والجدل: مقابلة الحجة بالحجة؛ والمجادلة: المناظرة والمخاصمة، والجدال: الخصومة؛ سمي بذلك لشدته[(١)].

الجدل اصطلاحًا:

الجدل: «هو عبارة عن دفع المرء خصمه عن فساد قوله بحجة أو شبهة، وهو لا يكون إلا بمنازعة غيره والنظر قد يتم به وحده»[(٢)].

وقيل: مقابلة المتنازعين الحجة بالحجة على سبيل التدافع والتخاصم؛ بالعبارة أو ما يقوم مقامها؛ لإلزام الخصم غالبًا، وتقرير المذهب، سواء أكان حقًّا أم باطلًا.

الصلة بين الحوار والجدل:

كل من الحوار والجدال عبارة عن تبادل للحديث بين أطراف معينة، ولكن القصد مختلف فالجدال كما بين الإمام أبو زهرة الغرض منه بقوله: «والجدل يكون الغرض منه إلزام الخصم والتغلب عليه في مقام الاستدلال»[(٣)]، ومثال ذلك قوله تعالى ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[العنكبوت: ٤٦]

قال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾[النساء: ١٠٩].

٢ المناظرة:

المناظرة لغةً:

المناظرة في اللغة مشتقة من المادة اللغوية (نظر)، ومن معانيها تأمل الشيء بالعين المجردة، وتقليب البصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، والتأمّل والفحص، وقد يراد بالنظر المعرفة الحاصلة بعد الفحص، والطلب؛ يقال: انظر لي فلانًا، أي: اطلبه، والمقابلة؛ والعرب تقول:

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١١/ ١٠٥، مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ١٧٩.

(٢) الكليات، الكفوي ص ٣٥٣.

(٣) تاريخ الجدل، ص ٥.



داري تنظر إلى دار فلان، ودورنا تناظر، أي: تقابل، والإمهال والترقب والتوقع واللّمحة السّريعة[1].

المناظرة اصطلاحًا:

المحاورة بين طرفين متضادين في الرأي، والقائمة على الأدلة المنطقية والبراهين والإحصائيات الدقيقة، يقصد كل منهما تصحيح قوله وإبطال قول الآخر بأدب رفيع، مع الرغبة في إظهار الحق، والراجح على المرجوح، وتحقيق الفائدة المبنية على المناصحة والحلم[2].

الصلة بين الحوار والمناظرة:

وهكذا يتبين أن المناظرة ما هي إلا محاورة من أجل الوصول إلى الصواب.

٣ المحاجة:

المحاجة لغةً:

الحجّ: الغلبة بالحجّة، يقال: حجّه يحجّه حجًّا، إذا غلبه على حجّته، ومنه الحجّة بالضّمّ: الدّليل والبرهان، وقيل: ما دفع به الخصم، وإنما سمّيت حجّةً لأنّها تحجّ، أي: تقصد؛ لأنّ القصد لها وإليها، وبها يقصد الحقّ المطلوب، وجمع الحجّة حججٌ وحجاجٌ[3].

المحّاجة اصطلاحًا:

قدرة الفرد على توظيف ما يمتلكه من الأدلة والبراهين العقلانية الموضوعية في قضية خلافية؛ لإثبات دعواه، وأيضاح فكرته، مع تفنيد حجج مخالفيه، والوصول بهم إلى الاقتناع بهذه الفكرة، والإيمان بها، دون إلزامهم باتباعها، والسير عليها[4].

الصلة بين الحوار والمحاجة:

هناك فرق بين الحوار والمحاجة حيث إن الحوار هو تبادل حديث بقصد الوصول لحل

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٤٤، لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢١٥، تاج العروس، الزبيدي ١٤/ ٢٤٥، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٩٣٢.

(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني ص٢٥٠، آداب البحث والمناظرة، محمد الأمين الشنقيطي ص٤، حلية طالب العلم، بكر أبو زيد ص٦٨، منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد، عثمان علي حسن ١/ ٣٠.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٩-٣٠، لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٢٢٦، تاج العروس، الزبيدي ٥/ ٤٥٩-٤٦٤.

(٤) انظر: المحاجة طرق قياسها وأساليب تنميتها، طريف شوقي محمد ص٣، الجدل في القرآن الكريم، خصائصه ودلالته دراسة لغوية دلالية، يوسف عمر العساكر ص٣٠.

مشكلة ما، أما المحاجة ففيها يثبت كل طرف صحة دعواه، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]

قال تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ [الأنعام: ٨٠].

٤ المخاصمة:

المخاصمة لغةً:

المخاصمة في اللغة مشتقة من المادة اللغوية (خصم)، ويأتي بمعنى الجدل والمنازعة؛ يقال: خاصمه خصامًا وخصومة، أي: جادله ونازعه، وبمعنى الشّقّ؛ يقال للخصمين: خصمان؛ لأخذ كلّ واحد منهما في شقٍ من الحجاج والدّعوى، والطرف والجانب والزاوية، تلقين الحجة؛ يقال: أخصم صاحبه إذا لقّنه حجّته على خصمه(١).

المخاصمة اصطلاحًا:

اللجاج في الكلام من أجل المعارضة والمعاندة ابتداءً؛ يستوفي به المخاصم مراده من خصمه، في جو من التشاحن والتباغض ورفض الآخر(٢).

الصلة بين الحوار والتخاصم:

هناك فرق واضح بين المعنيين حيث إن الأول المقصود منه إيجاد حل لمشكلة ما بالتوافق، أما الثاني فهو يؤدي للتنازع دون إيجاد حلول ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ [ص: ٢٢].

قال تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩].

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، للأزهري ٧/ ١٥٤-١٥٥، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٥٠، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ١٨٠-١٨١.

(٢) انظر: فن الحوار، فيصل الحاشدي ص٢٠.



مقاصد الحوار

القرآن الكريم تناول كثيرًا من الأدلة والبراهين التي حاور بها وحاج بها خصومه في صورة واضحة جلية يفهمها العامة والخاصة، وأبطل كل شبهة فاسدة، فللحوار في القرآن الكريم مقاصد عدة، منها: إقامة الحجة على البشر و الهداية إلى الحق وحل الخلافات، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: إقامة الحجة:

إنّ من الأساليب التي استخدمها القرآن الكريم من أجل إقامة الحجّة على العباد، والدّلالة على وحدانيّته سبحانه وتعالى، وعلى صدق ما جاؤوا به من رسالات، ويلّغوا به دين الله في الأرض، هو الحوار فالغاية من الحوار إقامة الحجة ودفع الشبهة والفاسد من القول والرأي، والسير بطرق الاستدلال الصحيح للوصول إلى الحق.

من أجل ذلك ورد السياق القرآني الجليل مصدرًا بصيغة الأمر (قل) المشعرة بأن الداعية ينبغي أن يتخذ من القول المبين والحجة البالغة منهاجًا وغاية، ونجد فعل الأمر: (قل) وردت (٣٣٢) مرة في القرآن الكريم، [١] من تأملها وتدبرها وقف على منهاج متكامل في صيغ البيان وطرائق الأداء ومسالك إقامة الحجة في إحقاق الحق ودحض الباطل[٢].

- في تقرير التوحيد يقول عز وجل: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].
- وأيضًا في الرد على المشركين قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سبأ: ٢٤-٢٧].
- وأيضًا في الرد على منكري النبوة قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٥٧١.

(٢) انظر: وسطية الإسلام ودعوته إلى الحوار، عبدالرب آل نواب، ص ٣٤.

﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٤٦-٥٠].

نلاحظ من الآيات السابقة كيف أقام القرآن الكريم الحجة على الناس أجمعين مؤمنهم وكافرهم، وأظهرت قدرة الله عز وجل وعظيم شأنه جل جلاله.

وإذا نظرنا في المحاورات التي أثبتها الله في كتابه العزيز، فسنلاحظ صنفين منها:

صنف يبتدئ فيه المتحاورون بالتخاصم من أول الأمر، كل يريد إثبات دعواه فيما ذهب إليه، وهذا الصنف نستطيع تسميته «مناظرة أو جدل».

ومثال ذلك: عندما حاور سيدنا إبراهيم عليه السلام النمرود في المناظرة التي أثبتها الله عز وجل في آياته الكريمة.

ومن الواضح من خلال هذه الآية، أن النمرود بدأ مخاصمًا لإبراهيم عليه السلام من أول الأمر، وهذه مناظرة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فهذا الملك الذي حاج إبراهيم في ربه لم يكن منكرًا لوجود الله أصلًا إنما كان منكرًا لوحدانيته في الألوهية والربوبية ولتصريفه للكون وتدبيره لما يجري فيه وحده، وهذا شأن الكثير من الناس في الجاهلية يعترفون بوجود الله، ولكنهم يجعلون له اندادًا ينسبون إليها الأعمال، وسبب هذه المحاجة لأنه أعطاه جل جلاله الملك فبطر وتكبر ولم يشكره سبحانه على هذه النعمة، بل استعملها في غير ما خلقت له فنسب لنفسه الإحياء والإماتة بطريقة سخيفة غير منطقية[(١)].

وكان رد سيدنا إبراهيم عليه السلام على ذلك الملك في مقام التدليل على وحدانية الله أنه عز وجل هو المستحق للعبادة، ربي وحده هو الذي ينشئ الحياة ويوجدها، ويميت الأرواح ويفقدها حياتها، ولا يوجد أحد سواه يستطيع أن يفعل ذلك، فالتحدي قائم، والأمر ظاهر، ولا سبيل إلى سوء الفهم، أو الجدال والمراء، وكان التسليم أولى والإيمان أجدر، ولكن الكبر عن الرجوع إلى الحق يمسك بالذي كفر، فيبهت ويبلس ويتحير، ولا يهديه الله إلى

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٩٧ التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٥٩٣.

الحق؛ لأنه لم يتلمس الهداية، ولم يرغب في الحق ولم يلتزم القصد والعدل[1].

صنف ثان يبتدئ فيه الطرفان لا على أنهما خصمان يختلفان في الاعتقاد والمذهب، بل هما شريكان فيه، وهذا ما نستطيع تسميته بالحوار.

حوار آخر في القرآن لإبراهيم عليه السلام أيضًا وهو يحاور قومه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥ - ٧٩].

فسيدنا إبراهيم عليه السلام يحاكي قومه في اعتقادهم، ولا يعلن مخالفته لهم، ولم يسفه أحلامهم، فذلك أدعى إلى إنصاتهم لقوله، وتفهمهم لحجته، ثم لم يلبث أن كرّ على قولهم ينقضه، ولكن من طرف خفي ينبع عن سداد في الرأي ونفاذ للبصيرة[2].

ولم يكن إبراهيم عليه السلام يعتقد هذه العبادة، ولكنه نصّب نفسه في أول الأمر شريكًا لقومه فيها، استدراجًا لهم واستهواء لقلوبهم، حتى إذا أحس منهم الإصغاء راح ينقض هذه العبادة شيئًا فشيئًا، وقومه لا يبدون التخاصم معه، حتى إذا أعلن انصرافه عن آلهتهم وبراءته من عبادتهم، عندها حاجوه في ذلك الذي فاجأهم به حيث لا يتوقعونه، وفي هذه المرحلة بدأت المناظرة.

فيلاحظ هنا أنه بدأ معهم شريكًا في الاعتقاد، وهو يحاورهم ويحاورونه في جو من الهدوء حتى إذا أعلن مخالفته لهم انقلب الحوار إلى مناظرة بينه وبينهم كل يريد إثبات رأيه[3].

فلما ستره الليل بظلامه، أبصر كوكبًا ظاهرًا في السماء فقال عليه السلام مستعظمًا شأن هذا الكوكب: هذا ربي، مجاراة لقومه وتأليفًا لقلوبهم، حتى بلغوا بقلوبهم إلى التأمل في موضع الحجة، فلما غاب هذا الكوكب وأفل قال: لا أحب اتخاذ الآفلين أربابًا، لأن الرب الحقيقي، الجدير بالربوبية، يستحيل عليه التغير والانتقال من حال إلى حال؛ لأن ذلك من شأن الحوادث فلم ينتفعوا بهذا الاستدلال[4].

فانتقل إلى الاستدلال التالي حين أبصر

---

(١) انظر: منهج القرآن الكريم في إقامة الدليل والحجة، مجاهد محمود ص١٠٢.

(٢) انظر: قصص القرآن، جاد المولى، ص١٣٢.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٣/ ١٢٧٥.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٦.

إبراهيم القمر قال مستعظمًا شأنه: إنه ربه، مجاراةً لقومه أيضًا، فلما أفل وغاب قال إبراهم: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنعام: ٧٧]، قصد به تنبيه قومه للنظر في معرفة الرب الحق وأنه واحد، وأن الكوكب والقمر كليهما لا يستحقان ذلك، مع أنه عرّض في كلامه بأن له ربًّا يهديه وهم لا ينكرون عليه ذلك؛ لأنهم قائلون بعدة أرباب، وفي هذا تهيئة لنفوس قومه لما عزم عليه من التصريح بأن له ربًّا غير الكواكب.

ثم عرَّض بقومه أنهم ضالون وهيأهم قبل المصارحة للعلم بأنهم ضالون.

وإنما تريث إلى أفول القمر فاستدل به على انتفاء إلهيته، ولم ينفها عنه بمجرد رؤيته بازغًا، مع أن أفوله محقق بحسب المعتاد؛ لأنه أراد أن يقيم الاستدلال على أساس المشاهدة على ما هو المعروف في العقول؛ لأن المشاهدة أقوى.

فلما طلعت الشمس قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ﴾، فعلل ربوبية الشمس بكونها أكبر من الكوكب والقمر، وهي أكثر إضاءة، فأولى باستحقاق الإلهية[(١)].

فلما غابت الشمس أعلن براءته مما كانوا يعبدون من دون الله، وأعلن الإيمان الذي استقر في قلبه حقًّا ويقينًا و بين عليه السلام بالحجة الدامغة على أن لا اله إلا الله عز وجل، والذي يستحق العبادة الذي أنشأ السموات والأرض وما فيهما مائلًا عن الاعتقادات الباطلة، إلى عقيدة التوحيد المؤيدة بالدلائل[(٢)].

وعن هذا يقول الزمخشري رحمه الله تعالى: «فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤدّ إلى أن شيئًا منها لا يصح أن يكون إلهًا، لقيام دليل الحدوث فيها، وأن وراءها محدثًا أحدثها، وصانعًا صنعها، ومدبرًا دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها، هذا ربّي، قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكى قوله كما هو غير متعصب لمذهبه؛ لأنّ ذلك أدعى إلى الحق وأنجى من الشغب، ثم يكرّ عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة أنه لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حال»[(٣)].

ومن خلال ما سبق يتضح لنا أن القرآن الكريم قد أقام الحجة على المشركين بالله بالحوار بطريق الاستدلال العقلي للوصول إلى الحقيقة الكامنة بأن لا إله يستحق العبادة سوى الله جل جلاله.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٣٢١-٣٢٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٤٨٠، في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ١١٣٩.

(٣) الكشاف ٢/ ٤٠.



ثانيًا: الهداية إلى الحق:

كشف الشبهات والرد على الأباطيل، لإظهار الحق وإزهاق الباطل هو واحد من مقاصد الحوار في القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، ومن أمثلة هذه الحوارات الهادية للحق في القرآن الكريم:

١ . حوار الرجل المؤمن مع صاحبه الكافر.

والحوار في الآيات التالية ينحو نحوًا إيجابيًّا لإحقاق الحق وإبطال الباطل، والآيات تقرر أن الطرفين المتحاورين ليسا عدوّين ابتداءً.

قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٧ - ٤١].

وفى هذه الرؤية العاقلة، والحوار البناء نرى بصيصًا من نور في قلب وفكر يعرف طريق الحق، فينصح ويبذل الخير لغيره حتى يهتدى، يصور هذا كله في صورة رجلين:

أحدهما: له جنتان مثمرتان، وقد حوتا ألوان الثمار، وزخرتا بكل ألوان الجمال البادي في المياه الجارية، والزروع، والنخيل، والأعناب، مما كان دافعًا بصاحبها إلى الغرور، والتباهي على الآخر بكثرة ما لديه، وأنه لن يفنى أبدًا، وأن حظه في الآخرة، إن كانت هناك آخرة، سيكون أوفر ثراء، وأكثر رزقًا، ظلم نفسه بهذا التفكير الأخرق، وبكفره، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا، ونسيانه للآخرة، وبذلك عرضها للعقاب يوم القيامة[(١)].

والثاني: المؤمن الواعظ لأخيه الناصح له بالحوار الهادئ الزاجر عما هو فيه الآخر من الكفر الراضي عن الله عز وجل والذي ادخر ما عنده للآخرة التي هي خير وأبقى[(٢)].

هذه صورة مؤلمة لمن يخدع بالمظاهر البراقة التي قد تخدع، وتغري بما لا تحمل في طياتها من القيم الرفيعة التي يعتز بها الإنسان، يخدع بمتاع زائل، وجاه عريض، وسلطان مزيف، ولذائذ رخيصة، وينسى تلك القيم التي تعلي من شأن الإنسان، وإن كان فقيرًا مجردًا من المال والسلطان، من جهاد النفس، والزهد في الحياة، والعلم، والعمل، والبذل في سبيل الدعوة فالحق

(١) السراج المنير، الشربيني ٢/ ٣٧٥.
(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٣٢.

بين وإن كان الباطل الخبيث أوفر حظًا من الطيب[1].

وصيغة (يحاوره) و(تحاوركما) تقتضي المشاركة من الطرفين في هذا النقاش والحوار وأن كلًا منهما يسمع للآخر دون مصادرة للرأي أو قصدٍ لمجرد الإفحام، والملاحظ أن الطرف المؤمن في هذا الحوار على درجة من الوعي الديني والثبات والعلم، فكان الهدف من هذا الحوار أن يرجع الكافر الضال عما هو فيه من الغي والظلم لنفسه ويعود للحق الذي لا مراء فيه، وأخيرًا اتضحت هذه الحقائق أمام عينيه وتكشفت الحقائق، فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها، ويقول ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٢].

٢. حوار موسى عليه السلام وفرعون.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٤٩-٥٢].

أمر الله عز وجل موسى وهارون عليهما السلام بالتوجه إلى فرعون وإخباره أنهما رسولان من ربه، وأن يطلبا منه رفع العذاب عن بني إسرائيل، ويخبراه أن السلام على من اتبع الهدى، والعذاب على من كذب وتولى فتوجها إليه وأبلغاه، فبدأ يناقشهما فيما جاءاه به.

وأول ما بدأ به مناقشته أن قال: إذا كنتما رسولي ربكما الذي أرسلكما فأخبراني من ربكما الذي تدعوني إلى الإيمان به يا موسى.

فكان جواب موسى عليه السلام لفرعون: ربّنا يعرف بصفاته، ولا يدرك بذاته، فهو الذي أعطى كل شيء ما خلقه عليه من المادة والصورة والوظيفة، وأعطاه ما يحقق به ما خلق له، وهداه إلى تحقيقه[2].

فلما وضح الحق في جانب موسى عليه السلام وظهر جليًا للعيان، خاف فرعون أن يتأثر الناس بما قاله موسى عليه السلام، فيكفوا عن القول بألوهيته، والاندماج في عبوديته، فلهذا وجه إليه سؤالًا يريد أن يحرجه به، ويظهر ضعفه أمام سامعيه، فقال له: إن كنت رسولًا يا موسى فأخبرني: ما حال أهل القرون الماضية، وماذا جرى عليهم من الحوادث مفصلة؟ فقال موسى عليه السلام ﴿عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

فعلم أحوال القرون الماضية يختص به

(١) انظر: عون الحنان في شرح الأمثال في القرآن، الطهطاوي ص ٢٦٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٦٢.

ربّي الذي أرسلني وما أنا إلا عبد له تعالى، فلا علم لي إلا بما أخبرني من شئون الرسالة، وقد بلغ من علم الله أنه سبحانه وتعالى لا يضل ولا يغيب عنه شيء في الوجود، فلا يفوته علم شيءٍ منه ابتداءً، ولا ينسى معلومًا دخل دائرة علمه، فقد أحصى وأحاط بكل شيءٍ علمًا أزلًا وأبدًا(١).

هذا هو ديدن الكفار والظالمين على مر الزمان، جدال عقيم من أجل إضلال الناس، وغطوا أعينهم عن الحق وأبوا إلا المشي في طريق الضلال وكذبوا الرسل بما جاؤوا به من عند الله، فقال الحق سبحانه وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

يجادلون في آيات الله جل جلاله الواضحة البيان، المؤيدة بالبرهان، ويكفرون بالحق مع وضوحه، فهمت كل أمة برسولهم ليقتلوه، وخاصموا رسولهم بالباطل ليبطلوا بجدالهم إياه وخصومتهم له الحق الذي جاءهم به من عند الله، من الدخول في طاعته، والإقرار بتوحيده، والبراءة من عبادة ما سواه.

فما كان عقابهم إلا أن أخذ الله عز وجل الذين هموا برسولهم ليأخذوه بالعذاب، فأهلكهم وجعلهم للخلق عبرة، ولمن بعدهم عظة(٢).

ونظير ذلك من قبيل المناظرة التي تهدف إلى إظهار الحق، وإقامة البرهان على صحته، وهي الطريقة التي يشتمل عليها جدل القرآن في هداية الكافرين وإلزام المعاندين، بخلاف مجادلة أهل الأهواء فإنها منازعة باطلة، قوله عز وجل: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦].

فهنا أيضًا يجادل الذين كفروا رسلهم بالجدال الباطل، ليزيلوا به الحق الذي جاء به هؤلاء الرسل ويدحضوه ويبطلوه، والله سبحانه وتعالى متم نوره ولو كره الكافرون، فإن الباطل مهما طال فإن مصيره إلى الاضمحلال والزوال(٣).

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «ويستفاد من الآية أن كل إنسان يجادل من أجل أن يدحض الحق فإن له نصيبًا من هذه الآية، يعني: أن فيه نصيبًا من الكفر والعياذ بالله؛ لأن الكافرين هم الذين يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق»(٤).

(١) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٦/ ١٠٣٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٥٣.

(٣) انظر: مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص ٣١٠.

(٤) تفسير القرآن الكريم، سورة الكهف، ابن

ثالثًا: حل الخلافات:

الحوار الهادئ مفتاح للقلوب وطريق إلى النفوس الطيبة وسبيل مضمون لحل الخلافات.

قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

فالحوار المشتمل على الموعظة الحسنة التي يستحسنها السامع، وتكون في نفسها حسنة باعتبار انتفاع السامع بها والتي تساعد في حل المشكلات، ولكن الداعي قد يحتاج مع الخصم الألد إلى استعمال المعارضة والمناقضة ونحو ذلك من الجدل، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، أي: بالطريق التي هي أحسن طرق المجادلة، وإنما أمر الله عز وجل بالمجادلة الحسنة لكون الداعي محقًّا وغرضه صحيحًا، وكان خصمه مبطلًا وغرضه فاسدًا، والغرض الرئيس من ذلك الجدال الحسن هو السير قدمًا نحو الأفضل[1].

فمن ثمرات الحوار تضييق هوة الخلاف، وتقريب وجهات النظر، وإيجاد حل وسط يرضي الأطراف في زمن كثر فيه التباغض والتناحر.

ومن ضمن المشكلات التي تحل بالحوار من أجل تقارب وجهات النظر ومحاولة إيجاد حلول مرضية المشاكل الزوجة، ولنا في القرآن الكريم أسوة حسنة في الحوار الجاد من أجل إنقاذ بيت الزوجية.

فعن عروة، قال: قالت عائشة رضي الله عنها: (تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى علي بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تقول: يا رسول الله، أكل شبابي ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني وانقطع له ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت عائشة: فما برحت حتى نزل جبريل عليه السلام بهؤلاء الآيات ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، قال: وزوجها أوس بن الصامت[2].

نلاحظ هنا:

- «أن المرأة المسلمة وقفت أمام رسول

عثيمين ص ١٠٠.

(١) انظر: نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، القنّوجي، ص ٣٦٣

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الطلاق، باب الظهار، ١/ ٦٦٦، رقم ٢٠٦٣، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب التفسير، تفسير سورة المجادلة ٢/ ٥٢٣، رقم ٣٧٩١. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد. وصححه الألباني في إرواء الغليل، ٧/ ١٧٥، رقم ٢٠٨٧.

الله صلى الله عليه وسلم تجادله وتحاوره وتبادله الحجة بالحجة، حتى إن القرآن يستدل في شأنها، ويستجيب الحق لندائها، وتكون قضيتها صدر سورة من كتاب الله خالدة ما بقيت السماوات والأرض»[(١)].

- بيان لما جبلت عليه المرأة المسلمة من شريف الخلال، ونبيل الخصال، وكريم الأخلاق، فهي في هذه القصة: مؤمنة تقية قوية الإيمان، عظيمة التقوى لله، تمنع نفسها زوجها حتى تعلم حكم الله ورسوله، وتلجأ إلى الله وحده في حرارة ورجاء أمل؛ تسأله أن ينزل تفريج كربها وحل لمشكلتها على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم[(٢)].
- وهي فقيهة ذكية الفؤاد تقرع الحجة بالحجة والدليل بالدليل، وتراها وفيّة لزوجها، أمينة على صحبته، حفيظة على حقوق عشرته، وتراها مربية فاضلة تقدر حياة الأسرة قدرها وتحافظ على كيانها، وتعلم أن الأسرة المبتورة لا خير فيها[(٣)].
- هذه الصورة للجدال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تدلّ على حضور الله سبحانه وتعالى مع الناس، وما يصيبهم من مشكلات، وتدلّ على رعايته وتوجيهه لكل حدث في الأرض، صغير أو كبير، وأن تشعر جماعة من الناس أن الله هكذا معها، حاضر شؤونها، جليلها وصغيرها، معنيّ بمشكلاتها اليومية، مستجيب لأزماتها العادية، فالحوار من أمثل الطرق التي تؤدي إلى حل لهذه المشاكل بين الناس[(٤)].

ثم يقرر أصل القضية، وحقيقة الوضع فيها والحل الجذري لمثل هذه المشاكل، فالحوار البناء الهادف هو الذي تنتج عنه الحلول، فكان الحل من رب السموات والأرض.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٣ - ٤].

فهو علاج للقضية من أساسها إن هذا الظهار قائم على غير أصل، فالزوجة ليست أما حتى تكون محرمة كالأم، فالأم هي

(١) نظرات في كتاب الله، الساعاتي، ص٤٨٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٧.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٠٥.
(٤) انظر: نظرات في كتاب الله، الساعاتي، ص٤٨٦.

التي ولدت، ولا يمكن أن تستحيل الزوجة أما بكلمة تقال، إنها كلمة منكرة ينكرها الواقع[(١)].

ونلاحظ أن الخلافات بين الناس قد لا تحل نهائيًّا ولا تحسم القضية فيها، لكن الحوار على الأقل قد يزيل بعض ما في الصدور، حتى تجمع بين المختلفين على الأقل ليخف شيء من الشحناء إذن قد تكون غاية الحوار ليست بالضرورة أن تصل إلى ما تريد في هذه المرحلة، إنما تكون الغاية إيجاد حل وسط يرضي الأطراف، فأحيانًا يكون مقصود المحاور التعرف على وجهات نظر الأطراف الأخرى.

أما وقوع الخلاف بين الناس فقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى أن الخلاف موجود، كما أن الله جعل الناس مختلفين في صورهم ومختلفين في أشكالهم؛ قال جل جلاله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم:٢٢].

نبه سبحانه وتعالى على خلق السماوات والأرض واختلاف اللغات والألوان واختلاف ضروب بني آدم وأنواعهم[(٢)].

هذا الاختلاف الخلقي يترتب عليه اختلاف في الرؤى، واختلاف في التصورات، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى في مقام آخر: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٨ - ١١٩]، فالخلاف موجود، ولا يمكن أن تنفك الدنيا عن الخلاف، ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون الناس جماعة واحدة في دينها وتقواها واتزان عقولها، بحيث لا يقع من أحد منهم كفر ولا إفساد، لو أراد الله عز وجل ذلك لوقع، ولكنه لم ولا يزال الناس مختلفين، بعضهم على الحق، وبعضهم على الباطل، بعضهم يستعمل عقله، ويسترشد مما رسمه له الرسل فيهتدى، وبعضهم لا ينتفع بذلك، بل يتبع هواه فيضل ويغوى[(٣)].

ومن أروع نماذج الحوار الهادف لحل المشكلات في السنة المطهرة حوار عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يربي أصحابه على الحوار حتى في أحلك الظروف وفي المواقف التي تستدعي أناة وترويًّا، ومثاله ما كان يوم الحديبية لما كتب الصلح ورأى بعض المسلمين فيها إجحافًا، وقع حوار بين بعضهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم،

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٣٨٣.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٣٣.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٦٠٥.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فأتيت نبي الله صلى الله عليه وسلم فقلت: ألست نبي الله حقًّا.

قال: (بلى).

قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل.

قال: (بلى).

قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذًا؟

قال: (إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري).

قلت: أوَ ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟

قال: (بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام).

قال: قلت: لا.

قال: (فإنك آتيه ومطوف به).

قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقًّا؟

قال: بلى.

قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟

قال: بلى.

قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذًا؟

قال: أيها الرجل إنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه[1]، فوالله إنه على الحق.

قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟

قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟

قلت: لا.

قال: فإنك آتيه ومطوف به)[2].

(١) بغرزه: «أي: أمسكه وأتبع قوله وفعله، كمن يمسك بركاب راكب ويسير بسيره»، مجمع بحار الأنوار ٤/ ٢٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، ٣/ ١٩٦، رقم ٢٧٣١.

أنواع الحوار في القرآن

لقد استخدم القرآن الكريم أسلوب الحوار، كأحد أهم الأساليب لإيصال دعوة التوحيد لكافة المكلفين، فكان منها الحوار العقدي، والذي يهدف لترسيخ العقيدة الصحيحة، والحوار الدعوي، والحوار العتابي، والحوار الإصلاحي، والحوار العلمي، وفيما يأتي تفصيل ذلك.

أولًا: الحوار العقدي:

إرساء العقيدة الصحيحة هو الأساس المتين الذي يقوم عليه صرح الإسلام العظيم؛ لذا فقد اهتم القرآن الكريم في إرساء تلك القواعد والمفاهيم من خلال أساليب كثيرة، والتي كان أبرزها أسلوب الحوار العقدي، والذي كان فيه الأنبياء وأقوامهم هم طرفي الحوار، وفيما يأتي بعضًا من تلك النماذج.

١ . حوار نوح عليه السلام مع قومه.

أخبرنا الله عز وجل أنه بعث نوحًا رسولًا إلى قومه، حيث قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩﴾ [الأعراف:٥٩].

ونرى بأن حواره صيغ بصياغة واضحة بألفاظ دقيقة ومحددة الدلالات؛ لأن الكلمات الفضفاضة والتعابير المطاطة تلقى بالناس في متاهات لا صلة لها بالواقع.

قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ۝٢٧ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ۝٢٨ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود:٢٧ - ٢٩].

فلما دعا سيدنا نوح عليه السلام قومه إلى عبادة الله كان ردّهم: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود:٢٧]، قال الطبري: قال الكبراء من قوم نوح وأشرافهم الذين كفروا بالله وجحدوا نبوة نبيهم نوح عليه السلام: ما نراك يا نوح إلا بشرًا مثلنا، يعنون بذلك أنه آدمي مثلهم في الخلق والصّورة والجنس، كأنهم كانوا منكرين أن يكون الله يرسل من البشر رسولًا إلى خلقه[(١)].

بعد أن سمعهم سيدنا نوح عليه السلام وتأمل في أدلتهم وما اشتملت عليه من

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٩٥.

شبهات، رد عليهم بأسلوب رقيق وجذاب بأدلة تفنّد مزاعمهم: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود:٢٨ - ٢٩][1].

قال المراغي: بعد أن ذكر مقالتهم وطعنهم في نوح عليه السلام بتلك الشبه السالفة، قفى على ذلك بدحض نوح لها، ورد شبهات أخرى قد تكون صدرت منهم ولم يحكها، لعلها من الرد عليها، وربما لم يقولوها وإن كان كلامهم يستلزمها، وهذا من خواصّ أسلوب الكتاب الكريم، وسرّ من أسرار بلاغته[2].

فلقد ردّ نوح على كل شبهة على حده، وحاول أن يرجعهم إلى الموضوع الرئيسي وهو عبادة الله.

٢. حوار إبراهيم عليه السلام مع قومه.

حاور إبراهيم عليه السلام أبيه وقومه وعلى رأسهم الطاغية النمرود حوارات متعددة، وذلك لإرساء قواعد العقيدة الصحيحة، وكانت حواراته كلها مفعمة بأدب الحوار، وتبيين ذلك فيما يلي:

أولًا: في كلامه الموجّه إلى رب العالمين والذي يظهر في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء:٧٩ - ٨٠]، أسند المرض إلى نفسه تأدبًا في كلامه الموجّه إلى الله، وأسند الشفاء إلى الله، وإلا فالممرض والشافي هو الله تعالى بإجماع أهل الدين[3].

ثانيًا: في حواره مع أبيه آزر حينما قال له: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم:٤٦]، تهديد من الأب بالرجم والهجر الطويل، فما كان من نوح إلا أن قال: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم:٤٧]، إنه أدب الحوار، وردّ نية الإساءة بالإحسان، قال الرازي: «واعلم أن إبراهيم عليه السلام رتب هذا الكلام في غاية الحسن؛ لأنه نبه أولًا على ما يدل على المنع من عبادة الأوثان، ثم أمره باتباعه في النظر والاستدلال وترك التقليد، ثم نبه على أن طاعة الشيطان غير جائزة في العقول، ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام على ما لا ينبغي، ثم إنه عليه السلام أورد هذا الكلام الحسن مقرونًا باللطف والرفق،

(١) انظر: دراسة عن أسلوب الحوار في القرآن الكريم، إسحاق رحماني على موقع النور للدراسات الحضارية والفكرية.

(٢) انظر: تفسير المراغي ١٢/ ٢٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٥٣.

فإن قوله في مقدمة كل كلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ دليل على شدة الحب والرغبة في صونه عن العقاب وإرشاده إلى الصواب، وختم الكلام بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ وذلك يدل على شدة تعلق قلبه بمصالحه»[1].

ثالثًا: حتى في حواره مع الملائكة مع جهله بحقيقتهم في بداية الأمر فقد ظنهم ضيوفًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود:٦٩].

يبيّن أدب المعاملة وكرم الضيافة حتى مع الأغراب فقد قالوا له سلامًا، فرد عليهم بقوله: سلامٌ، أي: عليكم، قال علماء البيان: هذا أحسن مما حيّوه به؛ لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام»[2].

رابعًا: في حواره مع أبنائه عندما وصّاهم بالتمسك بالدين في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢].

ويظهر ما في لهجته مع أبنائه من تحبب وتقرب يدلان على أدب رفيع في الحوار مع الآخرين، متلازمًا مع غرز عقيدة الإسلام الصحيحة؛ والتي تمثلت بالتمسك بالإسلام الذي هو الشق العقدي من رسالة الأنبياء جميعًا، وقضية الموت عليه؛ فقوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾: إيجاز بليغ، وذلك أنّ المقصود من أمرهم بالإسلام الدوام عليه، فأتى بلفظ موجزٍ يقتضي المقصود، ويتضمّن وعظًا وتذكيرًا بالموت، وذلك أن المرء يتحقّق أنه يموت، ولا يدري متى، فإذا أمر بأمر لا يأتيه الموت إلاّ وهو عليه، فقد توجّه من وقت الأمر دائبًا لازمًا.

خامسًا: في حواره مع الكفار والنمرود الذي ادّعى الألوهية وهو واحد منهم؛ ويتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِيمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨].

وفي هذا الحوار أيضًا تناول قضية الربوبية والتي تمثلت في قضية الإحياء والإماتة، وقضية التحكم بالشمس التي جزء من الكون الفسيح؛ قال السمعاني: «كانت تلك المحاجة في الربوبية من نظر الملك وطغيانه»[3].

وبعد هذا، فليس غريبًا أن يقول الله سبحانه وتعالى في سيدنا إبراهيم عليه

(١) انظر: مفاتيح الغيب ٢١/ ٥٤٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٣٢.
(٣) تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٢٦١.

السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠]، وقد امتزج إرساء قواعد العقيدة بالأدب الحواري الجم.

٣. حوار شعيب عليه السلام مع قومه.

أرسل الله تعالى نبيه شعيبًا عليه السلام إلى أصحاب الأيكة، وهم مدين؛ ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[الأعراف:٨٥].

وقد اشتملت قصته مع قومه على أفضل الأساليب في الحوار مع الطرف الآخر، لتبليغ دعوة الله، حيث اشتمل حواره على الجانبين: جانب العقيدة، وجانب الحياة، وقد برع وأبدع في حواره حيث لون في الخطاب، ورغب ورهب، وفيما يلي بيان ذلك:

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَٱصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف:٨٥ - ٨٩].

عند تحليل حوار شعيب مع قومه نقف على براعة الحوار وقوة الأسلوب لتحقيق الأهداف، ويظهر ذلك فيما يأتي(١):

١. بدأ شعيب عليه السلام دعوة قومه بالتوحيد، وهي الدعوة التي جاء بها جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام؛ لأن الخصم إذا آمن بالله وحده، واستسلم له، فإنه يمتثل لكل ما أمر الله به ونهى عنه، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ﴾، وفي العنكبوت: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱرْجُوا ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت:٣٦]؛ فوحدانية الله هي القاعدة التي يعلم أن منها تنبثق

(١) انظر: دراسة بعنوان: حوار شعيب عليه السلام مع قومه في القرآن الكريم، محمد أحمد الكردي، على موقع حيران انفوا.

كل مناهج الحياة، وكل أوضاعها، كما أن منها تنبثق قواعد السلوك والخلق والتعامل، ولا تستقيم كلها إلا إذا استقامت هذه العقيدة. ولقد جرت سنة الأنبياء أن يبدأوا بدعوة أقوامهم إلى التوحيد، ثم علاج المشكلات القائمة عندهم[1].

٢. استعمال الألفاظ المحببة: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥].

٣. استعمال الفصاحة والبيان والبلاغة: فشعيب عليه السلام هو خطيب الأنبياء، وحواره مع قومه كان حوارًا فصيحًا بليغًا، بعيدًا عن الغموض والتشدق، والمقصود أن يتكلم المحاور عندما يحاور الآخرين، بكلام واضح مفهوم، ليس فيه غموض ولا لبس.

٤. تلوين الخطاب في الحوار: للنهي عن المخالفات الخطيرة التي يفعلها قومه بأكثر من أسلوب، فبعد أن نهى شعيب عليه السلام قومه عن الشرك، ودعاهم للتوحيد، وجههم إلى الالتزام بطاعة الله، حذرهم من معاصي خطيرة تهدد وجودهم ومصيرهم، ومن أبرز ذلك: لا شك أن أعظم مخالفة كان يفعلها قوم شعيب بعد الشرك، هي: التطفيف في الكيل والميزان، وبخس الناس أشياءهم.

٥. ضبط النفس: فقد اتهموه بالسحر والكذب، فلم ينفعل، ولم يغضب، بل تحلى بسعة الصدر، وهكذا الداعية المسلم المحاور، ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧][2].

٦. الإقناع بالأدلة والبراهين والحجج الدامغة: فقد ردّ شعيب عليه السلام على قومه بالأدلة المقنعة، فبهتهم، ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، هذا تلطف معهم في العبارة ودعوة لهم إلى الحق بأبين إشارة. يقول لهم: أرأيتم إن كنت على أمر بيّن من الله تعالى، وأنه أرسلني إليكم، ورزقني النبوة والرسالة، وعمي عليكم معرفتها، فأي حيلة لي فيكم[3]، وهكذا يبين المحاور أنه يمتلك الحجة والدليل، وأن رأيه

(١) انظر تفسير المراغي ٨/ ٢١٠.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٠١.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٢٣٤.

ليس مبنيًا على الهوى والمزاج.

٧. الثبات عند الخلاف على العقيدة: «لقد وقف شعيب عليه السلام عند النقطة التي لا يملك أن يتزحزح وراءها خطوة، إنها عقيدة الوحدانية التي لا يملك أي محاور التنازل عنها، تحت أي ضغط أو أي تهديد من الطواغيت وإلا لتنازل كلية عن الحق الذي يمثله؛ ﴿قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝٩١ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: ٩١ - ٩٢].

٨. طلب النصرة من الله: فشعيب عليه السلام استفتح على قومه، واستنصر ربه عليهم في تعجيل ما يستحقونه إليهم فقال: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، إنه يعرف مصدر القوة، وملجأ الأمان، ويعلم أن ربه هو الذي يفصل بالحق بين الإيمان والطغيان، ويتوكل على ربه وحده في خوض المعركة المفروضة عليه وعلى المؤمنين معه، والتي ليس منها مفر، إلا بفتح من ربه ونصر»[(١)].

ثانيًا: الحوار العلمي:

هذا النوع من الحوار الذي يكون موضوعه التعليم والتلقين ظهر واضحًا جليًّا في قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح، والتي حملت في ثناياها دروسًا كثيرة في التواضع وأدب المتعلم واحترام العلماء.

قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝٦٨ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ۝٦٩ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٦٥ - ٧٠].

هذه رحلة موسى بن عمران نبي بني إسرائيل مع فتاه يوشع عليهما السلام للقاء العبد الصالح، وهو الخضر عليه السلام، لتعليمه التواضع في العلم، وأنه وإن كان نبيًّا مرسلًا، فقد يكون بعض العباد أعلم منه، وفي هذا من الفقه: رحلة العالم لطلب الازدياد من العلم، والاستعانة على ذلك بالخادم والصاحب، واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء، وإن بعدت أقطارهم، كما كان دأب السلف الصالح[(٢)].

وقد اشتمل ذلك الحوار على مجموعة

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب٣/ ١٣٢٢.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٥/ ٢٩٦.

كبيرة من آداب المتعلم والتي منها:

١. لقد جعل موسى عليه السلام نفسه تبعًا للعبد الصالح رغم كونه هو النبي وقال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾، وفي هذا دليل على التواضع للعالم، وفي هذه القصة دليل على الحث على الرحلة في طلب العلم، وعلى حسن التلطف والاستنزال والأدب في طلب العلم، بقوله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾، وفيه المسافرة مع العالم لاقتباس فوائده[١].

٢. أنه استأذن في إثبات هذه التبعية، فقال: هل تأذن لي أن أجعل نفسي تابعًا لك؛ ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾، وهذه مبالغة عظيمة في التواضع.

٣. أنه قال: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾، وهذا إقرار منه على نفسه بعدم المعرفة، وعلى أستاذه بالعلم.

٤. أنه قال: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، وصيغة ما للتبعيض، فطلب منه تعليم بعض ما علّمه الله، وهذا أيضًا يشعر بالتواضع، كأنه يقول له: لا أطلب منك أن تجعلني مساويًا في العلم لك، بل أطلب منك أن تعطيني جزءًا من أجزاء علمك، كما يطلب الفقير من الغني أن يدفع إليه جزءًا من أجزاء ماله.

٥. إنّ قول موسى: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ اعتراف بأن الله علمه ذلك العلم.

٦. إن قوله: ﴿رُشْدًا﴾ فيه طلب للإرشاد والهداية، والإرشاد هو الأمر الذي لو لم يحصل لحصلت الغواية.

٧. إن قوله: ﴿أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ معناه: أنه طلب منه أن يعامله بمثل ما عامل الله به، وفيه إشعار بأنه يكون إنعامك عليّ عند هذا التعليم شبيهًا بإنعام الله عليك في هذا التعليم[٢].

٨. وفي قول العبد الصالح لموسى عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٨]، احترام للعقل الذي يؤمن بالأمور الظاهرة، وقد ينكر الأمور الغائبة؛ قال الطبري: «وكيف تصبر يا موسى على ما ترى مني من الأفعال التي لا علم لك بوجوه صوابها، وتقيم معي عليها، وأنت إنما تحكم على صواب المصيب وخطأ المخطئ بالظاهر الذي عندك، وبمبلغ علمك، وأفعالي تقع بغير دليل ظاهر لرأي عينك على صوابها، لأنها تبتدئ لأسباب تحدث آجلة غير عاجلة، لا علم لك بالحادث عنها، لأنها غيب، ولا تحيط بعلم الغيب خبرًا»[٣].

(١) انظر: البحر المحيط في التفسير، ابن حيان ٧/ ٢٠٥.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٨٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٧١.

٩. ويظهر في توجيهات العبد الصالح لموسى عليه السلام أدب المتعلم حيث علمه تلك القاعدة الأدبية: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠]، ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي﴾ أي: إذا رأيت مني شيئًا خفي عليك وجه صحته، فأنكرت في نفسك فلا تفاتحني بالسؤال حتى أكون أنا الفاتح عليك، وهذا من أدب المتعلم مع العالم المتبوع[١]، وقال أبو السعود: وفي قوله: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ﴾ التزام موسى عليه السلام للصبر والطاعة، وهذا من أدب المتعلم من العالم والتابع مع المتبوع[٢].

١٠. وقد ظهر الحرص على التعلم مقرونًا بالاستعانة بالله، وذلك في قول موسى عليه السلام: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩]، فقد طلب موسى عليه السلام لحرصه على العلم وازدياده، أن يستطيع معه صبرًا بعد إفصاح الخضر عن حقيقة الأمر، فوعده بالصبر معلقًا بمشيئة الله، علمًا منه بشدّة الأمر وصعوبته، وأن الحمية التي تأخذ المصلح عند مشاهدة الفساد شيء لا يطاق[٣].

ثالثًا: الحوار الدعوي:

الحوار الدعوي من الأساليب الناجعة لتبليغ دعوة الله واقناع الآخرين، وإبراز الصورة واضحة جلية، وقد استخدم القرآن الكريم هذا الأسوب كثيرًا، ومثاله: قصة صاحب الجنتين حيث تضرب مثلًا للقيم الزائلة والقيم الباقية، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة، والنفس المعتزة بالله، وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس، صاحب الجنتين نموذج للرجل الثري، تذهله الثروة، وتبطره النعمة، فينسى القوة الكبر التي تسيطر على أقدار الناس والحياة، ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى، فلن تخذله القوة ولا الجاه.

وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه، الذاكر لربه، يرى النعمة دليلًا على المنعم، موجبة لحمده وذكره، لا لجحوده وكفره[٤].

قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ

(١) انظر: البحر المحيط في التفسير، ابن حيان ٧/ ٢٠٦.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم ٥/ ٢٣٥.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٧٣٤.
(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٧٠.

لِنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ
أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي
لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ
وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ
مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي
وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٣٨﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ
جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ
أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن
يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ
مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ
بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ
خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾

[الكهف: ٣٢ - ٤٢].

تخبرنا آيات القصة عن وجود رجلين في الماضي، كان بينهما صلة وصحبة، أحدهما مؤمن، والآخر كافر، وقد أبهمت الآيات اسميّ الرجلين، كما أبهمت تحديد زمانهما ومكانهما وقومهما، فلا نعرف من هما، ولا أين عاشا، ولا في أيّ زمان وجدا، وقد ابتلى الله الرجل المؤمن بضيق ذات اليد، وقلة الرزق والمال والمتاع، لكنه أنعم عليه بأعظم نعمة، وهي نعمة الإيمان واليقين والرضا بقدر الله وابتغاء ما عند الله، وهي نعمٌ تفوق المال والمتاع الزائل، أما صاحبه الكافر فقد ابتلاه الله بأن بسط له الرزق، ووسّع عليه في الدنيا، وآتاه الكثير من المال والمتاع، ليبلوه هل يشكر أم يكفر؟ وهل يطغى أم يتواضع؟

وقد دار بينهما حوار دعوي مفعم باللفتات الدعوية التربوية والتي نذكر منها ما يأتي:

١. في قوله: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾.

- قال الرازي: اعلم أن المقصود من هذا أن الكفار افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين فبين الله تعالى أن ذلك مما لا يوجب الافتخار لاحتمال أن يصير الفقير غنيًّا والغني فقيرًا، أما الذي يجب حصول المفاخرة به فطاعة الله وعبادته وهي حاصلة لفقراء المؤمنين، وبين ذلك بضرب هذا المثل المذكور في الآية[(١)].
- وقال السعدي: الافتخار بأمر خارجي ليس فيه فضيلة نفسية، ولا صفة معنوية، وإنما هو بمنزله فخر الصبي بالأماني، التي لا حقائق تحتها، ثم لم يكفه هذا الافتخار على صاحبه، حتى حكم، بجهله وظلمه[(٢)].

٢. وفي قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴿٣٦﴾﴾

[الكهف: ٣٥ - ٣٦]:

(١) انظر: مفاتيح الغيب ٢١/ ٤٦٢.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٧٧.

- اطمئنان الرجل إلى الدنيا ورضاه بها وإعجابه بجنتيه حتى نسي أن الدنيا لا تبقى لأحد.
- القياس الفاسد وإنكار البعث؛ حيث ظن أن الله لما أنعم عليه في الدنيا فلابد أن ينعم عليه في الآخرة، ولا تلازم بين هذا وذاك، بل إن الكفار ينعّمون في الدنيا وتعجّل لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، ولكنهم في الآخرة يعذّبون.
- تمرده وعناده ؛ لقوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ قاله على وجه التهكم والاستهزاء!.
- الغالب أن الله يزوي الدنيا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسّعها على أعدائه الذين ليس لهم في الآخرة من نصيب[1].

٣. وفي قوله: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٣٧ - ٣٨].

- إن عزة الإيمان في النفس المؤمنة تنتفض، فلا تبالي المال والنفر، ولا تداري الغنى والبطر، ولا تتلعثم في الحق، ولا تجامل فيه الأصحاب. وهكذا يستشعر المؤمن أنه عزيز أمام الجاه والمال، وأن ما عند الله خير من أعراض الحياة، وأن فضل الله عظيم وهو يطمع في فضل الله، وأن نقمة الله جبارة وأنها وشيكة أن تصيب الغافلين المتبطرين.
- نصح صاحبه المؤمن له وتذكيره بنعم الله عليه، وكيف خلقه ونقله من طور إلى طور، ويسر له الأسباب، فكيف يليق بك أن تكفر بالله ؟!.
- أن منكر البعث كافر، وفي قول المؤمن ﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ دليل على أن صاحب الجنتين قد أشرك.
- أن في تذكر الإنسان مبدأ أمره وخلقه موعظة عظيمة وذكرى[2].

٤. وفي قوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف: ٣٩].

- أن نعمة الله على الإنسان بالإيمان والإسلام ولو مع قلة المال والولد هي النعمة الحقيقية، وما عداها معرض للزوال والعقوبة.
- ينبغي للإنسان إذا أعجبه شيء أن يقول: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ حتى يفوض الأمر إلى الله لا إلى حوله وقوته.
- من اعترف بفضل الله عليه، فإنه يبارك

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٣٩، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٧١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٧٧.

الله له فيما أعطاه، وأما من أشر وبطر، فلا يبارك الله له فيما آتاه ولا ينتفع به.

- أن ما عند الله خير وأبقى، وما يرجى من خيره وإحسانه أفضل من جميع الدنيا التي يتنافس فيها المتنافسون[1].

٥. وفي قوله: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف: ٤٠]:

- الإرشاد إلى التسلي عن لذات الدنيا وشهواتها بما عند الله من الخير.
- الدعاء بتلف مال من كان ماله سبب طغيانه وكفره وخسرانه، خصوصًا إن فضّل نفسه بسبب ماله على المؤمنين وفخر عليهم.
- أن دعاء المؤمن على جنتيّ الكافر كان غضبًا لله ؛ لكونها غرته وأطغته، لعله ينيب ويراجع رشده ويبصر في أمره.
- لا حرج على الإنسان أن يدعو على ظالمه بمثل ما ظلمه.
- في قوله: ﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، خص السماء لأن ما جاء من الأرض قد يدافع، لكن ما نزل من السماء يصعب دفعه ويتعذر. ابن عثيمين

- قوله: ﴿خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾، أي: أفضل منها، وهي جنة الآخرة، وجنة الدنيا هي الفرح بفضل الله والالتذاذ بطاعته، والاغتباط بالأعمال الصالحة، والأنس بذكر الله وشكره، فهذا خير من متاع الدنيا متاع الغرور[2].

٦. وفي قوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢]:

- استجابة الله لدعاء من دعاه.
- كان مآل الجنتين الانقطاع والاضمحلال، وكأنه لم يتمتع بها.
- الندم بعد فوات الأوان لا ينفع، إنما ينتفع من سمع القصة واعتبر بها.
- أن ما افتخر به لم يدفع عنه من العذاب شيئًا.
- أن سبب عقوبته لأنه أشرك بالله، ونسب نعمة الله إلى غيره، وفضل الله إلى نفسه وقوته وحيلته، وتناسى عطاء الله له[3].

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٦٢، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٣٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٧٨، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٧٢، التفسير المنير، الزحيلي ١٥/ ٢٥٦.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٤٧٨، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٧٢، التفسير المنير، الزحيلي ١٥/ ٢٥٦.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٦٢، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٣٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٤٧٨، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٧٢، التفسير المنير،

رابعًا: الحوار العتابي:

الحوار العتابي نوع من أنواع الحوارات المختلفة، يتعاتب الفرقاء فيما اختلفوا فيه، وقد يتعاتب الرؤساء والمرؤوسين فيه يوم يكونون سواء أمام رب العالمين، كما ويتعاتب أهل النار وهم في النار وكلٌّ منهم يلقي المسؤولية على الآخر، ويكون نقاشهم عقيمًا لا فائدة ترجى منه، وفيما يأتي بعض النماذج لذلك الحوار:

١ . حوار ابني آدم عليه السلام.

يقدم هذا الحوار نموذجًا لطبيعة الشر والعدوان ونموذجًا كذلك من العدوان الصارخ الذي لا مبرر له. كما تقدم نموذجًا لطبيعة الخير والسماحة ونموذجًا كذلك من الطيبة والوداعة. وتقفهما وجهًا لوجه، كل منهما يتصرف وفق طبيعته، وترسم الجريمة المنكرة التي يرتكبها الشر، والعدوان الصارخ الذي يثير الضمير ويثير الشعور بالحاجة إلى شريعة نافذة بالقصاص العادل، تكف النموذج الشرير المعتدي عن الاعتداء وتخوفه وتردعه بالتخويف عن الإقدام عن الجريمة فإذا ارتكبها- على الرغم من ذلك- وجد الجزاء العادل، المكافئ للفعلة المنكرة، كما تصون النموذج الطيب الخير وتحفظ حرمة دمه، فمثل هذه النفوس يجب أن تعيش، وأن تصان، وأن تأمن في ظل شريعة عادلة رادعة[1].

قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ
بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ
يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ
ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي
مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ
رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ
فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ
٢٩ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ
مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي
ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ
يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ
فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١
مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ
مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ
فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا
فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ
جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم
بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ٣٢﴾

[المائدة:٢٧ - ٣٢].

ولقد ظهر في الحوار بعض اللطائف واللفتات والتي نذكر منها ما يأتي:

- العبرة في قصة ابني آدم عليه السلام أن الحسد كان سبب أول جريمة قتل في البشر، وأنه هو أس المفاسد

الزحيلي ١٥/ ٢٥٦.

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٨٧٤.

والمعايب والرذائل في المجتمع، فالأمة المتحاسدة متمزقة متعادية متباغضة، لا تجتمع على خير، ولا تلتقي على فضيلة، ولا تتعاون على بر وصلاح وتقدم، مما يؤدي إلى الضعف والذل والهوان وعبودية أفرادها لمن سواهم[1].

- إن ابني آدم هذين في موقف لا يثور فيه خاطر الاعتداء في نفس طيبة، فهما في موقف طاعة بين يدي الله[2].
- إنّ الله تعالى لا يقبل طاعة إلا من مؤمن متقٍ[3].
- لم يسم الله سبحانه وتعالى المتقبل منه والذي لم يتقبل منه إذ لا جدوى لذلك في موقع العبرة، وإنما حمله على قتل أخيه حسده على مزية القبول، والحسد أول جريمة ظهرت في الأرض[4].
- وقوله: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي﴾ إلخ موعظة لأخيه ليذكره خطر هذا الجرم الذي أقدم عليه، وفيه إشعار بأنه يستطيع دفاعه ولكنه منعه منه خوف الله تعالى[5].
- ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا﴾ دليل على الاستفادة من تجارب الآخرين.
- قال ابن القيم: تأمل الحكمة في إرسال الله تعالى لابن آدم الغراب المؤذن اسمه بغربة القاتل من أخيه وغربته هو من رحمة الله وغربته من أبيه وأهله واستيحاشه منهم واستيحاشهم منه. والغراب أحد الفواسق الخمسة، وفعل ابن آدم وهو القتل من أعظم الفسق فناسب ما بعث إليه هذا الفعل، والله أعلم بمراد كتابه[6].
- ودلت آية: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ﴾ على تشريع القصاص في حق القاتل على بني إسرائيل. وقوله: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ﴾ ليس إشارة إلى قصة قابيل وهابيل، بل هو إشارة إلى ما ذكر في هذه القصة من أنواع المفاسد الحاصلة بسبب القتل الحرام وهو القتل العمد العدوان[7].

٢ . الحوار بين الأتباع والمتبوعين.

هذا الحوار من الحوارات العقيمة بالنسبة لجدواها للمتحاورين، حيث لا تجلب لهم نفعًا، فهم يتعاتبون بعد انقضاء وقت العمل، ويتمنوا لو تكون لهم كرة ليتبرأوا منهم، وتكون عاقبة أمرهم خسرًا، ويريهم الله أعمالهم حسرات.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ

(١) التفسير المنير، الزحيلي ٦/ ١٥٧.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٨٧٥.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٦٢٤.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ١٧٠.
(٥) انظر: المصدر السابق.
(٦) انظر: مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ٢٣٩.
(٧) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٦/ ١٥٩.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾

[البقرة:١٦٥ - ١٦٧].

لقد تضمنت الآيات السابقة مجموعة من الفوائد والدروس والعبر والتي نذكر منها:

١. يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا وما لهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا له أندادًا، أي: أمثالًا ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو، ولا ضد له ولا ندّ له، ولا شريك معه[1]. وهؤلاء الذين يتخذون الأنداد مع الله، لا يسوونهم بالله في الخلق والرزق والتدبير، وإنما يسوونهم به في العبادة، فيعبدونهم، ليقربوهم إليه، وفي قوله: ﴿يَتَّخِذُ﴾ دليل على أنه ليس لله ند، وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أندادًا له، تسمية مجردة، ولفظًا فارغًا من المعنى، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الرعد: ٣٣][2].

٢. من أسباب الحب: اعتقاد المحب أن في المحبوب قدرة فوق قدرته، ونفوذًا يعلو نفوذه، مع ثقته بأنه يهتم لأمره، ويعطف عليه بحيث يمكنه اللجأ إليه عند الحاجة فيستعين به على ما لا سبيل له إليه بدونه، فهذا الاعتقاد يحدث انجذابًا من المعتقد يصحبه شعور خفي بأن له قوةً عاليةً مستمدةً ممن يحب، ويعظم هذا النوع من الحب بمقدار ما يعتقد في المحبوب من الصفات والمزايا التي بها كان مصدر المنافع وركن اللاجئ، وكل ما للمخلوق من ذلك فهو داخل في دائرة الأسباب والمسببات والأعمال الكسبية[3].

٣. وفي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ حبًّا مطلقًا من كل موازنة، ومن كل قيد، أشد حبًّا لله من كل حب يتجهون به إلى سواه، والتعبير هنا بالحب تعبير جميل، فوق أنه تعبير صادق، فالصلة بين المؤمن الحق وبين الله هي صلة الحب، صلة الوشيجة القلبية، والتجاذب الروحي، صلة المودة والقربى، صلة الوجدان المشدود

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٧٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٩.

(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٥٥-٥٦.

بعاطفة الحب المشرق الودود[(١)].

٤. موقف المشركين يوم القيامة عندما يرون جزاء أعمالهم وجزاء إتباعهم لرؤسائهم على معصية الله تعالى، حينما يرون العذاب هو التخلي، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. قال ابن كثير: «لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعًا، أي: إن الحكم له وحده لا شريك له، وأن جميع الأشياء تحت قهره، وغلبته، وسلطانه»[(٢)]، ثم يبدأ المتبوعون بالتخلي عن أتباعهم[(٣)].

٥. إن أعظم جريمة عند الله هي: الشرك به قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم: أيّ الذنب أعظم عند الله ؟ قال: (أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك)[(٤)(٥)].

٦. تحذير العلماء من أن يتخذوا السلاطين أندادًا من دون الله، و«هم علماء الدنيا فإنهم يحلون لمرضاتهم ويحرمون، ويخالفون النصوص الصريحة بضروب سخيفة من التأويل لموافقة أهوائهم، فإن لم يفتوهم بخلاف النص التماسًا لخيرهم، أو هربًا من سخطهم كتموا حكم الله من أجل ذلك، فترى أحدهم إذا سئل: أهذا حق أم باطل وحلال أم حرام ؟ يغض من صوته بالجواب، ولا يجهر بالقول مداراةً للعوام، إذا كان الجواب على غير ما هم عليه، ولا سيما إذا كان هؤلاء العامة من الأغنياء وأصحاب السلطة»[(٦)].

٧. «يتبرأ العابدون أيضًا من معبوديهم، ويتمنون الرجوع إلى الدنيا حتى يعملوا صالحًا ويتبرأوا من الآلهة المزعومة، بل إنهم يطلبون من الله مضاعفة العذاب لهم، كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا

---

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢١٦-٢١٧.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٧٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٩٤.
(٤) أخرجه البخاري، في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ٦/ ١٨، رقم ٤٤٧٧.
(٥) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١/ ٤٣٢.
(٦) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٦٣.

﴿أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب:٦٦ -٦٧]، وهم في هذا التمني كاذبون، بل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون»[1].

٨. دلت الآيات على أن الاتباع في غير طريق الله شرك يعقب ندامة يوم القيامة فلينظر الإنسان مت يتبع؟ وعلى ماذا؟ وبماذا؟ وإلا فإنه سيكون من النادمين فإذا قال الله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣١] لمن تابعوا رجال دينهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال، فكيف بمن يتبع من لا يعترف بحلال وحرام أصلًا؟![2]

٩. لا عذر لأحد في التقليد المحض ولا الاتباع المحض، فالاتباع لا بد أن يكون مبنيًّا على بصيرة وعلم، وليس على هوى ومعصية، ولا يعذر الإنسان في اتباع مثل هذا الاتباع[3].

١٠. قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ دليل على خلود الكفار فيها، وأنهم لا يخرجون منها، وهذا قول جماعة أهل السنة لهذه الآية، ولقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:٤٠][4]، وهذا الخلود والاشتراك في العذاب إنما يعم الأتباع والمتبوعين.

٣. التحاور بين أهل النار.

كما في الجنة نعيمٌ مادي ونعيمٌ معنوي، هناك في النار أيضًا عذاب مادي وآخر نفسي معنوي، والذي يتمثل في التشفّي والانتقام من بعضهم البعض، ولقد ظهر واضحًا جليًّا في محاورة أهل النار لبعضهم وتعاتبهم الذي أفضى لطلب المزيد من العذاب، وفيما يلي توضيح ذلك:

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف:٣٧-٣٩].

أخبر الله تعالى في هذه الآيات الكريمات

(١) التفسير المنير، الزحيلي ١/ ٤٣٣.
(٢) انظر: الأساس في التفسير، سعيد حوى ٢/ ١٤١.
(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٦٩.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٠٧.

أنه لا أحد أخطأ فعلًا، وأجهل قولًا، وأبعد ذهابًا عن الحق والصواب ممن اختلق على الله زورًا من القول، فقال إذا فعل فاحشة: إن الله أمرني بها، أو كذب بأدلته، وأعلامه الدّالة على وحدانيته، ونبوّة أنبيائه، فجحد حقيقتها ودافع صحتها، فهذا سينال العقاب من الله تعالى، وسيصل إليه حظهم مما كتب الله له في اللوح المحفوظ، وسيأخذوا حظوظهم التي قدرها الله تعالى لهم في الدنيا، إلى أن يتوفاهم فينالوا مصيرهم في الآخرة[1].

ولقد تضمنت هذا الآيات العديد من الدروس والعبر واللفتات والهدايات، نقتطف منها ما يأتي:

١. ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾[الأعراف: ٣٨]، أي: يقول الله لكفار العرب، وهم المفترون الكذب والمكذبون بالآيات وذلك يوم القيامة «وعبر بالماضي لتحقّق وقوعه، وقوله ذلك على لسان الملائكة»[2]: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم﴾ علي مذهبكم ﴿مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ﴾، يعني: النار ﴿أُمَّةٌ﴾: جماعة، ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ يعني: «لعنت الأمة التي دخلت قبلها النار»[3]، «إذ هي قد ضلّت باتّباعها وتقليدها في الكفر، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾[العنكبوت: ٢٥]. وهكذا يلعن أصناف الكفار بعضهم بعضًا، ويتبرّأ بعضهم من بعض»[4]، قال مقاتل: «يعني: لعنوا أهل ملتهم»[5]، فيلعن المشركون المشركين واليهود اليهود، وكذلك النصارى النصارى والمجوس المجوس ويلعن الأتباع القادة يقولون: لعنكم الله أنتم غررتمونا[6].

٢. ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾، أي: تداركوا بمعنى تلاحقوا واجتمعوا في النار، ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ﴾ منزلة، وهي: الأتباع والسفلة ﴿لِأُولَاهُمْ﴾ منزلة، وهي القادة والرؤوس، ومعنى ﴿لِأُولَاهُمْ﴾: لأجل أولاهم؛ لأن خطابهم مع الله لا معهم، ﴿عَذَابًا ضِعْفًا﴾: مضاعفًا، ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾[7]، «للقادة ضعف؛ لغوايتهم وإغوائهم؛

(١) انظر: جامع البيان ١٢/ ٤٠٨.
(٢) تفسير البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٢٩٧.
(٣) تفسير السمرقندي ١/ ٥٣٠.
(٤) التفسير المنير، الزحيلي ٤/ ٥٦٤.
(٥) تفسير السمرقندي ١/ ٥٣٠.
(٦) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ٢٣٢.
(٧) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٩٨.

لضلالهم وإضلالهم، وللأتباع ضعف؛ لكفرهم؛ ولاقتدائهم؛ ولتقويتهم أمر القادة، فلولا الأتباع ما كان للقادة سلطان، أو للمستقدمين ضعف بضلالهم وإضلالهم، وللمتأخرين ضعف بضلالهم ومتابعتهم»[1].

٣. ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾، أي: الرؤساء قالوا لأتباعهم: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي: قد اشتركنا جميعًا في الغي والضلال، وفي فعل أسباب العذاب، فأي فضل لكم علينا، ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، ولكنه من المعلوم أن عذاب الرؤساء، وأئمة الضلال أبلغ وأشنع من عذاب الأتباع، كما أن نعيم أئمة الهدى ورؤسائه أعظم من ثواب الأتباع، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل:٨٨]، فهذه الآيات ونحوها، دلت على أن: سائر أنواع المكذبين بآيات اللّه مخلدون في العذاب، مشتركون فيه وفي أصله، وإن كانوا متفاوتين في مقداره، بحسب أعمالهم وعنادهم وظلمهم وافترائهم، وأن مودتهم التي كانت بينهم في الدنيا تنقلب يوم القيامة عداوة وملاعنة[2].

٤. شر الظلم ما كان كذبًا على الله تعالى، وتكذيبا بشرائعه[3].

٥. بينت هذه الآيات أن هؤلاء الناس اجتمعوا في الدنيا على الباطل، ثم يوم القيامة تتفكك الروابط، وتنقلب المحبة إلى عداوة وبغضاء، قال سيد قطب: «كانت هذه الأمم، والجماعات، والفرق في الدنيا من الولاء بحيث يتبع آخرها أولها، ويملي متبوعها لتابعها، فلننظر اليوم كيف تكون الأحقاد بينها، وكيف يكون التنابز فيها، كلما دخلت أمة لعنت أختها، فما أبأسها نهاية تلك التي يلعن فيها الابن أباه، ويتنكر فيها الولي لمولاه»[4]، وهذا كما أخبر الله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧]، «السّادة والأتباع في الكفر سواء، يدخلون النّار، ويضاعف لهم العذاب، إما بالإضلال وهو فعل السّادة، أو بالتّقليد وإهمال العقل، وهو فعل الأتباع، والتّعذيب ليس تشفّيًا وانتقامًا، وإنما هو بسبب اقتراف السّيئات

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى ٤/ ١٩٠٠.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٨٨.

(٣) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ١٧٣.

(٤) في ظلال القرآن ٣/ ٥١٥.

واعتقاد الكفر»[١].

٦. بينت الآيات أن من أعظم أسباب الانحراف لدى الناس هو: التقليد الأعمى لبعضهم في مسائل الاعتقاد، وقد ذم اللّه تعالى الكفار باتباعهم لآبائهم في الباطل[٢]، «واقتدائهم بهم في الكفر والمعصية، وتركهم النظر فيما دعاهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم[٣]، وهذا في الباطل صحيح، أما التقليد في الحق فأصل من أصول الدين[٤]. ولعل القرطبي أراد بالتقليد الذي يعتبر أصلًا من أصول الدين هو التقليد: في فرعيات مسائل الدين. قال الشيخ أبو بكر الجزائري: يحرم التقليد في العقائد مطلقًا[٥]، وإنما لا بدّ من غرس العقيدة بالحجة والبرهان[٦]، أما في الفروع فهو أهون، والتقليد هو قبول الحكم بلا دليل ولا حجة[٧]، وقال ابن عطية: أجمعت الأمة على إبطال التقليد في العقائد[٨].

٧. كل دعاة التقليد الأعمى من هؤلاء المضلين الذين يضاعف لهم العذاب، وأن أئمة الهدى من علماء السلف ليسوا منهم ؛ لأنهم كانوا يستنبطون الأحكام من الكتاب والسنة ؛ ليفتحوا للناس أبواب الفهم والفقه فيهما، مع نهيهم عن تقليدهم، وأمرهم بعرض كلامهم على الكتاب والسنة، وأخذ ما وافقهما ورد ما عداه، ومنهم الأئمة الأربعة الذين تنتمي إليهم طوائف السنة، وأئمة العترة الذين تنتمي إليهم الشيعة[٩].

خامسًا: الحوار العقيم:

الغاية من الحوار هي الوصول إلى ما يريح النفس من اقتناعٍ وتسليم، ولكن هناك حوارات عديدة وردت في القرآن الكريم، لم تكن هذه الغاية هدفها؛ فجاءت عقيمة الفائدة للمتحاورين، وذلك زيادة في تعذيبهم عذابًا نفسيًا بجانب العذاب الجسدي، ومن أمثل هذا النوع: الحوار الذي دار بين المستكبرين والأتباع وخزنة النار، وحوار الضعفاء والمستكبرين بين يدي الله، وحوار الشيطان وأتباعه في النار، وحوار الكافر وقرينه الشيطان بين يدي الله،

(١) التفسير المنير، الزحيلي ٤/ ٥٦٦.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢١١.
(٣) انظر: المصدر السابق ١٦/ ٧٥.
(٤) انظر: المصدر السابق ٢/ ٢١١.
(٥) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ١٤٥.
(٦) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٠/ ٤٨٨.
(٧) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ١٤٥.
(٨) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢١٢.
(٩) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣٦٩.

وفيما يأتي تفصيل ذلك.

١. حوار المستكبرين والأتباع وخزنة النار.

يخبر تعالى عن تخاصم أهل النار، وعتاب بعضهم بعضًا واستغاثتهم بخزنة النار، وعدم الفائدة في ذلك فقال: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٤٧ - ٥٠].

يحتج التابعون بإغواء المتبوعين، ويتبرأ المتبوعون من التابعين، فيقول الضّعفاء: أنتم أغويتمونا، وأضللتمونا، وزينتم لنا الشرك والشر، فهل تستطيعوا أن تخففوا عنا من عذاب الله ولو قليلًا؟؛ فيرد عليهم القادة المستكبرون: إن الله جعل لكل منا قسطًا من العذاب، فلا يزاد في ذلك ولا ينقص منه، ولا يغير ما حكم به الحكيم[(١)].

قال الفخر الرازي: «واعلم أن أولئك الأتباع يعلمون أن أولئك الرؤساء لا قدرة لهم على ذلك التخفيف، وإنما مقصودهم من هذا الكلام المبالغة في تخجيل أولئك الرؤساء، وإيلام قلوبهم؛ لأنهم هم الذين سعوا في إيقاع هؤلاء الأتباع في أنواع الضلالات، فعند هذا يقول الرؤساء: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾، يعني: أن كلنا واقعون في هذا العذاب، فلو قدرت على إزالة العذاب عنك لدفعته عن نفسي، ثم يقولون: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾، يعني: يوصل إلى كل أحد مقدار حقه من النعيم أو من العذاب»[(٢)].

ولما يئسوا من السادة اتّجهوا إلى خزنة جهنم يطلبون منهم الدعاء:

أهل النار: ادعوا اللّه ربكم لعله أن يخفف عنا مقدار يوم من العذاب.

خزنة النار: أو ما جاءتكم الرسل في الدنيا بالحجج والأدلة الواضحة على توحيد اللّه، والتحذير من سوء العاقبة ؟

أهل النار: بلى، قد جاءتنا الرسل، فكذبناهم، ولم نؤمن بهم ولا بما جاؤوا به من الحجج.

خزنة النار: إذا كان الأمر كما ذكرتم، فادعوا أنتم لأنفسكم، فنحن لا ندعو لمن كفر باللّه وكذّب رسله، ولا فائدة من

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٣٩.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٧/ ٦٥.

دعائكم[1].

ويظهر من خلال هذا الحوار بعض الدروس والعبر واللفتات، نذكر منها:

- «هذه كانت خصومة بين الأتباع مع المتبوعين، ولم تنته إلى طائل إلا زيادة الحسرة والغم والهم»[2].
- التنديد بالكبر والاستكبار؛ إذ الكبر عائق عن الطاعة والاستقامة.
- «لا يستجاب دعاء الكافر في الدنيا والآخرة إلا ماشاء الله، ولا تقبل المعذرة يوم القيامة، ولا يستجاب الدعاء لمن في النار»[3].

٢. الحوار بين الضعفاء والمستكبرين.

قال الله تعالى: ﴿جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ [إبراهيم: ٢١].

بين الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن الله تعالى يجمع الخلائق كلها، برها وفاجرها، في براز من الأرض، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحدا، ويبدأ الجدال بين الأتباع وسادتهم، حيث يقول الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم الذين استكبروا عن عبادة، الله وحده لا شريك له، وعن موافقة الرسل: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾.

أي: فهل تدفعون عنا شيئًا من عذاب الله، كما كنتم تعدوننا وتمنوننا؟ فقالت القادة لهم: ﴿قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡ﴾، ولكن حق علينا قول ربنا، وسبق فينا وفيكم قدر الله، وحقت كلمة العذاب على الكافرين.

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾، أي: ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه[4].

قال سيد قطب رحمه الله: «والضعفاء هم الضعفاء، هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله، حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد والاتجاه، وجعلوا أنفسهم تبعًا للمستكبرين والطغاة، ودانوا لغير الله من عبيده واختاروها على الدينونة لله.

والضعف ليس عذرًا، بل هو الجريمة، فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفًا، وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه يعتزون به والعزة لله، وما يريد الله لأحد أن ينزل طائعًا

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٢/ ٤٥٩.
(٢) أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٥٤٠.
(٣) المصدر السابق ٤/ ٥٤١.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٨٨.

عن نصيبه في الحرية التي هي ميزته ومناط تكريمه أو أن ينزل كارهًا، والقوة المادية كائنة ما كانت لا تملك أن تستعبد إنسانًا يريد الحرية، ويستمسك بكرامته الآدمية، فقصارى ما تملكه تلك القوة أن تملك الجسد، تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه، أما الضمير، أما الروح، أما العقل: فلا يملك أحد حبسها، ولا استذلالها، إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال»[1].

٣. الحوار بين الشيطان وأتباعه.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

لما ذكر المناظرة التي وقعت بين الرؤساء والأتباع من كفرة الإنس: أردفها بالمناظرة التي وقعت بين الشيطان وبين أتباعه من الإنس[2]، وموضوع المناظرتين واحد، وهو: تبرؤ المتبوع من التابع، ولكن الشيطان كان أصدق في هذه المحاورة من الإنسان؛ لأنه أعلن أن اللّه وعد الناس وعد الحق، وهو البعث والجزاء على الأعمال، فوفى لهم بما وعدهم، وأما هو فوعد الناس بخلاف ذلك، وأنه لا بعث ولا جزاء، فأخلف الوعد[3].

ففي الآية: يخبر الله تعالى عن موقف إبليس يوم القيامة، فبعد أن يقضى الأمر ويدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ويستقرّ كل فريق منهم قرارهم[4]، ينادي إبليس في جماعته الذين أغواهم: إن الله وعدكم، أيها الأتباع، النار، ووعدتكم النّصرة، فأخلفتكم وعدي، ووفى الله لكم بوعده، وما كان لي عليكم، فيما وعدتكم من النصرة، من حجة تثبت لي عليكم بصدق قولي: ﴿إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ﴾، وهذا من الاستثناء المنقطع عن الأول، بمعنى: ولكن دعوتكم فاستجبتم لي، استجبتم إلى طاعتي، ومعصية الله، فلا تلوموني على إجابتكم إياي، ولكن لوموا أنفسكم، فلا أنا مغيثكم من عذاب الله، ولا أنتم مغيثي؛ لأني جحدت أن أكون شريكًا لله فيما أشركتموني فيه من عبادتكم في الدنيا، فالعذاب لكل من كفر بالله[5].

قال ابن عاشور: «وقد جيء في هذه الآية بوصف حال الفرق يوم القيامة، ومجادلة

(١) في ظلال القرآن ٥/ ١٥٠.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٨٧.
(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٧/ ٢٥٨.
(٤) وزمن الخطبة يكون بعد فصل القضاء وقبل دخول النار، والله أعلم.
انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٩٠.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥٦٠-٥٦١.

أهل الضلالة مع قادتهم، ومجادلة الجميع للشيطان، وكون المؤمنين في شغل عن ذلك بنزل الكرامة، والغرض من ذلك تنبيه الناس إلى تدارك شأنهم قبل الفوات، فالمقصود: التحذير مما يفضي إلى سوء المصير»[1].

٤. حوار الكافر وقرينه (الشيطان) بين يدي الرحمن.

قال تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٢٧ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ۝٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق:٢٧ - ٢٩].

يخبر الله تعالى أن الكافر يقول يوم القيامة عن قرينه، وهو الشيطان الذي وكل به: يا رب، هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني، فيقول القرين: ما أضللته، بل كان هو في نفسه ضالًّا قابلًا للباطل معاندًا للحق، فيقول الرب عز وجل لهما: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ أي: عندي، ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ أي: قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل، وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين[2] على أن من كفر بالله وأشرك به وعصى رسله فإن له نار جهنم خالدًا فيها أبدًا)[3].

ثم يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيله للمشركين وقرنائهم من الجنّ يوم القيامة، إذ تبرأ بعضهم من بعض: ما يغير القول الذي قلته لكم في الدنيا، وهو قوله: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف:١٨]، ولا قضائي الذي قضيته فيهم فيها)[4].

أهم الفوائد والدروس والعبر المستفادة من هذه الحوارات:

١. بيان أن التقليد والتبعية لا تكون عذرًا لصاحبها عند الله تعالى[5].

٢. العتاب والنزاع والخصام قائم بين أهل النار، فهذه محاورة بين القادة والأتباع تدل على عجز السادة عن تحقيق أي شيء لأتباعهم الذين اتبعوهم في الدنيا، فهم لا يستطيعون تخليص أنفسهم من عذاب الله، ولا تحقيق أي نفع لذواتهم، فبالأولى لا يتمكنون من نفع غيرهم، والكل لا يجدون مهربًا ولا ملجأ من عذاب الله، وعقابه على الكفر والعصيان، وذلك سواء صبروا على العذاب، أو جزعوا وضجروا.

٣. إقرار السادة بالضلال، فدعوا أتباعهم إلى الضلال، ولو هدوا وأرشدوا لأرشدوا غيرهم، وهذا كذب منهم، كما قال تعالى حكاية عن المنافقين:

(١) التحرير والتنوير ١٣/ ٢١٦.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٠٣.
(٣) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ١٤٧.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٣٥٩.
(٥) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٣/ ٥٤.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾[المجادلة: ١٨](١).

٤. بيان أن الشيطان هو المعبود من دون الله تعالى، إذ هو الذي دعا إلى عبادة غير الله وزينها للناس(٢).

٥. استنبط الرازي من هذه الآيات «أن الشيطان الأصلي هو النفس، وذلك؛ لأن الشيطان بين أنه ما أتى إلا بالوسوسة، فلولا الميل الحاصل بسبب الشهوة، والغضب، والوهم والخيال، لم يكن لوسوسته تأثير البتة، فدل هذا على أن الشيطان الأصلي هو النفس»(٣).

٦. كانت مواعيد الشيطان باطلة، ووعد اللّه هو الحق، واتبع الناس قول الشيطان بلا حجة ولا برهان، وتبرأ الشيطان منهم، ومن عملهم، فليس لهم لوم عليه، إنما عليهم اللوم، وأياسهم بأنه لا نصر عنده، ولا عون، ولا إغاثة، بل هو محتاج إلى من ينصره، وكفر بشركهم له في الدنيا، وهذا تنبيه لهم مما سيلقونه من العذاب(٤).

٧. لم يكن للطغاة أن يتسلطوا على الضعفاء إلا لما أهدر الضعفاء حرياتهم في العقيدة، والتفكير، وفي كل شيء، وأسلموها للطغاة، واشتروا بعقولهم أهواءهم فصاروا عبيدًا للشيطان، قال سيد قطب: إن الطغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير إلا برغبة هذه الجماهير، فهي دائمًا قادرة على الوقوف لهم لو أرادت، فالإرادة هي التي تنقص هذه القطعان، إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل في نفوس الأذلاء، وهذه القابلية هي وحدها التي يعتمد عليها الطغاة(٥).

٨. كل من الشيطان والفاجر الكافر يلقي التبعة في كفره على الآخر، ويتبرأ الشيطان من الكافر، ويكذبه يوم القيامة، وينسب الطغيان والكفر له، لا لنفسه، والحق أن كلا الفريقين في النار، وقد أعذر من أنذر، واللّه تعالى أرسل الرسل، وأنزل الكتب لهداية الإنس والجن، فاختار كل منهما ما يحلو له(٦).

٩. أخبر تعالى ذكره هذا الخبر، عن قول قرين الكافر له يوم القيامة إعلامًا منه عباده: تبرأ بعضهم من بعض يوم القيامة(٧).

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٧/ ٢٥٨.
(٢) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٣/ ٥٤.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٨٨.
(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٧/ ٢٥٩.
(٥) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ١٥١.
(٦) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٣/ ٦٣٨.
(٧) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٣٥٨.

١٠. نفي الظلم عن الله تعالى، وهو كذلك فلا يظلم الله أحدًا من خلقه[١].

قواعد الحوار

إن قواعد الحوار والاختلاف وضوابطه هي العاصم للمتحاورين من الغلو وشتم الآخرين إن كان الحق هو الرائد والمطلوب، أما إذا كان الخلاف انتصارًا لأهواء سياسية وتعصبًا أعمى، فهذا أمر لا ينفع معه قواعد ولا ضوابط، إذ إن الهوى ليس له ضوابط ولا موازين، ولذلك حذرنا الله تعالى من اتباع الهوى فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٥٠]، لذا فلابد من تسليط الضوء على بعض تلك القواعد القرآنية والتي منها:

أولًا: الحوار بالتي هي أحسن:

إن من أهم ما يتوجه إليه المحاور في حواره، التزام الحسنى في القول والمجادلة، قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[الإسراء:٥٣].

وقال عز وجل: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣]؛ فعلى المحاور اللبيب طالب الحق، أن ينأى بنفسه عن أسلوب الطعن والتجريح والهزء والسخرية، وألوان الاحتقار والإثارة والاستفزاز، حتى لو تعرض للاحتقار والازدراء؛ قال الطبري:

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ١٤٨.



وخاصمهم بالخصومة التي هي أحسن من غيرها أن تصفح عما نالوا به عرضك من الأذى[(١)].

ومن لطائف التوجيهات الإلهية لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم في هذا الباب، الانصراف عن التعنيف في الردّ على أهل الباطل، حيث قال الله لنبيه: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٦٨ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ [الحج: ٦٨ -٦٩]، وقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ:٢٤]، مع أن بطلانهم ظاهر، وحجتهم داحضة.

ويلحق بهذا الأصل: تجنب أسلوب التحدي والتعسف في الحديث، ويعتمد إيقاع الخصم في الإحراج، ولو كانت الحجة بينه والدليل دامغًا، فإن كسب القلوب مقدم على كسب المواقف، وقد تفحم الخصم ولكنك لا تقنعه، وقد تسكته بحجة ولكنك لا تكسب تسليمه وإذعانه، وأسلوب التحدي يمنع التسليم، ولو وجدت القناعة العقلية. والحرص على القلوب واستلال السخائم أهم وأولى عند المنصف العاقل من استكثار الأعداء واستكفاء الإناء. وإنك لتعلم أن إغلاظ القول، ورفع الصوت، وانتفاخ الأوداج، لا يولّد إلا غيظًا وحقدًا وحنقًا، ومن أجل هذا فليحرص المحاور؛ ألا يرفع صوته أكثر من الحاجة فهذا رعونة وإيذاء للنفس وللغير، ورفع الصوت لا يقوّي حجة ولا يجلب دليلًا ولا يقيم برهانًا؛ بل إن صاحب الصوت العالي لم يعل صوته -في الغالب- إلا لضعف حجته وقلة بضاعته، فيستر عجزه بالصراخ ويواري ضعفه بالعويل، وهدوء الصوت عنوان العقل والاتزان، والفكر المنظم والنقد الموضوعي[(٢)].

ثانيًا: الإنصات الجيد وحسن الاستماع:

الإنصات الجيد هو بداية الحوار الفعّال الناجح مع الآخرين، والغريب أن الذين يتقنون هذه المهارة قلائل جدًّا، لذلك كان من الضروري أن نتعلم هذه المهارة؛ لأنها ستفتح لنا مجالًا أكبر للتواصل مع من حولنا والتحاور بصورة أفضل وستفتح لنا المجال في بناء علاقات مميزة مع الآخرين.

والإنصات: هو السكوت للاستماع[(٣)]، وهناك فرق بين السماع والاستماع: فالسماع قد يكون بغير قصد ولا انتباه، أما الاستماع فهو بقصد وانتباه وتركيز كما جاء

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٢١.

(٢) انظر: الحوار أصوله المنهجية وآدابه السلوكية، أحمد بن عبد الرحمن الصويان، ص١٨٧.

(٣) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ٢٦٨.

في معجم الفروق اللغوية: إن الاستماع هو استفادة المسموع بالإصغاء إليه ليفهم، ولهذا لا يقال: إن الله يستمع، وأما السماع فيكون اسمًا للمسموع يقال لما سمعته من الحديث: هو سماعي، ويقال للغناء: سماع، ويكون بمعنى السمع، تقول: سمعت سماعًا، كما تقول: سمعت سمعًا[1].

ويظهر ذلك جليًّا في قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن:١]، يقول البقاعي: ﴿اسْتَمَعَ﴾ أي: بغاية الإصغاء والإقبال والتقبل والإلف استماعًا هو الاستماع في الحقيقة[2].

أهمية الاستماع والإنصات في الحوار:

إن عملية الاستماع هي المقدمة الطبيعية لغالب العمليات الفكرية والعقلية الموجهة للسلوك البشري التنموي التحاوري، والسماع هو مفتاح الفهم والتأثر والإقناع والتشبع بالأفكار؛ لذا قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصّلت:٢٦]، فما داموا لا يسمعون له فلن يتأثروا به، كما أنهم لمّا انقشع عنهم الغمام تمنوا لو أنهم كانوا قد أحسنوا السماع، ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠]، إننا نستمع أحيانًا بدون وعي، فإذا اجتمع مع الاستماع وعيٌ يكون الإصغاء، وهو سماع الأذن بوعي وتفهّم، والإصغاء الفعال هو الاستماع والإنصات المركّز لمجموعة من المعلومات حول موضوع ما لغرض التفهّم الكامل لذلك الموضوع. وهو مهارة مهمة إذ إنه يبني نوعًا من الثقة والمودة المتبادلة ويعزز التفاهم والتواصل، ومعظم المشاكل التي تحدث في العلاقات بين الناس يكون عدم الإلمام بهذه المهارة سببًا رئيسًا فيها[3].

ومن أهم فنون التواصل مع الآخرين عند دعوتهم أو الحوار معهم: أن تستمع إليهم لكي تعطيهم فرصة للتكلم والتعبير عن آرائهم ووجهة نظرهم، «والواجب على العاقل أن ينصف أذنيه من فيه، ويعلم أنّه إنّما جعلت له أذنان وفم واحدٌ ليسمع أكثر ممّا يقول؛ لأنّه إذا قال ربّما ندم، وإن لم يقل لم يندم، وهو على ردّ ما لم يقل أقدر منه على ردّ ما قال، والكلمة إذا تكلّم بها ملكته، وإن لم يتكلّم بها ملكها»[4].

وقد ترتب في سورة الأحقاف على حسن الاستماع والإنصات دعوة أمة الجن بأسرها كما يصور ذلك المشهد سيد قطب رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ

(١) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ٤٩.
(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٢٠/ ٤٦٢.
(٣) انظر: الإدارة المدرسية والإشراف التربوي، قسم أصول التربية، ص١٢٣.
(٤) انظر: الانتصار للصحابة الأخيار، عبدالمحسن البدري، ص١٤٢.

﴿نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف:٢٩]، حيث قال: وتلقي هذه الكلمة ظلال الموقف كله طوال مدة الاستماع. وهذه تصور الأثر الذي انطبع في قلوبهم من الإنصات للقرآن. فقد استمعوا صامتين منتبهين حتى النهاية. فلما انتهت التلاوة لم يلبثوا أن سارعوا إلى قومهم، وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه ما لا تطيق السكوت عليه، أو التلكؤ في إبلاغه والإنذار به. وهي حالة من امتلأ حسه بشيء جديد، وحفلت مشاعره بمؤثر قاهر غلاب، يدفعه دفعًا إلى الحركة به والاحتفال بشأنه، وإبلاغه للآخرين في جد واهتمام[1].

قال المراغي: فلما حضروا الرسول قال بعضهم لبعض: أنصتوا مستمعين، فلما فرغ من تلاوته رجعوا إلى قومهم لينذروهم بأس الله وشديد عذابه[2].

والإنصات الجيد يؤثر في النفس أبلغ الأثر، ويزيد القدرة على الاستيعاب، فقد جاء في تفسير هذه الآية: قال بعضهم لبعض: أنصتوا؛ لنستمع القرآن، فلما فرغ الرسول من تلاوة القرآن، وقد وعوه وأثّر فيهم، رجعوا إلى قومهم منذرين ومحذرين لهم بأس الله، إن لم يؤمنوا به[3].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦ / ٣٢٧٣.
(٢) انظر: تفسير المراغي، ٢٦/ ٣٦.
(٣) انظر: الرحيق المختوم، المباركفوري ص٦٠.

وحسن الاستماع من الآداب الإسلامية والأخلاق الرفيعة؛ فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتاه من يناقشه استمع إليه وأنصت لكلامه حتى يفرغ من حديثه ثم أجابه.

وخير مثال على ذلك من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم إنصاته الجيد لعتبة بن ربيعة في القصة المشهورة، حيث قال عتبة: (.... إنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها. قال: فقال رسول صلى الله عليه وسلم: قل يا أبا الوليد أسمع، قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا سوّدناك علينا، حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه- أو كما قال له- حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه: قال: أو قد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: أفعل، فقال: بسم الله الرحمن

الرحيم: ﴿حمٓ ١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٤﴾ [فصّلت: ١-٥].

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما، يسمع منه، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك. فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.

فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزّه عزّكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم)[(١)].

وهكذا نلاحظ أنه لما جاء عتبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم يحاوره في دينه ويبين له على ما ترتب على دعوته إلى دين الإسلام من أمور يظنها مفاسد من التفريق بين الوالد والولد، وجعل ذلك تسفيهًا لدين الآباء والأجداد، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أو قد فرغت يا أبا الوليد؟) قال: نعم، فالنبي صلى الله عليه وسلم استمع له وأنصت له حتى أكمل كلامه كله، فلما قضى كلامه قرأ عليه من سورة فصلت فكان ذلك سببًا في تغيير شيء من موقفه[(٢)].

فمن هذا الموقف العظيم ندرك كم لأهمية الإنصات الجيد وحسنه من أثر إيجابي على الآخرين؛ فقد أثر على صنديد من صناديد قريشٍ أبلغ التأثير.

ثالثًا: إبراز الحقائق:

إن من القواعد والمبادئ الأساسية للحوار والتي جاءت بها شريعة الإسلام لقطع الخلاف: إبراز الدليل الناصع، والبرهان الساطع[(٣)]، والتي تتمثل في أمرين: إبراز الحقائق المثبتة، وصحة النقل، وعليها وضع العلماء قاعدتهم المشهورة: (إن كنت ناقلًا فالصحة، أو مدّعيًا فالدليل)[(٤)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٦٣.

(٢) انظر: أدب الحوار، سعد بن ناصر الشثري، ص٣٦.

(٣) انظر: أدب الحوار في الإسلام،، محمد سيد طنطاوي ٢٥.

(٤) انظر: مناظرات ابن تيمية لأهل الملل والنحل، عبد العزيز آل عبد اللطيف، ص ٦٧.

وقد وردت الإشارة إلى مضمون هذه القاعدة في كثير من الآيات القرآنية التي تطالب الطرف الآخر بتقديم البراهين والحجج المنطقية، منها قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل:٦٤]، وقوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٢٤].

ففي هذه النصوص يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يطالب المشركين بتقديم براهينهم وأدلتهم على ما يقدمون من دعاوى إن كانوا على يقين من الأمور التي يعتقدونها: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:١١١].

وهكذا نجد أن المحاورة في القرآن الكريم تعتمد على العقل والمنطق، ولا تتأثر بأي عامل أو مؤثر خارجي كالنبوة والرسالة والوحي، ولاشك أن الحوار الذي يعتمد على الحجة الواضحة والدليل المنطقي القوي سيؤدي في النهاية إلى الحرية في التفكير، والتخلص من التعصب والانحياز، فنحن نرى أن إبراهيم عليه السلام في حواره مع الله عز وجل يتقدم للمحاورة وكأنه متجردٌ من النبوة، بل من الإيمان: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠].

فإبراهيم في هذه المحاورة يريد التحاور ضمن قواعد العقل والمنطق، ويرفض وجود أي مؤثر في المحاورة غير العقل[1].

ولقد ظهرت تلك القاعدة أيضًا واضحة جلية في حوار إبراهيم عليه السلام مع الملك الكافر الظالم الذي كان يعيش في عصره.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨].

أراد إبراهيم عليه السلام: أن الله هو الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد، وأراد الكافر: أنه يقدر أن يعفو عن القتل فيكون ذلك إحياء، وعلى أن يقتل فيكون ذلك إماتة، فكان هذا جوابًا أحمق، لا يصح نصبه في مقابلة حجة إبراهيم، لأنه أراد غير ما أراد الكافر، فلو قال له: ربه الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد فهل تقدر على

---

(١) انظر: الحوار في الإسلام، عبد الله الموجان، ص٣٧.

ذلك؟ لبهت الذي كفر بادئ بدء وفي أول وهلة، ولكنه انتقل معه إلى حجة أخرى تنفيسًا لخناقه، وإرسالًا لعنان المناظرة فقال: فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب لكون هذه الحجة لا تجري فيها المغالطة، ولا يتيسر للكافر أن يخرج عنها بمخرج مكابرة ومشاغبة. قوله: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ بهت الرجل وبهت وبهت: إذا انقطع وسكت متحيرًا[1].

رابعًا: الإنصاف:

إن العدل والإنصاف مع الخصم مبدأ مهم صعب جليل، وإن المفترض في المسلم أن يكون عادلًا منصفًا، حيث منهج دين الإسلام هو الأمر بالعدل والنهي عن الظلم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠]، والعدل والإنصاف مطلوبان في القول: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام:١٥٢]، كما هما مطلوبان في الحكم: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨]، ولو اتبع المسلمون هدي دينهم في هذا الأمر لما وقع كثير من المسلمين فيما وقعوا فيه من الظلم والاختلاف والنزاع والشقاق، ومن تمام الانصاف قبول الحق من الخصم والتفريق بين الفكرة وصاحبها، وأن يبدي المحاور إعجابه بالأفكار الصحيحة والأدلة الجيدة، والمعلومات الجديدة التي يوردها خصمه، وهذا الإنصاف له أثره الإيجابي لقبول الحق، ويضفي على المحاور روح الموضوعية[2].

وإنما كان الإنصاف والعدل صعبًا لما اتصف به الإنسان من الجهل والظلم.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢].

فأكثر الناس مجبول على عدم الانصاف إلا من رحم الله، ولذلك قال الإمام الشعبي رحمه الله: «والله لو أصبت تسعًا وتسعين مرة، وأخطأت مرة لأعدوا عليّ تلك الواحدة»[3].

وقد ذكر العلماء ضوابط في العدل والإنصاف: فمن ذلك قول عبد الله بن المبارك رحمه الله: «إذا غلبت محاسن الرجل على مساوئه لم تذكر المساوئ، وإذا غلبت المساوئ على المحاسن لم تذكر المحاسن»[4].

وذكر عن حاتم الأصم أنه قال: «معي

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣١٨.

(٢) انظر: الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، يحيى زمزمي، ص١٤١.

(٣) أعلام النبلاء، الذهبي، ٤/ ٣٠٨.

(٤) المصدر السابق ٨/ ٣٩٨.

ثلاث خصال أظهر بها على خصمي، قالوا: وما هي؟ قال: أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن إذا أخطأ، وأحفظ نفسي لا تتجاهل علي، فبلغ ذلك الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله فقال: سبحان الله ما كان أعقله من رجل»(١).

ولا شك أن الآيات والأحاديث، والأمثلة والنماذج والسير كثيرة جدًّا في تقرير هذا المبدأ وتأصيله، وهناك نصوص عامة تأمر بالعدل والإنصاف في الحوار وغيره.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء:١٣٥]، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٨].

قال الزمخشري: «وفيه تنبيه عظيم على أن وجود العدل مع الكفار الذين هم أعداء اللّه إذا كان بهذه الصفة من القوة، فما الظنّ بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه»(٢).

فالآيات تفرض العدل في جميع الأحوال، كما تحذر الظلم وتحرم الجور في جميع الأوقات، وقد مضت سنة الله العادلة في خلقه بأن جزاء ترك العدل وعدم إقامة القسط في الدنيا، هو ذل الأمة وهوانها، واعتداء غيرها من الأمم على استقلالها، ولجزاء الآخرة أذل وأخزى وأشد وأبقى(٣).

وكما يروى عن شيخ الإسلام قوله: إن الله ينصر الأمة العادلة ولو كانت كافرة، ويذل الأمة الظالمة وإن كانت مسلمة(٤).

ومن نماذج الإنصاف في القرآن ما جاء في وصف أهل الكتاب وذكر بعض مثالبهم كما في قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١١٢].

ثم أنصف الله عز وجل المتقين منهم بقوله: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران:١١٣].

ومثلها إنصافهم في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧٥].

قال سيد قطب: «وهذا غاية الإنصاف

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي ١/ ٦٧.
(٢) الكشاف، الزمخشري ١/ ٦١٣.
(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٢٢٧.
(٤) انظر: الاستقامة ٢/ ٢٤٧.

والعدل للقلة الخيرة منهم، التي وعدها بالوعد الصادق لهم: أنهم لن يبخسوا حقًا، ولم يفكروا أجرًا مع الإشارة إلى أن الله سبحانه علم أنهم من المتقين»[(١)].

خامسًا: الرفق واللين:

إن إظهار الحق وإيصاله للآخرين وإقناعهم به ودحض شبهاتهم وأباطيلهم يحتاج إلى معرفة طبيعة النفس البشرية، وما يصلح لها وما يسوؤها، ومن أهم سمات النفوس أنها تميل إلى اللين والملاطفة والتعامل بالحسنى، وتنفر من الشدة والإذلال والإفحام، إذ إن لها كبرياء، فمن أكرمها فأنه يستطيع أن يقودها وأن يسيّرها كيفما شاء، ومن خدش كبرياءها، فلن يظفر منها بطاعة ولا تصديق ولا انقياد، ولا يلومنّ بعد ذلك إلا نفسه! لذا فمن أراد أن يمسح الشبهات من عقول الناس، أو أراد أن يدحضها، فعليه أن يلج إلى ذلك بالحسنى، وأن يتجنّب العنف والشدة والتحدي[(٢)].

ولا شك أن القلوب تميل إلى من يلين ويرفق بها، وتنفر الطبائع البشرية من الفظ الغليظ، حتى لو كان خير الناس! كما قال الله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

والمحاور الناجح في أمسّ الحاجة إلى التفاف الناس حوله، وتحلّيه بالرفق واللين يساعد في تحقيق ذلك. إلى جانب ذلك، فقد ينشأ عند كثير من الناس نفور تجاه المحاور بسبب دعوته، وذلك إذا خالف رغبات كثير منهم أو عارض شهواتهم، لكنّ اتصافه بالرفق يساهم في إزالة أو تقليل هذا النفور[(٣)].

إنّ الرفق سمة واضحة في دعوة الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم، فما من نبي بعث إلا ودعا قومه وحاورهم بالتي هي أحسن، فها هو نبي الله شعيب عليه السلام يحاور قومه بكل رفق قائلًا: ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

فهذا تلطف منه في العبارة ودعوة لهم إلى الحق بأبين إشارة، يقول لهم: أرأيتم أيها المكذبون إن كنت على بينة من ربي ورزقني النبوة والرسالة، وعمّي عليكم معرفتها، فأي حيلة لي فيكم؟ ولست آمركم بالأمر إلا وأنا أول فاعل له، وإذا نهيتكم عن الشيء فأنا أول من يتركه[(٤)]، فهو يتلطف معهم

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٩٩.
(٢) انظر: منهجية التعامل مع الشبهات، الحمادي ٢/ ١٤.
(٣) انظر: الحوار في القرآن الكريم، معن محمود ص ١٢٤.
(٤) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير ص٤٤٦.

ليشعرهم أنه على بينة من ربه، وأنه على ثقة مما يقول لهم، وأنه يدعوهم إلى الأمانة في المعاملة، وسيتأثر مثلهم بنتائجها، لأنه ذو مال وعلاقات تجارية، فهو لا يبغي كسبًا شخصيًّا من وراء دعوته لهم، فلن ينهاهم عن شيء ثم يفعله لينفرد بالكسب وحده! إنما هي دعوة الإصلاح للناس أجمعين بكل حكمة وروية ولين[١].

ولقد أمر الله نبييه موسى وهارون عليهم السلام أن يحاورا فرعون، ذلك الطاغية الذي ادعى الربوبية فقال: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النّازعات:٢٤]، ثم ادعو الألوهية فقال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]، ورغم ذلك أمرهم الله بالرفق واللين معه فقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٤].

قال ابن كثير: «هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين»[٢].

قال الزمخشري: «اذهبا على رجائكما وطمعكما، وباشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه، فهو يجتهد بطوقه، ويحتشد بأقصى وسعه»[٣].

إن الحوار أو الجدال الذي يدور بين الناس، إذا كان يقوم على التواضع ولين الجانب، وعلى الأسلوب المهّذب الخالي من كل ما لا يليق، كانت نتائجه طيبة وآثاره حميدة، لأنه يوصل إلى الحقيقة المرجوة، وإلى الاتفاق ولو على معظم المسائل التي دار من أجلها الحوار. أما الحوار أو الجدال الذي يكون مبعثه الغرور والتعالى والتباهي بالأقوال، فمن المستبعد أن يأتي بنتيجة توصل إلى الحقيقة أو إلى اتفاق على ما ينفع، وإنما المتوقع من هذا الحوار الذي سداه الغرور، أن تتولد عنه الآثام والشرور وهكذا نتيقن أن الرفق يزين الحوار ويقوده إلى نتائج طيبة وثمار ناضجة، أسوتنا في ذلك الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام[٤].

موضوعات ذات صلة.

الإنصاف، التربية، الجدال، الدعوة، النصيحة

(١) انظر: ديماس، فنون الحوار والإقناع ص٩١.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٢٩٤.
(٣) الكشاف ٣/ ٦٥.
(٤) انظر: أدب الحوار في الإسلام، طنطاوي ٣٠.





عناصر الموضوع

المجلد الثالث عشر

مفهوم الحياة

أولًا: المعنى اللغوي:

الناظر في معاجم العربية يجد أن مادة (حيّ) تدور حول أصلين، كما أشار ابن فارس: «الحاء والياء والحرف المعتلّ أصلان: أحدهما خلاف الموت، والآخر الاستحياء الّذي (هو) ضدّ الوقاحة. فأمّا الأوّل فالحياة والحيوان، وهو ضدّ الموت والموتان. ويسمّى المطر حيًّا لأنّ به حياة الأرض. والأصل الآخر: قولهم استحييت منه استحياءً»[(١)].

والحياء: «تغيير وانكسار يعتري الإنسان من خوف وما يعاب به»[(٢)].

«وأما الاستحياء بمعنى الاستبقاء: فحقيقته طلب الحياة وإرادة أن يكون فرد آخر حيًّا في مقابل من يريد الموت والهلاك، ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [البقرة:٤٩].

وقد ذكر في مقابل الذبح والقتل: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ [الأعراف:١٢٧]، ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [البقرة:٤٩]»[(٣)].

وبين الأصلين علاقة؛ «فالحياء من قوة الحس ولطفه وقوة الحياة»[(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

«الحياة: في الأصل: الروح وهي الموجبة لتحرك من قامت به، ذكره العكبري.

وقال الحرالي: الحياة تكامل في ذات ما أدناه حياة النبات بالنمو والاهتزاز مع انغراسه إلى حياة ما يدب بحركته وحسه إلى غاية حياة الإنسان في تصرفه وتصريفه إلى ما وراء ذلك من التكامل في علومه وأخلاقه. وقال في موضع آخر: الحياة كل خروج عن الجمادية من حيث إن معنى الحياة بالحقيقة تكامل الناقص»[(٥)].

وقال الشريف الجرجاني: «الحياة هي صفة توجب للموصوف بها أن يعلم ويقدر»[(٦)].

وقال الراغب: «الحياة تستعمل على أوجه:

الأوّل: للقوّة النّامية الموجودة في النّبات والحيوان، ومنه قيل: نبات حيٌّ، قال عزّ وجلّ:

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٢٢.
(٢) القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص١٠٩.
(٣) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، المصطفوي ٢/ ٣٩٥-٣٩٦.
(٤) المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ٢/ ٥.
(٥) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٤٩.
(٦) التعريفات، ص ٨٣.



﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ [الحديد:١٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾ [ق:١١]، ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠].

الثاني: للقوّة الحسّاسة، وبه سمّي الحيوان حيوانًا، قال عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُ﴾ [فاطر:٢٢].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ٢٥ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ٢٦﴾ [المرسلات:٢٥-٢٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾ [فصلت:٣٩].

فقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا﴾ إشارة إلى القوّة النّامية، وقوله: ﴿لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓ﴾ إشارة إلى القوّة الحسّاسة.

الثالث: للقوّة العاملة العاقلة، كقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ [الأنعام:١٢٢].

وقول الشاعر:

وقد أسمعت لو ناديت حيًّا ... ولكن لا حياة لمن تنادي

والرابع: الحياة الأخرويّة الأبديّة، وذلك يتوصّل إليه بالحياة التي هي العقل والعلم، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ [الأنفال:٢٤]، وقوله: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر:٢٤]، يعني بها: الحياة الأخرويّة الدّائمة.

والخامس: الحياة التي يوصف بها الباري، فإنه إذا قيل فيه تعالى: هو حيّ، فمعناه: لا يصحّ عليه الموت، وليس ذلك إلّا لله عزّ وجلّ»[1].

فالمعنى الاصطلاحي متوافق مع المعنى اللغوي على الأصل الأول الذي يدل على خلاف الموت.

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٣٨-١٣٩.

الحياة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (حيي) الدالة على الحياة في القرآن الكريم (١٧٥) مرة[1].

والصيغ التي جاءت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٧	﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢]
الفعل المضارع	٤٦	﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]
فعل الأمر	١	﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ [غافر:٢٥]
المصدر	٧٩	﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [البقرة:٨٦]
اسم الفاعل	٢	﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [الروم:٥٠]
الاسم	٣٠	﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]

وجاءت (الحياة) في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه[2]:

الأول: الخلق الأول ونفخ الروح، قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة:٢٨]، يعني: كنتم نطفًا فخلقكم وجعل فيكم الأرواح.

الثاني: الإيمان والهدى، قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام:١٢٢]، يعني: فهديناه للإيمان.

الثالث: الإبقاء على قيد الحياة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢]، يعني: ومن أبقاها فكأنما أبقى الناس جميعًا.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٢٢٣- ٢٢٥.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان ص٢٢٠- ٢٢٢، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص١٨٦- ١٨٨، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٢٥٣، ٢٥٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ النماء:

النماء لغة:

يقول ابن فارس: «(نمى) النّون والميم والحرف المعتلّ أصلٌ واحدٌ يدلّ على ارتفاعٍ وزيادةٍ»[١].

النماء اصطلاحًا:

لا يخرج عن المعنى اللغوي، فهو الزيادة سواء أكانت حقيقية أم تقديرية.

الصلة بين الحياة والنماء:

«أن الحياة هي ما تصير به الجملة كالشيء الواحد في جواز تعلق الصّفات بها، فأما قوله تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [فاطر:٩] فمعناه: أنا جعلنا حالها كحال الحيّ في الانتفاع بها، والصّفة لله بأنّه حيّ مأخوذه من الحياة على التّقدير، والنماء يزيد الشّيء حالًا بعد حال من نفسه، لا بإضافة إليه فالنبات ينمي ويزيد وليس بحي، والله تعالى حيّ ولا ينام ولا يقال لمن أصاب ميراثا أو أعطي عطيّة: إنه قد نمى ماله، وإنّما يقال: نمى ماله إذا زاد في نفسه، والنماء في الماشية حقيقة؛ لأنّها تزيد بتوالدها قليلًا قليلًا، وفي الورق[٢] والذّهب مجاز، ويقال للأشجار والنبات: نوام؛ لأنّها تزيد في كل يوم إلى أن تنتهي إلى حد التّمام»[٣].

٢ العيش:

العيش لغة:

يقول ابن فارس: «(عيش) العين والياء والشّين أصلٌ صحيحٌ يدلّ على حياةٍ وبقاءٍ، قال الخليل: العيش لغة: الحياة. والمعيشة: الّذي يعيش بها الإنسان: من مطعمٍ ومشربٍ وما تكون به الحياة.

العيش اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

---

(١) مقاييس اللغة ابن فارس ٥/ ٤٧٩.
(٢) الوَرِق -بكسر الراء-: الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة.
انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ص ١٠٢٦.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري ص١٠٢.

الصلة بين الحياة والعيش:

قال الراغب: «العيش: أخصّ من الحياة، لأنّ الحياة تقال في الحيوان، وفي الباري تعالى، وفي الملك، ويشتقّ منه المعيشة لما يتعيّش منه»(١).

والحياة صفة ذاتية بها يستمر الوجود، وأما العيش فهو كيفية حادثة عارضة بعد الحياة(٢).

وقيل: بينهما عموم وخصوص، فالعيش هو الحياة المختصة بالأجسام، ويشتق منه المعيشة، وهو كل ما يتعيش منه ويقيم الأود، ويلبي رغبات الجسم، من مأكل ومشرب ومسكن ومنكح وغير ذلك(٣).

٣ الروح:

الروح لغة:

أصل مادة (روح) تدلّ على سعةٍ وفسحةٍ واطّرادٍ، وأصل ذلك كلّه الرّيح. والرّوح: روح الإنسان، وهي مشتقّةٌ من الرّيح(٤).

الروح اصطلاحًا:

قال القرطبي: «والروح: جسم لطيف، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم»(٥).

وقال عنها المراغي: «إنها جسم نوراني، علويّ، خفيف، حي، متحرك، ينفذ في جوهر الأعضاء، ويسرى فيها سريان الماء في الورد، والنار في الفحم»(٦).

وقال البغوي في تفسيره: «والروح جسم لطيف يحيا به الإنسان»(٧).

الصلة بين الحياة والروح:

أن لكل كائن حي حياة تناسبه، ولا يلزم من ذلك أن يكون فيه الروح الخاصة بالحيوان الحي المتحرك بالإرادة، فالشجر والنباتات عامة ليس فيها روح، مع أن فيها حياة، وهذا أمر معلوم بالاضطرار.

---

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٥٣.
(٢) التحقيق في كلمات القرآن، المصطفوي ٨/ ٣٣٨.
(٣) مفهوم الحياة في القرآن والحديث، د. محمد الأحمدي ص ١٠٧.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ص٤٥٤.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٤.
(٦) تفسير المراغي ٤/ ١٧٦.
(٧) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٨٠.

حقيقة الحياة وأهميتها

«إن الحياة في مفهومها الإسلامي ليست هي هذه الفترة القصيرة التي تمثل عمر الفرد وعمر الأمة من الناس، كما أنها ليست هي الفترة المشهودة التي تمثل عمر البشرية في هذه الحياة الدنيا.

إن الحياة في مفهومها الإسلامي تمتد في الزمان، فتشمل هذه الفترة المشهودة -فترة الحياة الدنيا- وفترة الحياة الآخرة، وتمتد في المكان، فتضيف إلى هذه الأرض التي يعيش عليها البشر، دارًا أخرى: جنة عرضها كعرض السماوات والأرض، ونارًا تسع الكفرة من جميع القرون.

وتمتد الحياة في حقيقتها، فتشمل هذا المستوى المعهود في الحياة الدنيا، إلى تلك المستويات الجديدة في الحياة الآخرة... في الجنة والنار سواء، وهي ألوان من الحياة ذات مذاقات ليس من مذاقاته هذه الحياة الدنيا»[1].

أولًا: حقيقة الحياة الدنيا:

١ . دار استخلاف.

تكمن قيمة وأهمية الحياة الدنيا في ميزان القرآن أنها الدار التي استخلف الله عز وجل فيها عباده من أجل حمل أمانة الاستخلاف والقيام بمقتضيات العبودية وحق الربوبية.

قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة:٣٠].

«وإذن فهي المشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود، زمام هذه الأرض، وتطلق فيها يده، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين، والتحليل والتركيب، والتحوير والتبديل، وكشف ما في هذه الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات، وتسخير هذا كله -بإذن الله- في المهمة الضخمة التي وكلها الله إليه. وإذن فقد وهب هذا الكائن الجديد من الطاقات الكامنة، والاستعدادات المذخورة كفاء ما في هذه الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات، ووهب من القوى الخفية ما يحقق المشيئة الإلهية»[2].

هذه المهمة جعلت الإنسان موضع التكليف والمسئولية، والمكلف مأمور، تجب عليه الطاعة وهو مسئول عن عمله، كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب:٧٢].

(١) الحياة في القرآن الكريم، أحزمي سامعون ١/ ٢٣٩.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١ / ٥٦.

ويرتبط الاستخلاف في الحياة الدنيا بعمارة الأرض وفق المنهج الرباني من أجل إقامة العدل وتحقيق الإصلاح، والبعد عن الظلم والطغيان، وكل ما من شأنه أن يكون وسيلة للإفساد والتخريب في هذه الأرض.

وهذا الإصلاح يرتبط بالإيمان الصادق والطاعة الدائمة والعبادة الخاشعة، والعلم النافع المثمر.

ولقد امتن الله تعالى على بني آدم بهذه النعمة الكبرى والتي تظهر تكريمه سبحانه لهم، وإحسانه إليهم فقال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام:١٦٥].

«أي: إن ربكم الذي هو رب كل شيء هو الذي جعلكم خلائف هذه الأرض بعد أمم قد سبقت، وفي سيرها عبر وعظات لمن ادكر وتدبر، وكذلك هو قد رفع بعضكم فوق بعض درجات في الغنى والفقر، والقوة والضعف، والعلم والجهل، ليختبركم فيما أعطاكم، أي: ليعاملكم معاملة المختبر لكم في ذلك، ويبنى الجزاء على العمل، إذ قد جرت سنته في أن سعادة الناس أفرادًا وجماعات في الدنيا والآخرة أو شقاءهم فيهما تابعة لأعمالهم وتصرفاتهم»[١].

وعلى هذا فإن الإنسان خليفة في الأرض «أيًا كان مكانه في المجتمع، غنيًا أو فقيرًا، عالمًا أو جاهلًا، قويًا أو ضعيفًا، ومن واجبه أن يعمل بمقتضى هذه الخلافة، ويجمع إلى يديه أسبابها ومقوّماتها، وإنه لمن ظلم الإنسان لنفسه، ومن استصغاره لوجوده، أن يسفّ وينحدر عن هذا المستوي الكريم الذي رفعه اللّه إليه، فيتحول إلى كائن حيوانيّ ذليل، يقاد فينقاد، ويستذل فيذلّ، حتى لينعزل عن العالم الإنساني، ويصبح على غير الخلق السويّ الذي خلقه اللّه عليه»[٢].

٢. دار ابتلاء.

اقتضت سنة الله في الحياة الدنيا أن تكون دار ابتلاء واختبار، يتقلب فيه العباد بين السراء والضراء، والشدة والرخاء، واليسر والعسر، «ذلك أن طبيعة الحياة الدنيا، وطبيعة البشر فيها، تجعلان من المستحيل أن يخلو المرء فيها من كوارث تصيبه، وشدائد تحل بساحته، فكم يخفق له عمل أو يخيب له أمل. أو يموت له حبيب أو يمرض له بدن، أو يفقد منه مال، أو.. أو.. إلى آخر ما يفيض به نهر الحياة...»[٣].

قال الله عز وجل: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢﴾

(١) تفسير المراغي، ٣/ ٢٥٤.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٤/ ٣٥٩.

(٣) الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي ص ١٧٨.

[الملك:٢].

وهكذا «ليست المسألة مصادفة بلا تدبير، وليست كذلك جزافًا بلا غاية، إنما هو الابتلاء لإظهار المكنون في علم الله من سلوك الأناسي على الأرض، واستحقاقهم للجزاء على العمل»[١].

أما مادة الابتلاء فهي زينة هذه الأرض كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾ [الكهف:٧-٨].

إن «جميع ما على وجه الأرض، من مآكل لذيذة، ومشارب، ومساكن طيبة، وأشجار، وأنهار، وزروع، وثمار، ومناظر بهيجة، ورياض أنيقة، وأصوات شجية، وصور مليحة، وذهب وفضة، وخيل وإبل ونحوها، الجميع جعله الله زينة لهذه الدار، فتنة واختبارا»[٢].

وقد عرضت آيات القرآن الكريم أهم شهوات الدنيا المادية وهي في ذاتها تمثل صورة من صور الزينة.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ۝١٤﴾ [آل عمران:١٤].

«هذه زينة الحياة الدنيا، وهذه متعها، وهي مصدر الخير، ومصدر الشر فيها، وبها تكون الرفعة، وبها يكون السقوط، وبها تكون العزة، وبها تكون الذلة؛ والإرادة الإنسانية هي التي تجعلها في أحد الطريقين، فإن كانت الإرادة قوية حازمة جعلت من هذه الأمور مصدر خير وطريقًا إلى الجنة، وإن تحكّم الهوى وغلب الشيطان، وضعف الوجدان الديني، كانت هذه الأمور مصدر شر وطريقًا إلى النار؛ فهي طريق الجنة عند الأبرار، وطريق النار عند الأشرار، وكل امرئٍ وما تهوى نفسه»[٣].

والابتلاء في هذه الزينة والشهوات تارة يكون بالسراء وتارة بالضراء، بالمنع والعطاء، كما قال الله عز وجل ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥].

وفي هذه الآية: إشارة إلى أن الابتلاء بما يمثله من امتحان لتقلب البشر بين السراء والضراء، والخير والشر ضروري لإظهار قوة الإيمان في النفس أو ضعفه فيها، حيث تقاوم النفس -في لحظات الضراء- مشاعر الجزع والهلع لتتذوق حلاوة الصبر والرضا والتسليم، كما تتمرس على الحمد والشكر في لحظات السراء بما يعصمها من البطر

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦ / ٣٦٣٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٤٧.
(٣) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٢/ ١١٣١.

والعجب والغرور.

ثانيًا: أهمية الحياة الدنيا:

إن الحياة الدنيا حينما تقاس بمقاييسها الدنيوية، وتوزن بموازينها تبدو في العين والحس أمرًا عظيمًا هائلًا، وشيئًا جميلًا رائعًا، ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود، وتوزن بميزان الآخرة، تبدو شيئًا زهيدًا تافهًا؛ فهي لعب وضياع ولهو وتفاخر، وغرور خادع، وأمل كاذب، وظل زائل.

فما هذه الحياة إلا مرور عابر واستراحة مسافر، ولكنها مع كل ذلك يمكن أن يجعل منها الإنسان مجالًا لسروره، وميدانًا لحبوره، وفرصة لخلوده، ومقرًّا لرفعته، ومحطة لغناه، وسوقًا لمناه، وفوزًا بمبتغاه.

يقول الإمام ابن القيم: «فالدنيا فى الحقيقة لا تذم، وإنما يتوجه الذم إلى فعل العبد فيها، وهي قنطرة أو معبر إلى الجنة أو إلى النار، ولكن لما غلبت عليها الشهوات، والحظوظ والغفلة والإعراض عن الله والدار الآخرة، فصار هذا هو الغالب على أهلها وما فيها وهو الغالب على اسمها، صار لها اسم الذم عند الاطلاق، وإلا فهي مبنى الآخرة ومزرعتها، ومنها زاد الجنة، وفيها اكتسبت النفوس الايمان، ومعرفة الله ومحبته وذكره ابتغاء مرضاته، وخير عيش ناله أهل الجنة فى الجنة، إنما كان بما زرعوه فيها، وكفى بها مدحًا وفضلًا لأولياء الله فيها من قرة العيون، وسرور القلوب، وبهجة النفوس، ولذة الأرواح، والنعيم الذي لا يشبهه نعيم، بذكره ومعرفته ومحبته وعبادته والتوكل عليه والإنابة إليه والأنس به والفرح بقربه والتذلل له ولذة مناجاته والإقبال عليه والاشتغال به عن سواه، وفيها كلامه ووحيه وهداه وروحه الذى ألقاه من أمره، فأخبر به من شاء من عباده»[1].

مما سبق يتضح أنه لا انفصال في التصور القرآني للحياة بين الدنيا والآخرة، فالطريق إلى صلاح الآخرة هو ذاته الطريق إلى صلاح الدنيا عبر بوابة الإيمان ومدارج التقوى.

فهما طريقان يكمل بعضهما البعض، طريق يجتمع فيه العمل مع العبادة في اتحادٍ وتعاضد، فكلاهما يحقق غاية وجود الإنسان على هذه الأرض وهو تحقيق العبودية الخالصة لله عز وجل. فكل أعمال المؤمن في هذه الحياة تتحول -إن صحت النية- إلى عبادة يجني ثمارها في الدنيا قبل الآخرة، حيث يتنعم في ظلالها بالحياة الطيبة التي وعده ربه عز وجل بها في كتابه مع ما ينتظره في الآخرة من النعيم والتكريم الذي لا يخطر على البال.

(١) عدة الصابرين، ابن القيم ص٣٣١-٣٣٢.

نظرة الناس للحياة

تختلف نظرة الناس للحياة وفقًا لاختلاف عقائدهم وأفكارهم وتصوراتهم التي تنبع من المنهج الذي يستقون منه معرفتهم، فالمؤمنون الذين يجعلون القرآن الكريم منهج حياتهم يعلمون أنها دار زائلة فانية يتزودون فيها بما ينفعهم للفوز والنجاة في الآخرة؛ لذا يترفعون عن الشهوات والملذات إلا بالقدر الذي يحقق لهم الحياة ويعينهم على أداء وظيفة العبودية.

أما غير المؤمنين وقد اتبعوا مناهج أرضية مختلفة وأعرضوا عن منهج القرآن فقد أضحت الدنيا أكبر همهم ومبلغ علمهم ومنتهى آمالهم، فكل سعيهم وجهدهم وتحركاتهم وعلاقاتهم من أجل نيل متاعها الزائل والافتخار بزخارفها الخادعة.

أولًا: نظرة المؤمنين:

ينظر المؤمنون إلى الحياة الدنيا فيرونها على حقيقتها كما وصفها كتاب ربهم: دار ابتلاء ومحن، دائمة التقلب وسريعة الزوال ولا تدوم على حال، مزينة بالشهوات، تغر الناظرين بزخارفها ومفاتنها، فيتخذونها وسيلة لا غاية، لا يتركونها بالكلية كما يفعل الرهبان أو يهجرون طيباتها أو يفرون من فتنتها بالعزلة والصمت، ولا يتكالبون على شهواتها وملذاتها بدون ضابط أو رادع. فهم يمارسون فيها وظيفة العبودية ويتقربون إلى ربهم بالأعمال الصالحات على أساس من الإيمان والتقوى، واضعين نصب أعينهم أن هذه الحياة مزرعة الآخرة، فما زرعه الإنسان في هذه الحياة سيحصد ثماره في الحياة الآخرة، تلك الحياة الحقيقية التي تهفو لها القلوب وتتطلع لها الأبصار حيث النعيم المقيم والسعادة الدائمة.

وهذه النظرة المتوازنة للحياة الدنيا يستقيها المؤمن من قول ربه عز وجل: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص:٧٧]

«لقد خلق الله طيبات الحياة ليستمتع بها الناس، وليعملوا في الأرض لتوفيرها وتحصيلها، فتنمو الحياة وتتجدد، وتتحقق خلافة الإنسان في هذه الأرض، ذلك على أن تكون وجهتهم في هذا المتاع هي الآخرة، فلا ينحرفون عن طريقها، ولا يشغلون بالمتاع عن تكاليفها، والمتاع في هذه الحالة لون من ألوان الشكر للمنعم، وتقبل لعطاياه، وانتفاع بها، فهو طاعة من الطاعات يجزي عليها الله بالحسنى.. وهكذا يحقق هذا المنهج التعادل والتناسق في حياة الإنسان، ويمكنه من الارتقاء الروحي الدائم من خلال حياته الطبيعية المتعادلة، التي لا حرمان فيها، ولا إهدار لمقومات الحياة

الفطرية البسيطة»[1].

كما يدرك المؤمنون قيمة هذه الحياة الدنيا من التشبيه النبوي الرائع لها (عن جابر بن عبد اللّه، أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم مرّ بالسّوق، داخلًا من بعض العالية، والنّاس كنفته[2]، فمرّ بجدي أسكّ[3] ميّتٍ. فتناوله فأخذ بأذنه. ثمّ قال: (أيّكم يحبّ أنّ هذا له بدرهم)، قالوا: ما نحبّ أنّه لنا بشيءٍ. وما نصنع به؟ قال: (أتحبّون أنّه لكم)، قالوا: واللّه! لو كان حيًّا، كان عيبًا فيه، لأنّه أسكّ، فكيف وهو ميّتٌ؟ فقال:(فواللّه! للدّنيا أهون على اللّه، من هذا عليكم)[4].

وهكذا.. عندما تكون الحياة الدنيا في حس المؤمن دار ممر إلى الحياة الحقيقية في الآخرة، عندها لاينخدع بزينتها وزخارفها، بل يجعلها وسيلة لعمارة هذه الأرض وفق المنهج الرباني، ويصبح شاغله الشاغل فيها هو استعمال ما وهبه الله فيها من نعم وقدرات فيما يقربه من مولاه، وفيما ينفعه في الآخرة، فكل ما يغرسه من أعمال صالحة في الدنيا يجد ثمراته في الآخرة، الحياة الحقيقية اللائقة بهذا المخلوق المكرم.

ثانيًا: نظرة الكافرين:

أما نظرة الكافرين إلى الحياة الدنيا فهي نظرة المخدوع بزينتها، العاشق لشهواتها، الغارق في أهوائها، فهم لا يمدون أبصارهم إلى أبعد من مواقع أقدامهم، يرونها الفرصة الوحيدة لإشباع ملذاتهم وشهواتهم.. أما الآخرة فلا تخطر على بالهم ولا تشغل همهم، فعشق الدنيا أعمى أبصارهم وطبع على قلوبهم، تمامًا كما وصفهم الله عز وجل في كتابه الكريم: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ ﴾ [الروم:٧].

«أي: مبلغ علمهم لا يتعدى مابه معاشهم في الحياة الدنيا، بصيرين بسبل رخائهم المادي في الدنيا، عمين عن طريق سعادتهم في الدنيا والآخرة، فهي حياة الحواس واللذة. والحضارة المتنكرة للدين وخالق الكون، الفاقدة لكل إشارة إلى معنى وجود الإنسان ووظيفته وغايته ومصيره بعد الموت، فلا تجد في سلم قيمها إلا مصطلحات من قبيل: اختراع، واقتصاد، وتنمية، وتمويل، ومواد أولية، وسوق، واستهلاك، ودخل فردي، ومستوى معيشة،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٧١١.
(٢) وفي بعض النسخ: كنفتيه، معنى الأول جانبه، والثاني جانبيه.
انظر: صحيح مسلم بشرح النووي ٩/ ٢٩٤.
(٣) أي: صغير الأذنين.
انظر: صحيح مسلم بشرح النووي ٩/ ٢٩٤.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، أول كتاب الزهد والرقائق، ٤/ ٢٢٧٢، رقم ٢٩٥٧.

إلى آخر القاموس»[1].

وهذه النظرة المنحرفة للحياة الدنيا -والتي تصدر عن عقيدة فاسدة- تدفعهم لاتباع الباطل والدفاع عنه، وسلوك سبيل الضلال، وإيثار الفساد على الإصلاح، والطغيان على العدل والإنصاف..

فعندما يتصور الإنسان أن هذه الحياة الدنيا هي نهاية المطاف وأنه لا حياة خالدة بعدها، عندها يندفع كالوحش المفترس نحو شهوات الدنيا وزينتها يغترف منها بلا ضابط أو رادع، ويتقاتل من أجل متاعها ويتصارع في سبيل الاستئثار بملذاتها، حتى أنه يرتكب في سبيل تحصيل لذاتها ومشتهياتها أبشع الجرائم وأخس الأفعال، ولم لا يفعل ذلك، وهي في حسه الفرصة الوحيدة المتاحة لإرواء شهواته وإشباع نهمه، وعندها تختفي كل معاني الإنسانية وتغيب القيم العليا والعواطف النبيلة لتتحول الأرض إلى غابة يفترس فيها القوي الضعيف، ويبغى الغني على الفقير، وهذا الأمر ظاهر للعيان -خاصة- في العالم الغربي الذي لا يؤمن إلا بهذه الحياة الدنيوية.

لذا توعد الله عزوجل أولئك الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس:٧-٨].

مما سبق يتضح لنا الفرق بين نظرة المؤمنين ونظرة الكافرين إلى الحياة الدنيا، فشتان شتان بين نظرة تقود صاحبها إلى الحياة الطيبة والسكينة النفسية في الحياة الدنيا، والنعيم الخالد في الآخرة، وبين نظرة تلقي صاحبها في أتون الهم والشقاء، والقلق والحيرة والاضطراب في الحياة الدنيا، والعذاب والخسران والهوان في الآخرة..

شتان شتان بين مصير المؤمنين ومصير غير المؤمنين في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى واصفًا أحوال المؤمنين: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧].

وقال سبحانه واصفًا أحوال غير المؤمنين: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:١٢٤].

فما أبعد الشقة بين الفريقين!

(١) مفهوم الحياة في القرآن والحديث، د. محمد الأحمدي ص ٢٥٧.

الحياة الدنيا في القرآن

أولًا: وصف الحياة الدنيا:

عرضت الآيات القرآنية صفات الحياة الدنيا بما يجلي حقيقتها، ويكشف عن قيمتها في ميزان الله عز وجل حتى لا ينخدع الناس بها أو يغفلون بسببها عن الحياة الحقيقية في الآخرة.

وفيما يلي نعرض بعض أوصاف الحياة الدنيا كما جاءت في القرآن:

١ . متاع.

وردت لفظة متاع مضافة إلى (الحياة) في كتاب الله (٧) مرات: آل عمران ١٤، التوبة ٣٨، يونس ٢٣، القصص ٦٠، ٦١، الشورى ٣٦، الزخرف ٣٥.

ووردت مرة مضافة إلى (الدنيا) في النساء ٧٧.

ووردت مضافة إلى (الغرور) في موضعين: آل عمران ١٨٥، الحديد ٢٠.

ونستنتج من ذلك أن لفظ (المتاع) لم يضف إلا للدنيا وغرورها، ولم يوصف نعيم الآخرة بأنه متاع؛ لأنه نعيم كامل باق لا يفنى ولا يزول.

قال ابن منظور في اللسان: «قال الأزهري: فأما المتاع في الأصل فكل شيء ينتفع به ويتبلّغ به ويتزود، والفناء يأتي عليه في الدنيا»(١).

وفي الاصطلاح العام هو كل ما أوتي الإنسان في الحياة الدنيا من نساء وبنين ومساكن وأموال، كما قال الله عز وجل ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)﴾ [آل عمران:١٤]

وقد جعل هذا المتاع فتنة وإمتحانًا.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١)﴾ [طه:١٣١].

ونقطة الابتلاء في حياة الإنسان هي هذا المتاع الذي وهبه ربه، هل يتناول منه القدر الذي أباحه الله وأحله، أم ينتهب ما حرم الله ولا يلتزم بطاعته؟

كما بينت الآيات أن هذا المتاع قليل وزائل لزوال الحياة الدنيا نفسها وانقضائها، قال عز وجل: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠)﴾ [القصص:٦٠].

كما أنه متاع يخدع الغافلين ويغر المغرورين، قال الله عز وجل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ

(١) لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٤١٢٧.

﴿الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران:١٨٥]

«وما الحياة الدنيا التي نعيشها ونستمتع بها باللذات الجسدية من طعام وشراب والمعنوية من جاه ومنصب وسمو إلا كالمتاع المشترى بخداع وتغرير، ثم يتبين فساده ورداءته؛ لأن صاحبها دائمًا مغرور مخدوع بها، أو لأنها حقيرة متروكة فانية زائلة، كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى:١٦-١٧]، وفي الحديث: (والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع)(١)»(٢).

وتهوين شأن الدنيا على هذا النحو لمن آثرها على الآخرة، قال سعيد بن جبير: «إنما هذا لمن آثرها على الآخرة، فأما من طلب الآخرة بها فإنها متاع بلاغ»(٣).

فهل ينخدع العاقل بهذا المتاع ويضحي من أجله بنعيم خالد وسعادة سرمدية ؟، ألا إنها الحماقة التي لا يرتكبها إنسان يسمع ويرى!

٢. لعب ولهو.

ورد اللعب واللهو صفة للدنيا في أربعة مواضع: الأنعام ٣٢، العنكبوت ٦٤، محمد ٣٦، الحديد ٢٠.

و«اللعب واللهو هما الاشتغال بما لايعني العاقل من لهو وطرب، سواء كان ذلك محرمًا أم غير محرم، بيان ذلك: أن هناك أمورًا ثبت تحريمها بالشرع، كالزنا واغتصاب الأموال، والاشتغال ببعض الآلات التي تشغل الإنسان عن القيام بواجبه، وهناك أمور أخرى لم يرد نص في تحريمها، وذلك كالألعاب التي ليس فيها نفع، كما هو شأن كثير من الألعاب المنتشرة في عصرنا، فهذا كله يصدق عليه أنه لهو ولعب، لأنه لا نفع فيه، أما إذا كانت هذه الألعاب تحقق غرضًا ومصلحة كأعمال الفروسية والرماية، فإن هذا مما أباحه الشرع ولا حرج فيه»(٤).

فاللهو واللعب بينهما عموم وخصوص؛ وذكر العسكري بينهما فرقًا، فقال: «لا لهو إلا لعب، وقد يكون لعب ليس بلهو ؛ لأن اللعب يكون للتأديب وغيره، ولا يقال لذلك: لهو، وإنما اللهو لعب لا يعقب... نفعًا، وسمي لهوًا؛ لأنه يشغل عما يعني، من قولهم: ألهاني الشيء، أي: شغلني، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾﴾ [التكاثر:١]»(٥).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة، وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم ٢٨٥٨.
(٢) التفسير المنير، وهبة الزحيلي ٤/ ١٩٤.
(٣) الكشاف، الزمخشري ١/ ٦٧٠.
(٤) خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة، فضل عباس ص٩٧.
(٥) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٥٤.

ومن أمثلة اللهو ما يفعله الذين ينفقون أعمارهم وطاقاتهم في العبث بلعبة النرد، أو بألعاب الورق ذات الأرقام والصور، ونحو ذلك من وسائل لهو وعبث.

قال الله عز وجل: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام:٣٢].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت:٦٤].

وقوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد:٢٠].

فما أشد بؤس المرء الذي تخلو حياته من الجد والعمل، وتقتصر على اللهو واللعب، فلا غرس عملًا صالحًا ولا حصّل خلقًا فاضلًا، والاستغراق في ممارسة اللهو واللعب يؤدي إلى الإنزلاق في مستنقع الغفلة، فينطلق المرء نحو زينة الحياة الدنيا في سعار محموم لا يتوقف ولا ينتهي، فينسى الآخرة، ويتشاغل عنها حتى إذا جاء وقت الحصاد في الآخرة لم يحصد إلا الخيبة والندم، ولم يجن سوى الهوان والخسران، فالجزاء من جنس العمل!

٣. زينة.

وصفت الحياة الدنيا بالزينة في القرآن الكريم في موضع واحد، في قول الله عز وجل: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد:٢٠].

ووردت مضافة للحياة الدنيا مرتين في سورة الكهف ٢٨-٤٦، وثلاث مرات مضافة للضمير العائد على الحياة الدنيا في سور: هود ١٥، والقصص ٦٠، والأحزاب ٢٨.

«الزينة هي في الأصل اسم جامع لكل ما يتزين به، والتزيين هو تحسين المظهر وتجميله حتى تميل إليه الحواس، وترتاح إليه النفوس، ولا يشترط فيما هو حسن المظهر أن يكون في حقيقته جوهرًا نافعًا، وذا قيمة حقيقية باقية، بل ربما يكون ضارًّا وجالبًا لشر وعذاب.

وقد أبان الله عز وجل أنه جعل ما على الأرض زينة لها ليبلوا الناس أيهم أحسن عملًا، فقال عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف:٧]»[1].

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن

«فكلّ ما عليها من قصور وأنهار، ومدائن وديار، وزروع وثمار، وبحيرات وغابات، وكنوز وثروات، وضيعاتٍ وروضات، ومراكب فارهة، وأسواقٍ عامرة، ومراتب عالية، كلّ ذلك من أعراض زينتها الفانية؛ امتحانٌ لأهلها ﴿لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾، وفي هذا: بيانٌ لحقيقة الدنيا وزينتها، ودعوةٌ إلى الاجتهاد في هذه الدار، فهي دار عملٍ وسعيٍ، ووعيدٌ لمن ركن إليها وافتتن بسرابها، وركن إلى متاعها بأن عمرها قصير وإلى الفناء تصير»(1).

وقد سمى الله تعالى المال والبنين زينة من زينة الحياة الدنيا، قال الله عز وجل: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦﴾ [الكهف:٤٦].

«وفي الآية دليل على أن المال والبنين زينة وليسا قيمة، فلا يجوز وزن الناس بهما، قيمة الناس بالباقيات الصالحات لا بالفانيات الزائلات، وسبيل النجاة من فتنة الأموال والأولاد إنزالهما سلوكًا وعملًا في منزلهما الذي وضعهما الله فيه، فهما زينة لا قيمة، والإسلام لم يحرم الزينة ما دامت في حدود ما أحل الله.

قال تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢﴾ [الأعراف:٣٢]»(2).

٤ . تفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد.

وصفت الحياة الدنيا ب(التفاخر والتكاثر) في القرآن الكريم في موضع واحد، في قول الله عز وجل: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾ [الحديد:٢٠].

قال ابن فارس: «الفاء والخاء والرّاء أصلٌ صحيحٌ، وهو يدلّ على عظمٍ وقدمٍ. من ذلك الفخر»(3).

«قرأ الجمهور بتنوين «تفاخر» والظرف صفة له، وقرأ السّلميّ بالإضافة، أي: يفتخر به بعضكم على بعضٍ، وقيل: يتفاخرون بالخلقة والقوّة، وقيل: بالأنساب والأحساب كما كانت عليه العرب»(4).

التكاثر:

(1) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، إعداد نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن بإشراف د. مصطفى مسلم ٤ / ٢٩٦.

حبنكة ٢ / ٥٤٢.

(2) العواصم من الفتن في سورة الكهف، الشيخ عبد الحميد طهماز ص ٧٨ .

(3) مقاييس اللغة ابن فارس، ٤/ ٤٨٠.

(4) فتح القدير، الشوكاني ص ١٤٦٠.

قال ابن فارس: «الكاف والثاء والراء أصلٌ صحيح، يدل خلاف القلّة، من ذلك الشّيء الكثير، وقد كثر»[1]. «والمكاثرة والتكاثر: التباري في كثرة المال والعز، ثم شاع إطلاق صيغة التكاثر، فصارت تستعمل في الحرص على تحميل الكثير، من غير مراعاة مغالبة الغير ممن حصل عليه»[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ «إشارة إلى ما يجرى بين الناس من تنافس فى الاستكثار من متاع الحياة الدنيا، وزينتها من أموال وأولاد، لا لسدّ الحاجة، وإنما لإشباع رغبة التعالي والتفاخر، تلك الرغبة التي كلما ألقى إليها ما تشتهيه، اشتد جوعها، وازداد نهمها، فلا تشبع أبدًا، إن من شأن التعالى والتفاخر أن يجور على حياة الإنسان نفسه، كما أن من شأن هذا أن يحمله على الجور على حقوق الناس، ابتغاء الوصول إلى الغاية التي يبلغ فيها حدّ التعالى الذي يملؤه فخرًا وتيهًا»[3].

٥. عرض.

ورد لفظ (عرض) مضافة إلى (الحياة الدنيا) في سورتي النساء ٩٤، والنور ٣٣، كما ورت مضافة إلى (الدنيا) في سورة الأنفال ٦٧، ووردت دون إضافة في الأعراف ١٦٩.

قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ [النساء: ٩٤].

وقال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [النور: ٣٣].

«العرض: ما لا يكون له ثباتٌ، ومنه استعار المتكلّمون العرض لما لا ثبات له إلّا بالجوهر كاللّون والطّعم، وقيل: الدّنيا عرضٌ حاضرٌ، تنبيهًا أن لا ثبات لها»[4].

وفي تسمية متاع الدنيا عرضًا ما يدل على كونه سريع الفناء، قريب الانقضاء، فهو عارض زائل غير باق.

وفي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: (ليس الغنى عن كثرة

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٦٠.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٤٠٣.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٤/ ٧٧٥ - ٧٧٦.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٣١.

العرض، ولكنّ الغنى غنى النّفس)[1].

«قال ابن بطال: معنى الحديث ليس حقيقة الغنى كثرة المال، لأن كثيرًا ممن وسع الله عليه في المال لا يقنع بما أوتي، فهو يجتهد في الازدياد ولا يبالي من أين يأتيه، فكأنه فقير لشدة حرصه، وإنما حقيقة الغنى غنى النفس، وهو من استغنى بما أوتي، وقنع به ورضي ولم يحرص على الازدياد ولا ألح في الطلب، فكأنه غني. وقال القرطبي: معنى الحديث أن الغنى النافع أو العظيم أو الممدوح هو غنى النفس، وبيانه أنه إذا استغنت نفسه كفت عن المطامع فعزت وعظمت، وحصل لها من الحظوة والنزاهة والشرف والمدح أكثر من الغنى الذي يناله من يكون فقير النفس لحرصه فإنه يورطه في رذائل الأمور وخسائس الأفعال لدناءة همته وبخله، ويكثر من يذمه من الناس، ويصغر قدره عندهم فيكون أحقر من كل حقير وأذل من كل ذليل»[2].

٦. زهرة.

وردت بصيغة (زهرة الحياة الدنيا) مرة واحدة في سورة طه، قال الله عز وجل ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه:١٣١].

وزهرة الحياة الدنيا أي: حسنها ونضارتها، وفي ذلك إشارة إلى أن الحياة الدنيا قصيرة وسريعة الزوال، كالزهرة تذبل بمرور الوقت.

ثانيًا: ضرب الأمثال للحياة الدنيا:

مثلت الحياة الدنيا في القرآن الكريم بثلاثة أمثال في سور يونس، الكهف، الحديد. وقد ذهب أكثر المتحدثين عن هذه الأمثال -من مفسرين وغيرهم- إلى أن الحياة، أو متعها كانت قد شبهت - لسرعة زوالها، وفنائها -بماءٍ أنبت نباتًا، أو بنباتٍ كسا الأرض ببهجة ونضارة، ثم ما لبث أن ذبل وجف وتهشم، وتبدد هباءً منثورًا، فعادت الأرض وكأنها لم تكن قد اكتست به في يوم من الأيام.

وسنقف بإيجاز مع كل مثل من هذه الأمثال:

المثل الأول: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الغنى غنى النفس، رقم ٦٤٤٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ليس الغنى عن كثرة العرض، رقم ١٠٥١.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٣٢٨-٣٢٩.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤].

يقول الإمام الطبري في شرح المثل الأول في سورة يونس: «إنما مثل ما تباهون في الدنيا وتفاخرون به من زينتها وأموالها، مع ما قد وكّل بذلك من التكدير والتنغيص وزواله بالفناء والموت، كمثل ماءٍ أنزلناه من السماء، يقول: كمطر أرسلناه من السماء إلى الأرض ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾، يقول: فنبت بذلك المطر أنواعٌ من النبات، مختلطٌ بعضها ببعض، فكذلك يأتي الفناء على ما تتباهون به من دنياكم وزخارفها، فيفنيها ويهلكها كما أهلك أمرنا وقضاؤنا نبات هذه الأرض بعد حسنها وبهجتها، حتى صارت كأن لم تغن بالأمس، كأن لم تكن قبل ذلك نباتًا على ظهرها»[1].

وللإمام ابن القيم كلام لطيف في شرح هذا المثل فيقول: «شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر فتروقه بزينتها وتعجبه، فيميل إليها ويهواها اغترارًا منه بها حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سلبها بغتة (إما بالموت وهذا ظاهر، وإما بمرض ينزل بالمرء فلا يستفيد بها أو بآفة تجتاحها وتزيلها أحوج ما كان إليها وحيل بينه وبينها، فشبهها بالأرض الذي ينزل الغيث عليها فتعشب ويحسن نباتها ويروق منظرها للناظر، فيغتر به ويظن أنه قادر عليها مالك لها، فيأتيها أمر الله فتدرك نباتها الآفة بغتة، فتصبح كأن لم تكن قبل فيخيب ظنه وتصبح يداه صفرا منهما، فهكذا حال الدنيا والواثق بها سواء»[2].

والمتأمل في المثل السابق يجد أنه يمثل طرقات قوية تهز القلب البشري الغافل الذي تخدعة زينة الحياة ونضارتها، فيتوهم فيها الخلود الخادع، ويغره الأمل الكاذب حتى ينسى في غمرة انشغاله بشهواتها الحياة الحقيقية التي وعد الله عز وجل بها عباده الصالحين ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥].

«فيالبعد الشقة بين دار يمكن أن تطمس في لحظة، وقد أخذت زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فإذا هي حصيد كأن لم تغن بالأمس، ودار السلام التي يدعو إليها الله، ويهدي من يشاء إلى الصراط المؤدي لها، حينما تنفتح بصيرته، ويتطلع إلى دار السلام»[3].

المثل الثاني: قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف: ٤٥].

يقول الشيخ المراغي رحمه الله:

---

(١) جامع البيان، الطبري ١١ / ٧١-٧٢.

(٢) إعلام الموقعين ٢ / ٢٧٤.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٧٧٥.

«شبهت الدنيا في نضرتها ثم صيرورتها إلى الزوال بحال نبات اخضرّ والتف وأزهر، ثم صار هشيمًا متفتتًا تنثره الرياح ذات اليمين وذات الشمال ومن ثم لا يغترّنّ أهلها بها، ولا يفخرنّ ذو الأموال الكثيرة بأمواله، ولا يستكبرنّ بها على غيره، فإنما هي ظل زائل، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ أي: وكان الله ذو الكمال والجلال قادرًا على كل شيء إنشاء وإفناء وإعادة، فهو يوجد الأشياء ثم ينمّيها ثم يفنيها، وما حال الدنيا إلا هذه الحال، فهي تظهر أولًا ناضرة زاهرة ثم تتزايد قليلا قليلا، ثم تأخذ في الانحطاط إلى أن تصير إلى الهلاك والفناء، فلا ينبغي للعاقل أن يبتهج بما يحوزه منها أو يفخر به أو يصعّر خده استكبارًا»[1].

فما أضل الإنسان الذي تخدعه مظاهر الحركة والنمو والبهجة والنضارة والزهو والشباب.. وتثير في نفسه مشاعر الفرح والغرور والخيلاء، فينشغل بالزينة عن القيمة، وينخدع بظواهر الأمور، فيركن إليها، ويقصر اهتمامه عليها، ولا يستثمر من زينتها شيئًا لمستقبله الأخروي.

المثل الثالث: قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠]

يقول ابن كثير رحمه الله: «ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ وهو: المطر الذي يأتي بعد قنوط الناس، وقوله: ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ أي: يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث؛ وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ أي: يهيج ذلك الزرع فتراه مصفرًّا بعد ما كان خضرًا نضرًا، ثم يكون بعد ذلك كله حطامًا، أي: يصير يبسًا متحطمًا، هكذا الحياة الدنيا تكون أولًا شابة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزًا شوهاء، والإنسان كذلك في أول عمره وعنفوان شبابه غضًّا طريًّا لين الأعطاف، بهي المنظر، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه وينفد (يفقد) بعض قواه، ثم يكبر فيصير شيخًا كبيرًا، ضعيف القوى، قليل الحركة، يعجزه الشيء اليسير، كما قال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤]»[2].

(١) تفسير المراغي، ٥/ ٤٠٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨ / ٢٤.

وهكذا فالمتدبر في هذه الأمثال الثلاثة يجد أن القرآن الكريم لم ينتقص من الحياة ذاتها، وإنما انتقص من انشغال الإنسان فيها بما لا يعود عليه بآجل الثواب، واغفاله مالا ينبغي أن يغفل عنه، فهذه الأمثال تدفع المرء للنظر إلى الحياة الدنيا من موقع الفكر والتأمل لا من موقع الانبهار والالتذاذ.

«إن الآيات ليست في صدد التزهيد في الدنيا وطيباتها والكسب والمال والولد. وكل ما في الأمر أن فيها تنبيهًا على عدم ميل المرء إلى الدنيا وجعل أعراضها أكبر همّه وقصارى آماله. وعلى عدم الاستغراق فيها استغراقًا ينسيه واجباته نحو الله ونحو الناس. ويجعله يغفل عن الآخرة وحسابها وهي دار الخلود في حين أن أمد الحياة الدنيا قصير جدًّا بالنسبة لكل إنسان يعيش فيها. والأسلوب بهذا البيان علاج روحاني شاف يفيد الإنسان في جميع ظروفه وبخاصة حينما تطغى المادة على الروح وتغطي أغراض الدنيا الغرارة مثل الإنسانية العليا وتقسي القلوب وتنزع منها خشية الله تعالى»[1].

«فالناس -كل الناس- ليسوا في حاجة أبدا إلى من يدعوهم إلى الإقبال على الدنيا، وإلى أخذ حظوظهم منها، إذ هم مقبلون بطبعهم عليها، مدعوون بحكم غريزتهم إلى الاندفاع في هذا الإقبال إلى مالا نهاية له.

وإنما الناس -كل الناس- محتاجون إلى من يمسك زمامهم ويروّض غرائزهم، في تعاملهم مع الدنيا، وفي تنافسهم المهلك على ما فيها من مال ومتاع، فكل معرض يعرض فيه القرآن الكريم، الحياة الدنيا، مستخفًا بها، مهونًا من شأنها، إنما هو دواء ملطف لهذا السّعار الذي يدفع الناس دفعًا في غير وعي، إلى أن يلقوا بأنفسهم إلى مواطن التهلكة، دون أن يأخذوا حذرهم مما يلقاهم على هذا الطريق المحفوف بالمخاطر»[2].

(١) التفسير الحديث، محمد عزة دروزة ٩/ ٣٢٤.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٤ / ٧٧٧.

الحياة البرزخية

قال الله عز وجل: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٠].

قال الطبري في تفسير هذه الآية: «ومن أمامهم حاجز يحجز بينهم وبين الرجوع، يعني: إلى يوم يبعثون من قبورهم، وذلك يوم القيامة، والبرزخ والحاجز والمهلة متقاربات في المعنى»(١).

وقال الراغب: «البرزخ: الحاجز والحدّ بين الشيئين، والبرزخ في القيامة: الحائل بين الإنسان وبين بلوغ المنازل الرفيعة في الآخرة، وذلك إشارة إلى العقبة المذكورة في قوله عزّ وجل: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾ [البلد:١١].

قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٠].

وتلك العقبة موانع من أحوال لا يصل إليها إلا الصالحون. وقيل: البرزخ ما بين الموت إلى القيامة»(٢).

«إن مقتضى العدل، وانطلاقًا من الشرع الحنيف، لا بد أن يكون هناك موقف يقفه الإنسان، ليحاسب على عمله، ويجازى على فعله، بعد انتهاء حياته الدنيا، وانتقاله إلى حياة أخرى التي هي بداية الحياة الأبدية، ألا إنها حياة البرزخ، لينعم أو ليعذب، حتى تتحقق العدالة الإلهية، ويوّفى الجميع وتطمئن قلوبهم، أن لهذا الكون إلهًا عادلًا، لا يظلم مثقال ذرة، والعقول السليمة، والفطرة المستقيمة ترى أن حياة الإنسان بعد موته لحسابه ومجازاته، ومنها حياة البرزخ، من أهم ضرورات الحياة الطبيعية، الحياة المستقرة الآمنة، التي تتمتع بالأمن والأمان، إذ لابد أن يكون هناك وقفة مع هذا الإنسان بعد الحياة الدنيا، لكي يجازى كل إنسان على عمله وفعله، وما كسبت يداه، وينعم المحسن، ويعذب المذنب»(٣).

أولًا: نعيم البرزخ:

ورد في القرآن الكريم آيات دالة على نعيم البرزخ، وكذلك تظاهرت الأحاديث النبوية على إثبات ذلك.

قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم:٢٧].

روى الإمام البخاري بسنده، عن البراء بن عازب، رضي الله عنه ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (المسلم إذا سئل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي

---

(١) جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٤٣.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٣.
(٣) حياة البرزخ في ضوء الكتاب والسنة، شادي فوزي محمد بشكار ص٩٧-٩٨.

﴿الآخِرَةِ﴾)[1].

وفي الحديث الذي رواه البراء بن عازب رضي الله عنه عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ما يؤكد نعيم البرزخ، حيث ذكر فيه قبض نفس المؤمن بسهولة ويسر، ثم توضع روحه في كفن من أكفان الجنة ويصعد بها إلى السماء حتي يصل إلى السماء الدنيا، فيشيعة الملائكة المقربون، ثم تعاد روحه مرة أخرى إلى جسده ويبدأ الحساب والسؤال في القبر، كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام فقال: (فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به وصدقت. فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره. ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول له من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح. فيقول: رب أقم الساعة. رب، أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي)[2].

ومن النعيم الذي حدث عنه الرسول عليه الصلاة والسلام، ما يصيب الشهداء في حياة البرزخ، فقد صح عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما ، قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: (لمّا أصيب إخوانكم بأحدٍ، جعل اللّه أرواحهم في أجواف طيرٍ خضرٍ، ترد أنهار الجنّة وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهبٍ معلّقةٍ في ظلّ العرش، فلمّا وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ إخواننا عنّا أنّا في الجنّة نرزق، لئلّا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا في الحرب، فقال اللّه عزّ وجلّ: أنا أبلّغهم عنكم، فأنزل اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران:١٦٩])[3].

ومن صور النعيم في البرزخ أن أرواح المؤمنين تتلاقى وتتذاكر في البرزخ.

قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾، رقم ٤٦٩٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، رقم ١٣٧٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، رقم ١٨٨٧.

﴿خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٧٠﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧٠].

«وفي هذه الآية دلالة على تلاقي أرواح الشهداء من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنهم عند ربهم يرزقون، وإذا كانوا أحياء فهم يتلاقون.

الثاني: أنهم إنما استبشروا بإخوانهم لقدومهم ولقائهم لهم.

الثالث: أن لفظ ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفيد في اللغة أنهم يبشر بعضهم بعضًا مثل (يتباشرون)»[1].

قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ۝٧٠﴾ [النساء:٦٩-٧٠].

يقول الإمام ابن القيم في التعقيب على هذه الآية: «وهذه المعية ثابتة في الدنيا وفي الدار البرزخ وفي دار الجزاء والمرء مع من أحب في هذه الدور الثلاث»[2].

ثانيًا: عذاب البرزخ:

وردت نصوص كثيرة تدل على أن عذاب البرزخ حق، وأن الكافرين في الحياة البرزخية يعذبون حتى يبعثهم الله إليه يوم القيامة، ومن تلك النصوص:

(١) الروح، ابن القيم ص ٢٦.
(٢) المصدر السابق ص ٢٤.

قوله تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ۖ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ۝٤٥ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر:٤٥-٤٦].

قال ابن كثير رحمه الله: «وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، وهي قوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾»[3].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤﴾ [طه:١٢٤]

قال الطبري بعد ذكر أقوال المفسرين في هذه الآية: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: هو عذاب القبر، وذكر حديث بسنده، عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أتدرون فيم أنزلت هذه الآية ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ أتدرون ما المعيشة الضَّنك؟) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (عذاب الكافر في قبره، والّذي نفسي بيده أنّه ليسلّط عليه تسعةٌ وتسعون تنّينًا، أتدرون ما التّنين؟ تسعةٌ وتسعون حيّة، لكلّ حيّة سبعة رءوسٍ، ينفخون في جسمه ويلسعونه ويخدشونه إلى يوم القيامة)»[4].

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٤٦.
(٤) أخرجه أبو يعلى في مسنده، رقم ٦٦٤٤، وابن حبان في صحيحه ٣١٢٢.

وإن الله تبارك وتعالى أتبع ذلك بقوله: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه:١٢٧] فكان معلومًا بذلك أن المعيشة الضنك التي جعلها الله لهم قبل عذاب الآخرة، لأن ذلك لو كان في الآخرة لم يكن لقوله: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ معنى مفهوم، لأن ذلك إن لم يكن تقدّمه عذاب لهم قبل الآخرة، حتى يكون الذي في الآخرة أشدّ منه، بطل معنى قوله ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾، فإذ كان ذلك كذلك، فلا تخلو تلك المعيشة الضنك التي جعلها الله لهم من أن تكون لهم في حياتهم الدنيا، أو في قبورهم قبل البعث، إذ كان لا وجه لأن تكون في الآخرة لما قد بيّنا، فإن كانت لهم في حياتهم الدنيا، فقد يجب أن يكون كلّ من أعرض عن ذكر الله من الكفار، فإن معيشته فيها ضنك، وفي وجودنا كثيرًا منهم أوسع معيشة من كثير من المقبلين على ذكر الله تبارك وتعالى، القائلين له المؤمنين في ذلك، ما يدلّ على أن ذلك ليس كذلك، وإذ خلا القول في ذلك من هذين الوجهين صحّ الوجه الثالث، وهو أن ذلك في البرزخ»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الطور:٤٧].

قال قتادة: «كان ابن عباس يقول: إنكم لتجدون عذاب القبر في كتاب الله ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾»(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [التوبة:١٠١].

قال قتادة: «قال الله تعالى ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ «قال: عذابًا في الدنيا وعذابًا في القبر»(٣).

وفي السنة النبوية نصوص كثيرة تثبت عذاب البرزخ، نأخذ منها هذين الحديثين:

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال: **(إنّ أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشيّ، إن كان من أهل الجنّة فمن أهل الجنّة، وإن كان من أهل النّار فمن أهل النّار)**(٤).

وروى البخاري ومسلم أيضًا عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال: **(إنّ العبد إذا وضع في قبره، وتولّى عنه أصحابه، إنّه ليسمع قرع نعالهم،**

وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٣٥٥٢.

(١) جامع البيان، الطبري ١٦ / ١٩٨-٢٠٠.

(٢) المصدر السابق ٢١ / ٦٠٣.

(٣) جامع البيان، الطبري ١١ / ٦٤٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي، رقم ١٣٧٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، رقم ٢٨٦٦.

أتاه الملكان، فيقعدانه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرّجل، محمد؟ فأمّا المؤمن فيقول: أشهد أنّه عبد اللّه ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النّار، قد أبدلك اللّه به مقعدًا من الجنّة. قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: (فيراهما جميعًا). قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعًا، ثم رجع إلى حديث أنس: وأمّا الكافر أو المنافق، فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول النّاس، فيقال: لا دريت ولا تليت، ثمّ يضرب بمطرقةٍ من حديدٍ ضربةً بين أذنيه، فيصيح صيحةً يسمعها من يليه إلّا الثّقلين)[1].

إن إيمان المسلم بحياة البرزخ يدفعه إلى تزكية نفسه وتهذيبها، وتقويم المعوج من سلوكه، كما يحجزه عن الوقوع فيما حرمه الله بما يغرسه في قلبه من الخوف والخشية، فيحرص على ضبط أقواله وأفعاله، وعلاقاته ومعاملاته بما يتوافق مع الشرع الحنيف، لأنه يعلم أن الحياة البرزخية صورة مصغرة لما سيكون عليه الجزاء في الحياة الآخرة، فإما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، كما أن المسلم يوقن أن حياة البرزخ هي من النتائج الأولى للامتحان والاختبار في الحياة الدنيا، وليس هناك فرصة للعودة مرة أخرى لتصحيح الأخطاء أو تعديل المسار، وهذا ما يجعله في يقظة وحذر دائمين، يحاسب نفسه كلما شردت عن الصراط المستقيم أو جرفتها الشهوات إلى لجج الغفلة.

وهذا الإيمان بالحياة البرزخية هو السبب الرئيس في نشر الخير وتفشي العدل وسيادة الأمن والأمان على مستوى الأفراد والجماعات والأمم.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، رقم ١٣٧٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، رقم ٢٨٧٠.

الحياة الآخرة في القرآن

جاء وصف القرآن الكريم للحياة الآخرة ليبين للناس حقيقتها، فلا تغيب عن أذهانهم صورتها وهم يعيشون في هذه الحياة الدنيا، ينشغلون بمعاشها وزخارفها، فتكون حافزًا لهم على النهوض للطاعات والعبادات، ومجاهدة النفس على إقامة الأوامر واجتناب المحظورات من أجل الفوز والنجاة في الآخرة.

أولًا: وصف الحياة الآخرة:

وصفت الحياة الآخرة بعدة أوصاف منها:

١ . الحيوان.

الحيوان: مصدر حي، وقياسه حييان، فقلبت الياء الثانية واوًا، كما قالوا: حيوة، في اسم رجل، وبه سمى ما فيه حياة: حيوانًا. وفي بناء الحيوان زيادة معنى ليس في بناء الحياة، وهي ما في بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب، والحياة: حركة، كما أن الموت سكون، فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة، مبالغة في معنى الحياة، ولذلك اختيرت على الحياة في هذا الموضع المقتضى للمبالغة[1].

قال الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت:٦٤].

قال الطبري في تفسير هذه الآية: «وإن الدار الآخرة لفيها الحياة الدائمة التي لا زوال لها ولا انقطاع ولا موت معها»[2].

وأشار الإمام بن القيم إلى أن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ يحتمل معنيين:

«أحدهما: أن حياة الآخرة هي الحياة لأنها لا تنغيص فيها ولا نفاد لها، أي: لا يشوبها ما يشوب الحياة في هذه الدار، فيكون الحيوان مصدرا على هذا.

الثاني: أن يكون المعنى: أنها الدار التي تفنى ولا تنقطع ولا تبيد كما يفنى الأحياء في هذه الدنيا، فهي أحق بهذا الاسم من الحيوان الذي يفنى ويموت»[3].

وفي قوله تعالى: ﴿لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ بدلًا من «لهي الحياة»، إشارة إلى أن الحياة الآخرة هي الحياة، بل هي أصل الحياة، وما سواها من حيوات، ظل لها، أو فرع منها.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى أن الغفلة المطبقة على العقول تمنعها من إيثار الباقي على الفاني، وتدفعها لاختيار الضلالة على الهدى، فما أضل الإنسان حين يترك عقله إلى جهله، وبصيرته

(١) انظر: الكشاف ٤ / ٥٦٠.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٤٤٠.

(٣) حادي الأرواح، ابن القيم ١/ ٢٠٠-٢٠١.

إلى عماه، وفطرته النقية إلى شهواته الشائبة، فيضحي بالحياة الحقيقية من أجل سراب خادع!

مما سبق يتضح أن الدار الآخرة هي الحياة الدائمة التي لا موت فيها.. «الحياة الكاملة، التي من لوازمها، أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدة، لأنها أبدان وقوى خلقت للحياة، وأن يكون موجودًا فيها كل ما تكمل به الحياة، وتتم به اللذات، من مفرحات القلوب، وشهوات الأبدان، من المآكل، والمشارب، والمناكح، وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[1].

فأين هذه الحياة الأخروية من حياتنا الدنيا المملوءة بالمنغّصات والمكدرات، لذاتها ممزوجة بالمتاعب والآلام، يعيش المرء في خوف وهمّ من فقدان متاعها في أي لحظة، فيا قرة أعين المؤمنين بالحياة الحقيقية في الآخرة التي تعوضهم عن كل نصب وشقاء أصابهم في الحياة الدنيا.

٢. دار القرار.

قال الله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩﴾ [غافر:٣٩].

قال ابن كثير في قوله تعالى ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾: «الدار التي لا زوال لها، ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها، بل إما نعيم وإما جحيم»[2].

«وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ استقرّت الجنّة بأهلها واستقرت النّار بأهلها»[3].

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أن الجنة والنار مستقرتان، فقال في وصف الجنة ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾ [الفرقان:٢٤].

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٧٦﴾ [الفرقان:٧٥-٧٦].

كما قال عز وجل في وصف النار: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ٢٨ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٢٩﴾ [إبراهيم:٢٨-٢٩].

«وأي قرار هذا الذي يقر أو يستقر أو يستمر في جهنم، لو كان يدخل فيها يومًا أو يومين، أو شهرًا أو شهرين، أو سنة أو سنتين، أو مائة سنة أو مائتين، أو ألفًا أو ألفين، لا.. خالدين فيها أبدًا والعياذ بالله. الإنسان يعيش في الدنيا مستمتعًا باللذائذ والشهوات، ومن كل ما لذ وطاب من الحلال والحرام، فإذا

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٣٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧ / ١٤٥.

(٣) الدر المنثور، السيوطي ٥ / ٦٥٨.

جيء به يوم القيامة، وغمس في جهنم غمسة واحدة، ثم يسأل: «هل أصابك نعيم قط؟» هل مر بك نعيم قط؟ فيقول:لا، ما أصابني نعيم قط[1]. وغمسة واحدة تنسيه كل نعيم الدنيا، فما بالكم بمن يقر في جهنم ويقاسي حر نارها، وقبحت المستقر»[2].

٣. دار الخلد.

قال الراغب: «الخلود: هو تبرّي الشيء من اعتراض الفساد، وبقاؤه على الحالة التي هو عليها»[3].

وقال صاحب لسان العرب: «الخلد: دوام البقاء في دارٍ لا يخرج منها، خلد يخلد خلدًا وخلودًا: بقي وأقام. ودار الخلد: الآخرة لبقاء أهلها فيها»[4].

ولقد وصف الله عز وجل الحياة الآخرة بالخلود، فقال تعالى في حق أهل الجنة: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ۝١٥﴾ [الفرقان:١٥].

وقال تعالى في حق أهل النار: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝٢٨﴾ [فصلت:٢٨].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٥٢﴾ [يونس:٥٢].

أي: لهم الخلود الدائم، الذي لا يفتر عنهم العذاب ساعة، فشدة العذاب وعظمه، مستمر عليهم في جميع الآنات واللحظات.

روى الشيخان عن أبي سعيدٍ الخدريّ رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: (يؤتى بالموت كهيئة كبشٍ أملح[5]، فينادي منادٍ يا أهل الجنّة فيشرئبّون[6] وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلّهم قد رآه. ثمّ ينادي: يا أهل النّار، فيشرئبّون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلّهم قد رآه. فيذبح. ثمّ يقول: يا أهل الجنّة، خلودٌ فلا موت، يا أهل النّار، خلودٌ فلا موت، ثمّ قرأ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٩﴾ [مريم:٣٩])[7].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار، وصبغ أشدهم بؤسًا في الجنة، رقم ٢٨٠٧، عن أنس بن مالك.

(٢) تفسير سورة إبراهيم، يوسف القرضاوي ص ١٨٣.

(٣) المفردات، الراغب الإصفهاني ص ١٥٤.

(٤) لسان العرب، ابن منظور ٢ / ١٢٢٥.

(٥) الكبش الأملح: هو الذي فيه بياض وسواد، وبياضه أكثر.
انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ١٧ / ١٨٥.

(٦) فيشرئبون: بالهمز، أي يرفعون رؤوسهم إلى المنادي.
انظر: المصدر السابق.

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾، رقم ٤٧٣٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة،

٤. دار الجزاء.

من صفات الحياة الآخرة التي لابد أن نؤمن بها أنها دار الجزاء، وهذا الجزاء هو الجزاء الحقيقي، لأنه جاء من الملك الحق الذي لا يملك أحد معه في الحياة الآخرة حكمًا كملكهم في الدنيا.

قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٤].

والدين الجزاء والحساب؛ كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾ [النور: ٢٥].

وقال: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥٣]، أي: مجزيون محاسبون[١].

قال الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝١٧﴾ [غافر: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٢٢﴾ [الجاثية: ٢٢].

٥. دار الحق.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ۝٣٩﴾ [النبأ: ٣٩].

«إنه اليوم الحق الذي يتقرر فيه الحق من حساب وجزاء وجنة ونار، يتقرر فيه ما وعد الله به وأرسل الرسل مبشرين ومنذرين، إنه اليوم الحق الذي يتلاشى مع وقوعه كل تعلق بباطل، ولايقول الناس جميعًا إلا الحق ولا يرون إلا الحق، إنه الحق الذي لا لبس فيه ولا شك»[٢].

فيا له من يوم عظيم لا موضع فيه لباطل ولا ادعاء، تبلى فيه السرائر وتنكشف الضمائر.

ثانيًا: وصف نعيم الآخرة:

وصف القرآن الكريم نعيم الآخرة بعدة صفات، منها:

١. دائم.

وصفت الآيات القرآنية نعيم الآخرة بأنه نعيم باق دائم على عكس نعيم الدنيا الزائل الفان.

قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾ [النحل: ٩٦].

«أي: يفرغ وينقضي، فإنه إلى أجل معدود محصور مقدّر متناه، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾ أي: وثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع ولا نفاد له فإنه دائم لا يحول ولا يزول»[٣].

وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء، رقم ٢٨٤٩.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١ / ٢٥.

(٢) كلمة الحق في القرآن الكريم مواردها ودلالتها، محمد الراوي ١/ ٣٩٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤ / ٦٠٠.

يقول الإمام الرازي في شرح هذه الآية: «الحس شاهد بأن خيرات الدنيا منقطعة، والعقل دل على أن خيرات الآخرة باقية، والباقي خير من المنقطع، والدليل عليه أن هذا المنقطع إما أن يقال: إنه كان خيرًا عاليًا شريفًا أو كان خيرًا دنيًّا خسيسًا، فإن قلنا: إنه كان خيرًا عاليًا شريفًا فالعلم بأنه سينقطع يجعله منغصًا حال حصوله، وأما حال حصول ذلك الانقطاع فإنها تعظم الحسرة والحزن، وكون تلك النعمة العالية الشريفة كذلك ينغص فيها ويقلل مرتبتها وتفتر الرغبة فيها، وأما إن قلنا: إن تلك النعمة المنقطعة كانت من الخيرات الخسيسة فهمنا من الظاهر أن ذلك الخير الدائم وجب أن يكون أفضل من ذلك الخير المنقطع، فثبت بهذا أن قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ برهان قاطع على أن خيرات الآخرة أفضل من خيرات الدنيا»[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [ص:٥٤].

أي: أنّ النعم في الآخرة خالدة ولا تنفد ولا تزول كما في الحياة الدنيا، وأنّها تزداد دائمًا من خزائن الله المملوءة وغير المحدودة، ولا يظهر عليها أي نقص.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ دليل على أن نعيم الجنة دائم لا ينقطع؛ كما قال: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨]، وقال: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق:٢٥][2].

كما وصف الله عز وجل أشجار الجنة بأنها دائمة العطاء، فهي ليست كأشجار الدنيا تعطي في وقت دون وقت، وفصل دون فصل، بل هي دائمة الإثمار والظلال.

قال تعالى: ﴿۞ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد:٣٥].

فيا له من فضل عظيم من الرب الكريم، الرءوف الرحيم، البر الجواد، الواسع الغني على عباده المؤمنين أن جعل لهم هذا النعيم الدائم المستقر في جميع الأوقات، متزايدًا في جميع الآنات.

٢. خير.

وصف الله عز وجل الدار الآخرة بأنها خير للمتقين في آيات كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [النحل:٣٠].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠ / ١١٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨ / ٢٢٨.

﴿تَعْقِلُونَ ١٠٩﴾ [يوسف:١٠٩].

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٦٩﴾ [الأعراف:١٦٩].

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٣٢﴾ [الأنعام:٣٢].

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «لا شيء يثبت على الغير والأحداث وتقلبات الأحوال في هذا الخضم الهائج وفي هذه المعركة الكبرى، إلا اليقين في الآخرة، وأنها خير للذين يتقون، ويعفون، ويترفعون، ويثبتون على الحق والخير في وجه الزعازع والأعاصير والفتن، ويمضون في الطريق لا يلتفتون، مطمئنين واثقين، ملأ قلوبهم اليقين»[(١)].

وقد وصف الفخر الرازي وجوهًا عدة لوصف نعيم الآخرة بكونه خيرًا، فقال: «الأول: أن خيرات الدنيا ليست إلا قضاء الشهوتين، وهو في نهاية الخساسة، بدليل أن الحيوانات الخسيسة تشارك الإنسان فيه، بل ربما كان أمر تلك الحيوانات فيها أكمل من أمر الإنسان.

الثاني: أن هذين النوعين تشاركا في الفضل والمنقبة، إلا أن الوصول إلى الخيرات الموعودة في غد القيامة معلوم قطعًا، وأما الوصول إلى الخبرات الموعودة في غد الدنيا فغير معلوم بل ولا مظنون، فكم من سلطان قاهر في بكرة اليوم صار تحت التراب في آخر ذلك اليوم، وكم من أمير كبير أصبح في الملك والإمارة، ثم أمسى أسيرًا حقيرًا، وهذا التفاوت أيضا يوجب المباينة بين النوعين.

الثالث: هب أنه وجد الإنسان بعد هذا اليوم يومًا آخر في الدنيا، إلا أنه لا يدري هل يمكنه الانتفاع بما جمعه من الأموال والطيبات واللذات أم لا؟ أما كل ما جمعه من موجبات السعادات، فإنه يعلم قطعًا أنه ينتفع به في الدار الأخرة.

الرابع: هب أنه ينتفع بها إلا أن انتفاعه بخيرات الدنيا لا يكون خاليًا عن شوائب المكروهات، وممازجة المحرمات المخوفات.

الخامس: هب أنه ينتفع بتلك الأموال والطيبات في الغد، إلا أن تلك المنافع منقرضة ذاهبة باطلة، وكلما كانت تلك المنافع أقوى وألذ وأكمل وأفضل كانت الأحزان الحاصلة عند انقراضها وانقضائها أقوى وأكمل.

فثبت بما ذكرنا أن سعادات الدنيا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣ / ١٣٨٧.

وخيراتها موصوفة بهذه العيوب العظيمة، والنقصانات الكاملة وسعادات الآخرة مبرأة عنها، فوجب القطع بأن الآخرة أكمل وأفضل وأبقى وأتقى وأحرى وأولى»[1].

٣. أكبر.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النحل: ٤١].

وقال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ٢١].

«والمعنى: أن تفاضل الخلق في درجات منافع الدنيا محسوس، فتفاضلهم في درجات منافع الآخرة أكبر وأعظم، فإن نسبة التفاضل في درجات الآخرة إلى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة إلى الدنيا، فإذا كان الانسان تشتد رغبته في طلب فضيلة الدنيا فبأن تقوى رغبته في طلب فضيلة الآخرة أولى.

أو أن المراد أن الآخرة أعظم وأشرف من الدنيا، والمعنى أن المؤمنين يدخلون الجنة، والكافرين يدخلون النار، فيظهر فضل المؤمنين على الكافرين، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٤]»[2].

«وفي هذا ترغيب للخلق في تحصيل الفضل في درجات الآخرة؛ فإنهم إنما يتهالكون في الدنيا على أن يفضل بعضهم بعضًا في شيء منها، وهي الدار الفانية. فلم لا يتسابقون فيما ينالون به الفضل في الدار الباقية؟! مع أن من عمل لنيل الفضل في الآخرة -وما عملها إلاّ الخير والمعروف- حاز الفضل والسعادة فيهما على أفضل وجه، وأكمل حال، فللآخرة ونيل درجاتها فليعمل العاملون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون»[3].

قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢].

وتأمل في قوله سبحانه: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ثم اسأل نفسك: أي نعيم يفوق هذا النعيم؟! إن كل نعيم الآخرة ليتضاءل أمام رضوان الله عز وجل، وماذا يحتاج المؤمن بعد أن تغمره نسمات الرضا الإلهي.. فيا فوز المؤمنين بهذا المقام الكريم، ويا سعادتهم برضوان من الله يغمر أرواحهم، وتستشعره نفوسهم بلا انقطاع،

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢ / ٢١١-٢١٢، باختصار.

(٢) المصدر السابق ٢٠ / ١٨٣.

(٣) تفسير ابن باديس ص ٦٠.

ويا حسرة غير المؤمنين وهم يتجرعون مرارة سخط ربهم عليهم ويقاسون أشد أنواع الحرمان والخسران.

روى الإمام مسلم بسنده عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**إن الله يقول لأهل الجنّة: يا أهل الجنّة، فيقولون: لبيك يا ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم فيقولون: ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحدًا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ قال: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**)[1].

٤. مقام أمين.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١﴾ [الدخان: ٥١].

«أي: في الآخرة وهو الجنة، قد أمنوا فيها من الموت والخروج، ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب، ومن الشيطان وكيده، وسائر الآفات والمصائب»[2].

«والمقام: موضع الإقامة، والأمين: الآمن من كل سوء ومكروه، وهو الذي قد جمع صفات الأمن كلها، فهو آمن من الزوال والخراب وأنواع النقص، وأهله آمنون فيه من الخروج والنغص والنكد، وتأمل كيف ذكر سبحانه الأمن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥﴾ [الدخان: ٥٥].

فجمع لهم بين أمن المكان وأمن الطعام، فلا يخافون انقطاع الفاكهة ولا سوء عاقبتها ومضرتها، وأمن الخروج منها، فلا يخافون ذلك، وأمن من الموت فلا يخافون فيها موتا»[3].

«والأمن أكبر شروط حسن المكان؛ لأن الساكن أول ما يتطلب الأمن وهو السلامة من المكاره والمخاوف فإذا كان آمنًا في منزله كان مطمئن البال شاعرًا بالنعيم الذي يناله»[4].

فيا لقرة أعين المؤمنين بهذا المقام الأمين، ويا لسعادتهم وهم يغادرون جميع المخاوف والمكاره إلى غير رجعة.

ثالثًا: وصف عذاب الآخرة:

إن المتدبر للقرآن الكريم يجد في آيات كثيرة وصف الله عز وجل لعذاب الحياة الآخرة بأوصاف كثيرة متنوعة، وذلك كعادة المنهج القرآني في الجمع بين الترهيب والترغيب، فهذا «المنهج يتعامل مع الناس

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة، وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة، فلا يسخط عليهم أبدًا، رقم ٢٨٢٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧ / ٢٦١.

(٣) حادي الأرواح، ابن القيم ١ / ٢٠٣.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥ / ٣١٧.

جميعًا، مع الطبيعة البشرية. والله يعلم من هذه الطبيعة حاجتها إلى هذا الوعد بالمغفرة والأجر العظيم، وحاجتها كذلك إلى معرفة جزاء الكافرين المكذبين! إن هذا وذلك يرضي هذه الطبيعة، يطمئنها على مصيرها وجزائها، ويشفي غيظها من أفاعيل الشريرين!»[1].

ومن هذه الأوصاف ما يأتي:

١ . أشق وأشد.

قال الله تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الرعد:٣٤].

قال ابن كثير: «﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ أي: المدّخر لهم مع هذا الخزي في الدنيا، ﴿أَشَقُّ﴾ أي: من هذا بكثير، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمتلاعنين: (إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة)[2]، فإن عذاب الدنيا له انقضاء، وذاك دائم أبدًا في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفًا، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر:٢٥-٢٦]»[3].

وقد بين الرازي في تفسيره وجه زيادة عذاب الآخرة عن عذاب الدنيا فقال:

«﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ لأنه أزيد إن شئت بسبب القوة والشدة، وإن شئت بسبب كثرة الأنواع، وإن شئت بسبب أنه لا يختلط بها شيء من موجبات الراحة، وإن شئت بسبب الدوام وعدم الانقطاع»[4].

ومن هذه الآيات التي وصفت عذاب الآخرة بأنه أشق وأشد قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه:١٢٧].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة:٨٥].

وقوله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ [التوبة:٨١].

٢ . غرام.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢ / ٨٥٤.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب اللعان، رقم ١٤٩٣، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤ / ٤٦٤.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩ / ٥٩.

﴿غَرَامًا ۝٦٥﴾ [الفرقان:٦٥].

«أي: لازمًا دائمًا غير مفارق، ومنه سمي الغريم لملازمته. ويقال: فلان مغرم بكذا، أي: لازم له مولع به، وقال الحسن: قد علموا أن كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم. وقال الزجاج: الغرام أشد العذاب. وقال ابن زيد: الغرام الشر. وقال أبو عبيدة: الهلاك. والمعنى واحد.

وقال محمد بن كعب: طالبهم الله تعالى بثمن النعيم في الدنيا فلم يأتوا به، فأغرمهم ثمنها بإدخالهم النار»(١).

«والعذاب الغرام: هو العذاب المؤبّد أبدًا! لا ينقطع ولا يزول ما دامت السماوات والأرض! فكيف إذا كان ذلك التأبيد الرهيب في قعر جهنم وجوف جحيمها؟ عذاب ولا كأي عذاب والعياذ بالله! أوليس هذا مما لا يطيق الخيال تصوره؟

ولا يستطيع القلب تحسسه لما يحمله من هول عظيم؟ ولذلك قالوا: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦﴾ [الفرقان:٦٦].

أي: بئس المنزل هي! وبئس القرار! وبئس المصير! فبأي عين يستحلي النوم والسبات أصحاب مثل هذه المشاهدات؟!»(٢).

فما أقسى ذلك العذاب الذي يلازم صاحبه، فلا يفارقه ولا يتحول عنه، يفقد معه أي أمل في النجاة أو الخلاص ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٣٧﴾ [المائدة:٣٧].

٣. العذاب المهين.

قال الله تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩٠﴾ [البقرة:٩٠].

«لما كان كفرهم سببه البغي والحسد، ومنشأ ذلك التكبر، قوبلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر:٦٠].

أي: صاغرين حقيرين ذليلين راغمين.

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، حدثنا ابن عجلان، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجنًا في جهنم، يقال له: بولس، فيعلوهم نار الأنيار، يسقون من

---

(١) المصدر السابق ١٥ / ٤٧٣.
(٢) مجالس القرآن، فريد الأنصاري ١/ ٢٤٤.

طينة الخبال: عصارة أهل النار»[1][2].

والآيات التي وصفت العذاب بأنه مهين كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران:١٧٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء:١٤].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٧﴾﴾ [النساء:٣٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٦﴾﴾ [لقمان:٦].

«مهين: أي مذل مخز. وهذا الإذلال والاحتقار له يكون في مقابل استهزائه بعناصر سبيل الله، واحتقاره لها في الحياة الدنيا، إذ كانت تشغله عنها الملهيات التي كان يجد فيها متعات تعلقت نفسه بها، فصار يحتقر من أجلها عناصر سبيل الله الموصل إلى السعادة الأبدية في جنات التعيم، إذ هو غير مؤمن بالآخرة»[3].

٤ . العذاب الأخزى.

قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت:١٦].

«الخزى: الانكسار من الوقوع فى بليّة وشهرة. وقد خزى كرضى خزيًا -بالكسر- وخزىً، واخزوى: بمعناه. وأخزاه الله: فضحه. والخزية والخزية بالفتح والكسر: البلية. وقيل الخزى: انكسار يلحق الإنسان إمّا من نفسه وإمّا من غيره. فالّذي يلحقه من نفسه هو الحياء المفرط ومصدره الخزاية، ورجل خزيان وامرأة خزيا. والّذي يلحقه من غيره يقال: هو ضرب من الاستخفاف ومصدره الخزى ورجل خز. وأخزى من الخزاية والخزى جميعًا»[4].

«ونلاحظ عناية الآية بلفظ (الخزي)

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١١/ ٢٦٠، رقم ٦٦٧٧، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، ٤/ ٦٥٥، رقم ٢٤٩٢، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب الرقائق، ١٠/ ٣٩٨، رقم ١١٨٢٧.
قال الترمذي: هذا حديث حسن.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٣٥، رقم ٨٠٤٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٢٨.

(٣) معارج التفكر ودقائق التدبر، عبدالرحمن حبنكة ١١/ ٦٩٣.

(٤) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٥٣٥-٥٣٦.

و(الأخزى)؛ لأن هذا هو المراد إبرازه لقدع تلك الأنوف المستكبرة والمتغطرسة، وكان يمكن أن تقول الآية: ولعذاب الآخرة أشد، وقد جاء ذلك كثيرًا فى الكتاب ولكل كلمة مقام»[1].

ولما علم أولو الألباب أن عذاب النار هو الخزي الأكبر والهوان الأعظم توجهوا إلى ربهم في ضراعة وخشوع داعين إياه سبحانه أن ينجيهم من هذا الموقف المخزي والمصير المظلم، لأن قلوبهم قد عمرتها الخشية والإجلال والتعظيم لله عز وجل عبر ممارسة التفكر في الأنفس والآفاق، فأصبحت النجاة من خزي النار هو القضية التي تشغل بالهم، والهم الذي يسيطر على تفكيرهم.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩٢].

٥. العذاب الأليم.

قال ابن فارس: «(ألم) الهمزة واللام والميم أصلٌ واحدٌ، وهو الوجع. قال الخليل: الألم: الوجع، يقال: وجعٌ أليمٌ، والفعل من الألم ألم، وهو ألمٌ، والمجاوز أليمٌ، فهو على هذا القياس فعيلٌ بمعنى مفعِلٍ. وكذلك وجيعٌ بمعنى موجِع. قال ابن الأعرابيّ عذابٌ أليمٌ، أي: مؤلمٌ ورجلٌ أليمٌ ومؤلمٌ، أي: موجعٌ»[2].

وردت نصوص كثيرة تدل على أن عذاب الآخرة هو العذاب الأليم، منها:

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس:٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾ [المزمل:١٢-١٣].

٦. العذاب العظيم.

وردت نصوص كثيرة تدل على أن عذاب الآخرة هو العذاب العظيم، منها:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة:١١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ

---

(١) آل حميم، غافر وفصلت، دراسة في أسرار البيان، د. محمد محمد أبو موسى ص٣٧٢.

(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٢٦-١٢٧.

فِى ٱلْكُفْرِۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ [آل عمران:١٧٦].

٧. سوء العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزمر:٤٧].

المقابلة بين الحياة الدنيا والآخرة

«متاع الدنيا واقع مشهود، ونعيم الجنة غيب موعود، والناس يتأثرون بما يرون ويشاهدون، ويثقل على قلوبهم ترك ما بين أيديهم إلى شيء ينالونه في الزمن الآتي، فكيف إذا كان الموعود ينال بعد الموت؟ من أجل ذلك قارن الحق تبارك وتعالى بين متاع الدنيا ونعيم الجنة، وبين أن نعيم الجنة خير من الدنيا وأفضل، وأطال في ذم الدنيا وبيان فضل الآخرة، وما ذلك إلا ليجتهد العباد في طلب الآخرة ونيل نعيمها»[(١)].

أولًا: المقابلة بين متاع الدنيا ونعيم الآخرة:

تنوعت النصوص القرآنية التي تقارن بين متاع الدنيا الزائل وبين نعيم الآخرة الدائم، نقف مع بعضها بالشرح والتحليل:

قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ

(١) العقيدة في ضوء الكتاب والسنة، الجنة والنار، د. عمر الأشقر ص ٢١٥.

﴿مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥﴾ [آل عمران: ١٤-١٥].

هذه الآيات تتحدث عن أفضلية النعيم الأخروي على المتاع الدنيوي.

«وهذا المتاع الأخروي الذي تذكره الآية هنا، ويؤمر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يبشر به المتقين، هو نعيم حسي في عمومه، ولكن هنالك فارقًا أساسيًا بينه وبين متاع الدنيا، إنه متاع لا يناله إلا الذين اتقوا. الذين كان خوف الله وذكره في قلوبهم. وشعور التقوى شعور مهذب للروح والحس جميعًا. شعور ضابط للنفس أن تستغرقها الشهوات، وأن تنساق فيها كالبهيمة. فالذين اتقوا ربهم حين يتطلعون إلى هذا المتاع الحسي الذي يبشرون به يتطلعون إليه في شفافية مبرأة من غلظة الحس! وفي حساسية مبرأة من بهيمية الشهوة! ويرتفعون بالتطلع إليه -وهم في هذه الأرض- قبل أن ينتهي بهم المطاف إلى قرب الله.

وفي هذا المتاع النظيف العفيف عوض كامل عن متاع الدنيا، وفيه زيادة. فإذا كان متاعهم في الدنيا حرثًا معطيًا مخصبًا، ففي الآخرة جنات كاملة تجري من تحتها الأنهار. وهي فوق هذا خالدة وهم خالدون فيها، لا كالحرث المحدود الميقات!

وإذا كان متاعهم في الدنيا نساء وبنين، ففي الآخرة أزواج مطهرة. وفي طهارتها فضل وارتفاع على شهوات الأرض في الحياة!

فأما الخيل المسومة والأنعام. وأما القناطير المقنطرة من الذهب والفضة. فقد كانت في الدنيا وسائل لتحقيق متاع. فأما في نعيم الآخرة فلا حاجة إلى الوسائل لبلوغ الغايات!

ثم هنالك ما هو أكبر من كل متاع، هنالك ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ رضوان يعدل الحياة الدنيا والحياة الأخرى كليهما، ويرجح، رضوان بكل ما في لفظه من نداوة، وبكل ما في ظله من حنان»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥﴾ [آل عمران: ١٥].

«والسؤال هنا سؤال إغراء وتحريض على طلب الجواب ومعرفة حقيقة الخبر!

﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡ﴾ ألا ترغبون في معرفة ما هو أحسن مما أنتم فيه من متع وملذات؟ وما أنتم غارقون فيه من شهوات؟ ألا ترغبون في نعم لا تفنى أبدًا ولا تزول! إنها قطعًا خير مما أنتم فيه من الاستمتاع الفاني القريب! هذا الاستمتاع الشهواني الكاذب، الذي لا يتعدى أيام

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١ / ٣٧٥.

العمر البشري القصير! لكنه خبر يهم فقط المؤمنين المتقين، الذين لم يغتروا بشهوات الحياة الدنيا، ولم يفتنوا بها، فإذا كان الله قد ابتلاهم بشيء منها فقد أدوا حق الله فيها، وأنفقوها في وجوهها المشروعة، فكانوا بها لربهم عابدين، حامدين شاكرين!»[1].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٨].

وجملة معنى النص الكريم لا يصح أن يخدع أحد بما عليه أولئك الكفار من قوة وسطوة وتصريف في شئون البلاد، ورخاء ورفاهية وثراء فإن هذا إلى أمد قصير، وهو متاع قليل، ولذا قال سبحانه: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾، فما قيمة هذا المتاع -مهما تقلبوا في هذه الحياة الدنيا بشتى صنوف المتع والشهوات- إذا كانت نهاية المطاف ودار القرار هي جهنم؟!

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

«الاستدراك هنا ب «لكن» للمقابلة بين المتقين الأبرار والمشركين الفجار بالنسبة للمآل، فالكفار مآلهم جهنم ومتاعهم دنيوي قليل، والمتقون لربهم المدركون لمعنى الربوبية الشاكرون لنعمته مآلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وليست مدتها قليلة، بل لهم فيها الخلود، فالنعيم كثير والزمن طويل، بينما الآخرون نعيمهم ضئيل قصير، وعذابهم دائمٌ كثير»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾ [القصص:٦٠-٦١].

«فهذه صفحة من وعده الله وعدًا حسنًا فوجده في الآخرة حقًا وهو لا بد لاقيه. وهذه صفحة من نال متاع الحياة الدنيا القصير الزهيد، ثم ها هو ذا في الآخرة محضر إحضارًا للحساب. والتعبير يوحي بالإكراه ﴿مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ الذين يجاء بهم مكرهين خائفين يودون أن لم يكونوا محضرين، لما ينتظرهم من وراء الحساب على ذلك المتاع القصير الزهيد!»[3].

فشتان شتان بين مؤمن ساع للآخرة سعيها، قد عمل على وعد ربه له، بالثواب الحسن، الذي هو الجنة، وما فيها من النعيم العظيم، وبين من يعيش في الحياة الدنيا يغترف من الشهوات والملذات فهو يأخذ

(١) مجالس القرآن، فريد الأنصاري ٣ / ٦٨٩.

(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٣/ ١٥٥٨-١٥٥٩.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٧٠٥.



فيها ويعطي، ويأكل ويشرب، ويتمتع كما تتمتع البهائم، قد اشتغل بدنياه عن آخرته، فهو لا يزال كذلك، لا يتزود من دنياه إلا الخسار والهلاك.

وهكذا.. فالعاقل يوازن بين ما ينبغي إيثاره، وما ينبغي الإيثار عليه، وما هو أولى بالسعي إليه، والتقديم له على غيره، وأما من نظر إلى عاجل طفيف منقطع، يفوت نعيمًا عظيمًا باقيًا فأنى له العقل والرأي؟

وقال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾ [الحديد: ٢٠].

في هذه الآية مقابلة بين ما في الحياة الدنيا من متع وشهوات ورغبات لا ثبات لها ولا استقرار، وبين ما في الآخرة من العذاب الشديد، أو المغفرة والرضوان، فليختر العاقل لنفسه ما يشاء.

«وقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾، هو تعقيب على تلك الأوصاف التي وصفت بها الدنيا، من أنها لعب ولهو، وذلك بعرض ما يقابلها، وهو الآخرة، التي لا لعب فيها ولا لهو، بل كل أمرها جدّ في جدّ.. ففيها عذاب شديد، وفيها مغفرة من اللّه ورضوان، وقدّم العذاب على المغفرة، لأن الآية في مواجهة الذين خدعوا بالحياة الدنيا وأذهبوا طيباتهم فيها، ولهذا جاءت فاصلة الآية مؤكدة لما بدئت به: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾»[(١)].

«فكيف يسوغ لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يضيع حياته فيما لا بقاء له ولا جدوى فيه، في الوقت الذي يدرك فيه أنه متوجه إلى حياة الجزاء، من ثواب وعقاب؟ ولهذا اختتم المثل بذكر الآخرة وما فيها، فقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞ﴾، إذا لولا كون الآخرة حياة جزاء، لما كانت الدنيا حياة استعداد لها، فالتذكير بحياة الجزاء يصرف المؤمنين عما لا يعقب خيرا، ويدفع بهم إلى طاعة الله المجازي المثيب، والتقرب إليه بما أراد أن يتقرب به إليه»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨﴾ [التوبة: ٣٨].

في هذه الآيات عاتب الله عز وجل الذين رضوا بلذات الدنيا الناقصة الزائلة بدلًا من

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٤ / ٧٧٨.

(٢) الأمثال في القرآن، محمد جابر فياض ص٣٠٦.

نعيم الحياة الآخرة الكامل الباقي، «أفليست الدنيا -من أولها إلى آخرها- لا نسبة لها في الآخرة. فما مقدار عمر الإنسان القصير جدًّا من الدنيا حتى يجعله الغاية التي لا غاية وراءها، فيجعل سعيه وكده وهمه وإرادته لا يتعدى حياته الدنيا القصيرة المملوءة بالأكدار، المشحونة بالأخطار.

فبأي رأيٍ رأيتم إيثارها على الدار الآخرة الجامعة لكل نعيم، التي فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وأنتم فيها خالدون، فوالله ما آثر الدنيا على الآخرة من وقر الإيمان في قلبه، ولا من جزل رأيه، ولا من عدّ من أولي الألباب»[1].

والآيات التي تقارن بين متاع الدنيا ونعيم الآخرة كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الشورى:٣٦].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

[النساء:٧٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام:٣٢].

مما سبق يتضح أن كل ما يناله الإنسان في هذه الحياة الدنيا من مال أو جاه أو سلطان هو متاع، أي زاد لا يلبث أن ينفد، أو ثوب لا بد أن يبلى، فكل ما في الحياة الدنيا إلى نفاد، وزوال، وإن كثر وعظم، وما عند الله من الثواب والنعيم خير من زهرة الدنيا، لأنه باق سرمديّ، وما فيها زائل فان.

ثانيًا: المقابلة في قصد العباد لكل منهما:

قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء:١٨-٢١].

في هذه الآيات مقابلة بين من قصر نظره على الدنيا، وعمل لها، وجعلها غايته، ومرمى همته، ومطرح نظره، ولم يكن له همٌّ سواها، ولم يلتفت إلى الآخرة، وبين من أراد الآخرة فاختار طريق الإيمان والعمل الصالح، والاستقامة على الصراط

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٥٣.

المستقيم.

يقول الأستاذ سيد قطب في ظلال هذه الآيات: «إن من أراد أن يعيش لهذه الدنيا وحدها، فلا يتطلع إلى أعلى من الأرض التي يعيش فيها، فإن الله يعجل له حظه في الدنيا حين يشاء، ثم تنتظره في الآخرة جهنم عن استحقاق. فالذين لا يتطلعون إلى أبعد من هذه الأرض يتلطخون بوحلها ودنسها ورجسها، ويستمتعون فيها كالأنعام، ويستسلمون فيها للشهوات والنزعات. ويرتكبون في سبيل تحصيل اللذة الأرضية ما يؤدي بهم إلى جهنم.

والذي يريد الآخرة لا بد أن يسعى لها سعيها، فيؤدي تكاليفها، وينهض بتبعاتها، ويقيم سعيه لها على الإيمان. والسعي للآخرة لا يحرم المرء من لذائذ الدنيا الطيبة، إنما يمد بالبصر إلى آفاق أعلى فلا يكون المتاع في الأرض هو الهدف والغاية. ولا ضير بعد ذلك من المتاع حين يملك إنسان نفسه، فلا يكون عبدا لهذا المتاع.

وإذا كان الذي يريد العاجلة ينتهي إلى جهنم مذمومًا مدحورًا، فالذي يريد الآخرة ويسعى لها سعيها ينتهي إليها مشكورًا يتلقى التكريم في الملأ الأعلى جزاء السعي الكريم لهدف كريم، وجزاء التطلع إلى الأفق البعيد الوضيء. إن الحياة للأرض حياة تليق بالديدان والزواحف والحشرات والهوام والوحوش والأنعام. فأما الحياة للآخرة فهي الحياة اللائقة بالإنسان الكريم على الله، الذي خلقه فسواه، وأودع روحه ذلك السر الذي ينزع به إلى السماء وإن استقرت على الأرض قدماه»[1].

ونظير هذه الآيات من سورة الإسراء قول الله عز وجل في سورة الشورى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: ٢٠].

فيا لبعد الشقة بين من يريد الهدى والإيمان، ويعمل للآخرة، ويغرس في مغارس الإحسان، فيزيد له اللّه سبحانه وتعالى فيما غرس، ويبارك عليه، ويضاعف له الجزاء أضعافًا مضاعفة، وبين من أعرض عن الآخرة، وعمل للدنيا، وغرس في مغارسها، فأخذ ثمر ما غرس في دنياه، واستوفى نصيبه منه، حتى إذا جاء إلى الآخرة، جاءها ولا نصيب له في خيرها.

فما أشقى الذين يصرفون رغبتهم وسعيهم وعملهم في متع الحياة وشهواتها، غير ملتفتين إلى ما وراء هذه الدنيا، ولا منتظرين حسابًا ولا جزاء، فإذا كان يوم القيامة، وبعثوا من القبور، وسيقوا إلى الحساب والجزاء، فهنالك يرون سوء

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢٢١٨-٢٢١٩.

مصيرهم، وأنهم قد جاءوا إلى هذا اليوم مفلسين، لأنهم لم يعملوا له عملًا قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٦﴾ [هود:١٥-١٦].

موضوعات ذات صلة:

السعادة، اللعب، اللهو، الموت، اليوم الآخر





عناصر الموضوع

مفهوم الحيوان

أولًا: المعنى اللغوي:

الحيوان من الفعل: (حيّ)، الحاء والياء، والحرف المعتل أصلان: الأوّل: الحياة والحيوان، وهو ضدّ الموت والموتان، وهذا يعني أن الحياة خلاف الموت، ويسمّى المطر حيًّا؛ لأن به حياة الأرض، ويقال: ناقةٌ محي ومحيية، يعني: لا يكاد يموت لها ولد، وتقول: أتيت الأرض فأحييتها، إذا وجدتها حيّة النّبات غضّة، والثاني: الاستحياء الذي هو ضدّ الوقاحة، يقولون: استحييت منه استحياءً، وحييت منه أحيا، إذا استحييت، وحياء النّاقة، أي: فرجها[(١)].

والمحيا مفعل من الحياة، تقول: محياي، والحيّ واحد أحياء، وأحياه الله فحيي، وقيل في الجمع: حيوا مخففًا، واستحياه، واستحيا منه بمعنى من الحياء، ويقال: استحيت بياء واحدة، وأصله استحييت، فأعلوا الياء الأولى، وألقوا حركتها على الحاء فقالوا: استحيت، لما كثر في كلامهم، والحياء ممدود الاستحياء[(٢)].

وحيّ يحيا، ويحيّ فهو حيٌّ، وللجميع حيّوا بتشديد الياء، وقيل: حيوا بتخفيفها، والحيّ من كل شيء نقيض الميت، والجمع أحياء، والحيّ كل متكلم ناطق، والحيّ من النبات ما كان طريًّا يهتزّ[(٣)].

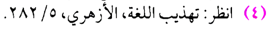
وقيل: إن حيي يندب بها، ويدعى بها، يقال: حيّ على الفداء، حيّ على الخير، وقد تأتي بمعنى الحث والدعاء، ومنه قول المؤذن: حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، معناه: عجّل إلى الصلاة، وإلى الفلاح، وتقول العرب: حيّ هلا بفلان، وحيّ هلا بفلان، وحيّ هلا بفلان، أي: أعجل[(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

بالنظر إلى التعريفات اللغوية السابقة يتبين أنه لا بد من التعريف الاصطلاحي لكل من الحياة، والحيوان، والحياء.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ١٢٢.
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص٩٣.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٤٢٤.
(٤) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ٥/ ٢٨٢.



وقد عرّف الجرجاني الحياة فقال: «هي صفة توجب للموصوف بها أن يعلم ويقدر»[1]، وقال أيضًا: الحياة الدنيا: «هي ما يشغل العبد عن الآخرة»[2].

وعرّف الحيوان بقوله: «هو الجسم النامي الحساس المتحرك بالإرادة»[3].

وقيل: إن الحيوان: «كلّ ذي روح ناطقًا كان أو غير ناطق، مأخوذ من الحياة يستوي فيه الواحد والجمع؛ لأنه مصدر في الأصل»[4].

وخلاصة القول: إن الحيوان: هو الجسم النامي الحساس المتحرك بالإرادة، وهذا ينطبق على كل ذي روح سواء كان ناطقًا أو غير ناطق.

(١) التعريفات، ص٨٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق ص٨٤.
(٤) المصباح المنير، الفيومي، ص٨٦.

الحيوان في الاستعمال القرآني

لم يرد لفظ (الحيوان) في القرآن بمعنى الحيوانات، وورد لفظ (الحيوان) في القرآن مرة واحدة بمعنى الحياة الدائمة التي لا زوال لها ولا انقطاع ولا موت معها(١).

وقد ورد جذر الكلمة (حيي) في القرآن بمعنى الحياة التي هي نقيض الموت(٢).

وقد تحدث القرآن عن موضوع الحيوانات عند ذكره لبعض أنواع منها، ألا وهي:

الإبل والبقر: في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾[الأنعام:١٤٤].

الضأن والمعز: في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾[الأنعام:١٤٣].

الفيل: في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾[الفيل:١].

الحمر والقسورة: في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ۝٥١﴾[المدثر:٥٠-٥١].

الأنعام: في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾[الأنعام:١٣٩].

الخيل والبغال والحمير: في قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾[النحل:٨].

الكلب: في قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾[الأعراف:١٧٦].

الذئب: في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝١٤﴾[يوسف:١٤].

الوحوش: في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾[التكوير:٥].

وقد سميت بعض سور القرآن بأسماء الحيوانات مثل: سورة البقرة، وسورة الأنعام.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٦٠.
(٢) انظر: لسان العرب ١٤/ ٢١٤.



الألفاظ ذات الصلة

١ الطير:

الطير لغةً:

من مادة: (طير)، والطّيران حركة ذي الجناح في الهواء بجناحه، ويقال: طار الطائر يطير طيرًا وطيرانًا وطيرورة، ويقال: وأطاره وطيّره وطار به، وأطاره غيره وطيّره وطايره بمعنى، والطّير معروف اسم لجماعة ما يطير؛ مؤنث، والواحد طائر والأنثى طائرة[1]، ويقال: تطيّر فلان، واطّيّر، أصله التفاؤل بالطير، ثم يستعمل في كل ما يتفاءل به، ويتشاءم[2].

الطير اصطلاحًا:

قال الراغب: «الطائر هو كل ذي جناح يسبح في الهواء»[3]، وهذا من باب التغليب وإلا يدخل في الطير الحيوان الذي له جناح ولا يطير كالدجاج، وورد لفظ الطير في القرآن الكريم عشرون مرة، منها خمسة عشر مرة بلفظة الطير، وأربع مرات بلفظة طير، ومرة واحدة بلفظة طائر، وذكر السلوى ثلاث مرات، والغراب مرتين، والهدهد مرة واحدة.

الصلة بين الطير والحيوان:

الحيوان: كلّ ذي روح ناطقًا كان، أو غير ناطق، مأخوذ من الحياة، والطير له روح، فيكون الطير صنفًا من أصناف الحيوان.

٢ الحشرات:

الحشرات لغةً:

جمع حشرة، والحشرة بفتحتين واحدة الحشرات، وهي صغار دوّاب الأرض، وحشر الناس: جمعهم، ومنه يوم الحشر، والمحشر بكسر الشين موضع الحشر، والحاشر اسم من أسماء النبي عليه الصلاة والسلام[4].

الحشرات اصطلاحًا:

الحشرة عند علماء الحيوان هي كل كائن يقطع في خلقه ثلاثة أطوار؛ يكون بيضة فدودة ففراشة، وهي الهامة من هوام الأرض؛ كالخنافس، والعقارب، وتطلق أيضًا على الدابة

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٨/ ٢٣٧.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٣١٥.
(٣) المصدر السابق.
(٤) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص٨٢.

الصغيرة من دواب الأرض، كالفئران والضباب[١].

الصلة بين الحشرات والحيوان:

الحشرات كائنات حية لها روح، وهي من الحيوانات، حيث إن النبي عليه الصلاة والسلام: (نهى عن قتل كل ذي روح)[٢]، وقد عدّ المراغي الحشرات من الحيوانات في قوله: «والصيد الذي نهت عنه الآية هو كل حيوان وحشي يؤكل لحمه، فلا جزاء في قتل الأهلي، ولا ما لا يؤكل لحمه من السباع، والحشرات، ومنها: الفواسق الخمس التي ورد الإذن بقتلها: وهي: الغراب، والعقرب، والحدأة، والفأرة، والكلب العقور»[٣].

٣ الكائنات الحية الدقيقة:

الكائنات الحية الدقيقة اصطلاحًا:

عرّفها العلماء بأنها الأحياء التي لا ترى بالعين المجردة؛ لأنها صغيرة جدًّا إذ يبلغ حجمها أقل من الميكرون[٤].

لقد ورد ذكر الكائنات الحية الدقيقة في القرآن الكريم في عدة مواضع، ومنها قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝﴾ [الحاقة:٣٨-٣٩].

والمعنى: أن الله سبحانه أقسم بالذي نشاهده، والذي لا نشاهده، أي: أنه تعالى أقسم بالأشياء كلها، ما يبصر منها، وما لا يبصر، فيدخل في ذلك جميع المخلوقات[٥].

وفي ذلك إشارة إلى أن في الوجود أشياء لا تدركها الأبصار، وقد أثبت العلم الحديث بوساطة الآلات التي تكبّر الأشياء أضعافًا مضاعفة (الميكروسكوبيات) أن هناك أشياء لا يمكن رؤيتها إلا إذا كبرت عن حقيقتها آلاف المرات، كالجراثيم (الميكروبات) ولم تكن تخطر على البال في عصر التنزيل، وقد ظهرت للناس الآن فهي من روائع الإعجاز العظيمة الدالة على أن القرآن الكريم من كلام العليم الخبير، وله السبق في كل علم من العلوم التي يصل إليها الإنسان[٦].

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ١٩٧.
(٢) أخرج الطبراني في المعجم الكبير ٣/ ١٧٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٧٠، رقم ٦٩٧٣.
(٣) تفسير المراغي، ٧/ ٣٢.
(٤) ندوة الويبو عن الملكية الفكرية للصحفيين، حسام الدين الصغير، ص١٢.
(٥) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٣٤٠.
(٦) انظر: تفسير المراغي، ١١/ ١٢٨.



وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[يونس: ٦١].

فالآية السابقة فيها دلالة إلى سبق القرآن إلى الإشارة إلى أصغر الموجودات في الكون مما لا يدرك بالعين المجردة، وإنما بالمكبّرات، كأجزاء الذرة، والكائنات الحية الدقيقة كالجراثيم، والبكتيريا، وغير ذلك[1].

وهذا يدل على أن الآلات الحديثة كشفت دقائق في الكون ما كنا نعرفها قبل ذلك، فسبحان الذي يعلم ما في البر والبحر، وما في الأرض والسماء[2].

يلاحظ من الآيتين السابقتين وجود كائنات حية دقيقة لا يعلم عددها إلا الله عز وجل، والعلم الحديث يكتشف من هذه الكائنات يومًا بعد يوم مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾[الشورى: ٢٩].

العلاقة بين الحيوان والكائنات الحية الدقيقة:

الحيوانات الحية الدقيقة من أنواع الحيوانات التي فيها روح، ولا ترى بالعين المجردة.

---

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١١/ ٢٠٩.
(٢) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي، ١١/ ٦٢.

الحكمة الالهية في خلق الحيوان

لقد امتنّ ربنا سبحانه وتعالى على الإنسان فخلق جميع المخلوقات حتى يتفكر فيها، وتدله على خالقها الذي أبدع صنعها، وذكر الله عز وجل في القرآن الكريم من مخلوقاته بعض الحيوانات التي فيها العبرة والعظة لمن تأملها، والله تعالى خلق الحيوان لحكمة، وبيانها في النقاط الآتية:

أولًا: حكمة خلق الحيوان:

إنّ المتأمل في آيات كثيرة من القرآن الكريم، يجد أنّ الله سبحانه وتعالى خلق الحيوان لحكم عظيمة، ومنها:

أولًا: دلالتها على قدرة الله تعالى، وعظمته، ووحدانيته، وسلطانه العظيم، فقد نشر ربنا سبحانه في أقطار الأرض من الدواب المتنوعة، وسخرها للناس، ينتفعون بها بجميع وجوه الانتفاع؛ فمنها: ما يأكلون من لحمها، ويشربون من درها، ومنها: ما يركبونها، ومنها: ما هو ساع في مصالحهم، وحراستهم، ومنها: ما يعتبر به، ومع أنه بث فيها من كل دابة، فإنه سبحانه هو القائم بأرزاقهم، المتكفل بأقواتهم، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، ألا يدل ذلك على عظيم قدرة الله عز وجل؟[1].

قال تعالى: ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾[البقرة: ١٦٤].

ثانيًا: أن الحيوانات لم تخلق عبثًا، وأنها تسبح الله سبحانه وتعالى كباقي المخلوقات.

قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ومعنى الآية: أن كل شيء ينزه الله سبحانه تنزيهًا مقترنًا بحمده، فيقول: سبحان اللّه وبحمده، ومعنى: (لا تفقهون)، أي: لا تفهمون تسبيحهم؛ لأنه ليس بلغتكم[2].

وإذا كانت الأشياء التي لا تعقل تسبح الله تعالى، فكيف يليق بأصحاب العقول أن يغفلوا عن ذلك؟

ثالثًا: لقد امتنّ اللّه تعالى على عباده بما خلق لهم من الحيوانات، وخاصة الأنعام ذات المصالح، والمنافع المختلفة.

قال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥].

وهذه الأنعام هي: الإبل، والبقر، والغنم، والمعز، وجاء تفصيلها في قوله عز وجل: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۖ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٧٨.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٥/ ٨٢.

﴿ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

والله سبحانه سخر للإنسان هذه الأنعام، وجعلها له مصدر رزق، وخير كبير، وأداة لجلب المصالح والمنافع، وجعل فيها الموعظة، والعبرة، والرأفة، والرحمة بعباده، وتوضيح ذلك كالآتي:

١. الموعظة والعبرة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ [المؤمنون: ٢١].
فالأنعام عبرة؛ لأنها مما يستدل بخلقها، وأفعالها على عظيم قدرة الله تعالى[(١)].

٢. الأكل، والشرب، قال تعالى: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢١]. فالآية تدل على أن الإنسان ينتفع من الأنعام بمنافع كثيرة، ومنها شرب الحليب الصافي، وكذلك الأكل من لحومها.

٣. الانتفاع بأصوافها، وأشعارها، وأوبارها، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠]. فدلالة الآية أن الإنسان ينتفع من أصواف، وأشعار، وأوبار الأنعام؛ فيصنع منها الملابس، والأثاث، والفراش، والبيوت الخفيفة التي تستخدم في الترحال.

٤. الركوب عليها، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١-٧٢].
وقال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣﴾ [الزخرف: ١٢-١٣].
فذكرت الآيات السابقة أن الإنسان يستخدم الأنعام للركوب، وأن ذلك يكون سببًا في تذكر نعمة الله تعالى على عباده، ويجعلهم يسبحون الله جل وعلا. والظاهر من الآيات السابقة أن الإبل هي التي تستخدم للركوب من الأنعام، والإنسان يركب أيضًا على الخيل، والبغال، والحمير، قال تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨].

٥. ومنها ما يتخذ للجهاد، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

---

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٥٩٥.

٦. ومنها ما يحمل عليها الإنسان ما يشاء من الأثقال إلى البلدان، والأقطار البعيدة، وفي ذلك الرأفة، والرحمة، قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٨].

٧. ومنها ما يتخذ للجمال والزينة، والثروة، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦] أي: في وقت راحتها، وسكونها، ووقت حركتها، وسرحها، وذلك أن جمالها لا يعود إليها منه شيء فإنكم أنتم الذين تتجملون بها، كما تتجملون بثيابكم وأولادكم، وأموالكم، وتعجبون بذلك[١].

قال الزحيلي: «ولكم في هذه الأنعام جمال، أي: زينة حين الرواح، وهو وقت رجوعها عشاء من المراعي، ووقت السّروح، وهو وقت الغدوة، والذهاب من مراحها إلى مسارحها، أو المرعى، وخص الله تعالى هذين الوقتين بالذكر لاهتمام الرعاة بهما حين الذهاب، والإياب، وفي ذلك مفاخرة بالقطيع، وقدم الرّواح على السّروح؛ لأن الفائدة فيه أتم، لمجيئها شبعانة، فتدر الحليب، وتملأ النفس سرورًا، والعين متعة؛ فهي عنصر للغذاء، وأداة إنتاج في الاقتصاد»[٢].

وجمال الأنعام، والدواب من جمال الخلقة، والتركيب، والصورة[٣]، كما قال تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً لَرَءُوفٌ لَرَءُوفٌ لَرَءُوفٌ﴾ [النحل: ٨].

وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

فالأنعام مال أهل البادية، ومنها تكون ثروتهم، ومعايشهم، ومرافقهم، وبها تفاخرهم، وتكاثرهم، ومنهم من يتخذها زينة، وقد امتنّ اللّه بها على عباده[٤].

وتظل الأنعام ثروة اقتصادية في كل زمان ومكان، ونعمة كبرى، والله سبحانه وتعالى قيض هذه الأنعام، وسخرها للإنسان، وجعلها لهم مصدر رزق، وخير كبير، وأداة منافع، وجلب مصالح، وفيها الرأفة والرحمة بعباده، كما قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۝ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس:

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٥٨٥.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي، ١٤/ ٩٠.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) انظر: تفسير المراغي، ٣/ ١١٢.

٧١-٧٢][(١)].

وخلاصة القول: إن ربنا عز وجل خلق الأنعام، وجعل فيها عبرًا، ونعمًا من وجوه شتى، ففيها دلائل على قدرة الخالق بخلق الألبان من مصادر هي أبعد ما تكون منها، ونعمًا لنا في مرافقها وأعيانها، فننتفع بألبانها، وأصوافها، ولحومها، ونجعلها مطايا لنا في أسفارنا إلى نحو أولئك من شتى المنافع؛ فمن صنوف الحيوان مصرفة في مصالح الإنسان، فمنها ما هو للدر، والنسل، والغذاء فقط، ومنها ما هو للركوب، والحمولة فقط، ومنها ما هو للجمال، والزينة، ومنها ما يجمع ذلك كله كالإبل، وجعل أجوافها خزائن لما هو شراب، وغذاء، ودواء، وشفاء ففيها عبرة للناظرين، وآيات للمتوسمين، وفي الطير، واختلاف أنواعها، وأشكالها، وألوانها، ومقاديرها، ومنافعها، وأصواتها، صافات، وقابضات، وغاديات ورائحات، ومقيمات، وظاعنات أعظم عبرة، وأبين دلالة على حكمة الخلاق العليم سبحانه وتعالى[(٢)].

وهذا يعني أن الله سبحانه جعل في خلق الحيوانات من المنافع التي امتن بها على البشر، قال عز وجل: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٖ تَرَوْنَهَاۖ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾ [لقمان: ١٠].

أي: أن الله سبحانه جعل من الدواب المبثوثة ما ينتفع به الناس من أكل لحوم أوانسها، ووحوشها، والانتفاع بألبانها، وأصوافها، وجلودها، وقرونها، وأسنانها، والحمل عليها، والتجمل بها في مرابطها، وغدوّها، ورواحها[(٣)].

والمنافع والمصالح التي تم ذكرها، وغيرها فيها من الحكم العظيمة، والعبر التي تدل على وحدانية الله تعالى، وأنه هو الخالق والرازق والمدبر، ولا معبود سواه، وله صفات الكمال، والجلال.

ثانيًا: الإبداع الإلهي في خلق الحيوان:

إن الناظر في مخلوقات الله، وكيفية خلقها يوصله ذلك إلى الإبداع الإلهي في الخلق، والله سبحانه خلق المخلوقات، وهدى كل مخلوق لما خلق له؛ فجعل جسم كل مخلوق يتلاءم مع طبيعته لينتفع بذلك في تحقيق مصالحه، حتى إن لكل حيوان خلقة تناسبه؛ فإن كان في البحر جعل الله سبحانه خلقته تناسب العيش في الماء. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٖۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ٤٥﴾ [النور: ٤٥].

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٤/ ٩١.

(٢) انظر: الصواعق المرسلة، ابن القيم، ٤/ ١٥٦٦.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢١/ ١٤٦.

فكل حيوان له من الهيئة التي تتلاءم مع البيئة التي يعيش فيها، وهذا كله يدل على بديع صنع الله في خلقه.

ولو تأملنا الإبل مثلًا كيف خلقت؟ نجد أنها خلق عجيب، وتركيبها غريب، وهي في غاية الشدة، والقوة، ومع ذلك فإنها تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف[(١)].

قال القرطبي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧].

«قال المفسرون: لما ذكر الله عز وجل أمر أهل الدارين تعجب الكفار من ذلك فكذبوا وأنكروا فذكرهم الله صنعته، وقدرته، وأنه قادر على كل شيء كما خلق الحيوانات والسماء والأرض، ثم ذكر الإبل أولًا؛ لأنها كثيرة في العرب، ولم يروا الفيلة، فنبههم جل ثناؤه على عظيم من خلقه قد ذلّله للصغير يقوده، وينيخه، وينهضه، ويحمل عليه الثقيل من الحمل، وهو بارك فينهض بثقيل حمله، وليس ذلك في شيء من الحيوان غيره، فأراهم عظيمًا من خلقه مسخرًا لصغير من خلقه يدلهم بذلك على توحيد الله، وعظيم قدرته»[(٢)].

والله سبحانه وتعالى أعطى الإبل من الخصائص حتى تكون سفائن البر، قال الزمخشري رحمه الله: «وحين أراد أن تكون سفائن البر، صبرها على احتمال العطش حتى إن إظماءها ليرتفع إلى العشر فصاعدًا، وجعلها ترعى كل شيء نابت في البراري والمفاوز مما لا يرعاه سائر البهائم»[(٣)].

وظهور الإبل مسنمة حتى تكون مهيأة للركوب عليها، وحمل الأثقال عليها، قال ابن القيم رحمه الله عنها: «ظهورها مسنمة معقودة كالقبو لما خصت به من فضل القوة، وعظم ما تحمله، والقباء تحمل أكثر مما تحمل السقوف حتى قيل: إن عقد القباء إنما أخذ من ظهور الابل، وتأمل كيف لما طوّل قوائم البعير طول عنقه ليتناول المرعي من قيام فلو قصرت عنقه لم يمكنه ذلك مع طول قوائمه، وليكون أيضًا طوّل عنقه موازنًا للحمل على ظهره إذا استقل به، كما ترى طول قصبة القبان حتى قيل: إن القبان إنما عمل من خلقة الجمل من طول عنقه، وثقل ما يحمله، ولهذا تراه يمد عنقه إذا استقل بالحمل كأنه يوازنه موازنة»[(٤)].

ولا يقتصر بديع صنع الله تعالى في الحيوان على الإبل، وإنما هو في سائر الحيوانات، فسبحان الله ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه: ٥٠].

أي: أن الله عز وجل خلق جميع

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٥٧٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٢/ ٢٥٠.
(٣) الكشاف، ٤/ ٢٤٧.
(٤) مفتاح دار السعادة ص٢٤٦.

المخلوقات، ومنها الحيوانات، وأحسن خلقها، فأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، الدال على حسن صنعه من خلقه، من كبر الجسم، وصغره، وتوسطه، وجميع صفاته، وهدى كل حيوان إلى ما خلقه له، فكل حيوان يسعى لما خلق له من المنافع، وفي دفع المضار عنه، حتى إن الله تعالى أعطى الحيوان البهيم من العقل ما يتمكن به على ذلك[1].

قال القرطبي رحمه الله: «لا اختلاف عند العلماء أن الحيوانات كلها لها أفهام وعقول»، ونقل أقوالًا للعلماء حول هذا المعنى، فقال: «قال ابن العربي: وهذه خواص العلوم عندنا، وقد أدركتها النمل بخلق الله ذلك لها؛ قال الأستاذ أبو المظفر شاهنود الإسفراييني: ولا يبعد أن تدرك البهائم حدوث العالم، وحدوث المخلوقات، ووحدانية الإله، ولكننا لا نفهم عنها، ولا تفهم عنا، أما أنا نطلبها وهي تفر منا فبحكم الجنسية»[2].

وقال ابن عطية رحمه الله: «والنمل حيوان فطن قويّ شمام جدًّا يدخر القرى، ويشق الحب بقطعتين لئلا ينبت، ويشق الكزبرة بأربع قطع؛ لأنها تنبت إذا قسمت شقين، ويأكل في عامه نصف ما جمع، ويستبقي سائره عدّة»[3].

وهذا يدل على شدة إدراك النمل، وأنه يأكل ما يكفيه من الطعام الذي يجمعه، ويدّخر الباقي، وهذا من بديع خلق الله تعالى، وعلى الإنسان أن يتعلم من النمل هذا النظام، والترتيب.

ومما يدل على فطنة النمل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

حيث إن الله تعالى ذكر مخاطبة النملة لأخواتها من النمل كمخاطبة الإنسان للإنسان.

قال ابن عطية رحمه الله: «وهذه النملة قالت هذا المعنى الذي لا يصلح له إلا هذه العبارة قولًا فهمه عنها النمل، فسمعها سليمان على بعده، وجاءت المخاطبة كمن يعقل؛ لأنها أمرتهم بما يؤمر به من يعقل»[4].

وقال ابن القيم رحمه الله عن فطنتها: «ومن فطنتها أنها لا تتخذ قريتها إلا على نشر من الأرض لئلا يفيض عليها السيل فيغرقها، فلا ترى قرية نمل في بطن واد، ولكن في أعلاه وما ارتفع عن السيل منه، ويكفي في فطنتها ما نص الله عز وجل في كتابه من قولها لجماعة النمل، وقد رأت سليمان عليه

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص٤٣٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٦/ ١٢٨.
(٣) المحرر الوجيز، ٤/ ٢٥٣.
(٤) انظر: المصدر السابق.

الصلاة والسلام، وجنوده: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

فتكلمت بعشرة أنواع من الخطاب في هذه النصيحة -النداء، والتنبيه، والتسمية، والأمر، والنص، والتحذير، والتخصيص، والتفهيم، والتعميم، والاعتذار، فاشتملت نصيحتها مع الاختصار على هذه الانواع العشرة، ولذلك أعجب سلميان قولها، وتبسم ضاحكًا منه، وسأل الله أن يوزعه شكر نعمته عليه لما سمع كلامها، ولا تستبعد هذه الفطنة من أمة من الأمم تسبح بحمد ربها، كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة، فأمر بجهازه فأخرج من تحتها، ثم أمر ببيتها فأحرق بالنار، فأوحى الله إليه: فهلا نملة واحدة)[(١)]»[(٢)].

وهذه الفطنة أودعها الله تعالى في سائر الحيوانات حتى تقوم على مصالحها، قال ابن القيم رحمه الله: «ومن عجيب الفطنة في الحيوان أن الثعلب إذا أعوزه الطعام، ولم يجد صيدًا تماوت، ونفخ بطنه حتى يحسبه الطير ميتًا فيقع عليه ليأكل منه، فيثب عليه الثعلب فيأخذه، ومن عجيب الفطنة في هذه الذبابة الكبيرة التي تسمى أسد الذباب فإنك تراه حين يحس بالذباب قد وقع قريبًا منه يسكن مليًّا حتى كأنه موات لا حراك فيه، فإذا رأى الذباب قد اطمأن، وغفل عنه دب دبيبًا رفيقًا حتى يكون منه بحيث يناله، ثم يثب عليه فيأخذه، ومن عجيب حيل العنكبوت أنه ينسج تلك الشبكة شركًا للصيد، ثم يكمن في جوفها فإذا نشب فيها البرغش والذباب وثب عليه، وامتص دمه»[(٣)].

من خلال الحديث عن بعض الحيوانات، وما في ذلك من الدلالة على الإبداع الإلهي في خلقها حتى تهتدي لما خلقت له، وتقوم على مصالحها، والله تعالى أعطى كل حيوان الصفة، والهيئة التي تمكنه من ذلك، وهذا يدعو أصحاب العقول للتفكر، والاعتبار.

ثالثًا: الحث على التفكر في خلق الحيوان:

ذكرت في المطلب السابق أمثلة على بديع خلق الله تعالى في الحيوانات، وهي مخلوقات فيها التذكر، والتفكير، والعبرة، وهذه أوصاف لأولي الألباب، قال تعالى:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم، رقم ٣٣١٩، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب النهي عن قتل النمل، ٤/ ١٧٥٩، رقم ٢٢٤١.

(٢) مفتاح دار السعادة، ص٢٥٢.

(٣) المصدر السابق، ص٢٥٣.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

[آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

والمعنى كما قال الزحيلي: «إن اللّه تعالى وصف أولي الألباب بأنهم يجمعون بين التذكر والتفكير، يذكرون اللّه في مختلف أحوالهم من قيام، وقعود، واضطجاع، لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم، وضمائرهم، وألسنتهم، ويتفكرون، ويفهمون ما في السموات، والأرض من أسرار، ومنافع، وحكم دالة على عظمة الخالق، وقدرته، وعلمه، ورحمته، والتفكر يكون في مصنوعات الخالق لا في الخالق، لاستحالة الوصول إلى حقيقة ذاته وصفاته...، ويقول المتفكرون الذاكرون: ربنا ما خلقت هذا الخلق عبثًا ولا أوجدته باطلًا زائلًا، فأنت منزه عن الباطل، والعبث، وكل خلقك حق مشتمل على فائدة، وحكمة، وقدرة، أي: أن المؤمن المتفكر بعد أن تدبر، ونظر، ودقق، وتفكر يتوجه إلى اللّه تعالى متضرعًا معلنًا قناعته بحكمة اللّه العليا في خلق المخلوقات، ربنا فاجعل لنا وقاية، وحاجزًا من عذاب النار، وأجرنا من عذابها، ووفقنا للعمل الصالح»[1].

والتفكر في الخلق يدل على الخالق تبارك وتعالى، ومن الآيات التي فيها التفكر، والتدبر والاعتبار خلق الحيوانات حيث إن الله عز وجل أحيا الأرض بإنزال المطر، وخلق فيها من كل حيوان.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ١٦٤].

قال ابن عطية رحمه الله: «ودابّة تجمع الحيوان كله»[2].

وهذه الآيات تدل على وحدانية الله تعالى وقدرته، ومما يدل على ذلك أن الله عز وجل ذكر هذه الآيات بعد قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]؛ ليدل على صدق الخبر عما ذكره قبلها من وحدانيته سبحانه، وذكر رحمته، ورأفته بخلقه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(لقد نزلت علي الليلة آيات، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها)**: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِمَا بِمَا بِمَا﴾[البقرة:

(١) التفسير المنير ٤/ ٢٠٧.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٢٢٣.

١٦٤][(١)(٢)].

ومما يدل على معنى ما سبق قوله تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾ [الجاثية: ٤-٥].

أي: أكثر الله من كل الأنواع لا يختص ذلك بنوع دون آخر، ويحسن هنا الإشارة إلى أن العلماء ذكروا أرقامًا عالية جدًّا من الحيوانات وخاصة الحشرات(٣).

قال ابن كثير رحمة الله في تفسير الآية السابقة: «أي: على اختلاف أشكالها، وألوانها، ومنافعها، وصغرها، وكبرها، وهو يعلم ذلك كله، ويرزقه، لا يخفى عليه شيء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]»(٤).

ولتوضيح التفكر في خلق الحيوان يحسن أن نذكر بعض الأمثلة:

الأول: في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

قال ابن القيم: «لو تأملنا العبرة التي ذكرها الله عز وجل في الأنعام، وما سقانا من بطونها من اللبن الخالص السائغ الهنيء المريء الخارج من بين الفرث والدم، فتأمل كيف ينزل الغذاء من أفواهها إلى المعدة فينقلب بعضه دمًا بإذن الله، وما يسرى في عروقها، وأعضائها، وشحومها، ولحومها فإذا أرسلته العروق في مجاريها إلى جملة الأجزاء فبه كل عضو، أو عصب، وغضروف، وشعر، وظفر، وحافر إلى طبيعته، ثم يبقى الدم في تلك الخزائن التي له، إذ به قوام الحيوان، ثم ينصب ثقله إلى الكرش فيصير زبلًا، ثم ينقلب باقية لبنًا صافيًا سائغًا للشاربين، فيخرج من بين الفرث والدم حتى إذا أنهكت الشاة، أو غيرها حلبًا خرج الدم مشوبًا بحمرة، فصفى الله سبحانه الألطف من الثفل بالطبخ الأول فانفصل إلى الكبد، وصار دمًا، وكان مخلوطًا بالأخلاط الأربعة، فأذهب الله عز وجل كل خلط منها إلى مقره وخزانته المهيأة له من المرارة، والطحال، والكلية، وباقي الدم الخالص يدخل في أوردة الكبد، فينصب من تلك العروق إلى الضرع فيقلبه الله تبارك وتعالى من صورة الدم، وطبعه، وطعمه إلى صورة اللبن، وطبعه، وطعمه فاستخرج من الفرث

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ٢/ ٣٨٦، رقم ٦٢٠.

وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ١/ ١٤٧، رقم ٦٨.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢/ ٢٠١.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢/ ٣٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٧٥.

والدم، من الذي دبر هذا التدبير؟ وقدر هذا التقدير؟ وأتقن هذا الصنع؟ ولطف هذا اللطف؟ إنه اللطيف الخبير[1].

الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل: ٦٨- ٦٩].

إنها آية فيها العبرة، وفيها التفكر لمن تأملها فهي من دلائل القدرة الإلهية في خلق النحل، وما فيها من مظاهر النعم على الناس، وأنها تدلهم على التوحيد.

ومعنى يتفكّرون: يتأملون في صنعه تعالى، فإن من تدبر اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة، والأفعال العجيبة حق التدبر، علم قطعًا أنه لا بد من وجود قادر حكيم يلهمها ذلك، ويحملها عليه[2].

والله سبحانه وتعالى أودع الغريزة في الحيوان، فأوحى إلى النحل أن تتخذ بيوتًا تأوي إليها، أي: أوكارًا، ومن الشّجر بيوتًا. وممّا يعرشون، أي: مما يبنيه الناس لها من الأماكن، أي: يصنعونه من الخلايا من طين، أو خشب، أو غيرهما[3].

قال القرطبي رحمه الله: «قال ابن العربي: ومن عجيب ما خلق الله في النحل أن ألهمها لاتخاذ بيوتها مسدسة، فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعة الواحدة، وذلك أن الأشكال من المثلث إلى المعشر إذا جمع كل واحد منها إلى أمثاله لم يتصل، وجاءت بينهما فرج، إلا الشكل المسدس؛ فإنه إذا جمع إلى أمثاله اتصل كأنه كالقطعة الواحدة»[4].

وفي اتخاذ النحل البيوت امتثال لأمر ربها، قال ابن القيم رحمه الله: «وتأمل كيف أداها حسن الامتثال إلى أن اتخذت البيوت أولًا، فإذا استقر لها بيت خرجت منه فرعت، وأكلت من الثمار ثم آوت إلى بيوتها؛ لأن ربها سبحانه أمرها باتخاذ البيوت أولًا، ثم بالأكل بعد ذلك، ثم إذا أكلت سلكت سبل ربها مذللة لا يستوعز عليها شيء ترعى ثم تعود، ومن عجيب شأنها أن لها أميرًا يسمى اليعسوب لا يتم لها رواح ولا إياب ولا عمل ولا مرعى إلا به، فهي مؤتمرة لأمره سامعة له مطيعه وله، عليها تكليف وأمر ونهي، وهي رعية له منقادة لأمره متبعة لرأيه يدبرها، كما يدبر الملك أمر رعيته، حتى إنها إذا آوت إلى بيوتها وقف على باب البيت، فلا يدع واحدة تزاحم الأخرى، ولا تتقدم عليها في العبور، بل تعبر بيوتها واحدة بعد واحدة بغير تزاحم، ولا تصادم، ولا تراكم

(١) انظر: مفتاح دار السعادة، ص٢٦٠.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٤/ ١٦٨.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١٠/ ١٣٤.

كما يفعل الأمير إذا انتهى بعسكره الى معبر ضيق لا يجوزه إلا واحد واحد، ومن تدبر أحوالها وسياساتها، وهدايتها، واجتماع شملها، وانتظام أمرها، وتدبير ملكها، وتفويض كل عمل إلى واحد منها يتعجب منها كل العجب، ويعلم أن هذا ليس في مقدورها، ولا هو من ذاتها، فإن هذه أعمال محكمة متقنة في غاية الاحكام، والإتقان، فإذا نظرت إلى العامل رأيته من أضعف خلق الله أجهله بنفسه، وبحاله، وأعجزه عن القيام بمصلحته فضلًا عما يصدر عنه من الأمور العجيبة، ومن عجيب أمرها أن فيها أميرين لا يجتمعان في بيت واحد، ولا يتأمران على جمع واحد، بل إذا اجتمع منها جندان، وأميران قتلوا أحد الأميرين، وقطعوه، واتفقوا على الأمير الواحد»[1].

الثالث: في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٣].

والمعنى: أن الله سبحانه خالق وسيلة الركوب من الفلك، والأنعام، أي: أن اللّه الذي خلق الفلك، الأنعام، وألهم الإنسان، وعلمه أن يتخذ وسيلة الركوب في البحر، وهي السفن، وأوجد واسطة الركوب في البر من الأنعام، وهي الإبل، إذ المعهود أنه لا يركب من الأنعام إلا هي، واللّه هو الذي ذلّلها لنا، وسخّرها، ويسّرها لركوب ظهورها، وكذا لأكل لحومها، وشرب ألبانها، والانتفاع بأوبارها، ومن الأنعام لم تخلق للركوب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**بينما رجل راكب بقرة، إذ قالت له: لم أخلق لهذا، إنما خلقت للحرث، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: آمنت بذلك أنا، وأبو بكر، وعمر**)[2][3].

ومن العجيب أن الله سبحانه وتعالى أعطى بهيمة الأنعام الأسماع، والأبصار ليتم تناولها لمصالحها، ويكمل انتفاع الإنسان بها إذ لو كانت عمياء، أو صماء لم يتمكن من الانتفاع بها، ثم سلبها العقول، إذ إن هناك تباينًا بين عقولها وعقل الإنسان؛ ليتمكن الإنسان من تسخيرها إياها فيقودها، ويصرفها حيث شاء، ولو أعطيت العقول على كبر خلقها لامتنعت من طاعته، واستعصت عليه ولم تكن مسخرة له، فأعطيت من التمييز، والإدراك ما تتم به مصلحتها، ثم تأمل كيف قادها، وذللها على كبر أجسامها، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ

(١) مفتاح دار السعادة، ص٢٥٨.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ٣/ ٢٠٣، رقم ٢٩٠٦.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢٥/ ١٢٤.



﴿٧١﴾ ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١-٧٢].

فالبعير على عظم خلقته يقوده الصبي الصغير ذليلًا منقادًا، والله سبحانه وتعالى ذلّله، وسخره، وقاده على قوته لبشر ضعيف من أضعف المخلوقات، وفرغ بذلك التسخير النوع الإنساني لمصالح معاشه، ومعاده، فأعينوا بهذه الحيوانات مع ما لهم فيها من المنافع التي لا يحصيها إلا الله من الغذاء، والشراب، والدواء، واللباس، والأمتعة، والآلات، والأواني، والركوب، والحرث، والمنافع الكثيرة، والجمال[1].

وفيما ذكر من الأمثلة للتفكر في خلق الحيوانات الكفاية، فالذي يتفكر في خلقها يدله تفكيره على خالقها جل وعلا.

أنواع الحيوانات

جاء ذكر الحيوانات في القرآن الكريم بمسميات عديدة، والناظر في هذه الحيوانات يجد أن منها المأكولة، ومنها المركوبة، ومنها المفترسة، وسنوضح إن شاء الله تعالى أنواع الحيوانات في النقاط الآتية:

أولًا: الحيوانات المأكولة:

ورد ذكر الحيوانات مأكولة اللحم على سبيل الإجمال تحت مسمى أنعام اثنين وثلاثين مرة، وبلفظة النعم مرة واحدة، والأنعام تشمل: (الإبل، والبقر، والغنم، والماعز)، وما شابهها من الحيوانات اللبونة، وأما على سبيل التفصيل فورد ذكر الإبل مرتين، وبلفظة بعير مرتين أيضًا، وبلفظة ناقة أربع مرات، والناقة ثلاث مرات، وجاء ذكر البقر تسع مرات، منها لفظة البقر ثلاث مرات، ولفظة بقرة أربع مرات، وبقرات مرتين، وجاءت لفظة عجل عشر مرات، وأما الغنم فورد ذكرها ثلاث مرات بلفظة غنم، الغنم، غنمي، وبلفظة المعز مرة واحدة، وسأذكر ورودها في القرآن الكريم مع توضيح معناها في سياق الآيات.

١. الإبل.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ

(١) انظر: مفتاح دار السعادة، ابن القيم، ص٢٤٣.

﴿ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ﴾[الأنعام: ١٤٤].

جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًاۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٢-١٤٣].

والمعنى: أن الأنعام التي هي حمولة وفرش ثمانية أصناف، فإنّ الحمولة: إما إبل، وإما بقر، والفرش: إما ضأن، وإما معز، وكلّ قسم من هذه الأربعة: إما ذكر، وإما أنثى، وقد أنشأ اللّه من الضّأن زوجين اثنين: الكبش، والنّعجة، ومن المعز زوجين اثنين: التّيس والعنزة، ومن الإبل اثنين: الجمل، والنّاقة، ومن البقر اثنين: الثّور والبقرة، والله عز وجل قال للرسول صلى الله عليه وسلم: قل لمشركي العرب إنكارًا لصنعهم بتقسيم الأنعام إلى بحيرة، وسائبة، ووصيلة، وحام، وغير ذلك مما ابتدعوا فيها: أحرم اللّه الذّكرين من الكبش، والتّيس؟ أم حرّم الأنثيين من النّعجة، والعنز؟ أم حرّم ما حملت إناث النّوعين؟ يعني: هل يشتمل الرّحم إلا على ذكر، أو أنثى، فلم تحرمون بعضًا وتحلّون بعضًا؟ أخبروني عن يقين، كيف حرّم اللّه عليكم ما زعمتم تحريمه من البحيرة، والسّائبة، والوصيلة، والحام ونحو ذلك؟ أخبروني ببيّنة تدلّ على هذا التّحريم من كتاب اللّه، أو خبر نبي من الأنبياء إن كنتم صادقين في ادّعاء التّحريم[1].

قال الزحيلي: «والحقيقة أنه لا منطق في تقسيم العرب في الجاهلية قبل الإسلام لأنواع الأنعام، فمنها الحرام، ومنها الحلال، فإن كان المحرّم منها الذّكر، وجب أن يكون كلّ ذكورها حرامًا، وإن كان المحرّم منها الأنثى، وجب أن يكون كلّ إناثها حرامًا، وإن كان المحرّم منها ما حملته الأجنّة في بطون الإناث، وهي تشتمل على الذّكر والأنثى، وجب تحريم الأولاد كلّها، واللّه تعالى ما حرّم عليهم شيئًا من هذه الأنواع، وإنهم لكاذبون في دعوى التّحريم، ولا أحد في الدّنيا أظلم ممن يفتري الكذب على اللّه، فيدّعي أنه حرّم شيئًا ولم يحرّمه، ونسب إليه تحريم ما لم يحرم، من أجل إضلال النّاس، وهو عمرو بن لحيّ بن قمعة الذي بحر البحائر، وسيّب السّوائب، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي، وغيّر دين الأنبياء، إن اللّه لا يهدي إلى الحقّ والخير القوم الظالمين الذين ظلموا أنفسهم، فشرعوا ما لم يشرع

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٨/ ٧١.

اللّه تعالى»(١).

ولما كانت الإبل أنفس الأموال عند العرب، وكانوا يركبونها في الصحراء، ويحملون أمتعتهم عليها قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[الغاشية: ١٧].

والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى أمر العرب أن يتفكروا في خلقها بما يتناسب مع طبيعة استخدامها.

قال الشوكاني رحمه الله: «الآية مسوقة لتقرير أمر البعث، والاستدلال عليه، والمعنى: أينكرون أمر البعث، ويستبعدون وقوعه، أفلا ينظرون إلى الإبل التي هي غالب مواشيهم، وأكبر ما يشاهدونه من المخلوقات كيف خلقت على ما هي عليه من الخلق البديع من عظم جثتها ومزيد قوتها، وبديع أوصافها قال أبو عمرو بن العلاء: إنما خص الإبل لأنها من ذوات الأربع، تبرك فتحمل عليها الحمولة، وغيرهما من ذوات الأربع لا يحمل عليه إلا وهو قائم: قال الزجاج: نبههم على عظيم من خلقه»(٢).

وقد سبق بيان معنى هذه الآية فليراجع، ولا داعي للتكرار.

والبعير من الإبل ذكر مرتين في القرآن الكريم بلفظة (بعير)، أما الموضع الأول ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾[يوسف: ٦٥].

والمعنى: لما فتح إخوة يوسف متاعهم، وجدوا بضاعتهم ردّت إليهم، وهي التي كان أمر يوسف فتيانه بوضعها في رحالهم، فلما وجدوها في متاعهم قالوا: يا أبانا، ماذا نريد؟ قال قتادة: ما نبغي وراء هذا؟ إن بضاعتنا ردت إلينا، وقد أوفي لنا الكيل، وإذا أرسلت أخانا معنا نأتي بالميرة إلى أهلنا، وذلك أن يوسف، عليه السلام، كان يعطي كل رجل حمل بعير(٣).

وأما الموضع الثاني في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾[يوسف: ٧٢].

أي: قالوا: ولمن جاء بالصواع من جهة نفسه حمل بعير، والبعير الجمل، وفي لغة بعض العرب أنه الحمار، والمراد بالحمل ها هنا: ما يحمله البعير من الطعام، ثم قال المنادي: وأنا كفيل بحمل البعير الذي جعل لمن جاء بالصواع قبل التفتيش للأوعية، ولعل القائل: نفقد صواع الملك هو المنادي وحده؛ لأنه القائل بالحقيقة(٤).

(١) المصدر السابق ٨/ ٧٢.
(٢) فتح القدير، ٥/ ٥١١.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٥٧٦.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٤٧٥.

وأما الناقة فذكرت في القرآن الكريم سبع مرات؛ بلفظة ناقة أربع مرات في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤].

وقوله: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

وقوله: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس: ١٣].

وبلفظة الناقة ثلاث مرات، في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧].

وكلها جاءت حينما طلب قوم صالح عليه السلام منه المعجزة على صحة دعوته لهم، أتاهم بمعجزة الناقة، وقيل: إن قومه خرجوا في عيد لهم، فسألوه أن يأتيهم بآية، وأن يخرج لهم من صخرة معينة أشاروا إليها ناقة، فدعا صالح ربه، فخرجت الناقة كما سألوا، وقال لهم: هذه آية على صدقي: ناقة اللّه التي تتميز عن سائر الإبل بأكلها وشربها وغزارة لبنها، فاتركوها تأكل ما شاءت في أرض اللّه من المراعي، دون أن تتحملوا عبء مؤنتها، ولا تمسوها بسوء أيًّا كان نوعه، فيأخذكم عذاب عاجل لا يتأخر عن إصابتكم إلا يسيرًا، وذلك ثلاثة أيام، ثم يقع عليكم، فلم يسمعوا نصحه، وكذبوه، وعقروها، فقال لهم: استمتعوا بالعيش في داركم، أي: بلدكم، وتسمى البلاد الديار، مدة ثلاثة أيام، ذلك وعد مؤكد غير مكذوب فيه.

ثم وقع ما أوعدهم به، فلما حان وقت أمر الله تعالى بالعذاب، والإهلاك، وحل العقاب، ووقعت الواقعة، ونزلت الصاعقة، نجينا صالحًا، والمؤمنين معه، برحمة منا، ونجيناهم من عذاب شديد، ومن ذل ومهانة، وأما الذين كفروا أخذتهم صيحة العذاب، وهي الصاعقة ذات الصوت الشديد المهلك، التي تزلزل القلوب، وتصعق عند سماعها النفوس، فصعقوا بها جميعًا، وأصبحوا جثثًا هامدة ملقاة على الأرض، وكأنهم لسرعة هلاكهم لم يوجدوا في الدنيا، ولم يقيموا في ديارهم، بسبب

كفرهم وجحودهم بآيات ربهم، ألا إنهم كفروا بربهم، فاستحقوا عقابه الشديد، ألا بعدًا لهم عن رحمة الله، وسحقًا لثمود، وهلاكًا لهم ولأمثالهم(١).

٢. البقر.

وجاء ذكر البقر تسع مرات، منها لفظة البقر ثلاث مرات: في قوله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠].

هذا سؤال من قوم موسى لطلب زيادة إيضاح وإظهار؛ لأنه لم يحصل لهم تمام البيان، ثم ذكروا السبب في إعادة السؤال، فقالوا: إن وجوه البقر تتشابه، أي: يشبه بعضها بعضًا(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ...﴾ [الأنعام: ١٤٤].

قال السعدي رحمه الله: «وهذه الأنعام التي امتن الله بها على عباده، وجعلها كلها حلالًا طيبًا، فصلها بأنها: ثمانية أزواج ذكر وأنثى، اثنين من الضأن، واثنين من المعز كذلك، فهذه أربعة، كلها داخلة فيما أحل الله، لا فرق بين شيء منها، فقل لهؤلاء المتكلفين، الذين يحرمون منها شيئًا دون شيء، أو يحرمون بعضها على الإناث دون الذكور، ملزمًا لهم بعدم وجود الفرق بين ما أباحوا منها وحرموا، ومن المعلوم أنهم لا يمكنهم أن يقولوا قولًا سائغًا في العقل، إلا واحدًا من هذه الأمور الثلاثة، وهم لا يقولون بشيء منها، إنما يقولون: إن بعض الأنعام التي يصطلحون عليها اصطلاحات من عند أنفسهم، حرام على الإناث دون الذكور، أو محرمة في وقت من الأوقات، أو نحو ذلك من الأقوال، التي يعلم علمًا لا شك فيه أن مصدرها من الجهل المركب، والعقول المختلة المنحرفة، والآراء الفاسدة، وأن الله، ما أنزل -بما قالوه- من سلطان، ولا لهم عليه حجة ولا برهان، ثم ذكر في الإبل والبقر مثل ذلك، فلما بين بطلان قولهم وفساده، قال لهم قولًا لا حيلة لهم في الخروج من تبعته، إلا في اتباع شرع الله»(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

قال المراغي رحمه الله: «ومن البقر والغنم دون غيرهما مما أحل لهم من حيوان البر والبحر حرمنا عليهم شحومهما الزائدة التي تنتزع بسهولة لعدم اختلاطها بلحم ولا

(١) انظر التفسير المنير، الزحيلي، ١٢/ ١٠١.
(٢) انظر: تفسير المراغي، ١/ ١٤٣.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٤٩.

عظم، ولم نحرم عليهم ما حملت الظهور، أو الحوايا، أو ما اختلط بعظم، والسبب في تخصيص البقر والغنم بهذا الحكم أن القرابين عندهم لا تكون إلا منهما»[1].

وذكرت لفظة بقرة أربع مرات، وكلها في سورة البقرة، ثلاثة مواضع منها جاءت متتالية في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۞ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ۞ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٧- ٦٩].

وموضع منها في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١].

والمواضع الأربعة وردت في قصة ذبح البقرة التي جاءت بعد ذكر بعض جرائم اليهود، من نقض الميثاق، والاعتداء في السبت، والتمرد في تطبيق التوراة، فهي استمرار في تعداد مساوئهم، وهي مخالفتهم الأنبياء، ومعاندة الرسل عليهم السّلام، والتلكؤ في امتثال أوامر اللّه تعالى[2].

والمعنى: واذكروا وقت قول موسى لقومه الذين هم أسلافكم: إن اللّه يأمركم أن تذبحوا بقرة -أي: بقرة كانت- فلم يسرعوا إلى الامتثال، ولكن شدّدوا فشدد اللّه عليهم، وقالوا: أتهزأ بنا يا موسى؟ قال: معاذ اللّه أن أكون من الذين يهزئون في موضع الجد.

فلما رأوه جادًّا قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما سنها؟ فقال لهم: إنها بقرة ليست صغيرة ولا كبيرة، بل وسط بين هذا وذاك، فافعلوا ما تؤمرون به، ولا تشددوا فيشدد اللّه عليكم.

ولكنهم قالوا: ادع لنا ما لونها؟ فأخبرهم أنها صفراء شديدة الصفرة تجلب السرور لمن يشاهدها.

فلم يكتفوا بذلك، بل طالبوا بأوصاف تميزها أكثر، ولكنهم أحسوا بأنهم تشددوا وجاوزوا الحد المعقول، فقالوا معتذرين: إن البقر كثير متشابه علينا، وهذه الأوصاف السابقة تنطبق على كثير، وإنا إن شاء اللّه لمهتدون إلى المطلوب.

فأجابهم اللّه أن البقرة المطلوبة لم يسبق لها عمل في حرث الأرض ولا سقيها، سليمة من العيوب ليس فيها لون مخالف، قالوا: الآن جئت بالبيان الواضح فطلبوها فلم يجدوها إلا عند يتيم صغير بارّ بأمه، فساوموه، فاشتط حتى اشتروها بملء جلدها

(١) تفسير المراغي، ١/ ١٦٥٥.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١/ ١٨٨.

ذهبًا، وما كان امتثالهم قريب الحصول.

واذكروا إذ قتلتم -والخطاب لليهود المعاصرين؛ لأنهم أبناء السابقين، ومعتزون بنسبهم وراضون عن فعلهم- واذكروا وقت قتل آبائكم نفسًا حرم اللّه قتلها، ثم تخاصموا، وتجادلوا، وأنكروا على اللّه فعلهم، كما ينكرون اليوم ما عندهم من أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم، واللّه مظهر ما تكتمونه[1].

وأما لفظة بقرات بالجمع وردت مرتين في قصة يوسف في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣].

وفي قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٣].

والمعنى أن الملك قال ليوسف الصديق: أفتنا في هذه الرؤيا، لعلي أرجع إلى أهل مصر فيعلمون تأويل الرؤيا، وقيل: لعلهم يعلمون منزلتك في العلم، فقال يوسف: أمّا البقرات السمان والسنبلات الخضر: فسبع سنين مخاصيب، والبقرات العجاف والسنبلات اليابسات: فالسنون المجدبة[2].

ولفظة عجل ذكرت في القرآن الكريم عشر مرات، منها ستة مواضع بلفظة (العجل) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[البقرة: ٥١].

وفي قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٥٤].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٢-٩٣].

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾[النساء: ١٥٣].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾[الأعراف: ١٥٢].

ومعنى الآيات السابقة: أن اليهود كفروا بالنعم التي أنعم اللّه بها عليهم، والتي كانت

(١) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي، ١/ ٤٦.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٢/ ٤٦٦.

في أرض الميعاد، وكفروا أيضًا بالآيات الواضحات، والدلائل القاطعات التي جاء بها موسى، والتي تدل على أنه رسول اللّه، وأنه لا إله إلا اللّه، والآيات البينات: هي التي حدثت قبل الميعاد الذي نزلت فيه التوراة، وهي تسع، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾[الإسراء: ١٠١].

وهي: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والعصا، واليد، وفرق البحر، والسّنون.

ولم تزدهم تلك الآيات إلا توغلًا في الشرك والوثنية، ولم يشكروا نعم اللّه عليهم، وقابلوها باتخاذ العجل إلهًا يعبدونه من دون اللّه، والعجل: هو الذي صنعه لهم السامري من حليّهم، وجعلوه إلهًا وعبدوه. وهذا دليل على قسوة قلوبهم، وفساد عقولهم، فلا أمل في هدايتهم، وهو ظلم، ووضع للشيء في غير موضعه اللائق به، وأي ظلم أعظم من الإشراك باللّه؟

واذكر يا محمد وقت أن أخذ عليهم الميثاق بأن يعملوا بما في التوراة ويأخذوا بما فيها بقوة، فخالفوا الميثاق وأعرضوا عنه، حتى رفع الطور عليهم إرهابًا لهم، فقبلوه، ثم خالفوه وكأنهم قالوا: سمعنا وعصينا، ثم أوغلوا في المخالفة، ووقعوا في الشرك، واتخذوا العجل إلهًا، وخالط حبه قلوبهم، وتمكن الحب الشديد لعبادة العجل في نفوسهم، بسبب ما كانوا عليه من الوثنية في مصر، قل يا محمد لليهود الحاضرين، بعد أن علموا أحوال رؤسائهم السالفين: إن كان إيمانكم بالتوراة يدعوكم إلى هذا، فبئس هذا الإيمان الذي يوجه إلى هذه الأعمال التي تفعلونها، مثل عبادة العجل، وقتل الأنبياء، ونقض الميثاق[1].

إنّ الذين اتخذوا العجل من بني إسرائيل إلهًا ومعبودًا بعد غيبة رسولهم موسى عليه السّلام، وبقوا على تأليهه، واستمروا على عبادته كالسامري وأتباعه، سيصيبهم عذاب شديد من ربهم، وأن اللّه تعالى لن يقبل توبتهم حتى يقتتلوا، ويقتل بعضهم بعضًا: وسينالهم أيضًا ذلة وصغار في الحياة الدنيا، بخروجهم من ديارهم وتشردهم، وهوانهم على الناس واحتقارهم لهم، وتهالكهم على حب الدنيا، فهم الماديون المنبوذون المكروهون في كل أمة[2].

ومنها: موضعان بلفظة (عجلًا) في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾[الأعراف: ١٤٨].

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [طه: ٨٨].

والمعنى: أن بني إسرائيل بعد خروج

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١/ ٢٢٧.
(٢) انظر: المصدر السابق، ٩/ ١٠٦.

موسى إلى جبل الطور لمناجاة ربه على حسب الموعد الذي وعده اللّه به اتخذوا من حلي القبط الذي كانوا استعاروه منهم عجلًا، أي: تمثالًا بصورة العجل وصوته، ثم عبدوه، وكان بقاء حلي القبط في أيدي بني إسرائيل بعد أن أغرق اللّه القبط، وأهلك قوم فرعون.

وقد جمع السامري تلك الحلي، وكان رجلًا مطاعًا فيهم، وصاغ لهم عجلًا، واتخذوه إلهًا لهم، ثم عبدوه، وإنما نسب إليهم جميعًا؛ لأنه عمل برأي جمهورهم، ولم ينكر عليه أحد، فصاروا مجمعين عليه، مريدين لاتخاذه، راضين به، وكانوا قد سألوا موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهًا يعبدونه، كما لغيرهم من المصريين والشعوب التي مروا بها في فلسطين آلهة[1].

ومنها: موضعان بلفظة (بعجل)، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾[هود: ٦٩].

وقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦].

ذكر تعالى في هاتين الآيتين الكريمتين أن إبراهيم عليه السلام لما سلم على رسل الملائكة، وكان يظنهم ضيوفًا من الآدميين، أسرع إليهم بالإتيان بالقرى، وهو لحم عجل حنيذ، أي: منضج بالنار، وأنهم لما لم يأكلوا أوجس منهم خيفة، فقالوا: لا تخف وأخبروه بخبرهم، وبينت أنه راغ إلى أهله، أي: مال إليهم، فجاء بذلك العجل، وبين أنه سمين، وأنه قربه إليهم، وعرض عليهم الأكل برفق فقال لهم: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، وأنه أوجس منهم خيفة[2].

ويؤخذ من قصة إبراهيم مع ضيفه هؤلاء أشياء من آداب الضيافة[3]:

- تعجيل القرى.
- كون القرى من أحسن ما عنده؛ لأنهم ذكروا أن الذي عنده البقر وأطيبه لحمًا الفتي السمين المنضج.
- تقريب الطعام إلى الضيف.
- ملاطفته بالكلام بغاية الرفق.

٣. الغنم والمعز.

أما الغنم فورد ذكرها في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾[الأنعام: ١٤٦].

والثاني: قوله تعالى: ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾[طه: ١٨].

(١) انظر: المصدر السابق، ٩/ ٩٥.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ٣/ ٢٦.

(٣) انظر: المصدر السابق.

والمعنى: لما سئل موسى عما في يمينه قال: إنها عصاي أعتمد عليها إذا أعييت، أو وقفت على رأس القطيع، وأخبط الورق بها على رؤوس غنمي، ولي فيها حاجات أخر مثل: أنه كان إذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته، وعرض الزندين على شعبيتها، وألقى عليها الكساء، واستظل به، وإذا قصر الرشاء[1] وصله بها، وإذا تعرضت السباع لغنمه قاتل بها، وكأنه عليه السلام فهم أن المقصود من السؤال أن يذكر حقيقتها ما يرى من منافعها حتى إذا رآها بعد ذلك على خلاف تلك الحقيقة ووجد منها خصائص أخرى خارقة للعادة، مثل: أن تشتعل شعبتاه بالليل كالشمع، وتصيران دلوًا عند الاستقاء، وتطول بطول البئر، وتحارب عنه إذا ظهر عدو، وينبع الماء بركزها، وينضب بنزعها، وتورق وتثمر إذا اشتهى ثمرة فركزها على أن ذلك آيات باهرة، ومعجزات قاهرة أحدثها الله تصديقًا له في دعواه، وليست من خواصها، فذكر حقيقتها ومنافعها مفصلًا ومجملًا على معنى أنها من جنس العصي تنفع منافع أمثالها ليطابق جوابه الغرض الذي فهمه[2].

والثالث: قوله: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾[الأنبياء: ٧٨].

أي: واذكر هذين النبيين الكريمين داود وسليمان مثنيًا مبجلًا إذ آتاهما الله العلم الواسع، والحكم بين العباد، فإذ تحاكم إليهما صاحب حرث، نفشت فيه غنم القوم الآخرين، أي: رعت ليلًا فأكلت ما في أشجاره، ورعت زرعه، فقضى فيه داود عليه السلام، بأن الغنم تكون لصاحب الحرث، نظرًا إلى تفريط أصحابها، فعاقبهم بهذه العقوبة، وحكم فيها سليمان بحكم موافق للصواب، بأن أصحاب الغنم يدفعون غنمهم إلى صاحب الحرث فينتفع بدرها، وصوفها، ويقومون على بستان صاحب الحرث، حتى يعود إلى حاله الأولى، فإذا عاد إلى حاله، ترادا ورجع كل منهما بما له، وكان هذا من كمال فهمه وفطنته عليه السلام[3].

وجاء ذكر نعجة ثلاث مرات، ونعاج مرة واحدة، وكلها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ ۝٢٣ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾[ص: ٢٣-٢٤].

في الواقع تتلخص الحادثة: أن داوود

(١) الرشاء: الحبل.
انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص١٢٧.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢/ ٤٥.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٥٠.

كان ملكًا له سلطان، وله أتباع وخدم، وله مصالح مادية مع الناس، وهذا كله يوجد له أعداء، واتفق أن جماعة من الأعداء طمعوا في أن ينالوا من نبي اللّه داوود عليه السلام، وكان له يوم يخلو فيه للعبادة، وانتهزوا الفرصة، وتسوروا عليه المحراب، فلما دخلوا عليه ووجدوا عنده ما يمنعهم من ذلك، اختلقوا كذبًا وزورًا سببًا لدخولهم فقالوا: نحن خصمان بغى بعضنا على بعض، فاحكم بيننا بالحق، ولا تجر، واهدنا إلى سواء السبيل، ويجوز أن يكونا متخاصمين حقيقة، ولما دخلوا على داوود بلا إذن، وتوجس منهم خيفة، وظن بهم الظنون، وهم بذلك أن يصيبهم بسوء كانت هذه الواقعة فتنة، وابتلاء لداود، ثم إنه استغفر ربه مما هم به من الانتقام، وتاب عما دار بخلده من ظن، وخر راكعًا، فتاب اللّه عليه وغفر له، وأما قصتهما كما أخبر فهي: إن هذا أخي في الدين، والصحبة له تسع وتسعون نعجة -هي الواحدة من الغنم أو بقر الوحش- ولي نعجة واحدة، فقال صاحب الغنم الكثيرة: أعطنى نعجتك أكفلها لك، وأضمها لغنمي، وغلبه في المخاصمة، والمجادلة، فقال داوود متسرعًا قبل أن يسمع جواب الخصم الثاني: إنه ظلمك بضم نعجتك إلى نعاجه، وإن كثيرًا من الشركاء ليبغي بعضهم على بعض حبًّا في الدنيا، وشحًّا في النفوس، وأما الذين آمنوا، وعملوا الصالحات فلا يبغى بعضهم على بعض، وقليل ما هم، وظن داود أنه فتن بهذه الحادثة فاستغفر ربه مما ألم به وتاب، وخر راكعًا وصلى للّه قائمًا وساجدًا وأناب، فغفر له ربه ذنبه، وإن لداوود عند ربه لقربى، ومنزلة كريمة، وحسن مآب، أليس وصف داوود بعد القصة بأن له زلفى، وحسن مآب يدل على أنه عبد صالح أواب يستحيل عليه الإلمام بمعصية تغضب اللّه، كما هو مقرر في عقيدة أهل السنة والجماعة أن الأنبياء معصومون من الخطأ[(١)].

وأما المعز فقد ورد ذكره في قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣].

والمتأمل في الأنعام التي سبق ذكرها من الإبل، والبقر، والغنم، والمعز يجد أن الله عزّ وجلّ خلقها لمنافع العباد، فسبحان الله الذي سخرها للإنسان، يأكل من لحومها، ويفترش من أوبارها، ويلبس من أصوافها، ويشرب من ألبانها، ومع أن هذه الأنعام نسلها قليل إلا أن الله سبحانه جعل فيها البركة، فهي مع قلتها، وكثرة من يأكلها من

(١) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي، ٢٣/ ٥٢.

البشر، والسباع إلا أنها أكثر الحيوانات كثرة، ونماءً، ومنافع، وبركة، ويكون من أنواعها القطيع، وهذا مما يدل على قدرة الله تعالى.

ثانيًا: الحيوانات المركوبة:

إنّ من نعم الله على الإنسان تسخير الحيوانات، وذكرت منها في المطلب السابق الحيوانات المأكولة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وفي هذا المطلب سأعرض إلى الحيوانات المركوبة، وهي:

١ . الخيل.

ورد ذكر لفظة (الخيل) في القرآن الكريم خمسة مواضع:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

في هذه الآية أمر الله المؤمنين بالاستعداد للحرب التي لا بد منها لدفع العدوان، وحفظ الأنفس، والحق، والفضيلة، ويكون ذلك بأمرين:

الأول: إعداد المستطاع من القوة، ويختلف هذا باختلاف الزمان، والمكان، فالواجب على المسلمين في هذا العصر ربط الخيل، وصنع المعدات الحربية البرية والبحرية، ويجب عليهم تعلم الفنون، وقد استعمل الصحابة المنجنيق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة خيبر، وغيرها.

والأمر الثاني: مرابطة الفرسان في ثغور البلاد وحدودها، إذ هي مداخل الأعداء، ومواضع مهاجمتهم للبلاد.

والحكمة في هذا أن يكون للأمة جند دائم مستعد للدفاع عنها إذا فاجأها العدو على غرّة، وقوام ذلك الفرسان لسرعة حركتهم، وقدرتهم على القتال، وإيصال الأخبار من الثغور إلى العواصم، وسائر الأرجاء، ومن أجل هذا عظم الشارع أمر الخيل، وأمر بإكرامها، ولا يزال للفرسان نصيب كبير في الحرب في هذا العصر الذي ارتقت فيه الفنون العسكرية في الدول الحربية[(١)].

الثاني: في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

ومعنى الخيل المسومة: فالخيل جمع لا واحد له من لفظه، كالقوم، والنساء والرهط، وسميت الأفراس خيلًا لخيلائها في مشيها، وسميت حركة الإنسان على سبيل الجولان اختيالًا، وسمي الخيال

(١) انظر: تفسير المراغي، ١٠/ ٢٤.

خيالًا، والتخيل تخيلًا، لجولان هذه القوة في استحضار تلك الصورة، واختلفوا في معنى: (المسوّمة) على ثلاثة أقوال، الأول: أنها الراعية، والقول الثاني: المسومة: المعلمة، والقول الثالث: وهو قول مجاهد وعكرمة: إنها الخيل المطهمة الحسان، قال القفال: المطهمة: المرأة الجميلة[1].

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل: ٨].

قال ابن كثر في تفسير هذه الآية: «هذا صنف آخر ممّا خلق تبارك وتعالى لعباده يمتنّ به عليهم، وهو، الخيل، والبغال، والحمير الّتي جعلها للرّكوب، والزّينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها»[2].

والمتأمل في الآية السابقة يجد أن سبحانه وتعالى ذكر الخيل قبل البغال والحمير؛ لأن المنافع فيها أكثر.

الرابع: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر: ٦].

وهذه الآية وردت فيما ردّه اللّه تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم، وصيّره إليه من أموال يهود بني النضير، فهو للرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لم يحصل فيه قتال، ولا حرب، ولا تجشم مشقة، ولم يركبوا لتحصيله خيلًا، ولا إبلًا، وإنما كانت من المدينة على ميلين، وافتتحت ديارهم صلحًا، وأخذت أموالهم بعد جلائهم عنها، ولذا لم تقسم بين الغانمين، وإنما جعل اللّه أموال بني النضير لرسوله صلى الله عليه وسلم خاصة لهذا السبب، يصرفه على مصالحه كيف يشاء[3].

الخامس: قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤].

قيل: إن معنى الخيل في هذه الآية ليس على الحقيقة، وإنما على سبيل المجاز، والمعنى: اسع سعيك، وابلغ جهدك.

وقيل: على الحقيقة، وأن له خيلًا ورجلًا من الجن، وقيل: المراد فرسان الناس، ورجالتهم المتصرفون في الباطل، فإنهم كلهم أعوان لإبليس على غيرهم[4].

٢ . البغال.

وهي من الحيوانات المركوبة، وذكرت لفظة البغال مرة واحدة في القرآن الكريم في الآية السابقة من سورة النحل، وسبق الكلام

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٧/ ٢١٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٦٧١.
(٣) انظر التفسير المنير، الزحيلي، ٢٨/ ٨٠.
(٤) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي، ٢/ ٢٦٩.

عن تفسيرها.

٣. الحمير.

جاء ذكر لفظة الحمار في القرآن الكريم خمسة مواضع: ثلاثة منها بلفظ الجمع.

الأول: في قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل: ٨].

والثاني: في قوله: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[لقمان: ١٩].

والآية فيها دلالة على أن صوت الحمار من أبشع الأصوات، وأفظعها، فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة، لما اختص بذلك الحمار، الذي قد علمت خسته وبلادته[(١)].

والثالث: في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾[المدثر: ٥٠].

وهذه الآية وصفت الكفار المعرضين بأنه كالحمر المستنفرة.

ووردت اثنان منها بلفظ المفرد.

الأول: في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[الجمعة: ٥].

في الآية السابقة جعل الله تعالى مثل علماء اليهود الذين لم يحملوا التوراة، ولم يقوموا بما حملوا به، أنهم لا فضيلة لهم، وأنهم كمثل الحمار الذي يحمل فوق ظهره أسفارًا من كتب العلم، فالحمار لا يستفيد من تلك الكتب التي فوق ظهره، وليس له حظ منها إلا حملها فقط[(٢)].

والثاني: في قوله تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

والمعنى: أن الله سبحانه أمر العزير أن ينظر إلى حماره كيف تفرقت عظامه، ونخرت، وكان له حمار قد ربطه، ويجوز أن يكون المعنى: أن ينظر إليه سالمًا في مكانه كما ربطته، وذلك من أعظم الآيات أن يعيشه مائة عام من غير علف، ولا ماء[(٣)].

٤. الفيل.

جاء ذكر الفيل في القرآن الكريم في موضع واحد، وهو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١].

قال ابن كثير في معنى هذه الآية: «هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة، ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله، وأرغم آنافهم، وخيب سعيهم، وأضل عملهم، وردهم بشر خيبة.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٩٥.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٩٤١.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ٣٩٠.

وكانوا قومًا نصارى، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالًا مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان، ولكن كان هذا من باب الإرهاص، والتوطئة لمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم[1].

ومما سبق يتبين أن الله سبحانه وتعالى ذلل الحيوانات المركوبة للإنسان لينتفع بها، يركب علها ويقوم على مصالحه، وهذه نعم من نعمه تستحق الشكر منه عز وجل.

ثالثًا: السباع:

كان الحديث في المطلب السابق عن الحيوانات المركوبة، وذكرت في القرآن الكريم بعض السباع من الحيوانات، وهي:

١. السبع.

وردت هذه اللفظة في موضع واحد من القرآن الكريم عند ذكر الحيوانات المحرم أكلها.

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾[المائدة: ٣].

والسبع: اسم يقع على ما له ناب، ويعدو على الإنسان، والدواب، ويفترسها، مثل الأسد وما دونه[2].

وقيل: إن لفظة قسورة تعني الأسد[3] في قوله تعالى: ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾[المدثر: ٥١].

٢. الذئب.

ذكر الذئب في القرآن في قصة يوسف عليه السلام.

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ۞ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾[يوسف: ١٣- ١٤].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾[يوسف: ١٧].

والمعنى: أنه تعالى يقول مخبرًا عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه في جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء: إنه يشق عليّ مفارقته مدة ذهابكم به إلى أن يرجع؛ وذلك لفرط محبته له، لما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة، والكمال في الخلق والخلق، صلوات الله وسلامه عليه، وقال لهم أبوهم: وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم، ورعيتكم فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون، فأخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه،

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٦٣٤.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١١/ ١٣٦.

(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي، ١٦/ ٢٣٠.

وقالوا مجيبين عنها في الساعة الراهنة: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا، ونحن جماعة، إنا إذًا لهالكون عاجزون[1].

وقالوا معتذرين عما زعموا: إنا ذهبنا نتسابق ونترامى بالنبال، وتركنا يوسف عند ثيابنا وأمتعتنا، حارسًا لها، فأكله الذئب، وهذا الذي كان قد جزع منه أبوهم، وحذر عليه، ونحن نعلم أنك لا تصدقنا - والحالة هذه - لو كنا صادقين موثوقين عندك، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك؟! وأنت معذور في هذا لغرابة ما وقع، وعجيب ما حدث[2].

٣. الكلب.

جاءت لفظة الكلب في القرآن الكريم في موضعين:

الأول: في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الأعراف: ١٧٦].

قال الرازي رحمه الله: «واعلم أن هذا التمثيل ما وقع بجميع الكلاب، وإنما وقع بالكلب اللاهث، وأخس الحيوانات هو الكلب، وأخس الكلاب هو الكلب اللاهث، فمن آتاه الله العلم، والدين فمال إلى الدنيا، وأخلد إلى الأرض، كان مشبهًا بأخس الحيوانات، وهو الكلب اللاهث»[3].

والثاني: في قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٢].

جاء ذكر الكلب في هذه الآية مع عدة أصحاب الكهف، قال السعدي رحمه الله: «يخبر الله تعالى عن اختلاف أهل الكتاب في عدة أصحاب الكهف، اختلافًا صادرًا عن رجمهم بالغيب، وتقولهم بما لا يعلمون، وأنهم فيهم على ثلاثة أقوال: منهم من يقول: ثلاثة، رابعهم كلبهم، ومنهم من يقول: خمسة، سادسهم كلبهم. وهذان القولان ذكر الله بعدهما أن هذا رجم منهم بالغيب، فدل على بطلانهما، ومنهم من يقول: سبعة، وثامنهم كلبهم، وهذا -والله أعلم- الصواب؛ لأن الله أبطل الأولين، ولم يبطله، فدل على صحته، وهذا من الاختلاف الذي لا فائدة تحته، ولا يحصل بمعرفة عددهم مصلحة للناس، دينية ولا دنيوية»[4].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٥٦١-٥٦٢.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٢/ ٢٢٢.
(٣) مفاتيح الغيب ١٥/ ٦٠.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، ص٦٣٧.

وهذه السباع أعطاها الله سبحانه من القدرة على افتراس الفريسة وتتمكن من أكلها حتى تستطيع الاستمرار في الحياة، فسبحان الله ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

رابعًا: حيوانات أخرى:

وهناك حيوانات أخرى ورد ذكرها في القرآن الكريم، ومنها: الخنزير، والقردة.

ومن المواضع التي جاء ذكر الخنزير فيها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

والمعنى: أن الله سبحانه حرّم أكل الميتة، والانتفاع بها، وهي التي ماتت على غير ذكاة، وحرّم أيضًا الدم، ولحم الخنزير إنما خص لحمه مع أن سائر أجزائه أيضًا في حكمه؛ لأنه معظم ما يؤكل من الحيوان، وسائر أجزائه بمنزلة التابع له[(١)].

ومن المواضع التي ذكرت فيها القردة قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

والمعنى: أن اليهود تجاوزوا الحد، وصادوا السمك في يوم السبت مع أن ذلك محرم، فجعلهم الله تعالى كالقردة في الخسة والحقارة.

قال الزحيلي في تفسير الآية: «لقد علمتم شأن آبائكم الذين تجاوزوا الحد بصيد السمك يوم السبت، وكان محرمًا فيه لقصره على العبادة، فإن موسى عليه السّلام حظر عليهم العمل في هذا اليوم، وفرض عليهم فيه طاعة ربهم، وأباح لهم العمل في بقية أيام الأسبوع، وكان جزاؤهم أنهم أصبحوا في مرتبة الحيوان، يعيشون من دون عقل ووعي وتفكير، ويتخبطون في أهوائهم، كالقردة في نزواتها، والخنازير في شهواتها، يأتون المنكرات علانية، بعيدين عن الفضائل الإنسانية، حتى احتقرهم الناس، ولم يروهم أهلًا للمعاشرة والمعاملة، فمعنى صيرورتهم قردة خاسئين: تصييرهم مبعدين عن الخير أذلاء صاغرين»[(٢)].

وجاءت لفظة القردة مقترنة بالخنازير في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠].

فالقردة: أصحاب السبت، والخنازير: كفار مائدة عيسى عليه السلام[(٣)].

وخلاصة القول: إن الناظر في الحيوانات يجد أن منها ما يستخدم للزينة، ومنها ما

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/ ١٩١.

(٢) التفسير المنير، ١/ ١٨١.

(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ١/ ٦٩٢.

يستخدم للثروة، ومنها للركوب ومنها للأكل، حتى إن منها السباع، وغير ذلك، وهذا يدل الإنسان على كمال قدرة الله تعالى.

الحيوانات المحرم أكلها

لقد ورد في القرآن الكريم ذكر بعض الحيوانات المحرّمة، وفي هذا المبحث إن شاء الله تعالى سنتتبع الآيات التي ذكرت فيها، مع بيان حكمة تحريمها.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

وقال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ [المائدة: ٣].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٥- ١٤٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٥].

الملاحظ أن الآيات السابقة ذكرت أنواعًا من الحيوانات المحرّم أكلها، وهي:

١ . الميتة.

ويراد بها عرفًا ما مات حتف أنفه، ويراد بها في عرف الشرع: ما مات، ولم يذكه الإنسان لأجل أكله[١].

والحكمة في التحريم: احتباس الدم فيها، وتوقع التضرر بها، لفساد لحمها، وتلوثه بالأمراض غالبًا.

فهي محرمة لاستقذار الطباع السليمة لها ولما فيها من ضرر، وتكون سببًا في إزهاق الروح[٢].

٢ . الدم.

والمراد به: الدم المسفوح ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾[الأنعام: ١٤٥].

أي: المائع الذي يسفح، ويراق من الحيوان، وإن جمد بعد ذلك، بخلاف المتجمد طبيعة كالطحال والكبد وما يتخلل اللحم عادة فإنه لا يسمى مسفوحًا[٣].

وحكمة تحريم الدم؛ لأنه ضارّ، وتأباه النفوس الطيبة، فهو حرام لقذارته وضرره[٤].

والدم كثير الضرر؛ لأنه عسر الهضم جدّ العسر، ويحمل كثيرًا من الموادّ العفنة التي تنحلّ من الجسم، وهي فضلات لفظتها الطبيعة كما تلفظ البراز ونحوه، واستعاضت عنها بموادّ جديدة من الدم، وقد يكون فيه جراثيم بعض الأمراض المعدية، وهي تكون فيه أكثر مما تكون في اللحم، ومن أجل هذا اتفق الأطباء على وجوب غلي اللبن قبل شربه، لقتل ما عسى أن يكون قد علق به من جراثيم الأمراض المعدية[٥].

٣ . الخنزير.

وهو حيوان قذر لا يأكل غالبًا إلا من القاذورات والنجاسات[٦]، وأكل لحمه حرام.

وحكمة التحريم: لأنه ضارّ، ولأن النفوس الطيبة تأباه؛، ولأن فيه ضررًا لحملة جراثيم شديدة الفتك؛ ولأن فيه كثيرًا من الطباع الخبيثة، وولوع بالنواحي الجنسية، ولا يغار على أنثاه، وكسول بطبعه، والمتغذي يتأثر بتلك الطبائع، وتنتقل إليه بيوض الدودة الوحيدة الحلزونية التي قد تكون في خلايا عضلات جسمه، ولو تربى

(١) انظر: تفسير المراغي، ٦/ ٤٧.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢/ ٧٨.
(٣) انظر: تفسير المراغي، ٦/ ٤٧.
(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢/ ٧٩.
(٥) انظر: تفسير المراغي، ٦/ ٤٧، ٤٨.
(٦) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢/ ٧٩.

في أنظف الحظائر(١).

٤. ما أهلّ لغير اللّه به.

قال المراغي: «والمراد به: ما ذبح على ذكر غير اللّه تعالى من المخلوقات التي يعظمها الناس تعظيمًا دينيًّا، ويتقربون إليها بالذبائح، وكانوا يذبحون لأصنامهم فيرفعون أصواتهم بقولهم: باسم اللات، أو باسم العزّى، ويدخل في ذلك ما ذكر عند ذبحه اسم نبي أو وليّ، كما يفعل بعض أهل الكتاب، وجهلة المسلمين الذين اتبعوا من قبلهم، وساروا على نهجهم باعًا فباعًا وذراعًا فذراعًا»(٢).

وحكمة التحريم: حرّم الشرع أكل ما ذبح على ذكر غير اللّه تعالى؛ لمساسه بالعقيدة، وتعظيم غير اللّه، ومشاركة المشركين، والكفار في عبادة غير اللّه، والتقرب لآلهتهم بالذبائح(٣).

٥. المنخنقة.

وهي التي تختنق، إما في وثاقها، وإما بإدخال رأسها في الموضع الذي لا تقدر على التخلص منه، فتختنق حتى تموت(٤).

والحكمة من تحريمها: لأنها نوع من أنواع الميتة، وحكمها حكم الميتة، وضررها ضرر الميتة؛ لأنها لا تذبح، والتذكية الشرعية شرط لحلّ المذبوح(٥).

٦. الموقوذة.

وهي التي ضربت إلى أن ماتت، يقال: وقذها، وأوقذها: إذا ضربها إلى أن ماتت، ويدخل في الموقوذة ما رمي بالبندق فمات(٦).

وحكمة التحريم: لأنها ماتت بلا ذكاة شرعية، وكانوا يأكلونها في الجاهلية، والوقذ يحرم في الإسلام؛ لأنه تعذيب للحيوان شديد، وليست معه ذكاة، ومن هنا حرمت(٧)؛ لأن حكمها حكم الميتة.

٧. المتردّية.

هي ما سقطت من مكان عال كجبال، أو هوت في بئر بسبب ذلك هي كالميتة(٨)، ويدخل فيه ما إذا أصابه سهم، وهو في الجبل فسقط على الأرض فإنه يحرم أكله؛ لأنه لا يعلم أنه مات بالتردي، أو بالسهم(٩).

والحكمة من تحريمها: لأنها من الميتة، وماتت، وما سال منها الدم(١٠)، ولا يحل أكلها بدون تذكية؛ ولأن الإنسان لم يكن له

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) تفسير المراغي، ٦/ ٤٨.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، ١/ ٤٣٠.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٤/ ٤٠٨.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، ١/ ٤٣٠.
(٦) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١١/ ١٣٥.
(٧) انظر: تفسير المراغي، ٦/ ٤٩.
(٨) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي، ٦/ ٢٧.
(٩) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١١/ ١٣٥.
(١٠) انظر: المصدر السابق.

عمل في إماتتها، ولا قصد به إلى أكلها[(١)].

٨. النطيحة.

وهي التي تنطحها بهيمة أخرى فتموت من النّطاح من غير أن يكون للإنسان عمل في أماتتها[(٢)].

وسبب تحريمها: أنها من الميتة، وموتها بدون تذكية.

٩. ما أكل السبع.

السبع: اسم يقع على ما له ناب، ويعدو على الإنسان، والدواب، ويفترسها مثل: الأسد وما دونه[(٣)]، ويدخل في ذلك الذئب، والنمر، والفهد[(٤)]، والكلب.

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذي ناب من السباع، وعن كل ذي مخلب من الطير[(٥)].

وأكل السباع من الفريسة ليس بشرط للتحريم، إذ يكفي فرسه إياه وقتله في تحريمه[(٦)].

الحكمة من تحريم السباع: كان العرب في الجاهلية يأكلون بعض فرائس السباع، ولكنه مما تأنفه أكثر الطباع، وأكثر الناس يعدّ أكله ذلة ومهانة، وإن كانوا لا يخشون منه ضررًا[(٧)].

قال المراغي رحمه الله: «ولا يحرم عليكم ما ذكيتموه بفعلكم مما يقبل التذكية، ويكفي في صحة إدراك ذكاة ما ذكر أن يكون فيه رمق من الحياة بأن يطرف بعينه، أو يضرب بذنبه»[(٨)].

١٠. ما ذبح على النصب.

وهي حجارة كانت حول الكعبة عددها ثلاثمائة وستون حجرًا[(٩)]، وفيها وجهان: أحدهما: وما ذبح على اعتقاد تعظيم النصب، والثاني: وما ذبح للنصب[(١٠)].

والحكمة من التحريم: كان أهل الجاهلية يذبحون عليها، ويعدون ذلك قربة، ومن هذا يعلم أن ما ذبح على النصب هو من جنس ما أهلّ به لغير اللّه من حيث إنه يذبح بقصد العبادة لغير اللّه تعالى، وخص بالذكر لإزالة وهم من يتوهم أنه قد يحل لقصد تعظيم البيت الحرام إذا لم يذكر اسم غير اللّه عليه، وهو من خرافات الجاهلية التي جاء الإسلام بمحوها[(١١)].

---

(١) انظر: تفسير المراغي، ٦/ ٥٠.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١١/ ١٣٦.
(٤) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٤/ ٢٧.
(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأطعمة، باب النهي عن أكل السباع، رقم ٣٨٠٥.
(٦) انظر: تفسير المراغي، ٦/ ٥٠.
(٧) انظر: المصدر السابق.
(٨) انظر: المصدر السابق.
(٩) انظر: المصدر السابق.
(١٠) النصب: هي الأوثان.
انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١١/ ١٣٧.
(١١) انظر: تفسير المراغي، ٦/ ٥٠-٥١.

١١. القرد والكلب والفيل.

قال القرطبي في تفسيره: «قال أبو عمر يعني: ابن عبد البر: أجمع المسلمون على أنه لا يجوز أكل القرد لنهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكله، ولا يجوز بيعه لأنه لا منفعة فيه...، وقال: والكلب والفيل، وذو الناب كله عندي مثل القرد»[(١)].

ويضاف إلى هذه المحرمات ما حرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أكل لحوم البغال، ولحوم الحمير الإنسية، وكل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير، فعن جابر رضي الله عنه. قال: (حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم -يعني يوم خيبر- الحمر، ولحوم البغال، وكل ذي ناب من السباع، وذي مخلب من الطير)[(٢)].

قال القرطبي رحمه الله: «وقد قيل: إن الحمار لا يؤكل؛ لأنه أبدى جوهره الخبيث حيث نزا على ذكر وتلوّط؛ فسمي رجسًا، قال محمد بن سيرين: ليس شيء من الدواب يعمل عمل لوط إلا الخنزير والحمار»[(٣)].

وأما بالنسبة للحمر الأهلية، ولحوم الخيل فقد روي عن جابر بن عبد الله أنه قال: (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية، وأذن في لحوم الخيل)[(٤)].

قال الصنعاني: «قالت الشافعية: ويحرم ما ندب قتله كحية، وعقرب، وغراب أبقع، وحدأة وفأرة، وكل سبع ضار، واستدلوا بقوله صلى الله عليه وسلم: (خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الحية والغراب الأبقع والفارة والكلب العقور والحديا)[(٥)].

وقالوا: ولأن هذه مستخبثات شرعًا وطبعًا، وفي دلالة الأمر بقتلها على تحريم أكلها نظر»[(٦)].

ومن الحيوانات ما ليس له دم أصلًا: كالجراد، والذباب، والنمل، والنحل، والدود، والخنفساء، والصرصار، والعقرب، وذوات السموم، ونحوها، لا يحل أكلها إلا الجراد خاصة؛ لأنها من الخبائث غير المستطابة، لاستبعاد الطباع السليمة إياها، وقد قال الله تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٩١.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الصيد، باب ما جاء في كراهية كل ذي ناب وكل ذي مخلب، رقم ١٤٧٨.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٧٨.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيد والذبائح، باب في أكل لحوم الخيل، ٣/ ١٥٤١، رقم ١٩٤١.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يقتل في الحرم، ٤/ ١٢٩، رقم ٣٣١٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب في الحل والحرم، رقم ١١٩٨.

(٦) سبل السلام ٤/ ١٠٢.

واشترط المالكية تذكية الجراد، أما الجراد الميت فهو حرام عندهم[1].

وخلاصة القول: إن الله تعالى خلق الحيوانات، وبيّن للإنسان الحلال منها والحرام، ويجب على العبد امتثال أمر ربه عز وجل في تحليل ما أحل الله، وتحريم ما حرّم الله، ولا يفعل فعلة المشركين الذين ابتدعوا تحريم البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام بآرائهم الفاسدة، وتحريم الحيوانات ورد في كتاب الله تعالى، وفي السنة المطهرة.

قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[الأنعام: ١٤٥].

يتبين من الآية السابقة أن الله سبحانه أمر اللّه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبر المشركين أنه لا يجد فيما أوحاه اللّه إليه محرّمًا، وإنّما حرّم أربعة أشياء هي: الميتة، والدّم المسفوح، ولحم الخنزير، وما أهلّ لغير اللّه به، وغير ذلك من المحرمات التي ورد ذكرها في الكتاب والسنة لما فيها من الضّرر المادي؛ لأن لحومها خبيثة، أو المعنوي الذي يمسّ العقيدة، وعبادة اللّه.

ويجوز للمسلم عند الضرورة أن يأكل الميتة إذا غلب على ظنه الهلاك، جاء ذلك في مواضع عدة من القرآن الكريم، منها: قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[الأنعام: ١٤٥].

قال الزحيلي: «أي: فمن دعته الضرورة، وألجأته، واحتاج من غير بغي، ولا عدوان إلى تناول شيء من هذه المحرّمات، لمجاعة غلب على ظنه الهلاك فيها، غير باغ على مضطر آخر، بأن ينفرد بتناوله، فيهلك الآخر، ولا عاد أي متجاوز ما يسد الرمق، والجوع، أي: قدر الضرورة، مما يدل على تحريم الشبع، وهو مذهب الأكثرين، فإن اللّه غفور ستار لذنبه أو هفوته، لا يؤاخذه على ذلك، رحيم به أن يعاقبه على مثل ذلك. وفي هذا تيسير، وتوسعة على هذه الأمة التي يريد اللّه بها اليسر، ولا يريد بها العسر»[2].

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ٨١.

(٢) المصدر السابق ١٤/ ٢٥٦.

الحيوان في المثل القرآني

إنّ من حكمة الله تعالى، ورحمته، وفضله أن أورد الأمثال في القرآن الكريم؛ وذلك لتقريب البعيد، وتوضيح المجمل، وفيها: إقناع الناس، وتحذيرهم، وتخويفهم.

قال ابن القيم رحمه الله: «ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منها أمور: التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للعقل، كنسبة المحسوس إلى الحس، وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر، وإبطال أمر»[(١)].

والله سبحانه وتعالى يضرب الأمثال بما يريد حتى إنه ضرب المثل بالبعوضة، وهي من أصغر الحيوانات، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

قال ابن القيم رحمه الله: «وهذا جواب اعتراض اعترض به الكفار على القرآن: وقالوا: إن الرب أعظم من أن يذكر الذباب، والعنكبوت، ونحوها من الحيوانات الخسيسة، فلو كان ما جاء به محمد كلام الله لم يذكر فيه الحيوانات الخسيسة، فأجابهم الله تعالى بأن قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾، فإن ضرب الأمثال بالبعوضة فما فوقها إذا تضمن تحقيق الحق وإيضاحه، وإبطال الباطل وإدحاضه كان من أحسن الأشياء، والحسن لا يستحيا منه، فهذا جواب الاعتراض فكأن معترضًا اعترض على هذا الجواب، أو طلب حكمة ذلك، فأخبر تعالى عما له في ضرب تلك الأمثال من الحكمة، وهي إضلال من شاء، وهداية من شاء، ثم كأن سائلًا سأل عن حكمة الإضلال لمن يضله بذلك فأخبر تعالى عن حكمته، وعدله، وأنه إنما يضل به الفاسقين»[(٢)].

قال الزحيلي في معنى الآية السابقة: «إن اللّه سبحانه وتعالى لا يترك ضرب المثل بالبعوضة، ونحوها بما هو دونها، أو أكبر منها، ترك من يستحيي أن يتمثل بها لحقارتها، فلا غرابة ولا حرج ولا عيب في الإتيان بالأمثال والأشباه سواء أكانت صغيرة أم كبيرة؛ لأن العظمة فيها جميعها شيء واحد، وهو الخلق والإبداع؛ ولأن

(١) بدائع الفوائد، ٢/ ٣٠١.

(٢) المصدر السابق، ٢/ ٤٣٧.

المثل جعل لكشف المعنى وتوضيحه بما هو معروف مشاهد، وما الأمثال إلا إبراز للمعاني المقصودة في قالب الأشياء المحسوسة لتأنس بها النفوس، وتنكشف أمامها الغوامض، وتزول الأوهام عن معارضة العقل، والله الحكيم يفعل ما يحقق المصلحة بضرب المثل في العظائم، والمحقرات حسب الأحوال، والمناسبات، فإن كان الأمر عظيمًا كالحق، والإسلام ضرب مثله بالنور، والضياء، وإن كان الأمر مهينًا حقيرًا كالأصنام ضرب مثله في عدم النفع، وانعدام الفائدة بما يشبهه من الذباب، والبعوض، والعنكبوت»[1].

فأما المؤمنون الذين يصدقون بأن الله خالق كل شيء، يقولون: إن كلام الله حق، ولا يقول غير الحق، وإنه سبحانه ضرب المثل لمصلحة وحكمة، وأما الكافرون الذين يستهزئون بالأمثال فيقولون متعجبين: ماذا أراد الله بمثل هذه الأشياء الحقيرة؟ فهم في حيرة من أمرهم، وخسران مبين في نهايتهم، ولو آمنوا لعرفوا الحق ووجه الحكمة في ذلك.

قال تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِيمَـٰنًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَـٰبَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا﴾ [المدثر: ٣١][2].

ومما سبق يتضح أن الحيوانات ذكرت في المثل القرآني، وسأذكر إضافة للمثل الذي سبق ذكره في هذا المبحث مثلين آخرين على سبيل المثال لا الحصر:

المثل الأول: في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ۞ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥- ١٧٦].

والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى قال للرسول صلى الله عليه وسلم: اقرأ على اليهود خبر الذي علمناه آياتنا، ولكنه لم يعمل بها، وتركها وراءه، وتجرد منها إلى الأبد، فلحقه الشيطان، وأدركه، وصار قرينًا له، وتمكن من الوسوسة له، فأصغى إليه، فصار من الظالمين الكافرين، لميله إلى الدنيا، واتباع الهوى والشيطان[3].

قال ابن القيم: «شبه سبحانه من آتاه كتابه، وعلمه العلم الذي منعه غيره فترك العمل به، واتبع هواه، وآثر سخط الله على رضاه، ودنياه على آخرته، والمخلوق على الخالق

(١) التفسير المنير، ١/ ١١٠-١١١.

(٢) انظر: المصدر السابق ١/ ١١١.

(٣) انظر: المصدر السابق، ٩/ ١٦٣.

بالكلب الذي هو من أخبث الحيوانات، وأوضعها قدرًا وأخبثها نفسًا، وهمته لا تتعدى بطنه، وأشدها شرهًا وحرصًا، ومن حرصه أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض يتشمم، ويتروح حرصًا وشرهًا، ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزائه، وإذا رميت له بحجر رجع إليه ليعضه من فرط نهمته، وهو من أمهن الحيوانات، وأحملها للهوان وأرضاها بالدنايا، والجيف المروحة أحب إليه من اللحم الطري، والقذرة أحب إليه من الحلوى، وإذا ظفر بميتة تكفي مائة كلب لم يدع كلبًا يتناول معه منه شيء إلا هر عليه وقهره لحرصه وبخله وشره، ومن عجيب أمره، وحرصه أنه إذا رأى ذا هيئة رثة، وثياب دنية، وحال زرية نبحه، وحمل عليه كأنه يتصور مشاركته له، ومنازعته في قوته.

وإذا رأى ذا هيئة حسنة، وثياب جميلة، ورئاسة وضع له خطمه بالأرض، وخضع له، ولم يرفع إليه رأسه، وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة مع وفور علمه بالكلب في لهثه سر بديع، وهو أن الذي حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه إنما كان لشدة لهفه على الدنيا لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة فهو شديد اللهف عليها، ولهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال ازعاجه، وتركه.

واللهف، واللهث شقيقان، وأخوان في اللفظ والمعنى»[1].

وقال ابن القيم أيضًا: «قال ابن جريج: الكلب منقطع الفؤاد لا فؤاد له إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، فهو مثل الذي يترك الهدى لا فؤاد له إنما فؤاده ينقطع، ومراده بانقطاع فؤاده أنه ليس له فؤاد يحمله على الصبر وترك اللهث، وهكذا الذي انسلخ من آيات الله لم يبق معه فؤاد يحمله على الصبر عن الدنيا، وترك اللهف عليها، فهذا يلهف على الدنيا من قلة صبره عليها، وهذا يلهث من قلة صبره على الماء، فالكلب من أقل الحيوانات صبرًا عن الماء، وإذا عطش أكل الثرى من العطش، وإن كان صبر عن الجوع، وعلى كل حال فهو من أشد الحيوانات لهثًا يلهث قائمًا، وقاعدًا، وماشيًا، وواقفًا ذلك لشدة حرصه، فحرارة الحرص في كبده توجب له دوام اللهث، فهكذا مشبهه شدة حرارة الشهوة في قلبه توجب له دوام اللهث، فإن حملت عليه بالموعظة والنصيحة فهو يلهث، وإن تركته ولم تعظه فهو يلهف.

قال مجاهد: وذلك مثال الذي أوتى الكتاب ولم يعمل به، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن تحمل عليه الكلمة لم يحملها وإن تركته لم يهتد إلى الخير»[2].

(١) الأمثال في القرآن الكريم، ص٢١٥-٢١٦.
(٢) المصدر السابق، ص٢١٦- ٢١٧.

قال البغوي رحمه الله: «وهذا الكافر إن زجرته لم ينزجر، وإن تركته لم يهتد، فالحالتان عنده سواء، كحالتي الكلب: إن طرد كان لاهثًا، وإن ترك وربض كان لاهثًا. قال القتيبي: كل شيء يلهث إنما يلهث من إعياء، أو عطش إلا الكلب، فإنه يلهث في حال الكلال، وفي حال الراحة، وفي حال العطش، فضربه الله تعالى مثلًا لمن كذب بآياته فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال، كالكلب إن طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث»[1].

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣].

وهذا المثل عام في جميع من يكذب بآيات الله، قال تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٧].

وينطبق هذا على كفار مكة حيث إنهم كانوا يتمنون هاديًا يهديهم، ويدعوهم إلى عبادة الله، فلما جاءهم النبي صلى الله عليه وسلم الذي لا يشكّون في صدقه كذّبوه، فلم يهتدوا سواء دعاهم، أو تركهم.

قال الزحيلي: «ذلك المثل الغريب هو مثل هؤلاء القوم الذين كذبوا بآيات الله، واستكبروا عنها، ولم تنفعهم الموعظة، وهم اليهود بعد ما قرأوا نعت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم في التوراة، وبشروا الناس باقتراب مبعثه، وكانوا يستنصرون، أو يستفتحون به، وجاء القرآن المعجز كاشفًا هذه الحقيقة التي أنكرها اليهود بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم»[2].

إن الذي يركن إلى الدنيا، ويميل إليها، ويرغب فيها، ويهتم بلذاتها، ويتبع هواه، ولم يجعل همّه الآخرة، ولم يهتد بآيات الله، ولم يشكر نعمة اللّه عليه باستعمالها في مرضاته يكون مثل الكلب، ويتصف بصفاته، وهي: الذلة، والحقارة، والدناءة، والخسة، وإن من أذل، وأخس أحوال الكلب دوام اللهث سواء طرد أو لم يطرد.

وهذا حال من تجرد من معرفة الله تعالى، حيث إن الله سبحانه وتعالى شبهه بأقبح صفة من صفات الكلب.

إنه مثل عجيب، وغريب، فيه العبرة، والموعظة لمن سمع، وتدبر، وفهم، وعقل، وفكّر، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[العنكبوت: ٤٣].

المثل الثاني: في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

(١) معالم التنزيل، البغوي، ٢/ ١٧٣، ١٧٤.

(٢) التفسير المنير، ٩/ ١٦٣.

[الجمعة: ٥].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: «يقول تعالى ذامًّا لليهود الذين أعطوا التوراة، وحملوها للعمل بها، فلم يعملوا بها، مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفارًا، أي: كمثل الحمار إذا حمل كتبًا لا يدري ما فيها، فهو يحملها حملًا حسيًّا، ولا يدري ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه، حفظوه لفظًا، ولم يفهموه، ولا عملوا بمقتضاه، بل أولوه، وحرفوه، وبدلوه، فهم أسوأ حالًا من الحمير؛ لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]»[(١)].

وقال السعدي رحمه الله: «ذكر الله تعالى أن الذين حملهم التوراة من اليهود وكذا النصارى، وأمرهم أن يتعلموها، ويعملوا بما فيها، وأنهم لم يحملوها، ولم يقوموا بما حمّلوا به، أنهم لا فضيلة لهم، وأن مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل فوق ظهره أسفارًا من كتب العلم، فهل يستفيد ذلك الحمار من تلك الكتب التي فوق ظهره؟ وهل يلحق به فضيلة بسبب ذلك؟ أم حظه منها حملها فقط؟ فهذا مثل علماء اليهود الذين لم يعملوا بما في التوراة، الذي من أجله وأعظمه الأمر باتباع محمد صلى الله عليه وسلم، والبشارة به، والإيمان بما جاء به من القرآن، فهل استفاد من هذا وصفه من التوراة إلا الخيبة والخسران، وإقامة الحجة عليه؟ فهذا المثل مطابق لأحوالهم»[(٢)].

وهذا دليل على أن اليهود والنصارى فقدوا الإدراك الصحيح، والوعي السليم، وعطلوا طاقات الحواس، والمواهب الإلهية التي لو فكروا بموجبها لآمنوا بدعوة الأنبياء، وخاصة النبي محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين، وانقادوا إلى رسالة الحق والتوحيد، ولكنهم لم يستفيدوا من ذلك بشيء فكانوا مثل الحمير كما وصفهم الله عز وجل، وهذا عام في كل من حمل كتابًا من الكتب السماوية، ولم يعمل به، وحتى الذي تعلم القرآن، ولم يعمل به فهو كذلك.

قال ابن القيم رحمه الله: «فقاس من حمّله سبحانه كتابه ليؤمن به، ويتدبره، ويعمل به، ويدعو إليه ثم خالف ذلك، ولم يحمله إلا على ظهر قلب، فقراءته بغير تدبر، ولا تفهم، ولا اتباع له ولا تحكيم له وعمل بموجبه كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها، وحظه منها حمله على ظهره ليس إلا، فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره،

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٤١٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٣٠١.

فهذا المثل وإن كان قد ضرب لليهود فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به، ولم يؤد حقه، ولم يرعه حق رعايته»[1].

يتضح من الأمثال السابقة أن الله سبحانه ذكر فيها بعض الحيوانات وإن كانت خسيسة وحقيرة، فإنه عز وجل هو الذي خلقها، ويضرب المثل بها وبغيرها؛ لأنه أعلم بها، وأن الكفار لم يستطيعوا خلق بعوضة ولا أصغر منها، فكيف يعترضون على الله تعالى في ضرب الأمثال بها؟

(١) إعلام الموقعين، ١/ ١٣٤.

لمسات اعجازية في خلق الحيوانات

إنّ الناظر، والمتفكر في خلق السموات، والأرض يجد حوله مخلوقات عظيمة من الحيوانات، تدب على وجه الأرض، أو تسبح في قعر البحر، أو تحلق في جو السماء، وأن هذه الحيوانات أمم، وأشكال، وأجناس، وخلق منها الذكر والأنثى.

قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

والمتأمل في الحيوانات يجد أنها موجودة، وأعدادها كثيرة لا يحصيها إلا الذي خلقها سبحانه، والله تعالى رازقها، ويعلم مستقرها، ومستودعها.

قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وتنتشر هذه الدواب في ملكه سبحانه وتعالى، وتسير بأمره، وتأكل، وتشرب من نعمه التي لا تحصى، وتسبح بحمده، وتطيعه، وتعبده حتى تستوفي رزقها، وتستكمل آجالها، والله جعل الإعجاز في خلقها، وتصرفاتها، وطريقة حياتها، ونموها، وتكاثرها، وأعدادها التي تحفظ وجودها بحيث إنه لا تطغى على الأجناس الأخرى، فسبحان الخلاق العليم الذي

يمسك بزمامها، ويزيد وينقص فيها بقدرته وحكمته، ويعطي كل منها من القوى، والخصائص، والوظائف ما يحفظ التوازن بينها.

والكلام عن الإعجاز في خلق الحيوانات طويل، وسأكتفي بذكر ثلاث آيات إضافة لما سبق:

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥].

قال السعدي رحمه الله: «ينبه الله سبحانه عباده على ما يشاهدونه، أنه خلق جميع الدواب التي على وجه الأرض، من ماء، أي: مادتها كلها الماء، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

فالحيوانات التي تتوالد مادتها ماء النطفة، حين يلقح الذكر الأنثى، والحيوانات التي تتولد من الأرض لا تتولد إلا من الرطوبات المائية، كالحشرات لا يوجد منها شيء يتولد من غير ماء أبدًا، فالمادة واحدة، ولكن الخلقة مختلفة من وجوه كثيرة»[1].

والملاحظ أن الحيوانات مادتها واحدة، ولكن كل مخلوق يختلف عن غيره من وجوه كثيرة، فاختلافها مع أن الأصل واحد يدل على مشيئة الله وقدرته، وهذا من مظاهر الإعجاز؛ لأن الناظر إليها يجد أن منها من يمشي على بطنه كالحية، والثعبان، ونحو ذلك، ومنها من يمشي على رجلين كالآدميين، وكثير من الطيور، ومنها من يمشي على أربع كبهيمة الأنعام، ونحوها.

والله سبحانه وتعالى جعل لكل حيوان من الخصائص التي يختلف بها عن غيره، وهدى كل مخلوق لما خلق له، وأعطاه القدرة على ذلك، فمن الحيوانات يعيش في البحر، ومنها يعيش في البر، ومنها يمشي على الأرض، ومنها يطير في الهواء، فسبحان الله الخالق ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

قال ابن القيم رحمه الله: «حقيق على كل عبد أن يستمع قلبه لهذا المثل، ويتدبره حق تدبره، فإنه يقطع مواد الشرك من قلبه، وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده، وإعدام ما يضره، والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق الذباب، ولو اجتمعوا كلهم لخلقه، فكيف ما هو أكبر منه؟ ولا يقدرون على

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٤٧٩.

الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئًا مما عليهم من طيب، ونحوه فيستنقذوه منه، فلا هم قادرون على خلق الذباب الذي هو من أضعف الحيوانات، ولا على الانتصار منه، واسترجاع ما سلبهم إياه، فلا أعجز من هذه الآلهة، ولا أضعف منها، فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله؟

وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله سبحانه في بطلان الشرك، وتجهيل أهله، وتقبيح عقولهم، والشهادة على أن الشيطان قد تلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة حيث أعطوا الإلهية التي من بعض لوازمها القدرة على جميع المقدورات، والإحاطة بجميع المعلومات، والغنى عن جميع المخلوقات، وأن يصمد إلى الرب في جميع الحاجات، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وإجابة الدعوات، فأعطوها صورًا، وتماثيل يمتنع عليها القدرة على أقل مخلوقات الآلهة الحق، وأذلها، وأصغرها وأحقرها، ولو اجتمعوا لذلك، وتعاونوا عليه»[(١)].

وقال ابن القيم أيضًا: «وأدل من ذلك على عجزهم، وانتفاء إلاهيتهم أن هذا الخلق الأقل الأذل العاجز الضعيف لو اختطف منهم شيئًا واستلبه فاجتمعوا على أن يستنقذوه منه لعجزوا عن ذلك، ولم يقدروا عليه، ثم سوى بين العابد، والمعبود في الضعف، والعجز، بقوله: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ قيل: الطالب: العابد، والمطلوب: المعبود فهو عاجز متعلق بعاجز، وقيل: هو تسوية بين السالب، والمسلوب، وهو تسوية بين الإله والذباب في الضعف والعجز، وعلى هذا فقيل: الطالب، الإله الباطل، والمطلوب الذباب يطلب منه ما استلبه منه، وقيل: الطالب: الذباب، والمطلوب: الإله، فالذباب يطلب منه ما يأخذه مما عليه، والصحيح أن اللفظ يتناول الجميع فضعف العابد والمعبود والمستلب والمستلب، فمن جعل هذا إلهًا مع القوي العزيز فما قدره حق قدره، ولا عرفه حق معرفته، ولا عظمه حق تعظيمه»[(٢)].

ولو تأملنا في الآية الكريمة نجد أن القرآن الكريم استخدم تعبير: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾، وفي ذلك لمسة معجزة؛ لأن الذباب يختلس ما يأخذه من أشربة، وأطعمة من الناس اختلاسًا، وينتزعها منهم انتزاعًا على القهر لعجزهم عن مقاومته في أغلب الأحوال[(٣)].

وهذا يدل على استمرار القرآن الكريم في تحديه للإنس، وأنهم عاجزون عن

(١) إعلام الموقعين، ١/ ١٤٦-١٤٧.

(٢) المصدر السابق ١/ ١٤٧.

(٣) انظر: الحيوان في القرآن الكريم، زغلول النجار، ص١٥٦.

خلق الذباب، وليس ذلك فحسب، بل إنهم عاجزون عن استنفاذ ما يسلبه الذباب منهم من طعام، أو شراب، أو غير ذلك، وهذه لمسة إعجازية جاءت في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾.

فالذباب عندما يحط على شيء، فإن كان سائلًا سلب قطرة منه، وأوصلها فورًا إلى جهازه الهضمي فيمتصها، ويحولها إلى جهازه الدوري، ومنه إلى مختلف خلاياه، وإن كانت مادة صلبة صب عليها من لعابه ومن المواد الهاضمة فيفككها، ويذيبها فورًا، فتصل مهضومة إلى جهازه الهضمي، ومنه إلى جهازه الدوري، ثم إلى جميع خلايا الجسم، وعليه فلا سبيل أبدًا إلى استرجاع شيء من ذلك[(1)].

وهناك لمسة إعجازية أخرى في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ لأنه من الثابت أن البشرية كلها عاجزة عن خلق خلية واحدة على الرغم من وجود التقدم العلمي، والتقني المذهل، وغير المسبوق في تاريخ البشرية كلها، ولكنها ضعيفة، وعاجزة عن خلق ذبابة واحدة، وليس ذلك فحسب، بل إنها عاجزة عن استرجاع شيء مما يسلبه الذباب.

وهذ كله يدل على كمال قدرة الله عز وجل في الخلق، فكيف يليق بالمشركين والكافرين عبادة غيره؟ فإذا كان البشر عاجزين وإن كانوا مجتمعين عن استرجاع ما يسلبه الذباب، فعجزهم عن خلق الذباب من باب أولى، وكيف لو طلب منهم أن يخلقوا ما هو أكبر من هذه الحشرة؟ وعليهم أن يستخدموا عقولهم، ويعبدوا الله وحده.

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

قال المراغي في تفسير هذه الآية: «إن سنة البلغاء جرت بوجوب التماثل بين المثل، وما مثّل له، فالعظيم يمثّل له بالعظيم، والحقير يمثل له بالحقير، ألا ترى إلى الإنجيل، وقد مثّل غلّ الصدر بالنّخالة، ومعارضة السفهاء بإثارة الزنابير.

وجاء في عباراتهم: (أجمع من ذرة، وأجرأ من الذباب، وأضعف من بعوضة)، وما الأمثال إلا إبراز للمعاني المقصودة في قالب الأشياء المحسوسة لتأنس بها النفس، وتستنزل الوهم عن معارضة العقل، والحكيم علام الغيوب يعلم حكمة هذا، فلا يترك ضرب المثل بالبعوضة، وما دونها حين تدعو المصلحة إلى ذلك، والناس إزاء هذا فريقان: مؤمنون يقولون: إن اللّه خالق الأشياء حقيرها وعظيمها، فالكل لديه

(١) انظر: المصدر السابق، ص١٦١.

سواء، وكافرون يستهزئون بالأمثال احتقارًا لها، فحقت عليهم كلمة ربهم فأصبحوا من الخاسرين»[(١)].

قال صاحب كتاب القرآن وإعجازه العلمي: «مثل هؤلاء الذين اتخذوا الأصنام آلهة يعبدونها، ويعتمدون عليها، ويرجون نفعها كمثل العنكبوت في اتخاذها بيتًا واهنًا من نسجها لا يغنى عنها في حر، ولا قر، ولا مطر، ولا أذى»[(٢)].

ولفظة (العنكبوت) اسم للواحدة المؤنثة المفردة، والجمع (العناكب)، وهذا من الإعجاز حيث إن ذلك يشير إلى الحياة الفردية لهذه الدويبة فيما عدا لحظات التزاوج، وأوقات فقس البيض، وأما تسمية (النحل)، و(النمل) جاء بالجمع ليدل على الحياة الجماعية لتلك الحشرات[(٣)].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لمسة إعجازية أخرى، فبيت العنكبوت من الناحية المادية أضعف البيوت على الإطلاق؛ لأنه يتكون من خيوط حريرية دقيقة جدًّا، تتشابك مع بعضها تاركة مسافات كبيرة بينها في أغلب الأحيان؛ ولذلك فإنها لا تقي الحر، ولا البرد، ولا تقي من المطر، ولا من الرياح العاصفة، ولا تدفع عنها أخطار المهاجمين، على الرغم من الإعجاز في بنائها.

وبينت الآية أيضًا أن بيت العنكبوت من الناحية المعنوية أوهن بيت على الإطلاق؛ لأنه بيت محروم من معاني المودة والرحمة التي يقوم على أساسها كل بيت؛ لأن الأنثى في بعض أنواع العنكبوت تقتل ذكرها، وتفترسه بمجرد عملية الإخصاب؛ لأنها أكبر حجمًا، وأكثر شراسة منه، وفي بعض الحالات تقوم بأكل صغارها دون أدنى رحمة، وفي بعض أنواع العنكبوت تموت الأنثى بعد إتمام إخصاب بيضها الذي تحتضنه في كيس من الحرير عادة[(٤)].

وقد لاحظ العلماء عند دراسة حياة العناكب أن بيت العنكبوت له شكل هندسي خاص دقيق الصنع، ومقام في مكان مختار له في الزوايا، أو بين غصون الاشجار، وأن كل خيط من خيوط البيت مكون من أربعة خيوط دقيقة، ويخرج كل خيط من الخيوط الأربعة من قناة خاصة في جسم العنكبوت، ولا يقتصر بيت العنكبوت على أنه مأوى يسكن فيه، بل إنه مصيدة تقع في بعض حبائلها اللزجة الحشرات الطائرة مثل الذباب، وغيره لتكون فريسة يتغذى

(١) تفسير المراغي، ١/ ٧١.
(٢) كتاب القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم، ١/ ١٥٧.
(٣) انظر: الحيوان في القرآن الكريم، زغلول النجار، ص١٤٠.
(٤) انظر: المصدر السابق ص١٤٢- ١٤٣.

عليها، فسبحان الله الذى خلق كل شيء، وقدر كيانه تقديرًا، وألهمه حياته تنظيمًا، وتدبيرًا[1].

ولا يحيط بما في العنكبوت، وعالم الحيوانات، والمخلوقات كلها من أسرار إلا الله عز وجل الذي لم يخلقها عبثًا، بل له حكمة بالغة في المشاهد منها، وغير المشاهد، والنافع منها، والضار، فسبحان الله ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

والملاحظ أن الإعجاز في هذه الحيوانات الصغيرة والحقيرة مذهل وعجيب، فكيف لو كان الكلام عن الإعجاز في الحيوانات الكبيرة، والمتأمل في مخلوقات الله تعالى يجد أن في كل مخلوق له آيات تدل على أنه الواحد.

موضوعات ذات صلة

الإنسان، الحشرات، الخلق، الطير، النبات

(١) انظر: القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم، ١/ ١٥٧- ١٥٨.





عناصر الموضوع

مفهوم الخبيث

أولًا: المعنى اللغوي:

خبث الشيء خباثة وخبثًا فهو خبيث، وهم خبثاء وخباث، والخبيث: نعت كل شيء فاسد، وخبيث الطعم، وخبيث اللون وبه خبث، وخباثة وأخبث فهو مخبث إذا صار ذا خبث وشر.

والخبيث: ضد الطيب من الرزق والولد والناس، وقد خبث الشيء خباثة، وخبث الرجل خبثًا، فهو خبيث، وأخبثه غيره، أي: علّمه الخبث وأفسده، وأخبث أي: اتخذ أصحابًا خبثاء، فهو خبيث مخبث ومخبثان، والكفر مخبثة لنفس المنعم، والأخبثان البول والغائط، وشيء خبيث، أي: نجس، والمخبث: الذي يعلم الناس الخبث، ويطلق الخبيث على الحرام كالزنا، وعلى الرديء المستكره طعمه أو ريحه كالثوم والبصل، وعلى الحرام وعلى الكافر، ومنه الخبائث، وهي التي كانت العرب تستخبثها مثل: الحية والعقرب[(١)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الخبيث: هو ما يكره بسبب رداءته وخسته سواء أكان محسوسًا أم معقولًا، وذلك يتناول الباطل في الاعتقاد والتفكير، والكذب في المقال، والقبح في الأفعال والتصرفات[(٢)].

العلاقة بين المعنى اللغوي والمعني الاصطلاحي:

من خلال التعريف اللغوي والتعريف الاصطلاحي للفظ (الخبيث) يتضح لنا بجلاء العلاقة الوثيقة بين المعنيين، حيث إن الخبيث اصطلاحًا تعني المكروه لرداءته وفساده، والخبيث لغة تعني الفاسد والرديء والمحرم والمكروه.

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٤/ ٢٤٨، تهذيب اللغة، الأزهري ٧/ ١٤٦، الصحاح، الجوهري ١/ ٢٨١، مجمل اللغة، ابن فارس ٣١٠، أساس البلاغة، الزمخشري ١/ ٢٢٨.

(٢) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص ١٥٢.



الخبيث في الاستعمال القرآني

وردت مادة (خبث) في القرآن بصيغ متعددة، بلغت(١٦) مرة[١].

والصيغ التي جاءت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿وَالَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف:٥٨]
الصفة المشبهة	١٣	﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٢٦٧]
الجمع	٢	﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]

وجاء الخبيث في الاستعمال القرآني بمعنى: ما يكره رداءة وخساسة، محسوسًا كان أو معقولًا، وذلك يتناول الباطل في الاعتقاد، والكذب في المقال، والقبيح في الفعال[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٢٠٧-٢٠٨.
(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٢٧٠-٢٧١، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٥٢٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الرديء:

الرديء لغة:

الرديء: الدون من الأشياء، والخابث: الرديء من كل شيء، والرديء الفاسد والمنكر والمكروه والوضيع الخسيس، والجمع أردئاء[(١)].

الرديء اصطلاحًا:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي للرديء عن معناه اللغوي.

الصلة بين الرديء والخبيث:

الرديء والخبيث من المترادفات في المعنى، فالرديء هو الخبيث والفاسد.

١ الطيب:

الطيب لغة:

الطيب: الأفضل من كل شيء، والطيب: كل ما تستلذه الحواس أو النفس والطيب الحلال، وكل ما خلا من الأذى والخبث، وهو ضد الخبيث[(٢)].

الطيب اصطلاحًا:

الطيب: لفظ ويراد منه ثلاثة معان: الطاهر، والحلال، والمستلذ[(٣)].

الصلة بين الخبيث والطيب:

الطيب والخبيث ضدان؛ فالطيب طاهر حلال، والخبيث نجس حرام.

١ الفاسد:

الفاسد لغة:

فسد يفسد فسادًا وفسودًا، نقيض صلح، فهو فاسد[(٤)].

(١) انظر: المخصص، ابن سيده ٤/ ٤٥، مختار الصحاح، الرازي، ص١٢١، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١/ ٣٣٧.
(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٤/ ٢٩، تاج العروس، الزبيدي٣/ ٢٨٤، معجم لغة الفقهاء، قلعجي وقنيبي، ص ٢٩٤، القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب، ص٢٣٦.
(٣) انظر: الكليات، الكفوي، ص٥٨٦.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٥٠٣.



الفاسد اصطلاحًا:

«هو خلاف الصحيح، وهو مالا يترتب أثره عليه»[1].

الصلة بين الفاسد والخبيث:

الخبيث أعم، فكل خبيث فاسد، وليس كل فاسد خبيث.

١ النجس:

النجس لغة:

النجس: الشيء القذر حتى من الناس، وكل شيء قذرته فهو نجس[2].

النجس اصطلاحًا:

قال المتولي: «النجاسة في اصطلاح الفقهاء: كل عين حرم تناولها على الإطلاق، مع إمكان التناول لا لحرمتها»[3].

الصلة بين الخبيث والنجس:

الخبيث والنجس من المترادفات أيضًا.

١ الحرام:

الحرام لغةً:

الحرام من حرم، فالحاء والراء والميم أصل واحد، وجمع الحرام حرم، والحرام ضد الحلال، والحرام هو المنع والتشديد[4].

الحرام اصطلاحًا:

هو ما طلب الشارع من المكلف تركه على وجه الإلزام، بحيث يعاقب فاعله ويثاب تاركه[5].

الصلة بين الحرام والخبيث:

إن بين الخبيث والحرام علاقة وثيقة حيث إن الخبيث محرم لخبثه وفساده، فكل خبيث محرم.

(١) القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب، ص ٢٨٥.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٦/ ٥٥.
(٣) المنثور في القواعد الفقهية، الزركشي ٣/ ٢٤٨.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٥.
(٥) انظر: علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف، ص١١٣.

الموصوف بالخبث في القرآن

إنّ الله عز وجل خلق الطيب والخبيث وأمرنا بالطيب ونهانا عن كل خبيث؛ لأن من خلقنا أدرى بنا من أنفسنا، والخبث يكون في الأموال فهناك الحرام والحلال، وهناك الخبيث من الأعمال، والخبيث من الناس الذين يصدون عن الله بكل السبل، وهناك أيضًا الخبيث من المطعم والمشرب.

أولًا: الخبث في الأموال:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

عن البراء بن عازب قال: «نزلت فينا معشر الأنصار، كنا أصحاب نخل، وكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته وقلته، وكان الرجل يأتي بالقنو والقنوين فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو فضربه بعصاه فيسقط البسر والتمر فيأكل، وكان ناس ممن لا يرغب في الخير يأتي الرجل بالقنو فيه الشيص والحشف وبالقنو قد انكسر فيعلقه، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧][1].

إن الكسب ينقسم إلى نوعين: كسب طيب وآخر خبيث، والله عز وجل يأمرنا بالإنفاق من حلالات ما كسبنا من التجارة والصناعة، فإن من شأن المال أن يجعل المرء عبدًا له إن لم يحسن إدارته وأن يعرف الإنسان مقصود المال، وأنه لماذا خلق؟، فلا يحفظ إلا قدر الحاجة، ولا يعطيه من همته فوق ما يستحقه ويجتنب الحرام المحض، ويجتنب الجهات الجالبة للمال المكروهة القادحة في المروءة، كالهدايا التي فيها شوائب الرشوة، وكالسؤال الذي فيه الذلة، وهتك المروءة[2].

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: **(إن هذا المال خضر حلو، فمن أخذه بسخاوة نفس، بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس، لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى)**[3].

فعلى المؤمن أن يتحرى كسبه الطيب،

---

(١) أسباب النزول، الواحدي، ص٨٨.

(٢) انظر: موسوعة فقه القلوب، التويجري ٤/ ٣٢٨٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب تأويل قول الله تعالى: ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾، ٤/ ٥، رقم ٢٧٥٠.

فعن أبي هريرة قال: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ منه، أمن حلال أم من حرام)[(١)].

والآية الكريمة تحثنا على ألا نقصد الخبيث الرديء من أموالنا لننفق منه، فالله أغنى عنه منا، فلا نجعل لله ما نكره، وأن يكون الإنفاق بأفضل الموجود، فلا يكون بالدون والرديء الذي تعافه النفوس، والله غني عن الخبيث الذي يخرجه ضعيف الإيمان واليقين، حميد يحمد الطيب الذي يخرجه الإنسان، ويجزي به عليه جزاء الراضي الشاكر، وهو الذي أعطاه إياه[(٢)].

قال ابن عباس رضي الله عنه: «أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه، ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودنيه -وهو خبيثه- فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا»[(٣)].

وقيل: المقصود من الآية: عدم العدول عن المال الحلال، وقصد الحرام، فتجعل النفقة منه[(٤)].

والمنفقون على قسمين:

الأول: هناك من ينفق ماله رياء لا يبتغي منه وجه الله عز وجل، فهذا لا يثمر خيرًا، وحظ صاحبه منه التعب في كسبه، والحسرة على ضياعه، والعذاب على إنفاقه في غير وجهه.

الثاني: من أنفق ماله ابتغاء مرضاة الله لا يرجو سواه، فهذا يثمر خيرًا، وحظ صاحبه منه الأجر في كسبه، ومضاعفة أجره وماله، وتطهير نفسه وماله، والفوز بالجنة.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

هذه الآية عنى بها جل جلاله أوصياء اليتامى أن يعطوهم ما لهم إذا بلغوا الحلم وأنس منهم الرشد وعدم أخذ الجيد من أموالهم وإعطائهم مكانه الرديء[(٥)].

يقول الطبري رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: ولا تستبدلوا الحرام عليكم من أموالهم بأموالكم[(٦)].

قال سعيد بن المسيب رضي الله عنه: «كان أولياء اليتامى يأخذون الجيد من مال اليتيم ويجعلون مكانه الرديء»[(٧)].

وقد عبر سبحانه وتعالى عن الحلال والحرام بالخبيث والطيب في هذه الآية للتنفير من أكل أموال اليتامى والترغيب فيما

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب من لم يبال من حيث كسب المال، ٣/ ٥٥، رقم ٢٠٥٩.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٣١٠.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٩٧.
(٤) المصدر السابق.
(٥) انظر: الهداية الى بلوغ النهاية، مكي بن أبو طالب ٢/ ١٢١٥.
(٦) انظر: جامع البيان ٧/ ٥٢٥.
(٧) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٥٦٢.

رزقهم الله من الكسب الحلال بالاكتفاء به وعدم التشوف إلى مال اليتيم فإنه ظلم وسحت[1].

واستبدال بالخبيث الطيب ليس فقط في الأموال، فهناك الكثير من الناس من أبدل أطيب الكلام وهو القرآن الكريم، بالخبيث من الأغاني وما تحتويه من كلمات هابطة تخدش الحياء، واستبدلوا قراءة كتاب الله جل جلاله وأكبوا على الجرائد والمجلات والكتب الخليعات، التي تعمل على دمار المجتمع المسلم.

ثانيًا: الخبث في الأعمال:

ليس من الحكمة والعدل التسوية بين الجيد والرديء من الأشياء والأعمال، فلا يتساوى الضار والنافع ولا الفاسد والصالح، ولا الحرام والحلال، ولا الظالم والعادل، فلكل منها حكم يليق به عند الله جل جلاله الذي يضع كل شيء في موضعه بحسب علمه[2]، كما قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]،

قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠].

عن جابر رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله عز وجل حرم عليكم عبادة الأوثان وشرب الخمر والطعن في الأنساب، ألا إن الخمر لعن شاربها وعاصرها وساقيها وبائعها وآكل ثمنها)، فقام إليه أعرابي فقال: يا رسول الله إني كنت رجلًا كانت هذه تجارتي، فاعتقبت من بيع الخمر مالًا، فهل ينفعني ذلك المال إن عملت فيه بطاعة الله؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (إن أنفقته في حج أو جهاد أو صدقة لم يعدل عند الله جناح بعوضة، إن الله لا يقبل إلا الطيب)، فأنزل الله تعالى تصديقًا لقوله صلى الله عليه وسلم ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾)[المائدة: ١٠٠][3].

إنّ مما ترتضيه الفطرة السليمة وتدركه العقول المستقيمة، أن الخير والشر لا يستويان، وأن الخبيث والطيب لا يتساويان، ومن غير المعقول أن تكون الأعمال الطيبة مساوية للأعمال الخبيثة ومعاملة أهل

(١) انظر: روائع البيان تفسير آيات الأحكام، الصابوني ١/ ٤٢٢.

(٢) انظر: تفسير المراغي ٧/ ٣٨.

(٣) أسباب النزول، الواحدي، ص ٢١٠.

الخبيث كمعاملة أهل الطيب، فهذه قوانين عادلة في تسيير هذا الكون، فإنه لا بد من عقاب المسيء، وثواب المحسن، فلا مساواة بين الخير والشر، والله يعاقب على الشر، ويثيب على الخير، ولازم هذه النتيجة أن يحذر الناس فيرجوا ثواب الله عز وجل ويخافوا عقابه[1].

والشجر مثله مثل الناس، ينقسم إلى صنفين: إلى طيب وإلى خبيث، وقد ضرب الله مثلًا للكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، وضرب الله مثلًا للكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٦].

إن شجرة الإيمان أصلها ثابت في قلب المؤمن علمًا واعتقادًا، وفرعها من الكلام الطيب، والعمل الصالح، والأخلاق الحسنة، والأعمال والأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان، هي ما ينتفع به المؤمن، وينفع غيره به في الدنيا والآخرة، وأما شجرة الكفر فهي شجرة خبيثة المأكل والمطعم، كشجرة الحنظل ونحوها، لا عروق تمسكها، ولا ثمرة طيبة تؤكل منها ولا رائحة زكية تشم منها، وكذلك كلمة الكفر والمعاصي ليس لها ثبوت نافع في القلب، ولا تثمر إلا كل قول خبيث، وعمل خبيث، يضر صاحبه ولا ينفعه، ولا يصعد إلى الله منه عمل صالح[2].

ويقول الألوسي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: «وجه تشبيه الكلمة الطيبة بمعنى شهادة أن لا إله إلا الله بهذه الشجرة المنعوتة بما ذكر أن أصل تلك الكلمة ومنشأها وهو الإيمان ثابت في قلوب المؤمنين وما يتفرع منها وينبني عليها من الأعمال الصالحة والأفعال الزكية يصعد إلى السماء، وما يترتب على ذلك من ثواب الله تعالى ورضاه هو الثمرة التي تؤتيها كل حين، ويقال نحو هذا على تقدير أن تكون الكلمة بمعنى آخر فتأمل»[3].

إن الكلمة الطيبة والعمل الطيب والدعوة إلى الله عز وجل كالشجرة الطيبة ثابتة ومثمرة ثابتة لا تزعزعها الأعاصير، ولا تعصف بها رياح الباطل مهما اشتدت وتكالبت، ومهما رأينا واقعًا مريرًا من الظلم والطغيان والتآمر الخبيث على الدعوة الإسلامية التي هي

(١) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٥/ ٢٣٦٨.

(٢) انظر: موسوعة فقه القلوب، التويجري ٢/ ١٣١٦.

(٣) روح المعاني ٧/ ٢٠٢.

أطيب دعوة للحق والخير ونعيم الدنيا والآخرة، وإن خيل للبعض أنها معرضة للخطر الماحق في بعض الأحيان، فهي تظل كالشجرة العالية الثابتة تبقى متعالية، تطل على الشر والظلم والطغيان من عل.

وإن الدعوة الخبيثة وأعمالها من دعوات التحرر من الدين وقيوده -كما يدعون- كالشجرة الخبيثة قد تهيج وتتعالى وتتشابك ويخيل إلى بعض الناس أنها أضخم من الشجرة الطيبة وأقوى، ولكنها في الحقيقة هشة، وتظل جذورها في التربة قريبة تقتلع من أبسط هبة ريح، فلا يبقى لها أثر[1].

ثالثًا: الخبث في الناس:

لقد خلق الله عز وجل عباده على الفطرة السليمة التي ارتضاها لهم، ولكن فطرة البشر شابها ما شابها من عوالق الكفر الشر والخبث، فكان هناك المؤمن والكافر الطيب والخبيث وما جعلت الجنة والنار إلا لتفرق بينهما فهم ليسوا سواء، فيميز الله الكافر والخبيث المستحق للعقاب، ويفرقه ويعزله عن المؤمن الطيّب المستحق للثواب.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۞ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[الأنفال: ٣٦ - ٣٧].

ففي هذه الآية يقول الطبري رحمه الله: إن الله عز وجل يحشر الذين كفروا بربهم، وينفقون أموالهم للصد عن سبيل الله، إلى جهنم، ليفرق بينهم وهم أهل «الخبث» وبين المؤمنين بالله وبرسوله، وهم «الطيبون»، فميز الله سبحانه وتعالى بينهم بأن أسكن الطيبين من المؤمنين جناته، وأنزل أهل الكفر ناره[2].

إذن فالناس هنا في الإنفاق على نوعين:

- هناك من ينفق أموالًا طائلة في الصد عن سبيل الله ولإغراق العالم الإسلامي في اللهو والغناء والفسق والفجور.
- وهناك من ينفق أمواله في الحق والجهاد وفي الحركة للقضاء على الباطل وأهله.

فبهذا الاحتكاك المرير، تتكشف الطباع، ويتميز الحق من الباطل، كما يتميز أهل الحق من أهل الباطل[3].

وفي سياق هذه الآية يجدد كتاب الله مرة أخرى بيان الحكمة الإلهية في ابتلاء المؤمنين وتمحيصهم بالنكبات والتضحيات، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[آل عمران: ١٧٩].

---

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٩٨.

(٢) انظر: جامع البيان ١٣/ ٥٣٤.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٥٠٧.

ففي مثل هذه الوقائع والمواقف الصعبة ترفع الحجب وتهتك الأستار عن الخبيث من الناس.

قال مجاهد: «ميز بينهم يوم أحد»، وقال قتادة: «ميز بينهم بالهجرة والجهاد»[(١)].

واختلف المفسرون؛ من المخاطب بالآية على أقوال: قيل: الخطاب للمؤمنين والمنافقين، وقيل: الخطاب للمشركين والمراد بالمؤمنين، وقيل: الخطاب للمؤمنين، والخطاب عند جمهور المفسرين للكفار والمنافقين، أي: ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه من الكفر والنفاق حتى يميز الخبيث من الطيب، قاله ابن عباس والضحاك ومقاتل والكلبي[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤].

لقد من الله جل جلاله على سيدنا لوط عليه السلام بأن آتاه الله سبحانه وتعالى الحكمة في فصل القضاء بين الخصوم، وكذلك علمًا بأمر دينه، وما يجب عليه لله من فرائضه.

وكان الله عز وجل قد بعثه لقرية اسمها سدوم، وكان أهلها خبثاء يعملون الخبائث، فنجاه الله من عذابه الذي أحلّه بأهل القرية التي كانت تعمل الخبائث من إتيان الذكران في أدبارهم، وخذفهم الناس، وتضارطهم في أنديتهم، مع أشياء أخر كانوا يعملونها من المنكر، فعاقبهم الله عز وجل بالعذاب الشديد في الدنيا قبل الآخرة، وأكرم الله عز وجل لوطًا عليه السلام في الدنيا بإنقاذه من أهل السوء وأعمالهم، وفي الآخرة بالجنة[(٣)].

وفي قوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦].

يشير جل جلاله إلى مبدأ هام من مبادئ الحياة الاجتماعية، وهو أن النفوس الخبيثة لا تلتئم إلا مع النفوس الخبيثة من مثلها، والنفوس الطيبة لا تمتزج إلا بالنفوس الطيبة من مثلها، فالله عز وجل جعل الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء.

وهذه الآية نزلت في حادثة الإفك حين اتهموا السيدة عائشة رضي الله عنها بالفحش، والمعنى ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهي طيبة؛ لأنه أطيب من كل طيب من

(١) انظر: فتح البيان، القنوجي ٢/ ٣٨٥.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٨٨، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٤٦٣.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٤٧٢.

البشر، ولو كانت خبيثة لما صلحت له، لا شرعًا ولا قدرًا، فكل طيب له ما يوافقه وكل خبيث له ما يوافقه[1].

ومن منطلق هذه الآية فقد اشترط الفقهاء التكافؤ بين الأزواج، والمقصود أن يكون الزوجان متقاربين في كل شيء تقريبًا، والكفاءة تكون أيضًا في الطيبة أو الخبث، فلا يأتي واحد بامرأة خبيثة ويزوجها لرجل طيب كي لا تتعبه، ولا يأتي واحد برجل خبيث ويزوجه بامرأة طيبة كي لا يتعبها؛ لأن الطيب عندما يتزوج طيبة تريحه وتقدره، وكذلك الخبيث عندما يتزوج خبيثة فإنهما يتوافقان في الطباع والسلوك، وفي هذا توازن، والخبيث إن لم يخجل من الفضيحة، فالخبيثة لا تخجل منها أيضًا، أما الطيب والطيبة فكلاهما يخشى على مشاعر الآخر ويحافظ على كرامته[2].

رابعًا: الخبث في الأماكن:

وكما أن الخبث في الناس والأموال والأعمال فهناك أيضًا خبث في الأماكن.

قال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].

والمقصود في هذه الآية الأرض الطيبة والتربة السهلة السمحة الكريمة، التربة التي يخرج نباتها إذا أصابها المطر بإذن الله سبحانه وتعالى فتخرج نباتًا حسنًا غزير النفع، والبلد الذي خبث أرضه فهي سبخة لا تنتفع بالمطر لا يخرج نباته إلا عسرًا بمشقة وكلفة[3].

قال ابن عباس رضي الله عنه: «هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن يقول: هو طيب وعمله طيب، كما أن البلد الطيب ثمره طيب، ثم ضرب مثل للكافر كالبلدة السبخة المالحة التي خرجت منها البركة، فالكافر خبيث وعمله خبيث»[4].

ويقول العز بن عبدالسلام رحمه الله في تفسيره: قال بعض أرباب القلوب: الذي خبث من القلوب لا يخرج إلا نكدًا بالكفر والمعاصي، والجمهور على أنه من بلاد الأرض الطيب التربة والرخيص السعر، أو الكثير من العلماء، أو العادل سلطانه، وضرب الله سبحانه وتعالى الأرض الخبيثة مثلًا للكافر، الذي خبث في تربته، أو بغلاء أسعاره، أو بجور سلطانه، أو قلة علمائه فلا ينتفع به، لشدة تعسره فلا خير فيه[5].

ومن الأماكن الخبيثة والتي تحب الشياطين المكث فيها:

- البيوت الخربة التي لا يذكر الله عز

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٤.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ٥/ ٢٦٨٣.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢١٣.
(٤) المصدر السابق.
(٥) انظر: تفسير القرآن ١/ ٤٨٧.

وجل فيها، ولا تتلى فيها آياته، ولا تقام فيها الصلوات، ويعصى الله فيها جهارًا نهارًا، فيكون أصحابها كالأموات، وقد أوصانا رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم قائلًا: (لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة)(١). والمؤمن إذا رجع لبيته وذكر اسم الله وسلم على أهله، حضرت الملائكة وتنحى الشيطان، وأما المفرط إذا دخل بيته ولم يذكر الله وغنى وطرب، فقد آوى إلى بيته الخبث كله من الشياطين، وأصبح هذا المكان خبيثًا، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا دخل الرجل بيته، فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم، ولا عشاء، وإذا دخل، فلم يذكر الله عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه، قال: أدركتم المبيت والعشاء)(٢). وكل مكان يجتمع فيه شياطين الإنس والجن للفسوق والفجور من الملاهي الليلية وأماكن الرقص وشرب الخمر ولعب الميسر هي أماكن خبيثة.

❁ أماكن قضاء الحاجة، ولما كانت الشياطين خبيثة فإنها تألف مثل هذه الأماكن الخبيثة، قال تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ﴾ [النور: ٢٦]. ولذلك تحضر الشياطين الأماكن التي يقضي فيها الإنسان حاجته، وتريد إتباع الأذية والضرر به.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء قال: (اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث)(٣).

وفائدة هذه الاستعاذة: الالتجاء إلى الله عز وجل من الخبث والخبائث؛ لأن مثل هذه الأماكن خبيثة، والخبيث مأوى الخبثاء فهو مأوى للشياطين، فإذا أراد الشخص دخول الخلاء قال: (أعوذ بالله من الخبث والخبائث) حتى لا يصيبه الخبث وهو الشر، ولا الخبائث وهي النفوس الشريرة(٤).

خامسًا: الخبث في المطعومات والمشروبات:

لقد أحل القرآن الكريم أصنافًا من

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، وجوازها في المسجد، ١/ ٥٣٩، رقم ٧٨٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الاشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما، ٣/ ١٥٩٨، رقم ٢٠١٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب ما يقول عند الخلاء، ١/ ٤٠، رقم ١٤٢.

(٤) انظر: الشرح الممتع على زاد المستقنع، ابن عثيمين ١/ ١٠٥.

الأطعمة والأشربة ووصفها بالطيبة، كما حرم أصنافًا أخرى ووصفها بالخبث، وقد أثبت العلم الحديث أن كل الأطعمة والأشربة التي أحلها القرآن الكريم، واعتبرها رزقًا طيبًا، مفيدة للإنسان جسدًا وروحًا، وأن الأطعمة التي حرمها مضرة للإنسان جسدًا وروحًا كذلك.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة: ١٧٢ - ١٧٣].

فالله جل جلاله أمرنا بأكل الحلال الطيب الذي تستطيبه النفس من حلال الرزق الذي أحله الله لنا، وشكره والثناء عليه على النعم التي أنعم بها علينا منقادين لأمره سامعين مطيعين، فلا نحرم ما أحل الله ولا نحلل ما حرم عز وجل، وقد كان الناس في الجاهلية يحرمون بعض المطاعم طاعة منهم للشيطان، واتباعًا لأهل الكفر بالله من الآباء والأسلاف.(١)

ثم بين لهم سبحانه وتعالى ما حرم عليهم، وفصله لهم، قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾[المائدة: ٣].

أحلّ الله الطّيبات النافعة غير المحرّمات العشر المستخبثات وهي:

الميتة: وهي ما مات من الحيوان حتف أنفه، من غير ذبح ولا اصطياد، ما عدا ميتة السمك والجراد.

الدّم: وهو الدّم المسفوح السائل، لا الجامد كالكبد والطحال.

لحم الخنزير وشحمه وجلده وعظمه: وتحريمه لأنه حيوان قذر لا يأكل إلا القاذورات والفضلات العفنة.

ما ذبح وذكر عليه اسم غير الله عز وجل.

المنخنقة: وهي التي تموت خنقًا، وهو حبس النّفس في الحلقوم، فهي نوع من الميتة.

الموقوذة: وهي التي تضرب بشيء ثقيل غير محدد كالعصا أو الحجر أو الحصاة حتى تموت بلا ذكاة شرعية.

المتردّية: هي ما سقطت من مكان عال كجبل أو سطح، أو الهاوية في بئر.

النّطيحة: وهي التي نطحتها بهيمة أخرى، فماتت، وهي حرام كالميتة.

ما أكل السّبع: وهي التي افترسها حيوان كالذئب والنّمر والسّبع، فتموت، فلا تؤكل لأنها ميتة، وتأنفها الطّباع.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٣١٧.

ما ذبح على النّصب: أي الحجارة التي كانت حول الكعبة لا يؤكل؛ لأنه مما ذكر اسم غير الله عليه[(١)].

فهذه الأطعمة خبيثة محرمة لا يجوز للمؤمن أكلها إلا إذا كان مضطرًا لذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النحل: ١١٤- ١١٥].

قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

من رحمات الله عز وجل بعباده الرحمة التي وعد في إحلال الطيبات التي حرمت عليهم بشؤم ظلمهم، ويحرم عليهم الخبائث كالدم ولحم الخنزير والربا والرشوة، ويخفف عنهم ما كلفوه من التكاليف الشاقة التي هي من قبيل ما كتب عليهم حينئذ[(٢)].

فثبت أن الله جل جلاله أحل ما هو طيب في نفسه قبل الحل، فكساه بإحلاله طيبًا آخر، فصار منشأ طيبه من الوجهين معًا فعند تأمل هذا الموضع حق التأمل نجد أسرار الشريعة، ونرى محاسنها وكمالها وبهجتها وجلالها[(٣)].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[المائدة: ٩٠].

الخمر هو المتّخذ من ماء العنب النّيء، وتشمل كل شراب مسكر خامر العقل وغطّاه، ووصف الله عز وجل هذا النوع من المشروبات بالرجس، ويقال للنتن والعذرة والأقذار: رجس، يحمله الشيطان ويزينه للعباد؛ لتضليلهم وجرهم إلى ما حرم سبحانه وتعالى، فأمرنا باجتنابه وإبعاده وجعله في منأى عنا، واقترنت صيغة الأمر مع نصوص الأحاديث وإجماع الأمة، فحصل الاجتناب في جهة التحريم، فبهذا حرمت الخمر، وقد مرّ تحريم الخمر للتّرويض وبالتدريج في مراحل أربع، ولا خلاف بين علماء المسلمين أن هذه الآية نزلت بتحريم الخمر بشكل قاطع[(٤)].

وهذه الآية جمعت أسباب تحريم الخمر وكذلك الميسر والأزلام وهي:

- وصفت بكونها رجسًا، أي: قذرًا، حسًّا ومعنى، عقلًا وشرعًا.
- أنها من عمل الشيطان وذلك غاية القبح.
- أمر الله سبحانه وتعالى باجتنابها،

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٠.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٧٩.
(٣) انظر: التفسير القيم، ابن القيم، ص ٢٨٩.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٢٨٧.

والأمر بالاجتناب أشدّ تنفيرًا من مجرد النّهي عنها أو القول بأنها حرام، فهو يفيد الحرمة وزيادة وهو التنفير.

- جعل الله جل جلاله اجتنابها سببًا للفرح والفوز والنجاة في الآخرة[1].

بين الطيب والخبيث

اقتضت حكمة الله جل جلاله البالغة أن لا يجعل أمر هذا الدّين إلا في أيدي صفوته من عباده، وأمر هذا الدّين هو أخذه بحقه، ولو كره الكافرون.

وحتّى يكون هذا كان لا بدّ من سنة ربانية لا تتخلّف، وهي سنّة التمييز والتمايز، فالله سبحانه وتعالى هو العليم بعباده وما في قلوبهم، هو الخبير بمن خلق، ولكن تحقّق سنة التمايز التي لا تظهر للناس إلا في حال الابتلاء والمحن، فيظهر وقتها المعدن الحقيقي للأشياء من حولنا.

أولًا: تمييز الخبيث من الطيب:

لا بد أن يعقد الله سببًا من المحنة، يظهر فيه وليه، ويفتضح فيه عدوه، يعرف به المؤمن الصابر، والمنافق الفاجر، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩].

يقول الطبري رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: إن الله ما كان ليدع المؤمنين على ما هم من التباس المؤمن منهم بالمنافق، فلا يعرف هذا المنافق المستتر بالكفر من المؤمن المخلص الصادق الإيمان إلا بالمحن والاختبار، كما ميز بينهم يوم أحد عند لقاء العدو عند خروجهم إليهم يوم أحد،

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٤٩٦.

فبالمحن والابتلاء ظهر المؤمنون بإيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله وظهر المنافقون بمخالفتهم ونكوثهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله[1].

إنّ هناك الطيب من الأفعال وخبيثها، ومن البشر كذلك قد يكون ظاهرًا وقد يكون مستترًا، وليس من سنة الله في أرضه أن تكون ظاهر الأعمال في كلّ الأحوال محل تعمية على الناس، فلا يستطيعون معها التفريق بين مؤمن ومنافق وبين طائعٍ وعاصٍ[2].

فالله يمحص ويبتلي عباده لتكون راية الحق خفاقة بأيدي طاهرة نقية ولا يصل إلى ذلك المبتغى إلا من نقّاهم الله سبحانه من الخبث وتوطّدت نفوسهم على الطيّب فقط، وصدّق ذلك كلّه أفعالهم ومواقفهم في عسرهم ويسرهم، في راحتهم كما في أزماتهم، في صغائر أمورهم وعظائمها.

ومعنى التمييز هو التفريق بين المتشابهات في بعض المظاهر ولكنها مختلفة في الحقيقة، فقد يكون الحق متلبسًا بالباطل والعكس صحيح، فيأتي الابتلاء والتمحيص مرة أخرى، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٦٦ - ١٦٧].

ففي هذ الآية تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، ومواساة لهم فيما أصابهم، فالمؤمن يرضى ويسلم بما قضاه الله وقدره.

فهذا البلاء من القتل والجرح والهزيمة ما كان إلا ليظهر المؤمن الصادق من غيره بثبوتهم في القتال والصد في سبيل الله، وليميز الله الخبيث من الطيب فأظهر الحق سبحانه الغير الصادقين في الإيمان، وذلك بإظهارهم الشماتة، فقد كشفهم الله في هذه الموقعة، وميز الصف الإسلامي منهم وقرر حقيقة موقفهم يومذاك، فقال الحق سبحانه: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [آل عمران: ١٦٧][3].

فأصبح من الواضح أن من لوازم التمايز في الجماعة الابتلاء، فإن التمايز هنا تحقيق لسنة الخالق استخراجًا للخبيث من بين الطيّب لينبذه لتعود الصحّة والعافية للجماعة على وجه أفضل وأسلم مما كانت عليه.

وهنا وقف المسلمون موقفا عظيمًا تشيب من هوله الولدان، وتتحطّم فيه الرجولة الزائفة وينكشف عوارها، كان موقفًا لا يصمد فيه إلا من أخلص لله وباع نفسه فيه لله.

(١) انظر: جامع البيان ٧/ ٤٢٤.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٧٣.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٦٥.

يصف الله سبحانه وتعالى ذاك الموقف العظيم في كتابه العظيم فيقول: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ⑩ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ⑪ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ⑫﴾ [الأحزاب: ١٠ - ١٢].

لقد اختبر المؤمنون بالحصر والقتال ليتبين المخلصون من المنافقين وبين الله موقف المنافقين وتربصهم الدوائر بالمسلمين، وانتحالهم الأعذار، واختلاق المبررات للتراجع والفرار، في انتظار النتيجة التي يتوقعون أن تكون على المسلمين لا لهم، فابتلي المؤمنون بهذه الفتنة العظيمة بالخوف والقلق، والجوع، ليتبين إيمانهم، ويزيد إيقانهم، وهنالك تبين نفاق المنافقين، وظهر ما كانوا يضمرون، هذه عادة المنافق عند الشدة والمحنة، لا يثبت إيمانه، وينظر بعقله القاصر [(١)].

فهو امتحان عظيم، وابتلاء عزّ نظيره، غير أنه سنّة من ربّ العباد ليصفّي من خلاله أهل دينه من كلّ خبثٍ وخبيث، وليحصل التمييز عند المسلمين وعند الناس بين عباد الله الذين استقاموا على أمره، وبين من كان ثبوتهم على أمر الله مجرّد زعمٍ وادّعاء لم يجاوز حلاقيمهم فيفضحهم الله عز وجل في كتابه العزيز بقولهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

وموقفهم هذا فيه ما فيه من الخبث الكامن في نفوسهم، وتخذيل المسلمين في هذا الموقف الحرج العصيب، غير أن حالهم هذا لم يكن له أثر في قلوبٍ آمنت بربها، فقال عنهم ربّ العالمين على لسانهم: ﴿قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٢٢] [(٢)].

لقد كثرت الفتن، وذلك لكثرة مدعي الإيمان المنطوين تحت لواء الإسلام، وهم كغثاء السيل في الكثرة ولكنهم قلة في نصرة دينه وإعلاء كلمته والجهاد في مرضاته، فيأبى الله إلا أن يظهر الحقائق ويبتلي السرائر ويميز الخبيث من الطيب.

قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢ - ٣].

قال ابن عباس رضي الله عنه وغيره: المراد: قوم من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم بسبب إسلامهم، كسلمة بن هشام وعياش بن أبي

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٦٦٠.

(٢) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٢٣٩.

ربيعة والوليد بن الوليد وعمار بن ياسر وياسر أبوه وسمية أمه وعدة من بني مخزوم وغيرهم، فكانت صدورهم تضيق لذلك، وربما استنكروا أن يمكن الله الكفار من المؤمنين[(١)].

قال مجاهد رحمه الله وغيره: نزلت هذه الآية مسلية ومعلمة لهم أن هذه هي سيرة الله في عباده اختبارًا وتمحيصًا للمؤمنين[(٢)].

فسنّة الله في أي دعوة صادقة خالصة أن يتعرض أصحابها للمحن والابتلاءات لكي تنقى من خبثها ولا يبقى فيها إلا الطيب، إن هذا شأن السالكين إلى الله في كل زمان ومكان فلابد في هذا الطريق أن يصقله الابتلاء وأن تظهر معدنه المحنة.

وعن هذا يقول سيد قطب رحمه الله: «إن ذهاب الباطل ناجيًا في معركة من المعارك وبقاءه منتفشًا فترة من الزمان، ليس معناه أن الله تاركه، أو أنه من القوة بحيث لا يغلب، أو بحيث يضر الحق ضررًا باقيًا قاضيًا، وإن ذهاب الحق مبتلى في معركة من المعارك، وبقاءه ضعيف الحول فترة من الزمان، ليس معناه أن الله مجافيه أو ناسيه! أو أنه متروك للباطل يقتله ويرديه، كلا إنما هي حكمة وتدبير هنا وهناك يملي للباطل ليمضي إلى نهاية الطريق وليرتكب أبشع الآثام، وليحمل أثقل الأوزار، ولينال أشد العذاب باستحقاق! ويبتلى الحق، ليميز الخبيث من الطيب، ويعظم الأجر لمن يمضي مع الابتلاء ويثبت، فهو الكسب للحق والخسار للباطل، مضاعفًا هذا وذاك! هنا وهناك!»[(٣)].

ثانيًا: الخلط بين الخبيث والطيب:

إن الطيب والخبيث وإن كانا في بعض الأوقات غير معروفين وغير ظاهرين، ولكن في الكثير من الأوقات يكون أحدهما معروفًا يمكن التمييز بينهما، فالحرام بيّن والحلال بيّن، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(الحلال بين، والحرام بين، وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات: كراع يرعى حول الحمى، يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه)**[(٤)].

في الحديث دلالة على أن الأشياء من حيث الحكم ثلاثة أقسام:

١. حلال خالص لا شبهة فيه، كالملابس والمطاعم والمراكب المباحة.

٢. حرام خالص لا شبهة فيه، كشرب الخمر والربا والزنا وأكل مال اليتيم

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٢٣.

(٢) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٢٨٦.

(٣) في ظلال القرآن ١/ ٥٢٢.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ١/ ٢٠، رقم ٥٢.

ونحوها مما نص الشرع على تحريمه.

٣. مشتبه بين الحلال والحرام، كالمعاملات والمطاعم التي يتردد الناس في حكمها ويختلط الأمر عليهم.

وقد نهانا الله عن استبدال وخلط أموال اليتامى، فقال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

فقد كانوا في الجاهلية لعدم الدين لا يتحرجون عن أموال اليتامى، فيأخذون أموال اليتامى ويبدلونها بأموالهم، ويقولون: اسم باسم ورأس برأس، مثل أن يكون لليتيم مائة شاة جياد فيبدلونها بمائة شاة هزلى لهم، ويقولون: مائة بمائة؛ فنهاهم الله عنها[(١)].

فالآية الكريمة تحذر من جمع وضم وخلط أموال اليتامى مع أموال الوصي عليهم، وعدم استبدال الحرام وهو مال اليتامى بالحلال وهو مالهم الخاص فيأكلوها جميعًا فهذا ذنبٌ عظيم، فإن اليتيم بحاجة إلى رعاية وحماية؛ لأنه ضعيف، وظلم الضعيف ذنب عظيم عند الله[(٢)].

قال سعيد بن جبير: «لا تبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم، يقول: لا تبذروا أموالكم الحلال وتأكلوا أموالهم الحرام»[(٣)].

(١) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٤٠٣.

(٢) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٢٣٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٠٧.

قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

لقد كان الناس في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع طبقات:

الأولى: المؤمنون من الأنصار والمهاجرين الذين أخلصوا لله عز وجل.

الثانية: الكفار الذين أبوا إلا الكفر والعناد.

الثالثة: المنافقون الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر والحقد على المسلمين.

الرابعة: وآخرون خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا، ولم يتم انطباعهم بالطابع الإسلامي ولم يصهروا في بوتقة الإسلام تمامًا.

وتقرر الآية الكريمة كيفية التعامل في المجتمع المسلم، وتوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلص من المسلمين إلى طريقة التعامل مع كل منهم[(٤)].

وتبين الآيات أن الأشقياء نوعان: كفار ومنافقون.

فذكر الكفار بقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الحديد: ١٩].

وذكر المنافقين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ

(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٥٦٨.

﴿لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

أما المخلط فليس من الكفار الذين قطع لهم بالعذاب، ولكنه بين الجنة والنار، واقف بين الوعد والوعيد، كل منهما يدعوه إلى موجبه، لأنه أتى بسببه، فعسى الله أن يتوب عليهم[١].

وقال ابن عباس رضي الله عنه عن هذه الآية: هي في الأعراب، وهي عامة في الأمة إلى يوم القيامة فيمن له أعمال صالحة وسيئة، فهي آية ترج على هذا[٢].

فقد يخلط المرء بين الحرام والحلال وبين الصاح والطالح وبين الخبيث والطيب، ولكن ما يلبث الحق أن ينير بصيرة المؤمن ويوجهه إلى الصواب إلى ما يرضي الله سبحانه وتعالى.

ثالثًا: نفي المساواة بين الخبيث والطيب:

قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠].

هذه الآية حكم عام في نفي المساواة عند الله عز وجل بين الرديء من الأشخاص والأعمال والأموال وبين جيّدها، قصد به الترغيب في جيد كل منها والتحذير عن الرديء منها[٣].

فهذه الآية خطاب الله عز وجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، آمرًا له أن ينبه الناس إلى أن الخبيث والطيب لا يستويان عند الله في شيء، فالخير والشر لا يستويان، فلا يمكن أن يكون معاملة أهل الخبيث كمعاملة أهل الطيب، فهذا ما لا ترتضيه الفطرة السليمة وتدركه العقول المستقيمة، ويلفت نظر الإنسان أيًا كان وحيثما كان، ومجرد الاستلذاذ بالخبيث والإعجاب به لا يقف في وجه هذه الحقيقة الناصعة.

فقد يكون الخبيث جذابًا وبراقًا ومثيرًا، ولكنه في جوهره خبيث، وفي أثره خبيث، ولن يقف الخبيث مع الطيب على قدم المساواة بأي وجه من الوجوه.

وقد يكون الطيب قليلًا غير براق أو مثيرًا وأقل وزنًا وحظًا في الدنيا من الخبيث، فالطيب أوزن منه في الآخرة.

وإن كان مآل الطيب إلى الجنة، فإن مآل الخبيث إلى النار.

وإذا كان منفق المال الخبيث يعتبر إنفاقه هباء منثورًا، فمنفق المال الطيب يظل إنفاقه ثابتًا، هذا إلى ما يترتب على تناول كل من الطيب والخبيث، وعلى ممارسة كل من

(١) انظر: موسوعة فقه القلوب، التويجري ٢/ ١٢٢٤.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٧٧.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٨٣.

الطيبات والخبائث، من الآثار النفسية والأخلاقية، الفردية والاجتماعية، مما يجعل سلوك الطيبين رحمة لهم وللناس، وسلوك الخبيثين نقمة عليهم قبل أن يكون على بقية الناس، فإن الله طيّبٌ لا يقبل إلا طيبًا[(١)].

ولذا عقب عز وجل بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وذلك بجعل أنفسنا وقاية من عقاب الله، فهو خطاب لأصحاب العقول السليمة، بفعل الطيب من الأعمال وترك خبيثها؛ للفوز برضوان الله، والنجاة من غضبه وعقابه.

فمن حكمة الله سبحانه وتعالى أن خلق المتضادات في هذه الحياة ليتم الابتلاء والامتحان للعباد، وهذا يشمل الخبيث من الأشخاص، والخبيث من الأعمال، والخبيث من الأقوال، والخبيث من الأموال، والخبيث من المآكل والمشارب، فلا يستوي الخبيث والطيب من هذه الأشياء ولا من غيرها على الإطلاق.

فلا يستوي الخبيث والطيب من الأشخاص، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨].

ثم بين الله عز وجل مصير كل من المؤمن والفاسق، قال تعالى: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ١٩ - ٢٠].

وليس من يعمل الصالحات كمن يمشي فسادًا في الأرض، قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]. و قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥ - ٣٦].

كما لا يستوي أصحاب الجنة وأصحاب النار، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

لا يستوي الخبيث والطيب من الأعمال، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ [فصلت: ٣٤].

كذلك لا يستوي الخبيث والطيب من الأقوال، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا

(١) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٥/٢٣٦٨.



﴿كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤- ٢٦].

ولا يستوي الخبيث والطيب من الأطعمة والأشربة، فقد أحل الله الطيبات وحرّم الخبائث، قال الله تعالى في وصف رسوله عليه السلام: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾[الأعراف: ٥٧].

ولا يمكن أن يستوي الإنسان الذي يعمل بالمبادئ الأخلاقية والذي لا يعمل بها، ولا يستوي الذي يعمل الخير والذي يعمل الشر، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ [المائدة: ١٠٠].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[الانفطار: ١٣ - ١٤].

إن الإنسان الذي يعمل بمقتضى القيم الأخلاقية لا تزيد قيمته ودرجته وجزاؤه عند الله فحسب، بل تزيد قيمته الإنسانية بين الناس فيكون له الشرف والمكانة الأدبية في المجتمع، فيجد القبول والاهتمام به والمودة والتقدير من الناس، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[مريم: ٩٦].

الاغترار بكثرة الخبيث

لا يعني كثرة الشيء أنه هو الجيد دومًا وهو المطلوب، فقد ذم القرآن الكريم الكثرة في كثير من آياته وامتدح القلة، وهذه بعض الأمثلة على ذم الكثير وعدم اعتباره:

قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[يوسف: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾[الصافات: ٧١].

وقال تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[يوسف: ١٠٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾[الإسراء: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[البقرة: ٢٤٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر: ٦١].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

كما امتدح الله عز وجل القلة في كثير من الأشياء:

وقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ [ص: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠].

يقول الشيخ ابن سعدي رحمه الله: «ودلت هذه الآية على أنه لا يستدل على الحق بكثرة أهله، ولا تدل قلة السالكين لأمر من الأمور أن يكون غير الحق، بل الواقع بخلاف ذلك، فإن أهل الحق هم الأقلون عددًا، الأعظمون عند الله قدرًا وأجرًا»[1].

وإذا كانت كثرة الخبيث تغر وتعجب ففي الطيب متاع بلا معقبات من ندم أو تلف، وبلا عراقيل من ألم أو مرض، وما في الخبيث من لذة إلا وفي الطيب مثلها، بل أحسن منها على اعتدال وأمن من العاقبة في الدنيا والآخرة.

ولو أثار أنفسنا وأعجبنا واسترعى أنظارنا كون الخبيث كثيرًا، إن الشر مهما يكثر لا يمكن أن يستحسن شرعًا أو ترضى به الأخلاق، ولا يمكن أن ينقلب بالكثرة مساويًا للخير بل إنه كلما كثر، وجبت مقاومته، بشدة وبمقدار كثرته، تكون شدة المقاومة، وذلك فرق ما بين شريعة الله سبحانه وتعالى وقوانين العباد، فإن قوانين العباد، تستمد قوتها من الكثرة، وعرف الناس، ولو كان فاسدًا، أما شريعة الله، فهي للخير المحض، وإذا كثر الشر لا تتبعه، بل تقاومه، ولا ترضى به، لأنها جاءت لنشر الخير، والعقل حين يتخلص من الهوى بمخالطة التقوى له ورقاقة القلب له، يختار الطيب على الخبيث فينتهي الأمر إلى الفلاح في الدنيا والآخرة ولا يمكن أن ترضى، وإلا ما كانت رسالات الرسل، ولا جهاد الأنبياء والصديقين والشهداء الصالحين، ولذلك

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٢٧٠.

أمر سبحانه بمقاومة الشر مهما كثر[1].

كثيرًا ما يستدل أغلب الناس ممن قل فقهه على الحق بكثرة أهله، ويظنون أن الصواب يعرف بكثرة الجمهور والأتباع لرجل ما، وقد قيل: «الرجال يعرفون بالحق لا الحق يعرف بالرجال».

يقول ابن عاشور رحمه الله عن هذه الآية: فكان الخبيث المقصود في الآية شيئًا تلبّس بالكثرة، فراق في أعين الناظرين لكثرته، ففتح أعينهم للتأمّل فيه ليعلموا خبثه ولا تعجبهم كثرته.

والمخاطب بهذه الآية غير معيّن بل كلّ من يصلح للخطاب، وليس المقصود بهذه الآية أنّ كلّ خبيث يكون كثيرًا، ولا أن يكون أكثر من الطيّب من جنسه، فإنّ طيّب التمر والبرّ والثمار أكثر من خبيثها، وإنّما المراد أن لا تعجبكم من الخبيث كثرته إذا كان كثيرًا فتصرفكم عن التأمّل من خبثه وتحدوكم إلى متابعته لكثرته، ولكن انظروا إلى الأشياء بصفاتها ومعانيها لا بأشكالها ومبانيها، أو كثرة الخبيث في ذلك الوقت بوفرة أهل الملل الضالّة[2].

فالخبيث والطيب لا يتساويان في ميزان العدل الإلهي في الدنيا وفي الآخرة، فقليل حلال طيب خير من كثير حرام ضار، لهذا لا يجوز الاغترار بالخبيث ولو كثر وعم، وفي هذا تثبيت للمؤمنين على ما ابتلوا به من كثرة الخبائث وانتشارها وسطوة أهله وتجبرهم.

فمهما يكثر الخبيث وينتشر صيته فيبقى خبيثًا غير مستساغ لدى النفوس الطيبة الطاهرة، ولا تقبله الفطرة السليمة، وليس كل ما يلمع ذهبًا.

ودائما أصحاب العقول السليمة هم المخاطبون بالتوجيهات الربانية فالعقل السليم والفطرة النقية لا تتعارض مع النصوص الإلهية ، وقد قال عز وجل: ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[المائدة: ١٠٠].

فمن الواجب على كل ذي لب يميز الخبيث من الطيب، ويقضي بأن الطيب خير من الخبيث، وأن من الواجب على الإنسان أن يجتهد في إسعاد حياته، ويختار الخير على الشر أن يتقي الله ربه بسلوك سبيله، ولا يغتر بانكباب الكثيرين من الناس على خبائث الأعمال ومهلكات الأخلاق والأحوال، ولا يصرفه الأهواء عن اتباع الحق بتولية أو تهويل لعله يفلح بركوب السعادة الإنسانية حتى ولو كان غريبًا وسط هذه الفتن.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(طوبى للغرباء، طوبى للغرباء، طوبى للغرباء)، فقيل: من الغرباء يا رسول الله؟**

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٩٨٣.
(٢) انظر: التحرير والتنوير ٧/ ٦٣.

قال: (ناس صالحون في ناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم)[(١)].

(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، ١١/ ٦٤٤، رقم ٧٠٧٢، وابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الزهد، ما ذكر عن نبينا صلى الله عليه وسلم في الزهد، ٧/ ٨٣، رقم ٣٤٣٦٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٧٢٨، رقم ٣٩٢١.

تحريم الخبائث

من فضل الله علينا ومنته أنه أحل لنا الطيبات وحرم علينا الخبائث، لحكم عظيمة وجليلة تتضح معالمها على مر الزمان، لتثبت أن هذا القرآن من عند عليم خبير.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

فالله عز وجل يمتن على عباده بما مكنهم في الأرض من حياة واستقرار، إذ جعلها مسخرة لهم، ووضعها تحت تصرفهم، وآتاهم فيها من أسباب الكسب ووسائل العيش ما يطيب معه القرار، وأحل الطيبات من المأكل والمشرب والملبس والزينة، وأنكر تحريم ذلك وجعل سبحانه وتعالى كل ذلك مباحًا، ودعا عباده إلى استعمالها والتمتع بها، فالله جل جلاله هو وحده المختص بالتحليل والتحريم، وقد أحلها ولم يحرمها[(٢)].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٠١.



﴿...اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٢-١٧٣].

ويأمر الله عز وجل بالأكل من طيبات ما خلق لنا وشكره على تلك النعم التي لا تعد ولا تحصى، ويفصل بعد ذلك الحق سبحانه وتعالى ما حرم على عباده وهي:

- الميتة: وهي كل ما لم تدرك ذكاته مما يذبح واستثنى الشرع من الميتة السمك والجراد.
- الدم: أراد به الدم الجاري يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]، واستثني من الدم الكبد والطحال فأحلها[١].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أحلت لنا ميتتان ودمان، الميتتان: الحوت والجراد، والدمان، أحسبه قال: الكبد والطحال)[٢].

- لحم الخنزير وشحمه وعظمه.

قال الشّافعي رحمه الله تعالى:

فيحلّ الله عز وجل ما حرّم من الميتة والدم ولحم الخنزير، وكلّ ما حرم مما يغير العقل من الخمر للمضطر الذي لا يجد ما يسد رمقه من طعام أو شراب، وبلغ منه الجوع والعطش ما يخاف منه الموت أو المرض، وذلك بقدر ما ينقذ به نفسه، وليس له أن يأكل ويشرب حتى الشبع والتلذذ بذلك.[٣]

وفي آية أخرى يبين الله عز وجل المزيد من الخبائث المحرمة على العبد.

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

فزادت هذه الآية عن سابقتها عدة محرمات سبق الحديث عنها وهي:

- المنخنقة.
- الموقوذة.
- المتردية.
- ما أكل منه الحيوان.
- الذبح على النصب.
- الاستقسام بالأزلام.

---

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٨٣.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمر رضي الله عنه عنهما، ١٠/ ١٥، رقم ٥٧٢٣، وابن ماجه في سننه، كتاب الأطعمة، باب الكبد والطحال، ٢/ ١١٠٢، رقم ٣٣١٤.
وصححه الألباني في إرواء الغليل، ٨/ ١٦٤، رقم ٢٥٢٦.

(٣) تفسير الإمام الشافعي ١/ ٢٤٨.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو بمكة عام الفتح: (إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام، فقيل: يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنه يطلى بها السفن، ويدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس، فقال: لا، هو حرام، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك: قاتل الله اليهود، إن الله لما حرم شحومها جملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه)[1].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

لقد دلت هذه الآية بمفهومها على تحريم الخبائث، فإن الطيبات هي المحللات، فقد وصفها بالطيب، لأنها لفظة تتضمن مدحًا وتشريفًا، وعلى هذا تكون الخبائث هي المحرمات.

وعلى هذا حلل الإمام مالك المتقذرات: كالحيات والعقارب والخنافس ونحوها.

ومذهب الشافعي رحمه الله أن الطيبات هي من جهة الطعم، إلا أن اللفظة عنده ليست على عمومها، لأن عمومها بهذا الوجه من الطعم يقتضي تحليل الخمر والخنزير، بل المحرمات بالشرع وفي المتقذرات، فيحرم العقارب والخنافس والوزغ وما جرى هذا المجرى يراها مختصة فيما حلله الشرع، ويرى الخبائث لفظًا عامًّا في المحرمات بالشرع وفي المتقذرات[2].

وهذا هو الراجح عندي والذي تأنس له الفطرة السليمة والنفس الطيبة حيث إن الطيبات ما تقبل به النفس، أما الحشرات والزواحف مما لا تستسيغه الطباع البشرية.

فإن ما استخبثه الناس من الحيوانات لا لعلة ولا لعدم اعتياد بل لمجرد استخباث فهو حرام، وإن استخبثه البعض دون البعض كان الاعتبار بالأكثر كحشرات الأرض وكثير من الحيوانات التي ترك الناس أكلها ولم ينهض على تحريمها دليل يخصها، فإن تركها لا يكون في الغالب إلا لكونها مستخبثة فتندرج تحت قوله سبحانه: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾.

فقد أباح الله لعباده الطيبات، وحرم عليهم الخبائث والمضرات، ولقد كرم الله بني آدم بكرامات كثيرة، أهمها العقل؛ لكن نجد الكثير من الناس من يجني على هذا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب بيع الميتة والأصنام، ٣/ ٨٤، رقم ٢٢٣٦.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٠٠.

العقل بشرب الخمور والمسكرات[1].

ولنا هنا حديث عن محرم آخر وهو الخمر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، إن الله سبحانه وتعالى قد وصف الخمر بأنه رجس فعلم أن النجاسة علة لتحريم الأكل وكل نجس فإنه يحرم أكله، هذا بعد إجماع الأمة على تحريم الخبائث والنجاسات[2].

وإنما حرم علينا سبحانه وتعالى هذه الخبائث:

- لطفًا بنا، وتنزيهًا لنا عن كل خبيث لا تستطيبه النفس الكريمة.
- وفي تحريم هذه الأشياء حماية للمسلمين مما فيها من الميكروبات والجراثيم والمواد الضارة، التي لم يهتد الأطباء لمعرفتها إلا في عهد متأخر جدًّا.
- وحرمت الميتة بغير تذكية شرعية، لأن الميتة خبيثة مضرة، ولرداءتها في نفسها، ولأن الأغلب، أن تكون عن مرض، فيكون زيادة ضرر.
- وقد يكون التحريم لعلة اعتقادية، لها علاقة وثيقة بالشرك والوثنية مثل ما يذبح للأصنام.
- والخمور حرمت بسبب ما تفعله في العقول من دمار، فتجل المرء كالبهيمة بل أضل سبيلًا، كما لها أضرارها على الصحة وهي كثيرة، وما فيها من ضياع للعرض والمال.

ويقاس على ذلك العديد من الأطعمة والأشربة التي حرمها العلماء بالإجماع قياسًا عما ذكره الله جل جلاله من تحريم المخدرات والدخان وبعض الأدوية المذهبة للعقل واعتبارها من الخبائث.

فإن الخبيث غير مستطاب، فصارت هذه الآية الكريمة نصًّا فيما يحل ويحرم من الأطعمة، فحري بنا نحن المسلمين أن نتحرى المال الطيب الحلال، والرزق السليم النافع، ونحذر أشد الحذر من الأموال الخبيثة والمكاسب المحرمة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ المال، أمن الحلال أم من حرام)**[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(يا أيها الناس! إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا،**

(١) انظر: الدراري المضية، الشوكاني ٢/ ٣١٨.
(٢) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٣/ ١٨١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ﴾، ٣/ ٥٩، رقم ٢٠٨٣.

وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا رب! يا رب! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟)[(١)].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، ٢/ ٧٠٣، رقم ١٠١٥.

التناسب بين الخبيثين

إن الله عز وجل خلق كل شيء بقدر ويتناسق يأخذ الألباب، فجعل لكل شيء ما يناسبه فجعل الطيب لما يناسبه، وجعل للخبيث ما يناسبه، قال تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ﴾ [النور: ٢٦]، جاء في معنى هذه الآية أقوال:

الأول: إن الخبيثات من الكلم للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من الكلم، والطيبات من الكلم للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيّبات من الكلم.

الثاني: إن معناه الخبيثات من السيّئات للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من السيّئات، والطيّبات من الحسنات للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من الحسنات.

الثالث: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء[(٢)].

وبما أن سياق السورة هو سياق الحديث عن الزواني والمحصنات، وعن المؤمنين والمؤمنات، وعن الأجواء التي تتحرك

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٤٢.

في دائرة العلاقات الزوجية التي يتحكم فيها الانسجام الأخلاقي بين الزوجين، ما يجعل من مسألة التوافق الروحي والإيماني عنصرًا حيويًا في المسألة، نستطيع القول بأن المراد بالكلمتين هو المعنى الثالث المراد من الطيبين والخبيثين، ويؤكد ذلك طبيعة المقابلة بين الكلمتين[(١)].

ولكن قد يشكل فهم الآية على البعض، فهل هو على تقرير الواقع بحيث يكون المعنى أن واقع العلاقات الزوجية أو ما يشبهها، هو الانسجام بين الزوجين في الخبث والطيبة؟

ولكن هذا غير واقعي، لأن كثيرًا من الطيبين والطيبات ابتلوا بزيجات خبيثة، كما أن كثيرًا من الخبيثات ارتبطن بعلاقة زوجية مع رجال طيبين.

أو هو تشريع للعلاقة الزوجية، حيث إنه لا بد للخبيثات من أن يتزوجن من الخبيثين، فلو تزوجن غيرهم، لكانت العلاقة غير شرعية، كما لن تكون هناك شرعية لزواج الطيب من الخبيثة أو الطيبة من الخبيث؟

الحقيقة أنه لا هذا ولا ذاك، فالمسألة جارية مجرى التناسب القائم على الاتفاق في العقيدة الطيّبة، والأخلاق والسلوك الطيبين، ما يجعل الطيبين مناسبين للّاتي يملكن المواصفات نفسها، وهو ما يجعل الانجذاب الروحي الذي يؤدي إلى العلاقة الشرعية الزوجية أمرًا طبيعيًّا، كما أن المواصفات المضادة تخلق التناسب بين الذين يتمتعون بهذه الصفات السلبيّة، وتجعل العلاقة طبيعية بينهم باعتبار أن كل شكلٍ لشكله ألف.

ومقصود الآية: إن زوجتم فزوّجوا الخبيث للخبيثة، والطيب للطيبة؛ ليتحقق التكافؤ بين الزوجين ويحدث بينهما الوفاق، حتى إن عيّر الخبيث زوجته كانت مثله تستطيع أن تردّ عليه، لا بدّ من وجود التكافؤ حتى في القباحة، وإلا فكيف تفعل الطيبة مع الخبيث، أو الخبيث مع الطيبة ؟[(٢)].

أراد الله عز وجل أن يوجهنا إلى أن نزوج فتياتنا الطيبات رجالًا طيبين، ويوجهنا أيضًا إلى أن نزوج شبابنا الطيبين فتيات طيبات، لكي يكون تناسبًا صحيحًا وسليمًا، فهذا توجيه أخلاقي اجتماعي، لهم في توجيهها هذا التوجيه الرائع، أي: ينبغي يا عبادي أن يكون الطيبون للطيبات والخبيثون للخبيثات.

وليس في الذنوب أفسد للقلب والدين من فاحشة الزنا، فلها خاصية في تعبيد القلب لغير الله، فإنهما من أعظم الخبائث، وكلما ازداد القلب خبثًا ازداد من الله بعدًا،

(١) انظر: النكت في القرآن الكريم، المجاشعي، ص ٣٥٧.

(٢) انظر: تفسير الشعراوي ١٨/ ١٠٩٧١.

قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[النور: ٣].

أي: إن الفاسق الفاجر الذي من شأنه الزنا والفسق لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء، وإنما يرغب في فاسقة خبيثة أو في مشركة مثلها، والفاسقة المستهترة لا يرغب في نكاحها الصالحون من الرجال، بل ينفرون منها، وإنما يرغب فيها من هو من جنسها من الفسقة، ولقد قالوا في أمثالهم: إن الطيور على أشكالها تقع[(١)].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: (الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف)[(٢)].

ولا شك أن هذا حكم الأعم الأغلب كما يقال: لا يفعل الخير إلا الرجل التقى، وقد يفعل الخير من ليس بتقى، فكذا هذا، فإن الزاني قد ينكح المؤمنة العفيفة، والزانية قد ينكحها المؤمن العفيف.

قال الألوسي رحمه الله «تقبيح لأمر الزاني أشد تقبيح، ببيان أنه بعد أن رضي بالزنا لا يليق أن ينكح العفيفة المؤمنة، والزانية بعد أن رضيت بالزنا لا يليق أن ينكحها إلا من هو مثلها وهو الزاني، أو من أشد حالًا منها وهو المشرك، فأما المسلم العفيف فأسد غيرته يأبى ورود جفرتها»[(٣)].

إن نكاح المؤمن المتّسم بالصلاح الزانية، ورغبته فيها واندماجه في سلك الفسقة المشهورين بالزنا محرم عليه، لما فيه من التشبه بالفسّاق ومن حضور مواضع الفسق والفجور التي قد تسبب له سوء القالة واغتياب الناس له، وكم في مجالسة الفساق من التعرض لاقتراف الآثام، فما بالك بمزاوجة الزواني والفجار[(٤)].

وقال الشيخ الشعراوي رحمه الله: «فهذا سبب طهر الأنسال أن يحرّم الله سبحانه وتعالى الزنا، فيأتي الخليفة طاهر النسل والعنصر، محضونًا بأب وأم، مضمومًا بدفء العائلة، لا يتحملون عليه نسمة الهواء؛ لأنه جاء من وعاء طيب طاهر نظيف»[(٥)].

إذن فهناك تناسب طبيعي قدره الله عز وجل في هذه الحياة كي تسير وفق منظومة صحيحة لا اعوجاج فيها، غير أن البعض يأبى إلا الخروج عن المألوف والطعن في طبيعة سير الأمور فيتسببون بالفساد والخراب وانتشار الرذيلة في المجتمع المسلم.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٣١٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة، ٤/ ١٣٤، رقم ٣٣٣٦.
(٣) روح المعاني ١٨/ ٨٤.
(٤) انظر: تفسير المراغي ١٨/ ٧١.
(٥) تفسير الشعراوي ١٦/ ١٠٢٠٣.

الخبيث في المثل القرآني

إن اللّه سبحانه وتعالى يضرب الأمثال لعباده في العديد من آياته في كتابه العزيز، وأمر بالاستماع إليها ودعا عباده إلى تعقلها، والتفكير فيها، والاعتبار منها.

وضرب الله عز وجل المثل للخبيث فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٦].

هذان مثلان ضربهما الله تعالى للكلمة الطيبة، والكلمة الخبيثة، مثل الأولى بشجرة طيبة، ومثل الثانية بشجرة خبيثة، فلما ذكر مثل أعمال الكفار، وأخبر أنها كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، وشرح أحوال الأمة الطيبة، وأحوال الفرقة الخبيثة، ذكر مثلًا يبين الحال في حكم هذين القسمين، ويصور سنته الجارية في الطيب والخبيث في هذه الحياة[1].

ويضرب الله سبحانه وتعالى هذا المثل ليصوّر للناس سنته الجارية في الطيب والخبيث في هذه الحياة بالشجرة الطيبة، والشجرة الخبيثة.

فالكلمة الطيبة هي كلمة الحق، وهى أساس الوجود، ولا تستطيع قوى البغي والطغيان أن تقضى عليها، أو هي كلمة التوحيد، فهي كالشجرة الطيبة، ثابتة، مثمرة، متعالية، فبذورها تنبت في تلك التربة الخصبة، وكذلك الكلمة الطيبة تثبت في النفوس الطيبة، كالنخلة، وشجرة التين والعنب والرمان وغير ذلك.

وأما الكلمة الخبيثة، فهي على النقيض من ذلك، هي كلمة الشرك والباطل التي تعمل على إفساد الحياة، وفي نشر بذور الشر في كل مكان، وفي كل نفس، وهي كالشجرة الخبيثة التي قد تتشابك أغصانها، وتتعالى فروعها، ولكنها لا تثمر إلا ثمرًا مرًّا، ولا تعطي فائدة، كشجرة الحنظل، ونحوها، وفي نفس الوقت لا تتحمل أية هزة، فلا قرار لها ولا بقاء[2].

ووصف الشجرة الخبيثة، التي شبه بها الكلمة الخبيثة في صفتها بثلاث صفات:

الأولى: أنها خبيثة، وذلك يحتمل أن يكون بحسب الرائحة، وأن يكون بحسب الطعم، وأن يكون بحسب الصورة والمنظر، واشتمالها على المضار الكثيرة.

وأصل (الخبث) في كلام العرب كما

(١) انظر: تفسير المراغي ١٣/ ١٤٧.

(٢) انظر: عون الحنان في شرح الأمثال في القرآن، علي الطهطاوي، ص ٢١٢.

ذكرت سابقًا: المكروه، فإن كان في الكلام فهو الشتم، وإن كان من الملل فهو الكفر، وإن كان من الطعام فهو الحرام، وإن كان من الشراب فهو الضار، ومنه قيل لما يرمى من منفي الحديد: الخبث[1].

الثانية: كونها (اجتثّت من فوق الأرض)، أي: استؤصلت. وهذه الصفة في مقابلة (أصلها ثابتٌ) في صفة الشجرة الطيبة، وحقيقة (الاجتثاث) أخذ الجثة كلها من فوق الأرض، لكون عروقها قريبة من الفوق؛ فكأنها فوق، وهذا يعني: أنه ليس لها أصل، ولا فرع، وليس لها ثمرة، ولا فيها منفعة[2].

الثالثة: كونها (ما لها من قرارٍ)، فنفى أن يكون لها مكان تستقر فيه، وأن يكون لها استقرار.

قال الزمخشري رحمه الله: «شبّه بها القول، الذي لم يعضّد بحجة فهو داحض غير ثابت، والذي لا يبقى؛ إنما يضمحل عن قريب لبطلانه؛ من قولهم: الباطل لجلج»[3].

وعن قتادة رضي الله عنه أنه قيل لبعض العلماء: (ما تقول في كلمة خبيثة؟ فقال: ما أعلم لها في الأرض مستقرًا، ولا في السماء مصعدًا، إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافي بها القيامة)[4].

هذا هو مثل الكلمة الطيبة، ومثل الكلمة الخبيثة. وليس هذا وذاك مجرد مثل يضرب، ولا مجرد عزاء للطيبين وتشجيع؛ وإنما هو الواقع في الحياة، ولو أبطأ تحققه في بعض الأحيان، والخير الأصيل لا يموت ولا يذوي، مهما زحمه الشر وأخذ عليه الطريق، والشر كذلك لا يعيش إلا ريثما يستهلك بعض الخير المتلبس به، فقلما يوجد الشر خالصًا، وعندما يستهلك ما يلابسه من الخير، فلا تبقى فيه منه بقية، فإنه يتهالك، ويتهشم مهما تضخم واستطال[5].

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن فضله وعدله في الفريقين: أصحاب الكلمة الطيبة، وأصحاب الكلمة الخبيثة.

فبين سبحانه وتعالى فبين أنه في ظل الشجرة الثابتة مثلًا للكلمة الطيبة، يثبت الذين آمنوا بإيمانهم بالقول الثابت أحوج ما يكونون إليه في الدنيا والآخر، والقول الثابت: بكلمات القرآن، وبالعمل الصالح، وبكلمات الإيمان، يكون العون من الله، والثبات للذين آمنوا.

وفي ظل الشجرة الخبيثة المجتثة من فوق الأرض ما لها من قرار، ولا ثبات يضل الظالمين عن القول الثابت (يضلّ

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٤/ ٢٤٩، تهذيب اللغة، الأزهري ٧/ ١٤٦.
(٢) انظر: فتح البيان، القنوجي ٧/ ١١١.
(٣) الكشاف ٢/ ٥٥٤.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥٨٧.
(٥) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٩٨.

اللّه الظّالمين)، فيضل هؤلاء بعدله بسبب ظلمهم وشركهم، واتباع الهوى، وتمكن الخرافات والأباطيل من نفوسهم القلقلة المضطربة، وإضلالهم في الدنيا أنهم لا يثبتون في مواقف الفتن وتزل أقدامهم أوّل شيء، وهم في الآخرة أضل وأذل ويفعل الله ما يشاء بإرادته المطلقة(1).

وذلك قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾[إبراهيم: ٢٧].

أي: يثبّت الذين صدقوا برسالة الأنبياء والمرسلين، يثبتهم على دينهم ويقينهم بسبب اعترافهم الثابت بتوحيد اللّه وطمأنينتهم به، فلم تهزه الشكوك ولم يزلزله الإيذاء أو التشكيك؛ فيظلّون على ما هم عليه من اليقين الثابت في الحياة الدنيا، لا تزحزحهم عنه الشدائد والفتن، وإن كانت كموج البحر أو كقطع الليل المظلم، وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله طرفة عين؛ فإن لم يثبته، وإلا زلت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما(2).

وبين سبحانه وتعالى سبب ضربه للأمثال بقوله: ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[إبراهيم: ٢٥].

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٥٥٤.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٥/ ٤٩٢.

وذلك لأنها أمثال مصداقها واقع في الأرض، ولكن الناس كثيرًا ما ينسونه في زحمة الحياة؛ ففي ضربها لهم زيادة إفهام، وتذكير، وتصوير للمعاني(3).

من خلال ما رأينا في المثل من مقابلة وموازنة بين حالتين يلمسهما القارئ لكتاب الله عز وجل، فينحاز إلى ما هو جدير به أن ينحاز إليه من عمل صالح يتقرب به إلى الله جل جلاله، وابتعاد عن الطالح من الأمر.

ويفهم من هذا التصوير أن المؤمن مثل الشجرة، لا يزال يعطى من ثماره في كل وقت، صيفا وشتاء، ليلًا ونهارًا، وكذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل آناء الليل وأطراف النهار، وفي كل وقت وحين، والكلمة الخبيثة تمثل كفر الكافر، لا أصل له، ولا نبات، ولا فرع، ولا يصعد له عمل، ولا يتقبل منه شيء.

(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٩٨.

مصير الخبيث وأهله

لقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يوجد في هذه الحياة الطيّب والخبيث؛ للاختبار والامتحان والتمايز، وليلقى كل منهما جزاءه المناسب فهم لا يستويان أبدًا.

قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧].

تتواصل صورة الخبيث في السياق القرآني، لترسم خاتمة له في جهنم وبئس المصير، فالخبيث هنا مجسّم في صورة أكوام من الأقذار الكريهة، تجمّع بعضها فوق بعض، ثم تقذف في النار، بدون اكتراث أو اهتمام، فهذه الصورة للخبيث أوقع في الحس والنفس من أي تعبير آخر، وهي تهدف إلى التنفير من الخبيث، من خلال هذه النهاية المرسومة له، وشتّان بين صورة الخبيث الكريهة التي تنتهي في النار، وبين صورة الطيب المحبوبة، التي تنتهي إلى الجنة(١).

يقول الشيخ أبو زهرة رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: إن الخبيث يجتمع بعضهم إلى بعضه، يضم الخبيث إلى الخبيث ويتراكم عليه، حتى يكادوا يكونون عليه لبدًا، وهذا تعبير يتناسب مع تكاثف شيء كله خبيث، أي: يجعل الله سبحانه وتعالى الخبيث الحاضر فوق الخبيث الغابر، فوق ما سبقه، فنظمه جميعًا بعضه لبعضه، وفي هذا إشارة إلى أن في جهنم مكانًا للجميع، وإن كان مزدحمًا متراكمًا، وإشارة إلى تلاحق الحاضرين مع من يقلدونهم، وإشارة إلى تميزهم على الطيبين، أو تميز الطيبين عنهم، وإن هذا كله ينبئ عن الخسارة المطلقة التي لا كسب فيها؛ ولذلك جعلهم الحق عز وجل هم الأخسرين، فجعل أصحابه في جهنم إلى يوم القيامة، وبئس المصير لمن خسر نفسه وماله(٢).

فإن الله سبحانه وتعالى يفرق بين الطيب والخبيث في كل الأمور، ثم يكون الجزاء في الآخرة بأن يفترقا، فلا يجتمعان أبدًا؛ فلكلٍّ داره وقراره، فالطّيّب وأهله لهم الجزاء الطيب في جنان الرحمن، والخبث وأهله لهم العذاب الأليم، والمصير الخبيث.

فكل عمل له نتائجه المترتبة عليه:

- فإن الطّيّب لا يليق به إلا الطيب، ولا يفعل إلا الطيب، ولا يقول إلا الطيب، ولا يأكل إلا الطيب؛ لذلك استحق مجاورة الطيبين في جنات الخلد.
- والشقي الخبيث لا يفعل إلا الخبيث، ولا يقول إلا الخبيث، ولا يخالط إلا

(١) انظر: وظيفة الصورة الفنية في القرآن، عبدالسلام الراغب، ص ١٣٨.

(٢) انظر: زهرة التفاسير ٦/ ٣١٢٥.

الخبيثين، وترى الخبث يتفجر من قلبه ولسانه وجوارحه؛ ولذلك استحق مجاورة الخبيثين في جهنم مأوى لهم.

ولكن إن كثر الخبث وأهله من الزناة والفجرة والفاسقين المجاهرين للمعاصي أن الخبث إذا كثر فقد يحصل الهلاك العام وإن كان هناك صالحون(١).

فعن زينب بنت جحش، رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم، دخل عليها فزعًا يقول: (لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه)، وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: (نعم، إذا كثر الخبث)(٢).

إن الله كتب النصر والغلب لعباده المتقين والخذلان والحسرة لمن يعاديهم ويقاتلهم من الكفار للصدّ عن سبيل الله، ليميز الكفر من الإيمان، والحق والعدل من الجور والطغيان.

وهذا التمييز بين الأمرين في سنن الاجتماع هو بقاء أمثل الأمرين وأصلحهما، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، وسنن الله في الدنيا والآخرة واحدة، فالخبيث في الدنيا خبيث في الآخرة.(٣)

وقد وصف الله سبحانه وتعالى الشرك والزنا واللواطة بالنجاسة والخبث في كتابه دون سائر الذنوب، فقال عز وجل في حق اللوطية: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤].

وقالت اللوطية: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[النمل: ٥٦]، فأقروا مع شركهم وكفرهم أنهم هم الخبيثون الأنجاس، وأن لوطًا وآله مطهرون من ذلك باجتنابهم له.

فكان الجزاء موافقًا لأعمالهم الخبيثة، فأنزل الله عز وجل عذابه عليهم، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝٧٣ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٣ - ٧٥].

«قلبها فأهوى بها منكسة عاليها سافلها، وغشاها بمطر من حجارة من سجيل متتابعة مسومة مرقوم على كل حجر اسم صاحبه الذي سقط عليه من الحاضرين منهم في بلدهم والغائبين عنها من المسافرين والنازحين والشاذين منها»(٤).

(١) العمدة من الفوائد والآثار الصحاح في مشيخة شهدة، شهدة الإبري، ص ٤١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج، ومأجوج ٤/ ١٣٨، رقم ٣٣٤٦.
(٣) تفسير المراغي ٩/ ٢٠٦.
(٤) البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ١٨٢.

لقد حرم الله الجنة على كل خبيث، بل جعلها مأوى الطيبين ولا يدخلها إلا طيب، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣].

فإنما استحقوا سلام الملائكة ودخول الجنة بطيبهم، والزناة من أخبث الخلق، وقد جعل الله سبحانه وتعالى جهنم دار الخبيث وأهله، فإذا كان يوم القيامة ميز الخبيث من الطيب، وجعل الخبيث بعضه على بعض ثم ألقاه وألقى أهله في جهنم، فلا يدخل النار طيب، ولا يدخل الجنة خبيث[١].

موضوعات ذات صلة

الأكل ، الخمر، الزنا، الشرب، الطعام، الطيبات، الفواحش، المال

(١) انظر: روضة المحبين، ابن القيم، ص ٣٦١.







عناصر الموضوع

المجلد الثالث عشر

مفهوم الخسران

أولًا: المعنى اللغوي:

هي صيغة مبالغة من لفظة خسر: «الخاء والسين والراء أصل واحد، يدل على النقص، فمن ذلك الخسر والخسران، كالكفر والكفران، والفرق والفرقان، ويقال: خسرت الميزان وأخسرته، إذا نقصته»[(١)].

والخسر والخسران انتقاص رأس المال، وينسب ذلك إلى الإنسان فيقال: خسر فلان، وإلى الفعل فيقال: خسرت تجارته[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرّفه الشنقيطي قائلًا: «والخسران في اصطلاح الشرع: هو غبن الإنسان في حظوظه من ربه جل وعلا ؛ لأن الإنسان إذا غبن في حظوظه من ربه جل وعلا فقد خسر الخسران المبين»[(٣)].

ومن خلال المعنى اللغوي السابق، ومعاني الآيات التي وردت فيها لفظة الخسران يمكن أن يقال في التعريف الاصطلاحي لكلمة الخسران: «هو ضلال السعي وفقدان الأموال والأهل في الدنيا والآخرة، والوقوع في الهلاك والضلال»، أو «هو فقدان الأعمال والأموال والأهل والأجر والثواب في الدنيا والآخرة، بسبب ضلال السعي والانحراف عن دين الله».

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ١٨٢.
(٢) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص ٣١٢.
(٣) انظر: العذب النمير، ٣/ ٨٥.

الخسران في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (خ س ر) في القرآن الكريم (٦٥) مرة[١].

والصيغ التي جاءت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٥	﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ۝١١٩﴾ [النساء:١١٩]
الفعل المضارع	٣	﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ۝٢٧﴾ [الجاثية:٢٧]
المصدر	٩	﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر:٢]
اسم فاعل	٣٤	﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۝١٥﴾ [الزمر:١٥]
اسم تفضيل	٤	﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ۝٥﴾ [النمل:٥]

وجاء الخسران في القرآن على خمسة أوجه[٢]:

الأول: النقص، ومنه قوله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين:٣] أي: ينقصون.

الثاني: الغبن، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۝١٥﴾ [الزمر:١٥] أي: الغبن المبين.

الثالث: العجز، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ۝١٤﴾ [يوسف:١٤] أي: إذًا لعجزة.

الرابع: الضلال، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ۝١١٩﴾ [النساء:١١٩] أي: ضل ضلالًا مبينًا.

الخامس: العقوبة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥]. أي: في العقوبة.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٢٣١-٢٣٢.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٠٢-٢٠٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الضلال:

الضلال لغة:

مصدر (ضلّ)، والذي يعني الضياع والذهاب والغياب، وكل من زاغ عن المطلوب والقصد يسمى (ضالًّا)، و(يضلّ ويضلّ) لغتان عند العرب[١].

الضلال اصطلاحًا:

«كل عدول عن النهج عمدًا أو سهوًا قليلًا كان أو كثيرًا»[٢].

الصلة بين الضلال والخسران:

العدول عن الطّريق المستقيم يبعد المرء عن الوصول لمقصده أكثر فأكثر، وبالتالي لا يحقق المرء غايته أبدًا، وهذا من الخسران.

٢ الفلاح:

الفلاح لغة:

«الفاء واللام والحاء أصلان صحيحان، أحدهما يدل على شق، والآخر يدل على فوز وبقاء، فلح فلاحًا: ظفر بما يريد»[٣].

الفلاح اصطلاحًا:

اسمٌ جامع للظّفر بالمطلوب، والنّجاة من المرهوب[٤].

الصلة بين الفلاح والخسران:

العلاقة بينهما التضاد؛ إذ الضلال العدول عن الطريق المستقيم، والابتعاد عن الوصول للمقصود والغاية، وأما الفلاح فهو الظفر بالمطلوب.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٥٦، لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٣٩٠، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٣٦٣.
(٢) الكليات، الكفوي ص ٥٦٧.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤ / ٤٥٠.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٣٥٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١٨٢.

أسباب الخسران

معلوم أن أسباب الخسران عديدة، وأحببنا أن نبرزها ونوضحها من أجل أخذ الحيطة والحذر من الوقوع فيها؛ وذلك لأجل النجاة يوم القيامة من عذاب الله، والفوز برضوانه والجنة، ولم لا نكون مثل حذيفة بن اليمان الذي كان يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن الشر، مخافة أن يصيبه؟ فقد روى أبو إدريس الخولاني أنّه سمع حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يقول: **(كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم. قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم)**[1].

وسوف نورد هذه الأسباب في النقاط الآتية:

أولًا: الكفر بالله تعالى:

حياة الإنسان قائمة في الحياة الدنيا على الإيمان بالله بكل ما أمرنا به، ونهانا عنه، ومن يحقق الإيمان فقد نجا وفاز يوم القيامة بالجنة ورضوان الله، وأما من يكفر بالله، ويجحد بالإيمان فقد باء بغضب من الله، وضل ضلالًا بعيدًا، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء:١٣٦].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [العنكبوت:٥٢].

فأي خسران بعد خسران الإيمان؟! إنه أعظم مصيبة على الناس في هذا الوجود؛ فالكفر والإشراك بالله يعدّ من أعظم الكبائر التي حذرنا النبي صلى الله عليه وسلم منها، فعن أنس رضي الله عنه قال: **(سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أعظم الكبائر فقال: (الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، وشهادة الزور)**[2].

ويعدّ ذلك أيضًا من السبع الموبقات التي تلقي صاحبها في نار جهنم، وبهذا باء بالخسارة في الآخرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم ٣٦٠٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، رقم ٢٦٥٣.

عليه وسلم قال: (اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله!، وما هن؟ قال: الشرك بالله..)(١).

ولكن من يكفر بالله وينكر وجوده ولقاءه يوم القيامة فقد خسر خسرانًا مبينًا؛ لأنه كفر بأهم ركن، ألا وهو الإيمان بالله وبلقائه؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام:٣١].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [السجدة:١٠]؛ وبهذا خسروا الدنيا والآخرة؛ لأنهم لم يعملوا ليوم البعث وكفروا به، وقصروا أمرهم على الحياة الدنيا، فضيّعوا أنفسهم وحظهم من الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر:٦٥].

وبهذا فقد بطلت وخابت كل الأعمال التي يقوم بها الكافر، حيث لا تنفع صاحبها يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور:٣٩].

وسوف يتناول البحث الآيات التي تبيّن الخسران الذي يناله هؤلاء الكافرون بربهم، وذلك فيما يأتي.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [البقرة:١٢١].

وأشار الطبري إلى اختلاف أهل التأويل في الذين عناهم الله جل ثناؤه بقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ فقال بعضهم: هم المؤمنون برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به، ذكر ذلك عن قتادة في قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ قال: هؤلاء أصحاب نبي الله صلى الله عليه وسلم آمنوا بكتاب الله وصدّقوا به.

وقال آخرون: بل عنى الله بذلك علماء بني إسرائيل الذين آمنوا بالله، وصدّقوا رسله، فأقرّوا بحكم التوراة، فعملوا بما أمر الله فيها من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان به، والتصديق بما جاء به من عند الله، ذكر ابن زيد في قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ قال: من كفر بالنبي صلى الله عليه وسلم من يهود فأولئك هم الخاسرون.

ورجّح الطبري هذا القول، مستدلًّا بأن الآيات قبلها مضت بأخبار أهل الكتابين، وتبديل من بدل منهم كتاب الله، وتأويلهم إياه على غير تأويله، وادّعائهم على الله

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم ٢٦٢.

الأباطيل، ولم يجر لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في الآية التي قبلها ذكر، فيكون قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ موجهًا إلى الإخبار عنهم، وليس لهم بعدها ذكر في الآية التي تتلوها، وبالتالي فالذي هو أولى بمعنى الآية أن يكون موجهًا إلى أنه خبر عمن قصّ الله جل ثناؤه في الآية قبلها والآية بعدها، وهم أهل الكتابين: التوراة والإنجيل[1].

وأما قوله: ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ فقال بعضهم: معنى ذلك: يتبعونه حق اتباعه، وقال آخرون: يقرءونه حق قراءته.

والمعنى: الذين آتيناهم الكتاب يا محمد من أهل التوراة الذين آمنوا بك وبما جئتهم به من الحق من عندي، يتبعون كتابي الذي أنزلته على رسولي موسى صلوات الله عليه فيؤمنون به، ويقرون بما فيه من نعتك وصفتك، وأنك رسولي، فرض عليهم طاعتي في الإيمان بك، والتصديق بما جئتهم به من عندي، ويعملون بما أحللت لهم، ويجتنبون ما حرمت عليهم، ولا يحرفونه عن مواضعه، ولا يبدّلونه، ولا يغيّرونه عما أنزلته عليهم بتأويل ولا غيره، وقيل: مراعاة اللفظ عن التحريف، والتدبر في معناه، والعمل بمقتضاه[2].

وأما قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: هؤلاء الذين أخبر عنهم يتلون ما آتاهم من الكتاب حق تلاوته، فيصدّقون به، ويذعنون لما أمر به ونهى عنه، ويعملون بموجبه، وهؤلاء من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿۞ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ١١٥﴾ [آل عمران:١١٣-١١٥].

وقال أيضًا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٥٢ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ٥٣ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٥٤﴾ [القصص:٥٢-٥٤].

هذا التفسير على أساس أن الكتاب، هو كتاب أهل الكتاب الذي آمنوا به ولم يحرّفوه عن مواضعه، ولم يكتبوه بأيديهم، ويلووا به ألسنتهم، ويقولوا هو من عند الله، وما هو من عند الله.

ولكن من المفسرين من قالوا: إنه القرآن الكريم، وإطلاق اسم الكتاب عليه من غير ذكر أنه القرآن؛ للدلالة على كماله وأنه لا يماثله من الكتب كتاب، ولو كان سماويًّا؛

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١/ ٦٦٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١/ ٦٦٤، أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ٣٩٣.

لأنه الكتاب الكامل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[1].

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٢١﴾ [البقرة:١٢١] أي: ومن يكفر بهذا ويجحد بما أنزل إليك، وينكر البشارة فيك، وذلك بتحريف كتبهم لتوافق أهواءهم، ويجحد بآياته وإنكار أحكامه، وما فيه من فرائض الله، أولئك هم الذين خسروا علمهم وعملهم، فبخسوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله، واستبدلوا بها سخط الله وغضبه.

وقيل: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: الضالون الهالكون الذين خسروا سعادة الدنيا، ونعيم الآخرة؛ ذلك لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى والكفر بالإيمان، وقيل: بتجارتهم التي كانوا يعملونها بأخذ الرشا على التحريف، وحكم سبحانه عليهم بالخسران مؤكدًا بضمير الفصل «هم»، وبالجملة الاسمية[2].

وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: المغبونون في صفقتهم؛ حيث اشتروا الكفر بالإيمان، والآية من قبيل المجادلة بالتي هي أحسن، حيث لم يصرح بنسبة الإيمان بالباطل، والكفر والخسران إليهم، بل بالإبهام[3].

وهناك الكثير من الآيات والأحاديث الدالة على خسران هؤلاء الكافرين في الدنيا والآخرة، والمحذرة من الكفر بالله سبحانه وتعالى.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ٤٥﴾ [يونس:٤٥].

وقوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ٨٥﴾ [غافر:٨٥].

وقوله أيضًا: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ٥٢﴾ [العنكبوت:٥٢].

قال سيد قطب: «الخاسرون على الإطلاق، الخاسرون لكل شيء، الخاسرون للدنيا والآخرة، الخاسرون لأنفسهم وللهدى، والاستقامة، والطمأنينة، والحق والنور.

إن الإيمان بالله كسب، كسب في ذاته، والأجر عليه بعد ذلك فضل من الله، إنه

(١) انظر جامع البيان، الطبري ١/ ٦٦٥، زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ١/ ٣٨٩.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي، ١/ ٥٨٧، زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ١/ ٣٩٠، المبصر لنور القرآن، نائلة صبري، ١/ ٢٢٤.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢١/ ١٥، المقتطف من عيون التفاسير، المنصوري، ٤/ ١٨٨.

طمأنينة في القلب، واستقامة على الطريق، وثبات على الأحداث، وثقة بالسند، واطمئنان للحمى، ويقين بالعاقبة، وإن هذا في ذاته لهو الكسب؛ وهو الذي يخسره الكافرون»[1].

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: **(الطهور شطر الإيمان)**، وفي آخر الحديث **(كل الناس يغدوا، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها)**[2].

ثانيًا: التكذيب:

إن التكذيب والجحود سواء أكان بالله أم بآياته أم برسله أم بالبعث من أقبح أنواع التكذيب، وهو سبب رئيس للخسران في الدنيا والآخرة، ونبين خطورة هذا السبب فيما يأتي:

١. التكذيب بالله تعالى.

إن التكذيب بالله تعالى وعدم طاعته فيما أمر لهو أكبر خسران يناله الإنسان في حياته.

أما أولئك الذين حسبوا أنهم خلقوا لغير طاعة ولا عبادة، فينكر الله عليهم ذلك بقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ۝١١٦﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦].

وإن ترك العبادة والطاعة لله يوقع الإنسان في خسران لا يحمد عقباه في العاجل والآجل.

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩﴾ [الطلاق:٨-٩].

يخبر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية عن كثير من أهل القرى الذين خالفوا أمر ربهم، يعني: أبت وعصت عن أمر ربها، وقيل: العتو المعصية، وقيل: العتو مجاوزة الحد في المعصية، وقيل: أعرضت عنه على وجه العتو والفساد، وقيل: تمردت وطغت واستكبرت عن اتباع أمر الله ومتابعة رسله، فكذّبوهم ولجوا في طغيانهم يعمهون.

فحاسبها الله حسابًا عسيرًا، أي: جازاها الله بعملها، ويقال: حاسبناها في الآخرة حسابًا شديدًا، وقيل: بالاستقصاء والمناقشة، وعذّبها عذابًا نكرًا، وعبّر بالماضي عن المستقبل: دلالة على التحقيق[3].

ثم بيّن الله سبحانه وتعالى أن هذا جزاء ما كسبت أيديهم، فقال: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩﴾ أي: فجنت ثمار ما غرست أيديها، ولا يجنى من الشر إلا الشر، كما جاء في أمثالهم: «إنك لا تجني

(١) في ظلال القرآن، ٢١/ ٢٧٤٧.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم ٥٣٤.

(٣) انظر: تفسير المراغي، ٢٨/ ١٤٩، الأساس في التفسير، سعيد حوى، ١٠/ ٥٩٨٣.

من الشوك العنب»[1]، «فكان عاقبة أمرها الخسران والنكال الذي لا يقدر قدره»[2].

وقيل: «المراد: حساب الآخرة وعذابها، وما يذوقون فيها من الوبال، ويلقون من الخسر»[3].

٢. التكذيب بآيات الله.

إذا أردنا التعرف على المقصود بآيات الله، ترى هل يقصد بها كلام الله الموحى به إلى رسله ليبلغوا عنه شرعه ودينه عليهم الصلاة والسلام فقط؟

لا شك أن هناك معنى آخر للآيات، فإن آيات الله قد تشمل العلامات، والأدلة، والبراهين التي أبرزها الله لعباده من أجل هدايتهم؛ لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾[فصلت:٥٣].

ولكن هناك من ختم الله على قلوبهم فجحدوا بهذه الآيات، وكفروا بها، بل أنكروها وكذبوا من أتى بها أو أبرزها لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾[الأنعام:٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾[الأنعام:٢٥].

فكانت عاقبتهم الضياع والهلاك، بخسران أنفسهم وأهليهم، وخسران كل شيء من رحمة الله، ومغفرته، والفوز بجنته يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾[آل عمران:٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾[آل عمران:١٩].

وسنتناول الآيات التي تبرز الخسران الذي سوف ينالونه من وراء كفرهم بآيات الله، وذلك فيما يأتي.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾[يونس:٩٥].

الخطاب في هذه الآية موجه للنبي صلى الله عليه وسلم، لكن المراد به غيره؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم على يقين مما جاء به أنه الحق، فبعد أن اشتد الموقف وتأزم في مكة بعد حادثة الإسراء، وبعد وفاة خديجة رضي الله عنها، وأبي طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، واشتداد الأذى على الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه، وبعد تعثر الدعوة في مكة بسبب عناد قريش.

فبعد هذا كله يوجّه الله سبحانه خطابه

(١) المستقصى في أمثال العرب، الزمخشري، ١/ ٤١٦.
(٢) تفسير المراغي، ٢٨/ ١٤٩.
(٣) الأساس في التفسير، سعيد حوى، ١٠/ ٥٩٨٣.

إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأن لا يكون من الشاكّين في صحة الإسلام، وأنه الدين الحق الذي يأبى الله إلا أن يظهره على الدين كله، ولو كره المشركون.

قال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [يونس: ٩٤].

وقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ نفسًا وعملًا، وهذا كله من باب التهييج والتثبيت، وقطع أطماع المشركين عنه، وقيل: «المراد ممن عنده شك وارتياب، وقد كان الناس في أول عصر النبي صلى الله عليه وسلم على ثلاث فرق: مصدّقين، ومنكرين، ومتوقفين، فخاطبهم الله تعالى بهذا الخطاب»[(١)].

ومن الآيات الدالة على خسارة الكافرين المكذّبين بآيات الله، قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الزمر: ٦٣].

٣. التكذيب برسل الله.

إن التصديق برسل الله والإيمان بهم جميعًا هو ركن من أركان الإيمان، والتكذيب بهم ينفي الإيمان.

قال تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس: ٣٠].

وقال أيضًا: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

فكل من وقع في الاستهزاء برسل الله وكذبهم في رسالتهم، لا شك أنه سيخسر خسرانًا مبينًا بدخول جهنم، وبئس المصير.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف: ١٠٦].

وقد ذكر الله ذلك الخسران لهؤلاء المستهزئين بشكل واضح وصريح في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنعام: ١٠-١٢].

يخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن أهل الكفر الذين كثيرًا ما

---

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ١١/ ١٨٢٠، أيسر التفاسير، الجزائري، ٢/ ٥٠٨، صفوة البيان لمعاني القرآن، لحسنين مخلوف، ص ٢٨٣، المقتطف من عيون التفاسير، للمنصوري، ٢/ ٤٩٨.

سخروا من قبل بالرسل السابقين، وهذا من باب التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، لما كان فيه من بلاء وابتلاء، فقد ابتلي من المشركين بالإنكار والمعاندة، وطلب الآيات المعجزات، ولا يقصدون بذلك إلا المهاترة، وقد سبق إنكارهم كلّ دليل يساق إليهم، فابتلى الله النبي صلى الله عليه وسلم باستهزائهم والسخرية منه، وقد أكد الله سبحانه وتعالى الاستهزاء بالرسل بـ(قد) وبـ(اللام) في قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.

وبسبب هذا الاستهزاء نزل ما نزل من عذاب بأمر الله، وبأيدي المؤمنين حيث أحاط بهم الأثر المؤلم بسبب سخريتهم[1].

«ثم يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهؤلاء المستهزئين: سافروا في الأرض، وانظروا آثار من كان قبلكم لتعرفوا ما حل بهم من العقوبات، وكيف كانت عاقبتهم بعد ما كانوا فيه من النعيم العظيم الذي يفوق ما أنتم فيه، فهذه ديارهم خاربة، وجناتهم مغبرة، وأراضيهم مكفهرة، فإن كانت عاقبتهم هذه العاقبة فأنتم بهم لاحقون، وبعد هلاكهم هالكون»[2].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

جعل الله الكفر في هذه الآية نتيجة للخسران، فالخسران بدايته، والكفر نهايته، أو هما متلازمان، فالخسران سابق ولاحق؛ لأنه يترتب على الكفر خسران متضافر.

والخسران الذي يسبق الكفر، هو خسران الفطرة، فلا يكفر بالدليل القاطع إلا بخسران فطرته، وخسران الإدراك السليم، وخسروا عقولهم إذ سيطرت الأوهام عليهم، وخسروا نفوسهم فصارت معوجة، وخسروا قلوبهم فصارت مظلمة، وإذا كانت كل مداركهم قد سدّت فهم لا يؤمنون؛ لأن الإيمان يحتاج إلى قلب مخلص، وعقل مدرك، وإذعان للحق إذا بدت معالمه، وظهرت أماراته.

﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عبر بالمضارع للإشارة إلى أنهم لا يكون الإيمان شأنًا من شئونهم على الدوام؛ ذلك لأن من امتلأت نفسه بالأوهام، وصارت عشًّا لها، وضلت عقولهم لا يمكن أن تذعن لشيء، بل هي دائمًا مضطربة حائرة تنتقل من ضلال إلى ضلال[3].

٤ . التكذيب بالبعث.

يؤمن المسلم بأن لهذه الحياة الدنيا ساعة أخيرة تنتهي فيها، ويومًا آخرًا ليس بعده من يوم، ثم تأتي الحياة الثانية في الدار الآخرة،

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ٦/ ٣٥١٨، زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ٥/ ٢٤٤٤.
(٢) فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ١١٨.
(٣) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ٥/ ٢٤٥٠.

فيبعث الله سبحانه الخلائق بعثًا، ويحشرهم إليه جميعًا ليحاسبهم، فيجزي الأبرار بالنعيم المقيم في الجنة، ويجزي الفجّار بالعذاب المهين في النار[1].

ولكن هناك من ينكر البعث، ويكفر به، معتقدًا أن الحياة الدنيا هي الحياة الباقية، ولا حياة أخرى بعدها.

قال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن:٧].

إنهم أخطأوا فيما اعتقدوه؛ لأن الأدلة والبراهين تثبت بأن هناك حياة أخرى، يحاسب الإنسان فيها على أعماله في الحياة الدنيا، وأنها هي الحياة الباقية الدائمة بعد الحياة الزائلة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة:١-٨].

ومن أصر على كفره وجحوده بالبعث فقد خسر خسرانًا مبينًا.

قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام:٣١].

تصور لنا هذه الآية مشهدًا من مشاهد يوم القيامة للكافرين الذين يكذبون باليوم الآخر، وينكرونه، ألا وهو يوم الحساب والجزاء، وبهذا خسروا كل ما ربحه المؤمنون من فوز وثواب لتفريطهم في طاعة الله وعمل الخير؛ فكانوا كالحيوان الذي يعيش ليأكل وليس له غاية أسمى وأعظم من ذلك، فيفقد كل المعنويات العالية، ولأنه يرتع في الشهوات الموبقة؛ ولأنه يكون في تناحر مستمر، إذ لا يخشى الله ولا يرهب عقابه، وأخيرًا يخسر رضوان الله وجنته، ويتلقى العذاب الذي يقع عليه يوم تقوم الساعة[2].

«وقد وصفوا بالخسران؛ لأنهم باعوا الإيمان بالكفر، فعظم خسرانهم في ذلك البيع»[3].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي: حتى فوجئ الكافرون بالساعة، أي: الوقت الذي تقوم فيه القيامة، والتي لا يعلم أحد مجيئها غيره سبحانه وتعالى.

فإن قيل: الساعة تجيء من غير علم بوقتها للجميع، فكيف تكون بغتة للذين كذبوا بلقاء الله دون غيرهم.

---

(١) انظر: منهاج المسلم، الجزائري، ص ٣٩.

(٢) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ٥/ ٢٤٨٠، المبصر لنور القرآن، نائلة صبري، ٧/ ٩٦.

(٣) الوسيط، الواحدي ٢/ ٢٦٣.

الجواب على ذلك: إن الذين آمنوا بلقاء الله تعالى يتوقعونها، وإن لم يعلموا بوقتها، أما الذين كذّبوا فهم يكفرون بها فيفاجئون بها، وإن الذين آمنوا يرجون لقاء ربهم، ويرجون رحمته، وأما الذين كفروا بلقاء الله تعالى فلا رجاء عندهم.

وقد عبّر عن قيام الساعة واليوم الآخر بلقاء الله تعالى، تشريفًا لذلك اليوم، وفيه ترغيب في الإيمان باللقاء، وترهيب من تكذيبه، وسميت القيامة ساعة؛ لأنها تحمل أشد الأهوال؛ ولأنها فاصلة بين نوعين من الحياة، حياة فانية وأخرى باقية، حياة عمل، وحياة جزاء[(١)].

وقيل: «لأنها تفاجئ الناس بغتة في ساعة لا يعلمها أحد إلا هو تعالى»[(٢)].

﴿قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ يعني: منكري البعث، وهم كفار قريش، ومن سلك سبيلهم في الكفر والاعتقاد، فقالوا: يا ندامتنا ويا حسرتنا على ما قصرنا في الحياة الدنيا؛ إذ لم نكتسب من الاعتقادات والأخلاق والأعمال ما ينجينا، أو على ما فرطنا في شأنها، ومراعاة حقها، والاستعداد لها، بالإيمان بها، واكتساب الأعمال الصالحة، وعلى ما فاتنا من تهذيب الأخلاق المهيئة للسباق، ولا خسران أعظم من هذا»[(٣)].

ثالثًا: فعل المحرمات:

حذّرنا الله سبحانه وتعالى من ارتكاب المحرمات وفعلها، وذلك كالزنا وشرب الخمر واللواط والقتل والربا؛ لأنها سبب في خسران الإنسان لدنياه وآخرته، وفي نيل غضب الله وسخطه، فلابد من إبرازها وتوضيحها لأخذ الحيطة والحذر من الوقوع فيها؛ وذلك لأجل النجاة يوم القيامة من عذاب الله، والفوز برضوانه والجنة.

وسوف نورد -إن شاء الله- بعضًا من هذه المحرمات بصورة مختصرة وبيان الخسران المترتب على فعلها وارتكابها.

١ . قتل النفس.

إن الإسلام حفظ للنفس الإنسانية حرمتها، إذ أعلى من شأن الإنسان لمجرد آدميته، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء:٧٠].

وعلى قدر ما أعلى الإسلام من قدر الإنسان، فإنه اشتد في النكير على من يعتدي على حياته بغير حق، فجعل الله قتل النفس الواحدة بمثابة قتل الناس جميعًا؛

(١) انظر: المصدر السابق، ٢/ ٢٦٤، زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ٥/ ٢٤٨١.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي، ٦/ ٢٢٨٥.
(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ٢/ ٦٢٥، محاسن التأويل، القاسمي، ٦/ ٢٢٨٦.

لقوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة:٣٢].

ولم يأت القرآن بوعيد أشد من الوعيد الذي أنذر به قاتل النفس المؤمنة، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء:٩٣].

ولقد جاءت السنة النبوية بأحاديث عديدة، ترفع من شأن النفس البشرية، وفيها من الكشف عن فظاعة العدوان على الدماء البريئة ما يريع المشاعر، ويقرع القلوب قرعًا، حتى اعتبرت أن الدنيا كلها أهون عند الله من قتل نفس إنسانية، تقتل بغيًا بغير حق، عن عبدالله بن عمرو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم بغير حق)**[(١)].

قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأنعام:١٤٠].

فهذه الآية تبين لنا الخسارة التي ينالها الإنسان في الدنيا والآخرة لكونه ارتكب جريمة شنعاء، ألا وهي قتل الأولاد بغير ذنب، وهي نفس حرم الله قتلها بغير حق.

يقول محمد رضا: «هذه الآية حكمت على مشركي العرب حكمًا حقًّا وعدلًا، وهو أنهم خسروا بقتل أولادهم وبوأد البنات، خسرانًا يستلزم خسران كلّ ما كان يرجى من فوائدهم من العزة والنصرة، والبر والصلة والفخر والزينة، والسرور والغبطة، كما يستلزم خسران الوالد القاتل لعاطفة الأبوة ورأفتها، وما يتبع ذلك من القسوة والغلظة والشراسة، وغير ذلك من مساوئ الأخلاق التي يضيق بها العيش في الدنيا، ويترتب عليها العقاب في الآخرة، ولذلك علّل هذا الجرم بسفه النفس، وهو اضطرابها وحماقتها، وبالجهل أي عدم العلم بما ينفع ويضر، وما يحسن ويقبح.

ثم بعد هذا بيّن أنهم حرّموا ما رزقهم الله من الطيبات، وهذا سفه وجهل أيضًا... ثم بيّن نتيجة الأمرين؛ بأنهم قد ضلوا فيهما وما كانوا مهتدين إلى شيء من الحق والصواب من طريق العقل ولا من طريق الشرع، ولا

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الديات، باب ما جاء في تشديد قتل المؤمن، رقم ١٣٩٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٥٠٧٧.

من منافع الدنيا، ولا من سعادة الآخرة»[1].

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن عكرمة في الآية أعلاه قال: «نزلت فيمن كان يئد البنات من مضرٍ وربيعة، كان الرجل يشترط على امرأته أنك تئدين جارية (أي: بنتًا)، وتستحيين (أي: تبقين) أخرى، فإذا كانت الجارية التي توأد غدا من عند أهله أو راح وقال: أنت عليّ كأمي (أي: محرمة) إن رجعت إليك ولم تئديها، فترسل إلى نسوتها فيحفرن لها حفرة فيتداولنها بينهن، فإذا بصرن به مقبلًا دسسنها في حفرتها، وسوّين عليها التراب (أي: وهي حية)، وهذا هو الوأد»[2].

وقيل: هؤلاء الذين صنعوا هذه الأفاعيل قد خسروا في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا: فخسروا أنفسهم وأولادهم بقتلهم، وضيقوا عليهم في أموالهم، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم، وخسروا عقولهم، وأزواجهم، وخسروا الكرامة التي جعلها الله لهم بإطلاقهم من العبودية لغيره، وأسلموا أنفسهم لربوبية العبيد؛ حين أسلموها لحاكمية العبيد، أما في الآخرة، فيصيرون إلى شر المنازل بكذبهم على الله وافترائهم[3].

ومعلوم عن المؤمن أنه يسمع ويطيع أوامر الله جميعًا بدون جدال ولا تهاون؛ لأنه أحرص ما يكون على مضاعفة حسناته وتكثيرها؛ لأنها السبيل إلى دخول الجنة والنجاة من النار، أما غيره فهو متهاون في الاستجابة لأوامر الله، وبالتالي تخف موازين حسناته، وذلك مدعاة إلى أن يخسر آخرته، ويبوء بسخط الله وعذابه، وذلك هو الخسران المبين؛ لقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء: ٨٠].

وقد بيّن الله في كتابه العزيز الخسران المبين لمن لا يستجيب لأوامره في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٧].

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: والفساد في الأرض ألوان شتى، تنبع كلها من الفسوق عن كلمة الله، ونقض عهد الله، وقطع ما أمر الله به أن يوصل.

ورأس الفساد في الأرض هو الابتعاد عن منهجه الذي اختاره ليحكم حياة البشر ويصرفها، وإن الهدم والشر والفساد حصيلة الفسوق عن طريق الله، ومن ثم يستحق أهله أن يضلهم الله بما يهدي به عباده

(١) تفسير المنار ٨/ ١٣٠-١٣١ بتصرف.
(٢) انظر: الدرر المنثور، السيوطي ٣/ ٣٦٦.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٨/ ١٢٢٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٢٤٣.

المؤمنين[1].

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: أي: الهالكون، بحرمان الله إياهم من رحمته لكفرهم ومعصيتهم إياه وارتكاب ما نهى عنه[2].

ذكر الرازي في كتابه: «أن معنى ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: في تجارتهم حيث باعوا الشريف الباقي بالخسيس الفاني، وقيل: هم الخاسرون في إنكار ما قال به رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوحيد والبعث»[3].

٢. الإلتهاء بالأموال والأولاد عن ذكر الله.

وأما بالنسبة للأولاد، فالله يمنح الإنسان أولادًا ليكونوا له زينة في الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف:٤٦].

قال ابن تيمية: «وما كان ملهيًا وشاغلًا عما أمر الله تعالى به من ذكره والصلاة له فهو منهي عنه، وإن لم يكن جنسه محرمًا: كالبيع، والعمل في التجارة، وغير ذلك»[4].

والأموال والأولاد ملهاة ومشغلة إذا لم يستيقظ القلب، ويدرك غاية وجوده، ويشعر أن له هدفًا أعلى يليق بالمخلوق الذي نفخ الله فيه من روحه، فأودع روحه الشوق إلى تحقيق بعض صفاته الإلهية في حدود طاقته البشرية، وقد منحه الأموال والأولاد ليقوم بالخلافة في الأرض لا لتلهيه عن ذكر الله، وذكر الأموال والأولاد في الآية؛ لأنها أرغب الأشياء، وإن ألهته عن ذكر الله ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: خسروا آخرتهم وفضلوا دنياهم عليها، فضلوا الدنيا، وهي العاجلة الفانية على الآخرة، وهي الآجلة الباقية، خسروا كل شيء، مهما يملك من أموال ومن أولاد[5].

وقال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾ [نوح:٢١].

إذًا لا فائدة من كثرة الأموال والأولاد؛ لأنها لن تغني الإنسان من الله شيئًا ومن عذابه وخسرانه في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [المجادلة:١٧].

الأصل في المؤمن أنه وقّاف عند حدود الله، فلا يحلّ إلا ما أحلّ الله، ولا يحرّم إلا ما حرّم الله، لكن إن تنكب الطريق، وسار

(١) انظر: جامع البيان، ١/ ٢٢٢، في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٥٢.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١/ ٢٢٢.
(٣) مفاتيح الغيب، ٣٠/ ١٨.
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٢/ ٢٣٥.
(٥) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢٨/ ٣٥٨٠، المبصر لنور القرآن، نائلة صبري، ٢٨/ ٢٣٨.

في درب معوج، فوقع في محارم الله، وتنكر لما شرع الله افتراءً على الله، فهؤلاء قد باءوا بسخط من الله؛ لأنهم ضلّوا الطريق إلى الله، فيخسروا أعمالهم في الدنيا والآخرة خسارة تقودهم إلى جهنم وبئس المصير.

٣. الصد عن سبيل الله.

وهذه مشكلة واقعية قديمًا وحديثًا، وإن أعداء هذا الدين، يتربصون الدوائر بالإسلام والمسلمين، ويترصدون المسلمين في كل مكان؛ ليصدوهم ويفتنوهم عن دين الله، فبدأ هذا الصراع منذ بدء الخليقة، ومع كل الأنبياء، واستمر عبر العصور والأجيال حتى يومنا هذا، فهذه إذن طبيعة الدعوات وطريق النبوات[1].

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ١٩ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ٢٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ٢١ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ٢٢﴾ [هود:١٩-٢٢].

يوضح الله سبحانه وتعالى في هذه الآية جناية هؤلاء الذين استوجبوا بها النار فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يصرفون أنفسهم وغيرهم عن الدين الإسلامي، ويبغون أن تصير سبيل الله عوجاء، كما يهوون ويشتهون، فهم يريدون من الإسلام أن يبيح لهم المحرمات من الربا، والزنا، والسفور، ويريدون من الإسلام أن يأذن لهم في عبادة القبور، والأشجار، والأحجار إلى غير ذلك، ويضاف إلى هذا ذنب أعظم وهو كفرهم بالدار الآخرة، منكرين للبعث والنشور، فقد جمعوا بين الضلال والإضلال[2].

ثم بعد ذلك يبيّن الله حال هؤلاء المشركين في الآخرة؛ بأنهم استقروا في دار الشقاء، فخسروا كل شيء حتى أنفسهم بدخولها نار جهنم -والعياذ بالله- وخسروا سعادة الدنيا والآخرة، باشتراء الضلالة بالهدى، ويا له من خسران مبين! وشقاء واضح!، وضاع وغاب عنهم ما كانوا يزعمون أن لهم شركاء، وأنهم يشفعون لهم وينصرونهم.

ثم يؤكد الله سبحانه وتعالى في قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ أنهم الأكثر خسرانًا من غيرهم؛ لأنهم أضافوا إلى جريمة كفرهم،

(١) انظر: الصد عن سبيل الله في ضوء القرآن الكريم، عبد السلام اللوح، وزكريا الزميلي، مجلة الجامعة الإسلامية، غزة، ص ٣٣.

(٢) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ٢/ ٥٣٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٢/ ٣٤.

جريمة تكفير غيرهم ممن كانوا يدعونهم إلى الضلال، ويصدونهم عن الإسلام سبيل الهدى والنجاة من النار، وبهذا كانوا أخسرين، أي: شديدي الخسارة؛ لأنهم قد اجتمع لهم من أسباب الشقاء والعذاب ما اقترفته الأمم الضالة، ولأنهم شقوا من حيث كانوا يحسبونه سعادة.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤].

وبهذا اجتمعت لهم خسارة الدنيا والآخرة[(١)].

٤ . طاعة الشيطان.

وإن اتباع الشيطان وطاعته من أشد الأمور عداوة لله؛ ذلك أن الشيطان هو عدو الله في الأرض الذي رفض أمر الله بالسجود لآدم يوم خلقه الله، فطرده الله من رحمته ولعنه إلى يوم الدين، وقد أخذ الشيطان على عاتقه، وأقسم بعزة الله أن يغوي بني آدم إلا المخلصين منهم.

قال تعالى وصفًا لما حدث: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص:٧٣-٨٣].

إذن هي عداوة قديمة ومتأصلة، وقد نهى الله عن اتباعه والسير على منهجه الكفري الضال، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة:١٦٨-١٦٩].

وقد بيّن الله لنا سبب هذا النهي، لكونه يأمر بالفحشاء والمنكر، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور:٢١].

ومع هذا التحذير والنذير إلا أن بعض الناس لا يطيب له إلا أن يتبع كل شيطان مريد، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحج:٣-٤].

---

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ٢/ ٥٣٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٢/ ٣٨، المقتطف من عيون التفاسير، المنصوري، ٢/ ٥١٨.

فكل من يقع في هذا النهي الإلهي، ويتبع خطوات الشيطان فإنه خاسر لا محالة؛ لأنه عصى الله بذلك، وأطاع عدوه.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النساء:١١٩].

يعني: من يواليه ويتبع وسوسته، ويطعه، ويترك أمر الله، وقيل: بإيثاره ما يدعو إليه على ما أمر الله به، ومجاوزته عن طاعة الله سبحانه وتعالى إلى طاعته، فقد خسر خسرانًا مبينًا ظاهرًا في معاشه ومعاده، إذ يكون أسير الأوهام، والخرافات يتخبط في عمله على غير هدى، فيفوته الانتفاع التام بما وهبه الله من العقل، وسائر القوى والمواهب، وقيل: بدّل مكانه من الجنة بمكان من النار[1].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة:١٩].

فكذلك يصنع الشيطان بمن استحوذ عليه، فعن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من ثلاثة في قرية، ولا بدو، لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة، فإنه يأكل الذئب من الغنم القاصية)[2].

٥ . طاعة الكافرين.

حذّر الله من طاعة المؤمن للكافرين وموالاتهم؛ لأنها تجعله في معصية لله، وقد نهى عن ذلك في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران:٢٨].

فإن والى المؤمن الكافر ظنًّا أنه يبتغي عنده العزة فهو واهم؛ لأن العزة لله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء:١٣٩].

وقد نهى الله عن موالاة الكافرين وطاعتهم؛ لأنهم يصدون المؤمنين عن دين الله، ويخرجونهم من ديارهم، ويظاهرون على إخراجهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة:٩].

حقًّا إنه من يوالي الكافرين، فإنه قد ضل عن سواء السبيل، وسيخسر عمله في الدنيا

(١) انظر: تفسير المنا، محمد رشيد رضا، ٥/ ٤٣٠.

(٢) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الإمامة، باب التشديد في ترك الجماعة، رقم ٨٤٧. وحسنه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، رقم ١٠٦٧.

والآخرة، وذلك هو الخسران المبين؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩﴾[آل عمران:١٤٩].

يحذّر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية المؤمنين أن يطيعوا الذين كفروا، يعني: مشركي العرب، أبا سفيان وأصحابه، وقيل: اليهود والنصارى، وقال علي رضي الله عنه: يعني: المنافقين في قولهم للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى دين آبائكم[(١)].

«فالطاعة: تطلق على امتثال أمر الآمر، وعلى الدخول تحت حكم الغالب، فيقال: طاعت قبيلة كذا، وطوّع الجيش بلاد كذا»[(٢)].

فالكفر والإيمان نقيضان لا يجتمعان، ولا يكونان في قلب رجل واحد، ولذلك الآية الكريمة تحذر المؤمنين تحذيرًا عامًّا بألاّ يطيعوا الكافرين، ولا يستنصروا بهم، ولا يجعلوا لهم ولاية عليهم؛ لأن ولايتهم غير ولاية الله، وولاية الله هي الولاية الحق، وهم موضع غضب الله تعالى دائمًا، والذي يتولاهم ويستنصر بهم، فإنه يتولى قومًا غضب الله عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ١٣﴾[الممتحنة:١٣].

والمعنى في هذا، هو التحذير من مسايرة الكافرين بأي نوع من أنواع المسايرة؛ إذ كل مسايرة طاعة، ولا يليق بالمؤمن أن يطيع كافرًا؛ لأنه يجب أن يكون في حذر دائم.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى نتيجة طاعة الكافرين في أي عصر من العصور إن كان هناك احتمال لذلك، فذكر في جواب الشرط نتيجتين، كلتاهما مترتبة على الأخرى، أولاهما: أشار إليها بقوله تعالى: ﴿يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾، والثانية المترتبة عليها: أشار إليها بقوله تعالى: ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

فالنتيجة الأولى: ردهم على أعقابهم، فمعناها: أن يرجعوا إلى موضع الذلة الذي كانوا فيه قبل أن يؤذن لهم بالجهاد، أو يرجعوا إلى ما كانوا عليه في غير انتظام وفي اضطراب.

والنتيجة الثانية: هي الانقلاب خاسرين، والتعبير بالانقلاب: يفيد أن طاعة الكافرين حتمًا فيها تغيير حال أصل الإيمان، فجعل أعلى ما فيهم أسفل، وأن هذا الانقلاب تلابسه لا محالة الخسارة المؤكدة التي لا احتمال فيها؛ إذ يخسر المؤمنون إيمانهم، ويخسرون من وراء ذلك الآخرة، وينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ١٤٩.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٤/ ١٢١.

﴿انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج:١١][(١)]،

وقوله أيضًا: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [المائدة:٥٣].

٦. الكفر بالأنبياء والرسل.

إن الإيمان بالأنبياء فهو ركن من أركان الإيمان، فإن اختل هذا الركن اختل إيمان الإنسان؛ وذلك لأن الأنبياء هم رحمة الله إلى عباده؛ ليقودوهم إلى رضوان الله والجنة، والنجاة من سخطه والنار، قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة:٢٨٥].

هذا حال المؤمنين الصادقين في إيمانهم، أما غيرهم فقد يكفر ويكيد بأنبياء الله والصالحين، فيقع في الكفر والخسران.

رابعًا: ترك الواجبات:

أمرنا الله سبحانه وتعالى بالقيام بكل الواجبات المفروضة علينا من عمل الصالحات والإكثار من فعلها بكل حكمة ورزانة؛ لأنه بهذا الأمر نستطيع أن نجنّب أنفسنا الخسران المبين، والهلاك والدمار، ومن لم يستجب ينال ما يستحق وسنورد بعضًا من ذلك:

فالخسران المبين لمن يتخذ الصلاة هزوًا ولعبًا دون خشوعٍ وتقوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المائدة:٥٨].

فالويل والهلاك للذين لا يطيعون الله في أوامره ويتهاونون في تطبيق واجباته؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون:٤-٥].

فتكون نتيجته الضلال والهلاك يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون:٩].

تضمنت هذه الآية تحذيرًا للمؤمنين أن يتخلقوا بأخلاق المنافقين بانشغالهم بالأموال عن ذكر الله والصلوات والطاعات وجميع الفرائض، وقد اختلف المفسرون فيمن نزلت، فمنهم من قال: نزلت في حق المنافقين، ومنهم من قال: نزلت في حق المؤمنين[(٢)].

والراجح أنها نزلت في حق المؤمنين

(١) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ٣/ ١٤٤٤.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٣٠/ ١٨، المبصر لنور القرآن، نائلة صبري، ٩/ ٢٣٧.

تحذّرهم، وخاصة أن الآية ابتدأت بالخطاب الموجه لهم، وأيضًا الآيات السابقة كانت تتحدث عن قبائح وأعمال المنافقين، فكان حريًّا أن يتم تحذير المؤمنين من التشبه بالمنافقين.

وقد حكم الله بكفر من لا يستجيب لأمره بدفع الزكاة، وبالتالي سينال جهنم، ويكون من الخاسرين؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ۝٧﴾ [فصلت:٧].

والصبر فضيلة من الفضائل، وخلق من الأخلاق التي عني بها القرآن الكريم، فالهلاك لمن يترك الصبر ولا يتحمل ما أصابه الله به؛ لأنه سيؤدي به إلى أن يسخط على الله، ويخرج من دائرة الإيمان، ويصل به إلى اليأس والقنوط من رحمة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ۝٤٩﴾ [فصلت:٤٩].

وهذا لا يكون إلا من الضالين كما وصفهم الله في كتابه.

قال تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾ [الحجر:٥٦].

ويجب ألا نكون منهم لتركنا واجبًا مفروضًا علينا التمسك به، وبالتالي ننال الخسران في الدنيا والآخرة.

والتمسك بميثاق الله أيضًا من الواجبات المفروضة علينا، فمن نقض عهد الله وميثاقه تحلى بصفة من صفات المنافقين الخارجين عن حدود الله، ولابد من توضيحها؛ حتى نحذر من ارتكابها لتتجنب الخسارة في الدنيا والآخرة، فكيف سيكون حال مجتمع لا يفي فيه الناس بعهودهم فيما بينهم، فإنه ستنعدم ثقة بعضهم ببعض، فقد أمر الله سبحانه وتعالى في كثير من آياته، وكذلك نبيه صلى الله عليه وسلم بالوفاء بالعهود.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ۝٣٤﴾ [الإسراء:٣٤].

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝٩١﴾ [النحل:٩١].

وعدّ النبي صلى الله عليه وسلم الخلف بالوعد من علامات النفاق، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: **(آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان)**[١].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝٢٧﴾ [البقرة:٢٧].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم ٢١١.

فسؤال يطرح نفسه، فأي عهد من عهود الله ينقضون؟ وأي أمر مما أمر الله به أن يوصل هو الذي يقطعون؟ وأي لون من الفساد في الأرض هو الذي يفسدون؟

وعهد الله المعقود مع البشر يتمثل في عهود كثيرة: إنه عهد الفطرة المركوز في طبيعة كل حي، أن يعرف خالقه، وأن يتجه إليه بالعبادة، وما تزال هذه الفطرة مركوزة في الاعتقاد بالله، ولكنها تضل وتنحرف فتتخذ من دون الله أندادًا وشركاء، وعهد الاستخلاف الذي أخذه الله على آدم، وعهوده الكثيرة في الرسالات لكل قوم أن يعبدوا الله وحده، وأن يحكّموا في حياتهم منهجه وشريعته، وهذه العهود كلها هي التي ينقضها الفاسدون[1].

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾: يقول الطبري: «مقصودٌ به كفارهم ومنافقوهم، ومن كان من أشياعهم من مشركي عبدة الأوثان على ضلالهم، غير أن الخطاب -وإن كان لمن وصفت من الفريقين- فداخل في أحكامهم، وفيما أوجب الله لهم من الوعيد والذم والتوبيخ، كل من كان على سبيلهم ومنهاجهم من جميع الخلق وأصناف الأمم المخاطبين بالأمر والنهي»[2].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾: أي: الهالكون، بحرمان الله إياهم من رحمته لكفرهم ومعصيتهم إياه وارتكاب ما نهى عنه[3].

وقيل: «أي: خسروا سعادتهم في الآخرة؛ حيث عرّضوا أنفسهم لعذاب جهنم المؤبد، ولا خسارة أعظم ممن خسر دنياه وآخرته، وقصر الخسران عليهم في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾؛ لأنهم بإهمالهم للعقل، خسروا الحياة الأبدية»[4].

خامسًا: عدم مغفرة الله ورحمته للعبد:

معروفٌ أن الإنسان المؤمن الصالح بطبيعته حريصٌ على أداء الطاعات والعبادات، وفعل ما أمر الله به والابتعاد عما نهى عنه؛ لأن غايته من وراء ذلك كله الحرص على كسب رضوان الله سبحانه وتعالى والحصول على مغفرته ورحمته يوم القيامة، والفوز بجنته، وإن نسي أو أخطأ وغفل الإنسان، وهذا ليس عيبًا فيه؛ لأنه ضعيف يدخل إليه الشيطان، فيدرك خطأه، ويعرف زلته، نجده يسارع في الندم وطلب العون من ربه والمغفرة، وبالتالي إنه يثوب ويتوب، على عكس الإنسان الذي ينغمس في ملذات الدنيا وشهواتها، ويحرص كل

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٥١.
(٢) جامع البيان، ١/ ٢٤٢.
(٣) انظر: المصدر السابق ١/ ٢٢٢.
(٤) المقتطف من عيون التفاسير، المنصوري، ١/ ٦٠.

الحرص على التمتع بالحياة الدنيا وزينتها، وبهذا يغفل عن أداء العبادات والطاعات، ولا يحرص على تجنب المحرمات، فتكون نتيجته أنه خسر وضاع، وذلك بفقدان أعظم شيء، ألا وهو مغفرة الله ورحمته، وفقدان الفوز بجنته ورضوانه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف:٢٣].

فهذه الآية الكريمة تدل على ندم آدم وحواء على فعلتهما، فسارعا إلى التوبة والستر والغفران، على عكس مطلب إبليس طلب الإنظار ولم يطلب التوبة، وهذه خصيصة «الإنسان» التي تصله بربه، وتفتح له الأبواب إليه، الاعتراف، والندم، والاستغفار، والشعور بالضعف، والاستعانة به، وطلب رحمته، مع اليقين بأنه لا حول ولا قوة إلا بعون الله ورحمته وإلا كان من الخاسرين[1].

فهذه طبيعة الإنسان المؤمن فإنه إذا أخطأ أو غفل يسارع إلى طلب المغفرة والرحمة من الله تعالى.

ولكن هناك الكثير من الأمور يتساهل الناس في فعلها تكون سببًا في فقدانهم لمغفرة الله ورحمته، إذًا لابد من الحرص والحذر.

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٨/ ١٢٧٠.

سادسًا: الدعوة إلى الباطل وترك الحق:

الدعوة إلى الباطل الذي هو نقيض الحق سبب في خسران الإنسان، فإن الباطل هو الطاغوت سواء أكان ذلك شيطانًا أم صنمًا، أم معتقدًا، أم معبودًا غير الله، وهو نقيض الإيمان بالله تعالى، وإن اعتقاد الباطل والعمل به يخرج الإنسان عن دينه وإيمانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [النحل:٧٢].

فالنتيجة التي ينالها هؤلاء هي الخسران المبين.

سابعًا: خفة الموازين:

خفة موازين الإنسان يوم القيامة نتيجة عدم الإكثار من الطاعات، والعبادات، وكسب الحسنات، مما يؤدي إلى أن تكون سيئاتهم أكثر من حسناتهم، وبالتالي تكون خفة موازينه يوم القيامة، ونيل الخسران المبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف:٩].

يقول الله سبحانه وتعالى في هذه الآية: من خفت موازين أعماله الصالحة، فلم تثقل بإقراره بتوحيد الله والإيمان به، وبرسوله، فأولئك الذين غبنوا أنفسهم حظوظها من

جزيل ثواب الله وكرامته؛ بسبب كونهم بحجج الله وأدلته يجحدون، فلا يقرّون بصحتها ولا يوقنون بحقيقتها[1].

ومن خفت موازينهم خسروا بسبب ظلمهم، وتضييع فطرة الإسلام التي ما من مولود إلا يولد عليها، أو فطرة الخير الذي هو أصل الجبلة، والمراد بالخسران: كونه في الهاوية من النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون:١٠٣-١٠٤][2].

ثامنًا: الأمن من مكر الله:

إن المؤمن يتفطن دائمًا لمقام قدرته سبحانه وتعالى، فإذا عصى يتوقع عذاب الله تعالى بسبب عصيانه، ويتخوف ولا يأمن أن تنزل به العقوبة، ولفرط حسّه بمعصيته، وإيمانه بالله يخاف دائمًا عذابه، ولا يرجو أن يمهله الله وقد عصاه، على عكس الكافر تمامًا، فإنه يعصي، ويرى عصيانه حسنًا، وينسى قوة الله، وأنه يعاند ويحارب أمره ونهيه، ناسيًا أنه يعاند القوي القهار القادر الذي هو غالب على كل شيء، وأنه لا إرادة لمخلوق بجوار إرادته سبحانه وتعالى وعلى ذلك يأمن عذاب الله ومكره.

قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [النحل:٤٥].

فيلاقي العذاب الشديد، وما لا يحسب عقباه.

قال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ [النمل:٥١].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام:١٢٤].

وقوله أيضًا: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف:٩٩].

يوبّخ الله الذين يكذّبون رسله، ويجحدون مكره؛ لأنهم غفلوا عن الحق، ونسوا تدبير الله تعالى المهلك لهم جزاء بما كسبوا، وبما كذبوا بآيات الله، والفاء: في قوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ﴾ جاءت عاطفة يترتب ما بعدها على ما قبلها؛ لأنهم إذا كانوا لم تجدهم النقمة ولا النعمة، ويأس الله يأتيهم في مأمنهم ليلًا وهم نائمون، وضحى وهم يعملون، ومع ذلك لا جدوى فيه، فهو لعب، أو كاللعب، فهم لا يأمنون المكر الإلهي.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٥/ ١٤٥.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي، ٥/ ١٢٦، أضواء البيان، الشنقيطي، ٢/ ٢٦١.

قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا﴾ استفهام إنكاري بمعنى النفي والتوبيخ، فهم لا يأمنون مكر الله، ومكر الله تعالى تدبيره المحكم الذي ينزل به العذاب السريع على من يستحقه، والأمن والطمأنينة لمن يستحقه، وهو الحكيم، وقد فسر بعض المفسرين بأنه العذاب أو البأس الشديد [1].

«والمكر قسمان:

١. مكر سيء: وهو الذي يكون من الأشرار، ونتيجته شر.

٢. ومكر طيب: وهو رد مكر الأشرار، ونتيجته طيبة.

ولقد قال في شأن قريش في تدبيرهم للنبي صلى الله عليه وسلم أن يبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝﴾ [آل عمران: ٥٤] أي: أنهم كانوا يدبرون لإيذاء النبي صلى الله عليه وسلم ويمكرون المكر السيئ الذي لا يحيق إلا بأهله، والله تعالى يدبّر لنبيه نجاته منهم، وهجرته من أرضهم من غير إخراج، حتى يكون الفصل بينه وبينهم» [2].

والكافر يعمل المعصية، ويعتقد أنه آمن، وما يغفل عن مكر الله إلا الذين هلكوا بذنوبهم؛ ولهذا ختم الله الآية بقوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: حكم الله تعالى بخسارتهم، مؤكدًا الخسارة بالقصر، وأن الخسارة مقصورة عليهم، وخسارتهم في أنهم خسروا أنفسهم، فليسوا في حال عقلية مدركة، وخسروا أنفسهم بالاستمرار على غيهم، وخسروا بالعذاب الأليم الذي ينزل، والله سبحانه هو الذي يقي المؤمنين شر الغفلة والنسيان، وأمن عذاب الله، وجعلهم في فطنة دائمة، واعتبار بأمر الله ونهيه، وهو الهادي إلى سواء السبيل [3].

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ٣/ ٧٥، فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٢٦١.
(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ٦/ ٢٩١٠.
(٣) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ٦/ ٢٩١١، المبصر لنور القرآن، نائلة صبري، ٩/ ١٠.

نماذج من الخاسرين في القرآن

من رحمة الله بعباده أنه ذكر في كتابه العزيز الكثير من الأساليب والوسائل، ومنها على سبيل المثال ضرب الأمثال، وسرد القصص، وذكر الأخبار، وذلك لحكمة يريدها الله؛ ليعتبر أولو الألباب، ويتخذوها قدوة لهم في الحياة، وإظهار مدى قدرة الله وعظمته، وإعجاز قرآنه وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [غافر:٧٨].

فإذا جاء الوقت وحان موعد العذاب، ينزله الله على الكافرين لإهلاكهم، وينجي الله رسله، والذين آمنوا معهم، ويهلك الذين افتروا وكذبوا وجحدوا آياته عز وجل وخسر في ذلك العذاب المتمسكون بالباطل على الإطلاق، فيدخل فيهم المعاندون المقترحون دخولًا أوليًّا، لكونهم يجادلون في آيات الله سبحانه وتعالى[(١)].

وسنورد إن شاء الله نماذج من الخاسرين في القرآن في السطور الآتية:

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي، ١٣/ ١٣٥، المبصر لنور القرآن، نائلة صبري، ٢٤/ ١٤٧.

أولًا: قابيل ابن آدم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المائدة:٣٠].

هذه الآية تتحدث عن ابني آدم قابيل وهابيل؛ حيث إن هابيل كان أول من قتل في الأرض.

وقال الماوردي في كتابه: «إن (طوعت) فيها ثلاثة تأويلات، وهي:

أحدها: يعني: شجعت، وهو قول مجاهد.

والثاني: يعني: زينت، وهو قول قتادة.

والثالث: يعني: ساعدته»[(٢)].

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ﴾ أي: زيّنت له وسهّلت عليه القتل، والإنسان إذا تصور أن قتل النفس من أكبر الكبائر صار ذلك صارفًا له عن القتل فلا يقدم عليه، فإذا سهّلت عليه نفسه هذا الفعل فعله بغير كلفة.

وقرئ ﴿فطَاوَعَتْ﴾ على أنه فاعل بمعنى فعل، أو على أن قتل أخيه كأنه دعا نفسه إلى الإقدام عليه فطاوعته ولم تمتنع.

وروي أنه جهل كيف يقتله، فجاء إبليس بطائر -أو حيوان غيره- فجعل يشدخ رأسه بين حجرين؛ ليقتدي به قابيل ففعل، وقال ابن عباس وابن مسعود: وجده نائمًا فشدخ رأسه بحجر، وكان ذلك في ثور «جبل

(٢) النكت والعيون، ٢/ ٣٠، بتصرف.

بمكة». وقيل: عند عقبة حراء، ويقال: إن قابيل كان يعرف القتل بطبعه؛ لأن الإنسان وإن لم ير القتل فإنه يعلم بطبعه أن النفس فانية ويمكن إتلافها، فأخذ حجرًا فقتله، ولما قتله ندم فقعد يبكي عند رأسه، إذ أقبل غرابان فاقتتلا، فقتل أحدهما الآخر، ثم حفر له حفرة فدفنه، ففعل القاتل بأخيه كذلك[(١)].

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: ممن خسر حسناته، وقال مجاهد: علقت إحدى رجلي القاتل بساقها إلى فخذها من يومئذ إلى يوم القيامة، ووجهه إلى الشمس حيثما دارت، عليه في الصيف حظيرة من نار، وعليه في الشتاء حظيرة من ثلج.

قال ابن عطيه: «فإن صح هذا فهو من خسرانه الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وإلا فالخسران يعم خسران الدنيا والآخرة»[(٢)].

ثانيًا: قوم إبراهيم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ۝٧٠﴾ [الأنبياء: ٧٠].

قد روي أن الملك المعاصر لإبراهيم كان يلقب «بالنمرود» وهو ملك الآراميين بالعراق، وأنه قد أهلك هو والملأ من قومه بعذاب من عند الله، تختلف الروايات في تفصيلاته، وليس لنا عليها من دليل.

المهم أن الله قد أنجى إبراهيم من الكيد الذي أريد به، وباء الكائدون له بخسارة ما بعدها خسارة، والكيد هنا: أي مكر عظيم في الإضرار به، وقيل: هو الإضرار الشديد الذي يكون نتيجة الكيد والتدبير الخبيث، فأطلقوا السبب وأراد المسبب وهو الضرر، وكيدهم كان في مغالبتهم له ومجادلتهم، فكانوا هم الخاسرين في هذه المغالبة في الدنيا والآخرة، أي: أخسر من كل خاسر حيث عاد سعيهم في إطفاء نور الحق برهانًا قاطعًا على أنه عليه السلام على الحق وهم على الباطل، وموجبًا لارتفاع درجته، واستحقاقهم لأشد العذاب، والأخسرون جمع أخسر، والمراد: من بلغوا أقصى درجات الخسران[(٣)].

وقيل: ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ أي: في أعمالهم، ورددنا مكرهم عليهم بتسليط أضعف خلقنا، قال ابن عباس: سلّط الله عليهم أضعف خلقه البعوض، فما برح نمرود حتى رأى عظام أصحابه وخيله تلوح، أكلت لحومهم وشربت دماءهم، ووقعت واحدة في منخره فلم تزل تأكل

---

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٣١٧، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ٤٦١.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٨٠.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ١٧/ ٢٣٨٨، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤/ ٦٨٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٦٩، زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ٩/ ٤٨٩٢.

إلى أن وصلت دماغه وكان أكرم الناس عليه الذي يضرب رأسه بمرزبة من حديد، فأقام بهذا نحوًا من أربعمائة سنة[(١)].

ثالثًا: قوم شعيب عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف:٩٢].

هذه الآية جملة مبنية لما حل بقوم النبي شعيب عليه السلام من النقمة:

فيخبر الله تعالى عن شدة قوم شعيب وتمردهم وعتوهم، وما هم فيه من الضلال، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أقسموا وقالوا: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأعراف:٩٠].

فلهذا أعقبه بقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ [الأعراف:٩١].

والمناسبة في ذلك: أنهم لما تهكموا بنبي الله شعيب في قولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ [هود:٨٧] فجاءت الصيحة فأسكتتهم، أصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجساد، فأصبحوا في دارهم جاثمين[(٢)].

وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ والغنى: المنزل، والجمع المغاني، وهي المنازل التي بها أهلها، يقال: غنيت بالمكان إذا أقمت به، وغني القوم في دارهم، أي: طال مقامهم فيها، وقال ابن عباس وقتادة في معناها: كأن لم يعيشوا فيها، وقال ابن عباس: كأن لم يعمروا فيها.

ومعنى الآية: كأن لم يقيموا في دارهم أصلًا ولم ينزلوها يومًا من الدهر، فإن الله سبحانه استأصلهم بالعذاب، وقيل: المعنى كأن لم يعيشوا فيها متنعمين مستغنين، يقال: غني الرجل إذا استغنى، وهو من الغنى الذي هو ضد الفقر، والأول أولى[(٣)].

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾: هذه الجملة متضمنة لبيان خسران القوم المكذبين، وهل هناك خسران أشد من أن يخسر الإنسان نفسه، بعذاب في الدنيا والآخرة؟ وإعادة الموصول والصلة كما هي، لزيادة التقرير والإيذان بأن ما ذكر في حيز الصلة هو الذي استوجب العقوبتين[(٤)].

فكل من عادى نبيًّا فهو خاسر في عاجل أمره وآجله؛ لأنه قد عادى الله الذي أرسل أنبياءه لخلقه.

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٥٢٤.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٠٢.

(٣) انظر: الدر المنثور، السيوطي، ٣/ ٥٠٤، فتح البيان، القنوجي ٤/ ٤١٣.

(٤) انظر: في رحاب التفسير، كشك، ٩/ ٣٦٣.

وسائل النجاة من الخسران

بعد الانتهاء من بيان أسباب الخسران بالشرح والتوضيح والبيان، والإشارة إلى نماذج من الخاسرين في القرآن الكريم، كان لابد من وقفة على وسائل النجاة من الخسران التي هي بمثابة الذراع الحامي، والواقي للإنسان من الوقوع في الخسران، وهذه الوسائل هي التي تصل بالإنسان إلى الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

وستتناول هذه الوسائل بالشرح والبيان؛ ليتضح للإنسان مدى أهميتها، ويتخذها وقايةً له من الوقوع في الخسران، ولذلك كان المثل المشهور: «درهم وقاية خيرٌ من قنطار علاج»[1].

أولًا: الإيمان والعمل الصالح:

أول وسيلة من وسائل النجاة من الخسران يدور حول تحقيق الإيمان والعمل والصالح، وهذا العنوان يعتبر من أخطر العناوين شأنًا، وأعظمها قدرًا؛ لأنه أصل الأصول في النظام العام لحياة المسلم بكاملها، فالإيمان هو الذي أمرنا الله أن نلتزم به، ونحققه في حياتنا؛ لأنه السبيل إلى فلاحنا يوم القيامة، ونجاتنا من نار جهنم -والعياذ بالله- لقول النبي صلى الله عليه وسلم: **(لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة)**[2].

وليتجنب أيضًا المؤمن الخسارة عليه بطاعة الله ورسله، إذ الإيمان بالأنبياء ركن من أركان الإيمان، فإن اختل هذا الركن اختل إيمان الإنسان؛ وذلك لأن الأنبياء هم رحمة الله إلى عباده؛ ليقودوهم إلى رضوان الله والجنة، والنجاة من سخطه والنار.

قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة:٢٨٥].

فهذا حال المؤمنين الصادقين في إيمانهم، والله حصر الإيمان فيمن التزم الدين كله باطنًا وظاهرًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾ [الأنفال:٢-٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ ١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعۡلَمُ

(١) قالوا في المثل، موسوعة في الأمثال والحكم السائرة نثرًا وشعرًا، عيسى عطا الله، ١/ ١٥٥.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، رقم ٣٠٩٢. قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة: ١٥-١٧].

والإيمان الكامل هو الإيمان الشامل لكلٍّ من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والقضاء خيره وشره، والإيمان بالغيب، والبعث، والحساب، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: إن وفد عبد القيس... أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بأربع ونهاهم عن أربع، أمرهم بالإيمان بالله وحده، قال: (أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس)[(١)].

وقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فالإيمان فرائض وشرائع، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان[(٢)].

ومن تحقق الإيمان في قلبه حقًّا فقد نال أجره كاملًا؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [البقرة: ٦٢].

وفاز فوزًا عظيمًا، وكان من المفلحين، ونال ما وعده الله سبحانه به يوم القيامة من نيل رضوان الله ورحمته ودخول جنته، قال تعالى: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ ﴾ [الفتح: ٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥].

ومن الأعمال الصالحة التي لابد أن يقوم بها الإنسان، التزام الأخلاق والسلوكيات الصالحة، والأخلاق قسمان: أخلاق كريمة، وأخلاق ذميمة.

وقد جاءت الشريعة الإسلامية تدعو إلى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان، رقم ٥٣.

(٢) انظر: معارج القبول، حافظ حكمي ٢/ ٥٩٧.

تزكية النفوس وتطهيرها؛ حتى تكون كريمة الأخلاق، نبيلة السجايا، فلم تدع خلقًا كريمًا إلا رغّبت فيه، كالصدق، والوفاء بالعهد، والجود، والصبر، والتقوى إلى غيرها من الأخلاق الكريمة، ولم تدع خلقًا ذميمًا إلا حذّرت منه، كالكذب والبخل والتجسس والنميمة إلى غيرها من الأخلاق الذميمة، بل إن جميع الأحكام الشرعية تدور مع الأخلاق حيث دارت، فلا ترى حكمًا شرعيًا يعارض الأخلاق ويصادمها، وحسبك أن الله أثنى على عبده ورسوله محمد بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

فالنبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقًا، فهو الأسوة والقدوة لنا جميعًا حيث بلغ بأخلاقه الكريمة منازل عالية.

والأخلاق الكريمة تدعو إليها الفطرة السليمة، فالبشر كانوا ولا يزالون يعدّون الصدق والوفاء بالعهد والجود والشجاعة والصبر أخلاقًا فاضلة، يستحق صاحبها الثناء والتكريم، ولا يزالون يعدون الكذب والغدر والجبن أخلاقًا سيئة، ترفضها العقول السليمة وتذم صاحبها، والشريعة جاءت داعية إلى المعروف من الأخلاق، والسلوكيات الصالحة، وتنهى عن المنكر منها، فدعا الحق عباده إلى المبادرة إلى رحمته وجنته التي أعدها للمتقين من عباده، وأول صفاتهم تحليهم بالأخلاق الفاضلة، من الإنفاق في حال اليسر والعسر، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس في قوله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

وقوله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧].

وكذلك رغّب النبي صلى الله عليه وسلم باتباع الأخلاق الحميدة، وحذّر من كل خلق ذميم، فالخير الحقيقي في ميزان الرسول هو الخلق الحسن، فعن النواس بن سمعان الأنصاري رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم فقال: **(البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطّلع عليه**

الناس)[1].

والخلق سبيل الارتقاء إلى مدارج الكمال، عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إن من خيركم أحسنكم خلقًا)[2]، و أيضًا عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن من أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وألطفهم بأهله)[3].

وأحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقربهم منه مجلسًا يوم القيامة أحسن المؤمنين خلقًا، فعن النبي صلى الله عليه وسلم: (إن من أحبكم إليّ، وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإن من أبغضكم إليّ، وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة: الثرثارون، والمتشدقون، والمتفيهقون، قالوا: يا رسول الله؟ قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون)[4].

والمؤمن هو من يلتزم بأوامر الله سبحانه وتعالى ويتحلى بالأخلاق الحميدة، ويبتعد عن نواهيه، ويتجنب الأخلاق الذميمة[5].

فإن صار على ذلك فقد فاز وأفلح يوم القيامة؛ لأن الله سبحانه وتعالى أخبرنا بذلك في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ [المؤمنون:١].

وقوله: ﴿۞ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٨٩﴾ [البقرة:١٨٩].

ومن الآيات التي بينت الفوز والفلاح والثواب الذي يناله من يلتزم بالأخلاق الفاضلة، وفي ذلك وقاية له من الخسارة في الدنيا والآخرة: قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝١١٩﴾ [المائدة:١١٩].

تبيّن هذه الآية الجزاء الذي يليق بالصدق والصادقين، الذين التزموا بهذا الخلق الحميد، فيقول الله تعالى يوم القيامة عقب جواب عيسى عليه السلام مشيرًا إلى صدقه في ضمن بيان حال الصادقين الذين

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب تفسير البر والإثم، رقم ٦٥١٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي فاحشًا ولا متفحشًا، رقم ٦٠٢٩.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الإيمان، باب في استكمال الإيمان والزيادة والنقصان، رقم ٢٦١٢.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه الترمذي في صحيحه، كتاب البر والصلة عن رسول الله، باب ما جاء في معاني الأخلاق، رقم ٢٠١٨.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».
وصححه الألباني في صحيح الترمذي، رقم ١٦٤٢.

(٥) انظر: نحو ثقافة إسلامية أصيلة، عمر الأشقر، ص ٢٥٠.

هو في زمرتهم، ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ﴾ أي: يوم القيامة ﴿يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾، ومعنى نفع الصدق صاحبه في ذلك اليوم، أن ذلك اليوم هو يوم الحق، فالصادق ينتفع فيه بصدقه؛ لأن الصدق خلق حسن، فلا يكون له في الآخرة إلا الأثر الحسن.

والصادقون: الرسل الناطقون بالصدق الداعون إلى ذلك، والأمم المصدّقون لهم، المعتقدون بهم قولًا وعملًا، لهم نعيم دائم، وثواب خالد، وهو الفوز الكبير، رضي الله عنهم بالطاعة، ورضوا عنه بنيل الكرامة والرضوان، وهو فيض زائد على الجنات لا غاية وراءه، ولذلك قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: نيل الرضوان ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: النجاة الوافرة، وحقيقة الفوز نيل المراد، وقد عظّم الفوز لعظم شأن المطلوب، الذي تعلق به الفوز، وهو الرضى الذي لا مطلب وراءه أصلًا[1].

ثانيًا: التوبة من المعاصي:

من رحمة الله تعالى بعباده، أن شرع التوبة للعاصي؛ لئلا ييأس من رحمة الله بمجرد المعصية.

قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر:٥٣].

وكيلا يزداد العاصي انحرافًا وطغيانًا، فقد جعل له طريق الرجوع إلى الصواب، وهي مبدأ طريق السالكين، ومفتاح سعادة المريدين.

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢٢].

وقال أيضًا: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور:٣١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (قال الله تعالى: يا ابن آدم: إنك ما دعوتني ورجوتني، غفرت لك ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم: لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني، غفرت لك، يا ابن آدم: إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة)[2].

قال الحسن البصري: التوبة النصوح:

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٧/ ١١٨.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، رقم ٣٥٤٠.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».
وصححه الألباني في صحيح الترمذي، رقم ٣٥٤٠.

هي الندم بالقلب، والاستغفار، والترك بالجوارح، والإضمار أن لا يعود؛

ولهذا أوجب الله تعالى التوبة على عباده، دليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور:٣١].

والتوبة تكون بالقلب واللسان والجوارح، فبالقلب يكون التضرع، والتذلل، وباللسان الاعتراف بالظلم والاستغفار، فعن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من رجل يذنب ذنبًا، فيتوضأ ويحسن الوضوء، ثم يصلي ركعتين، ويستغفر الله عز وجل، إلا غفر له)[(١)(٢)].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [القصص:٦٧].

وقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور:٣١].

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الصلاة، باب ما جاء في الصلاة عند التوبة، رقم ٤٠٦، وابن ماجه في سننه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في أن الصلاة كفارة، رقم ١٣٩٥.
وحسنه الترمذي.

(٢) انظر: الأربعين في أصول الدين، الغزالي، ص١٤٣، قطوف دانية من الكتاب والسنة، محمود القيسية، ص١٨١.

أمر الله تعالى في هذه الآية المؤمنين والمؤمنات بالتوبة، وهي ترك ما من شأنه أن يغضب الله تعالى، وفعل ما وجب فعله، ومن ذلك غض البصر، وحفظ الفرج، والالتزام بالعفة، والستر، والتنزه عن الإثم صغيره وكبيره، فأعلنوا توبتكم، وارجعوا إلى الله بالطاعات، وامتثال أوامر الله عز وجل لتنالوا رضاه، وتتأهلوا للفلاح، الذي هو الفوز بالنجاة من المرهوب، والظفر بالمحبوب المرغوب -الجنة- والسعادة في الدنيا والآخرة[(٣)].

ثالثًا: التواصي بالحق:

من صفات المؤمن التقي الذي يسعى لنيل رضا الله ورضوانه والفوز بجنته، أنه يحرص كل الحرص على التزام الحق في كل حياته وأمورها، ويحرص على دعوة الآخرين للتواصي بالحق، ومن استجاب فقد انطبق عليه قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر:٣].

والله سبحانه تعالى يحق الحق بكلماته رغمًا عن المشركين الكارهين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ

(٣) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ٣/ ٥٦٧، المبصر لنور القرآن، لنائلة صبري، ١٨/ ١٣١.

دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ [الأنفال:٧-٨].

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٢٤﴾ [الشورى:٢٤].

هذا هو حال الله، ولما لا نكون ممن يتمسك بالحق، ونحرص على نشره وتطبيقه، وأن نتقي الله في ذلك؛ لأن به الفلاح في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٢﴾ [آل عمران:١٠٢].

رابعًا: التواصي بالصبر:

الصبر فضيلة من أمهات الفضائل، وهو من أبرز الأخلاق التي عني بها القرآن العظيم، ويعتبر من دلائل صدق الإيمان، ووسيلة ضرورية يستعان بها في هذه الدنيا، وهو الدواء الشافي لنفس المصاب حيث يخفّف حزنها وآلامها، فذلك الصبر ضروري للإنسان لما له من قيمة كبيرة دينية وخلقية، فهو ضرورة لازمة له ليرقى ماديًّا ومعنويًّا، ويسعد فرديًّا واجتماعيًّا، فلا ينتصر دين، ولا تنهض أمة إلا بالصبر، والصبر ضرورة دنيوية كما هو ضرورة دينية، فلا نجاح في الدنيا ولا فلاح في الآخرة إلا بالصبر.

وهو ضرورة لازمة لأهل الإيمان؛ لأنهم أشد الناس تعرضًا للأذى والابتلاء في أموالهم وأنفسهم، وفي كل عزيز لديهم، وكان أولوا العزم من الرسل أشد المرسلين ابتلاءً، فكان صبرهم محل القدوة والأسوة، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٣٥﴾ [الأحقاف:٣٥].

ولأهميته أمرنا الله به، في قوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦﴾ [الأنفال:٤٦].

وأخبر الله أنه مع الصابرين في صبرهم في قوله تعالى أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٣﴾ [البقرة:١٥٣].

يعينهم الله على المشاق، وما يواجهونه في حياتهم، ويكافئهم على ذلك كما في قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [النحل:٩٦].

وأنواع الصبر ثلاثة: الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والصبر على المصيبة[1].

(١) انظر: الأخلاق في الإسلام، كايد فرعوس

والمؤمن الذي يستجيب لأمر الله فيتحلى بخلق الصبر، ويصبر على ما يصيبه فقد أعد الله له الجزاء العظيم، فأولًا يستحق البشرى.

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾ [البقرة:١٥٥].

وقال أيضًا: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾ [النحل:١٢٦].

وكذلك يبيّن الله أنه يحب أهل الصبر في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾ [آل عمران:١٤٦].

ويعدهم الله بمضاعفة الأجر، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص:٥٤].

ويبيّن الله أيضًا أن ثوابهم غير محدود، بل هو موكول لفضل الله تعالى الذي لا حدود له ولا قيود.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾ [الزمر:١٠].

ولهم الفوز والفلاح يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ١١١﴾ [المؤمنون:١١١].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾ [آل عمران:٢٠٠].

يحض الله تعالى المؤمنين في هذه الآية على ما يوصلهم إلى الفلاح وهو: الفوز بالسعادة والنجاح، والطريق الموصل إلى ذلك هو: لزوم الصبر، الذي هو حبس النفس عما نكرهه، من ترك المعاصي، ومن الصبر على المصائب، وعلى الأوامر الثقيلة على النفوس، فأمرهم الله بالصبر على جميع ذلك، وأمرهم بالمصابرة أيضًا وهي: لزوم المحل الذي يخاف من وصول العدو منه[(١)].

وقيل: «﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ بمعنى واحد للتأكيد، وقال الحسن، وقتادة، والضحاك، وابن جريج: اصبروا على طاعة الله في تكاليفه، وصابروا أعداء الله في الجهاد. ورابطوا في الثغور في سبيل الله، وقيل: استعدوا للجهاد»[(٢)]، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٦٠﴾ [الأنفال:٦٠].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: «خافوه فلا تعصوه، واعملوا بما أنزل، ولا تهملوه، وارضوا بما قسم فلا تكفروه، واستعدوا ليوم الرحيل فلا تنسوه، ثم تأتي النتيجة بعد ذلك ﴿لَعَلَّكُمۡ

وخالد القضاة وغيرهم، ص ١٢٣.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٢٩.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان، ٣/ ٤٨٥.



﴿تُفۡلِحُونَ﴾، أي: لتفلحوا، وتلك نتيجة أكيدة ويقينية، فمن صبر، وصابر، ورابط، واتقى الله نال السعادة في الدنيا، ودار الكرامة في الآخرة، وسعد برضوان من الله ذلك هو الفوز العظيم»[1].

عقوبة الخاسرين

ذكر القرآن الكريم بعضًا من العقوبات التي تلحق بالخاسرين في الدنيا والآخرة، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: عقوبة الخاسرين في الدنيا:

فعقوبة الخاسرين في الدنيا، حرمانهم من أفضل نعمة أنعمها الله علينا ألا وهي نعمة الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠﴾ [الأنعام:٢٠].

يقول الماوردي: «﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ فيها تأويلان:

أحدهما: أنهم خسروا بالكفر منازلهم وأزواجهم في الجنة؛ لأنه ليس أحد من مؤمن ولا كافر إلا وله منازل وأزواج، فإن أسلموا كانت لهم، وإن كفروا كانت لمن آمن من أهلهم، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١﴾ [المؤمنون:١١].

والثاني: معناه: غبنوها فأهلكوها بالكفر والتكذيب»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾ [المنافقون:٩].

وقوله: ﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ٢١﴾ [نوح:٢١].

(١) في رحاب التفسير، كشك، ١/ ٧٦٣.

(٢) النكت والعيون، ٢/ ١٠٠.

فتوضّح هذه الآيات أن سبب حرمانهم من الإيمان، انغماسهم في ملذات الدنيا وشهواتها وذلك بالانشغال في جمع الأموال وإكثارها، والانشغال بالأولاد، والسعي وراء الشهرة والمكانة، مع غيرها من الأسباب الأخرى، ألهاهم ذلك كله عن الإيمان بالله وعبادته وذكره، وبالفساد في الأرض بكل أشكاله، فكان سببًا في خسارتهم، وبإضلالهم وعدم هدايتهم، وعدم نيل مغفرة الله ورحمته، وأن يغفل عن شيء مهم، وهو أن الله عز وجل أوجدنا على سطح الأرض في هذه الحياة الدنيا لهدف وغرض، ألا وهو عبادة الله سبحانه وتعالى.

والدين إذا لم يصل بصاحبه إلى هذا الخضوع والانقياد لله تعالى كان رسومًا وتقاليد لا تجدي شيئًا، بل تزيد النفوس فسادًا، والقلوب ظلامًا، ويكون حينئذٍ مصدر الشحناء والعداوة بين الناس في الدنيا، ومصدر الخسران في الآخرة بالحرمان من النعيم المقيم، والعذاب الأليم، وبالتالي يكون جزاء من يقبل بغير الإسلام دينًا أنه في الآخرة من الخاسرين؛ لأنه أضاع ما جبلت عليه الفطرة السليمة من توحيد الله والانقياد له، كما جاء في الحديث الشريف: **(كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة، هل ترى فيها جدعاء)**[1].

فخسر نفسه بضياع رضوان الله، وخسر النعيم المقيم، ورحمة الله، فألقي في الجحيم[2].

اللهم هب لنا الإخلاص، وأنر به بصائرنا، وامنحنا قبولك ورضاك يا أرحم الراحمين.

ومن العقوبات للخاسرين في الدنيا أيضًا حبوط الأعمال وخسارتها، فلو تساءلنا كيف يخسر الإنسان أعماله؟

كما نعلم أن العمل للآخرة ميدانه هذه الحياة الدنيا، ومدّته لكل إنسان عمره، من حين يبلغ الحلم، إلى أن يدركه الأجل، وهو لهذا جاء إليها، وأعطي الفرصة فيها، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك: ٢].

فكل إنسان يجازى على حسب عمله في الحياة الدنيا، فإن عمل عملًا حسنًا نال الجزاء الحسن، وإن عمل عملًا سيئًا، نال الجزاء السيء على حسب عمله، كما يقال: إن الجزاء من جنس العمل، عن أبي بكرة أن رجلًا قال: **(يا رسول الله أي الناس خير؟ قال: (من طال عمره وحسن عمله). قال: فأي الناس شر؟ قال: (من طال عمره وساء**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم ١٣٨٥.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ٨٥، تفسير المراغي، ١/ ٢٠٤، زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ٣/ ١٣٠٢.

عمله)[1].

والله يراقب أعمال العباد وينظر إليها، قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس:٦١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)[2].

إذن لابد للإنسان من الجد والاجتهاد للإكثار من القيام بالأعمال الصالحة التي يرضى الله عنها، حتى يكون مثواه الجنة.

عن عمران بن حصين قال: قال رجل: يا رسول الله، أيعرف أهل الجنة من أهل النار؟ قال: (نعم). قال: فلم يعمل العاملون؟ قال: (كلٌّ يعمل لما خلق له، أو: لما ييسّر له)[3].

ولكن قد يخسر الإنسان كل أعماله فتصبح هباءً منثورًا؛ إن حاد عن الطريق المستقيم وأكثر من فعل المعاصي، وارتكاب الآثام.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢١-٢٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٥].

وقال أيضًا: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [التوبة:٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [المائدة:٥٣].

في هذه الآية بيان أن أعمال المنافقين باطلة، وكما نعلم بأن البطلان كلمة مرادفة

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب أي الناس خير وأيهم شر، رقم ٢٣٣. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، رقم ٦٥٤٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب القدر، باب جف القلم على علم الله، رقم ٦٥٩٦.

للخسارة، إذن حبوط وبطلان أعمالهم جعلهم يخسرون في الدنيا والآخرة.

يقول سيد قطب: «ولقد جاء الله بالفتح يومًا، وتكشفت نوايا، وحبطت أعمال، وخسرت فئات، ونحن على وعد من الله قائم بأن يجيء الفتح، كلما استمسكنا بعروة الله وحده، وكلما أخلصنا الولاء لله وحده، وكلما وعينا منهج الله، وأقمنا عليه تصوراتنا وأوضاعنا، وكلما تحركنا في المعركة على هدي الله وتوجيهه، فلم نتخذ لنا وليًّا إلا الله ورسوله والذين آمنوا»[1].

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يعني: المخلصون للمنافقين عبد الله بن أبي وأصحابه، أهؤلاء يعني: المنافقين الذين أقسموا بالله شدة أيمانهم، فإذا حلف الرجل بالله فقد حلف جهد يمينه، إن هؤلاء المنافقين مع المخلصين على دينكم في السر، فكانت النتيجة بطلان حسناتهم في الدنيا، فصاروا مغبونين بالعقوبة[2].

ثانيًا: عقوبة الخاسرين في الآخرة:

إن أخص ما يملكه الإنسان في هذه الحياة الدنيا، وأقرب شيء إليه، هي نفسه التي بين جنبيه، وأهله المقربون إليه من زوجة وأبناء وأحفاد وأرحام، فإذا خسر نفسه أو أهله فقد خسر أخص شيء وأقربه إليه، وعلى ذلك فإن خسارته سواء أكانت في نفسه أم في أهله، أم في حياته أم في آخرته، فإنها هي المصيبة العظمى والطامة الكبرى، لكن كيف يمكن أن يخسر الإنسان نفسه؟ وكيف يمكن أن يخسر أهله في الآخرة؟ هذا ما ستوضحه الآيات مع تفسيرها:

قال تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢﴾ [الأنعام:١٢].

تتحدث الآية الكريمة عن قدرة الله في الخلق فهو الخالق والمالك والمتصرف به، وعن قدرته على بعث الخلائق، ولكن أبى الظالمون إلا جحودًا، وأنكروا قدرة الله على بعث الخلائق فأوضعوا في معاصيه، وتجرؤوا على الكفر به، فكانت النتيجة أنهم خسروا دنياهم وأخراهم، وحكموا على أنفسهم بالهلاك لمخالفة الفطرة الأولى وستر العقل السليم، فهم بسبب خسارتهم لأنفسهم بإهمال العقل، وإعمال الحواس، والتقيد بالتقليد لا يؤمنون، فصاروا كمن يلقي نفسه من شاهق ليموت لغرض من الأغراض الفاسدة[3].

(١) في ظلال القرآن، ٦/ ٩١٧.

(٢) انظر: الواضح في تفسير القرآن الكريم، ابن وهب الدينوري، ١/ ٢٠١، أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ١/ ٥١٩.

(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٢/ ٥٩٥، تيسير

يقول سيد قطب: «هذه الآية ذات المد العالي والإيقاع الرهيب، تجيء في أعقاب الحديث عن التكذيب والإعراض والسخرية والاستهزاء، وما ختم به هذا الحديث، وما تخلله من التهديد المخيف، مع توجيه الأنظار والقلوب إلى الاعتبار بمصارع المكذبين المستهزئين، فيأتي بعد هذا التعرض لحقيقة الألوهية، ممثلة في الملك والفاعلية، وفي القدرة والقهر، كل ذلك لا لمجرد التقرير اللاهوتي أو الفلسفي النظري السلبي، ولكن لتقرير مقتضيات هذه الحقائق من توحيد الولاية والتوجه، وتوحيد الاستسلام والعبودية.

فيأتي موقف المواجهة للبيان والتقرير، ثم المفاصلة، ومن ثم يبدأ بتوجيه الرسول لهذه المواجهة مواجهة المشركين، الذين يعرفون أن الله هو الخالق، ولكنهم أغلقوا فطرتهم وعطلوها دون رؤية هذه الحقيقة، فعدلوا به من لا يخلق، فيجعلون له شركاء مع الله في تصريف حياتهم، مواجهتهم بالسؤال عن الملكية بعد الخلق لكل ما في السموات والأرض، وبالتالي لن يخسر في هذا اليوم إلا الذين لم يؤمنوا في الدنيا، وهؤلاء لن يخسروا شيئًا ويكسبوا شيئًا، هؤلاء خسروا كل شيء، فقد خسروا أنفسهم كلها فلم يعودوا يملكون أن يكسبوا شيئًا، ولم تعد لهم نفس تؤمن! وهو تعبير دقيق عن حالة واقعة، إن الذين لا يؤمنون بهذا الدين مع عمق ندائه وإيحائه للفطرة بموحيات الإيمان ودلائله، هؤلاء لابد أن يكونوا قد فقدوا قبل ذلك فطرتهم، وأجهزة الاستقبال، والاستجابة الفطرية في كيانهم معطلة مخربة، فهم في هذه الحالة قد خسروا أنفسهم ذاتها»[1].

وقوله أيضًا: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [هود:٢١].

وقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [هود:٢٢].

يقول محمد رضا في تفسيره: «كلمة ﴿لَا جَرَمَ﴾ تفيد التحقيق والتأكيد لما بعدها، قال الفراء: هي في الأصل بمعنى: لابد ولا محالة، ثم كثرت فحوّلت إلى معنى القسم وصارت بمعنى «حقًّا»، ولهذا تجاب باللام نحو: لاجرم لأفعلن كذا، أي: حقًّا أنهم في الآخرة لأشد الناس خسرانًا»[2].

وفي الآية تأكيد وإثبات لما يناله هؤلاء الجاحدون المنكرون في الآية السابقة من العذاب الشديد، والخسران الأكيد، حيث أكد الله سبحانه وتعالى في الآية بأنهم لا محالة يوم القيامة أشد الناس خسرانًا،

الكريم الرحمن، السعدي، ص ٢١٤.

(١) في ظلال القرآن، ٢/١٠٤٧-١٠٥٣، باختصار.
(٢) تفسير المنار، ١٢/٥٧.

وأنهم بلغوا في الآخرة أقصى درجات الخسارة؛ لأنهم آثروا الحياة الفانية على الباقية، واشتروا الضلالة، ولذا جاء جمع «الأخسرون» فأفعل التفضيل يدل على أقصى درجات الخسارة، لا خسارة فوقها أو مثلها، بل هي فوق كل خسارة [1].

ومن العقوبات الأخروية أيضًا دخول نار جهنم والعياذ بالله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون:١٠٣].

في هذه الآية يبيّن جزاء المكثرين من الأعمال السيئة، فيقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: موازين أعماله الحسنة أو أعماله التي لا وزن لها ولا اعتداد بها، وهي أعماله السيئة كذا قيل، وهو مبني على اختلافهم في وزن أعمال الكفرة.

فهؤلاء ضيعوها بتضييع زمان استكمالها، وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها، وبالتالي خسروا أنفسهم بزجّها في نار جهنم، وهم مستقرون خالدون فيها [2].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف:٩].

يقول محمد أبو زهرة: «وخسران نفوسهم في هذا يشير إلى معانٍ ثلاثة، وهي على النحو التالي:

أولها: أنهم هم الذين كانوا بأعمالهم في الدنيا عاملين على خسارتها، فلم تكن الخسارة لاحقة بهم من غيرهم.

ثانيها: أن العذاب خسارة للنفس أي خسارة، وأنهم هم الذين جلبوا لها هذه الخسارة الخالدة.

ثالثها: أنهم كانوا يحسبون في ضلالهم في الدنيا أنهم يكسبون بغطرستهم وكبريائهم واغترارهم بمظاهر القوة، فبيّن الله تعالى أنهم الأخسرون أعمالًا، وذلك عند ميزان الأعمال بميزان الخير والشر، لا بميزان الغرور والاستكبار» [3].

ونختم بقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأعراف:٥٣].

موضوعات ذات صلة:

الإهلاك، الجنة، السعادة، العذاب، الفلاح، النار

(١) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ٧/ ٣٦٩٤، المبصر لنور القرآن، نائلة صبري، ١٢/ ٢٢

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٥/ ٨٣، روح المعاني، الألوسي، ١٧/ ٩٩.

(٣) زهرة التفاسير، ٥/ ٢٧٨٩.



عناصر الموضوع

مفهوم الخشوع

أولًا: المعنى اللغوي:

خشع: الخاء والشين والعين أصلٌ واحدٌ، يدل على التّطامن، يقال: خشع إذا تطامن وطأطأ رأسه، ويخشع خشوعًا، والخاشع: المستكين والراكع[1].

وفي لسان العرب: خشع يخشع خشوعًا، واختشع وتخشّع: رمى ببصره نحو الأرض، وغضّه، وخفض صوته، وقيل: الخشوع قريب من الخضوع، إلا أن الخضوع في البدن. والخشوع: في البدن، والصوت، والبصر، كقوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ [طه:١٠٨] أي: سكنت، وكل ساكن خاضع خاشع[2].

وعند الراغب الأصفهاني: الخشوع الضراعة، وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح، والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب[3].

وابن القيم رحمه الله حينما يعرف الخشوع في اللغة يجمع بين هذه الأقوال في إيجاز فيقول مستشهدًا على كلامه بآيات القرآن الكريم: الخشوع في أصل اللغة: الانخفاض، والذّل، والسكون، قال اللّه تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ [طه:١٠٨] أي: سكنت، وذلّت، وخضعت، ومنه وصف الأرض بالخشوع، وهو يبسها، وانخفاضها، وعدم ارتفاعها بالري والنبات، قال اللّه تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ﴾ [فصلت:٣٩][4].

إذن فالخشوع في اللغة يدور حول غض البصر وخفض الصوت، والضراعة والسهولة واللين، والخضوع والانخفاض والذل والسكون.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

ذكر العلماء للخشوع في الاصطلاح أكثر من تعريف، وهي متقاربة تدور حول خشوع القلب وخضوعه بين يدي الله عز وجل

قال الجرجاني: وفي اصطلاح أهل الحقيقة: الانقياد للحق، وقيل: هو الخوف الدائم في القلب[5].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ١٨٢.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٧١.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٢٨٣.
(٤) مدارج السالكين، ابن القيم، ١/ ٥٢٠
(٥) التعريفات، الجرجاني، ص١٣٢.



وقيل هو: قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذّل، وقيل: الخشوع تذلّل القلوب لعلاّم الغيوب[(١)].

وقال ابن رجب الحنبلي: وأصل الخشوع: هو لين القلب ورقته، وسكونه، وخضوعه، وانكساره، وحرقته، فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح، والأعضاء؛ لأنها تابعة له، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(ألا وإنّ في الجسد مضغةً، إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب)**[(٢)(٣)].

وقال السعدي: وأما الخشوع، فهو حضور القلب وقت تلبّسه بطاعة الله، وسكون ظاهره وباطنه.[(٤)].

ولعل أشمل التعاريف ما ذكره ابن حجر بأنه: معنى يقوم بالنفس يظهر عنه سكون في الأطراف يلائم مقصود العبادة[(٥)].

وقريب منه قول صاحب التفسير الوسيط إنه: خشية في القلب من الله تعالى تظهر آثارها على الجوارح فتجعلها ساكنة مستشعرة أنها واقفة بين يدي الله سبحانه. [(٦)]

ويلاحظ أن كلا المعنين: اللغوي والاصطلاحي يدوران حول الذل والانكسار، إلا أن المعنى الاصطلاحي خص بالذل والانكسار لله.

(١) مدارج السالكين، ١/ ٥٢١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم ٥٢، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة والمزارعة، عن النعمان بن بشير، رقم ١٥٩٩.
(٣) الخشوع، ابن رجب ص١٧.
(٤) تيسير اللطيف المنان، ص ٣٦١ - ٣٦٢.
(٥) انظر: فتح الباري ٣/ ١٠١.
(٦) الوسيط، محمد سيد طنطاوي ١٠/ ١٢

الخشوع في الاستعمال القرآني

وردت مادة (خشع) في القرآن الكريم (١٨) مرة[١].

والصيغ التي جاءت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه:١٠٨]
الفعل المضارع	١	﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد:١٦]
المصدر	٢	﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء:١٠٩]
اسم الفاعل	١٤	﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر:٢١]

وجاء الخشوع في القرآن على أربعة أوجه[٢]:

أحدها: التواضع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة:٤٥]، يعني: المتواضعين.

الثاني: سكون الجوارح، ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون:٢].

الثالث: الخوف، ومنه قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٠]، يعني: خائفين.

الرابع: الذل، ومنه قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾﴾ [الغاشية:٢]، يعني: ذليلة.

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٢٣٣.

(٢) انظر: نزهة الأعين، ابن الجوزي ص ٢٧٦ - ٢٧٧، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٢٠٦-٢٠٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الخضوع:

الخضوع لغة:

الانقياد والمطاوعة[١].

الخضوع اصطلاحًا:

إظهار الانقياد والطاعة لذي سلطان.

الصلة بين الخضوع والخشوع:

قيل: هما بمعنى واحد، وقال ابن عاشور: والخشوع مثل الخضوع، إلاّ أن الخضوع لا يسند إلاّ إلى البدن فيقال: خضع فلان، ولا يقال: خضع بصره إلا على وجه الاستعارة، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ [الأحزاب:٣٢].

وأما الخشوع فيسند إلى البدن؛ كقوله تعالى:﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ في آخر سورة آل عمران، ويسند إلى بعض أعضاء البدن؛ كقوله تعالى:﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾في سورة القمر، وقوله:﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾في سورة طه[٢].

وعلى هذا فالخضوع يحمل معنى الانقياد، والضعف، واللين، والتذلل، وظهور ذلك على الجوارح.

٢ التضرع:

التضرع لغة:

أصل مادة (ض ر ع) اللّين والضعف، يقال: رجلٌ ضرعٌ أي ضعيف، وغلام ضارع: ضعيف نحيف، والتضرّع: التذلّل[٣].

التضرع اصطلاحًا:

يعني: التذلّل في وقت الشدّة والخوف، وظهور أثر ذلك في الصوت.

الصلة بين التضرع والخشوع:

وربما كان التضرع هو أساس الخشوع؛ لأنه هو التذلل الذي يوجد في القلب، والخشوع

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٧٣.
(٢) المصدر السابق ٢٥/ ١٢٦.
(٣) تهذيب اللغة، الأزهري ١/ ٢٩٨.

أثر هذا التذلل الذي يظهر على الجوارح.

ويفرق الراغب بين الخشوع والتضرع فيقول: وأكثر ما يستعمل -أي: الخشوع- فيما يوجد على الجوارح، والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب، ولذلك قيل فيما روي: إذا ضرع القلب خشعت الجوارح[(١)].

فالخشوع يلتقي مع التضرع في أن كلًّا منهما يحمل معنى اللين والضعف والتذلل، كذلك يلتقيان في أن كلًّا منهما يوجد في القلب فيحدث التأثر على الجوارح.

٣ الوجل:

الوجل لغة:

«الوجل خلاف الطّمأنينة، وجل الرجل يوجل وجلًا، إذا قلق ولم يطمئن»[(٢)].

الوجل اصطلاحًا:

«الوجل استشعار الخوف عن خاطر غير ظاهر وليس له أمارة»[(٣)]، كذلك نجده في كتاب الله تعالى يستعمل في سياق أخص من الخوف، وهو حالة نفسية تعرض للنفس عند بداية شيء ما[(٤)].

الصلة بين الوجل والخشوع:

قال السعدي رحمه الله: «الخوف، والخشية، والخضوع، والإخبات، والوجل معانيها متقاربة، فالخوف يمنع العبد من محارم الله، وتشاركه الخشية في ذلك، وتزيد أن خوفه مقرون بمعرفة الله، وأما الخضوع، والإخبات، والوجل، فإنها تنشأ عن الخوف، والخشية، فيخضع العبد لله، ويخبت إلى ربه منيبًا إليه بقلبه، ويحدث له الوجل»[(٥)].

---

(١) المفردات ص ٤١١.
(٢) المصدر السابق ص ٢٤٣.
(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني ص ٢٣٤.
(٤) انظر: المصدر السابق، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ١٦٥.
(٥) تيسير اللطيف المنان ٢/ ٣٦٢.



أسباب الخشوع

الخشوع الذي هو الخوف والخضوع والتذلل، الذي يظهر على الجوارح لا يتأتى من فراغ، وإنما يكون منشؤه عدة أسباب أشار إليها القرآن الكريم خلال الحديث عن ذلك، وهذه الأسباب هي: الخوف من الله عز وجل، وسماع مواعظ القرآن وتدبرها، وذل العذاب لأهل النار يوم القيامة، وهذا يدعونا لأن نفصل الحديث عن هذه الأسباب فننظمها في النقاط الآتية:

أولًا: الخوف من الله تعالى:

أول أسباب الخشوع هو الخوف من الله عز وجل، والخوف من الله لا يتوفر إلا لمن عرف ربه عز وجل بأسمائه وصفاته، حينها يتولد في النفس استحضار عظمة الله ودوام مراقبته ومعيته، واستحضار عظمة الخالق يثمر في القلب طاعة الله وتوقيره والذل والانكسار له في كل اللحظات، ويعلم المؤمن الحياء من الله لإيقانه بوجوده ومعيته وقربه وسمعه وبصره.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

ومن يتعود مراقبة الله في كل أقواله وأفعاله يوفقه الله إلى خشيته وخشوعه والخوف منه دائمًا أبدًا، حتى يصل في عبادته إلى درجة الإحسان، الذي قال عنه رسولنا صلى الله عليه وسلم: **(أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)**، كما في حديث جبريل[(١)].

وفي الصفحات السابقة نقلنا ما ذكره السعدي في العلاقة بين الخوف، والخشية، والخشوع، وقال: إن معانيها متقاربة، فالخوف يمنع العبد من محارم الله، وتشاركه الخشية في ذلك، وتزيد أن خوفه مقرون بمعرفة الله.

وأما الخشوع: فهو حضور القلب وقت تلبّسه بطاعة الله، وسكون ظاهره وباطنه، فهذا خشوع خاص، وأما الخشوع الدائم الذي هو وصف خوّاص المؤمنين، فينشأ من كمال معرفة العبد ربه، ومراقبته، فيستولي ذلك على القلب.

وقد وصف الله سبحانه من آمن من أحبار أهل الكتاب بالخشوع في موضعين من القرآن الكريم، وفي موضع ثالث يحض أهل الكتاب على الخشوع مبينًا لهم مزية ذلك، والخشوع في المواضع الثلاثة سببه الخوف من الله عز وجل

الموضع الأول الذي يحض فيه أهل الكتاب على الخشوع في سورة البقرة ورد

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة لقمان، باب قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، رقم ٤٤٩٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم ٩-١٠.

في قول الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة:٤٥-٤٦].

قال ابن عاشور: والمراد بالخاشع هنا: الذي ذلل نفسه وكسر سورتها، وعودها أن تطمئن إلى أمر الله، وتطلب حسن العواقب، وأن لا تغتر بما تزينه الشهوة الحاضرة؛ فهذا الذي كانت تلك صفته قد استعدت نفسه لقبول الخير، وكأن المراد بالخاشعين هنا: الخائفون الناظرون في العواقب، فتخف عليهم الاستعانة بالصبر والصلاة.

ثم يقول وقد وصف تعالى الخاشعين بأنهم ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ وهي صلة لها مزيد اتصال بمعنى الخشوع ففيها معنى التفسير للخاشعين، ومعنى بيان منشأ خشوعهم، فدل على أن المراد من الظن هنا الاعتقاد الجازم، وإطلاق الظن في كلام العرب على معنى اليقين كثير جدًّا، والملاقاة مفاعلة من لقي، واللقاء الحضور، والمراد هنا: الحضور بين يدي الله للحساب، أي: الذين يؤمنون بالبعث[1].

والمتأمل في هذا الكلام يدرك أن خوف هؤلاء من موقفهم بين يدي ربهم تبارك وتعالى كان سببًا في خشوعهم وتذللهم وانكسارهم له سبحانه في الدنيا؛ لأنهم آمنوا بالبعث وأيقنوا بالوقوف بين يديه عز وجل للحساب.

والموضع الثاني الذي هو من قبيل وصف القرآن لمن آمن من أحبار أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران:١٩٩]

والموضع الثالث في سورة الإسراء قوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء:١٠٩].

قال ابن عاشور: وإنما خروا خرورًا واحدًا ساجدين باكين، فذكر مرتين اهتمامًا بما صحبه من علامات الخشوع، وذكر ﴿يَبْكُونَ﴾ بصيغة المضارع لاستحضار الحالة، والبكاء بكاء فرح وبهجة، والبكاء يحصل من انفعال باطني ناشئ عن حزن أو عن خوف أو عن شوق[2].

حتى من يخشعون في صلاتهم الذين كتبهم الله من المفلحين في سورة المؤمنون ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [الإسراء:١٠٩].

يفسر ابن عاشور خشوعهم هذا بالخوف

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٨٠.

(٢) المصدر السابق ١٥/ ٢٣٣.

فيقول: وهو خوف يوجب تعظيم المخوف منه، ولا شك أن الخشوع، أي: الخشوع لله، يقتضي التقوى فهو سبب فلاح[1].

وفي سورة الأنبياء قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

وقد ذكر ابن كثير أقوال المفسرين الأوائل فيها ما يوضح أن الخشوع فيها سببه الخوف فيقول: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ قال الثوري: رغبًا فيما عندنا ورهبًا مما عندنا ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي: مصدقين بما أنزل الله، وقال أبو العالية: خائفين، وقال أبو سنان: الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبدًا[2].

وربما كان الخوف سببًا للخشوع الذي يدخل صاحبه فيمن يمتدحهم الله عز وجل، ويبين ثوابهم، وما أعده لهم في الآخرة من الأجر العظيم.

ففي سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب:٣٥].

قال ابن كثير: الخشوع السكون والطمأنينة، والتؤدة والوقار، والتواضع، والحامل عليه الخوف من الله تعالى ومراقبته[3].

هذا الذي ذكرناه سابقًا يعبر عن الخشوع في الدنيا، وهو خشوع المؤمنين الناشئ عن تعظيمهم لربهم عز وجل وخوفهم منه في الدنيا، وفرق بينه وبين الخشوع الذي هو الذل الناشئ عن الخوف من الله في الآخرة، فالأول باختيار المؤمن في الدنيا، والثاني مجبر عليه الكفار؛ لأنهم لم يختاروه في الدنيا، أو أمنوا مكر الله حينما كانوا في دنياهم، فتهاونوا في أوامره ونواهيه، ويدخل في ذلك الآيات التي تتحدث عن خشوع الكفار في الآخرة، ومنها آية سورة الشورى، التي تتحدث عن وصف الظالمين المشركين يوم القيامة ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى:٤٥].

وجدير بالذكر أن نفرق بين خوف هؤلاء في الآخرة وبين خوف المؤمنين في الدنيا، وإن كان كلاهما خوف من الله، وكلاهما

(١) المصدر السابق ١٨/ ٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٧٠.
(٣) المصدر السابق ٦/ ٤١٩.

سبب للخشوع أيضًا، لكن خشوع المؤمنين في الدنيا كان باختيارهم وإرادتهم، صحيح أنه بتوفيق الله عز وجل لهم، لكن كان لهم حق الاختيار فاختاروا تعظيم الله الذي أنتج عنه خوفهم منه، فكان ذلك سببًا في خشوعهم له سبحانه في الدنيا.

وقبل أن ننتقل إلى السبب الثاني من أسباب الخشوع حري بنا أن نشير إلى كيفية تحصيل المسلم لهذا السبب وهو الخوف من الله عز وجل في الدنيا، فهذا الخوف لا يتأتى إلا إذا عظم الإنسان ربه عز وجل فيستحضر عظمة الله، ويتذكر وقوفه بين يديه للحساب، ويتذكر مروره على الصراط، وربما كان أقرب من ذلك أن يتذكر وضعه في القبر وترك المشيعين له وحيدًا لا أنيس ولا جليس، اللهم إلا عمله الذي قدمه، وتعظيم مقام الرب سبحانه لا يحصله الإنسان إلا إذا عظم أوامره ونواهيه، فيمتثل لتلك الأوامر ويسارع إلى الالتزام بها، ويمتثل للنواهي ويسارع في تجنبها، ويروض نفسه وقلبه وفكره شيئًا فشيئًا حتى يصل إلى الخوف من الله عز وجل في كل حركاته وسكناته، وكما يقال: العلم بالتعلم والحلم بالتحلم.

ثانيًا: سماع مواعظ القرآن وتدبرها:

من الأسباب التي تحمل المسلم على الخشوع سماع آيات القرآن بنية صادقة في قلب نقي خالص مخلص لله سبحانه وتدبر آياته للانتفاع بأحكامه وحكمه ومواعظه وعبره.

ففي وصف من آمن من أحبار أهل الكتاب في سورة الإسراء يقول الله تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

قال ابن كثير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ﴾ أي: من صالحي أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم ويقيمونه ولم يبدلوه ولا حرفوه ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هذا القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ جمع ذقن وهو أسفل الوجه ﴿سُجَّدًا﴾ أي: لله عز وجل شكرًا على ما أنعم به عليهم من جعله إياهم أهلًا أن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب، ولهذا يقولون ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ أي: تعظيمًا وتوقيرًا على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على ألسنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ولهذا قالوا ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ وقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ أي: خضوعًا لله عز وجل وإيمانًا وتصديقًا بكتابه ورسوله ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ أي: إيمانًا وتسليمًا[1].

(١) المصدر السابق ٥/ ١٢٨.

وقال ابن عاشور: والبكاء يحصل من انفعال باطني ناشئ عن حزن أو عن خوف أو عن شوق، ويزيدهم القرآن خشوعًا على خشوعهم الذي كان لهم من سماع كتابهم[1].

ويبين الله عز وجل ما يجب أن يكون عليه القلب من خشوع بسبب ذكر الله وسماع آيات القرآن في سورة الحديد في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد:١٦].

قال ابن كثير: يقول تعالى: أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي: تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن، فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه[2].

ومن ذلك ما رواه ابن قدامة المقدسي رحمه الله في توبة الفضيل بن عياض قال: «كان الفضيل قاطع طريق فخرج ذات يوم يقطع الطريق، فإذا هو بقافلة قد انتهت إليه ليلًا، فقال بعضهم لبعض: أعدلوا بنا إلى هذه القرية فإن أمامنا رجلًا يقطع الطريق يقال له: الفضيل، قال: فسمعه الفضيل فأرعد، فقال: يا قوم أنا الفضيل جوزوا، والله لأجتهدن أن لا أعصي الله أبدًا، فرجع عما كان عليه، وروي من طريق أخرى أنه أضافهم تلك الليلة، وقال: أنتم آمنون من الفضيل، وخرج يرتاد لهم علفًا، ثم رجع فسمع قارئًا يقرأ آية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد:١٦].

قال: بلى، والله قد آن، فكان هذا مبتدأ توبته»[3].

من هنا كان الخشوع مصدرًا لهداية المسلمين الوقافين عند أوامر ربهم وحدوده.

وتدبر القرآن من أعظم أسباب الخشوع، وذلك لما تشتمل عليه الآيات من وعد ووعيد، وذكر الموت والتذكير به، وأهوال القيامة، وأحوال أهل الجنة والنار، وقصص الأنبياء والرسل وما لاقوه من قومهم من صنوف الإيذاء، وأخبار المكذبين والمتكبرين ونهايتهم،... إلى آخر كل ذلك، وهذا كله حينما يتدبره المسلم في قراءته يمتلئ قلبه بنور الإيمان وصدق التوكل فيخشع لربه، بل ويعتاد الخشوع، وهنا ندرك موضعًا آخر يبرز خشوع الجبل لو أنزل عليه القرآن، وكأن الله يأمر الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع، وهذا في سورة الحشر في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٣٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٨/ ١٩.
(٣) انظر: التوابين، ابن قدامة المقدسي ١/ ٢٠٧.

﴿الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١].

يقول تعالى معظمًا لأمر القرآن ومبينًا علو قدره، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب وتتصدع عند سماعه، لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي: فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل، فكيف يليق بكم يا أيها البشر أن لا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه[(١)].

قال الشوكاني: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي: من شأنه وعظمته وجودة ألفاظه وقوة مبانيه وبلاغته واشتماله على المواعظ التي تلين لها القلوب، أنه لو أنزل على جبل من الجبال الكائنة في الأرض لرأيته مع كونه في غاية القسوة وشدة الصلابة وضخامة الجرم ﴿خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا﴾ أي: متشققًا من خشية الله سبحانه حذرًا من عقابه وخوفًا من أن لا يؤدي ما يجب عليه من تعظيم كلام الله، وفيه توبيخٌ وتقريعٌ للكفّار حيث لم يخشعوا للقرآن، ولا اتّعظوا بمواعظه، ولا انزجروا بزواجره، والخاشع: الذّليل المتواضع[(٢)].

إذن فعلى من يريد أن يصل إلى درجة الخشوع أن يتدبر آيات القرآن الكريم، وكيفية التدبرأن يقرأ الآيات بتأمل وتفكر وعناية، حتى يصلح قلبه ويأتمر بأوامره وينتهي بنواهيه، وهناك وسائل للوصول إلى التدبر منها: إدراك القارئ بأنه مخاطب بالقرآن وآياته، والاهتمام بالتأني في التلاوة، والتعرف على أسباب النزول ومواضع الوقف والابتداء، والمكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، ومعرفة المعنى الإجمالي للآيات، والاهتمام بالقراءة الشمولية لآيات القرآن وقصصه وحواراته، والاهتمام بالمناسبات والروابط بين الآيات والسور.

ثالثًا: ذل العذاب.

من الأسباب الموجبة للخشوع ذل عذاب الكفار والمنافقين، وهذا الخشوع هو الذي يقع يوم القيامة، وهو الذي يكون لونًا من ألوان عذابهم، وحينها لا يقع منهم اختيارًا، وإنما يكون إجبارًا، وهذا اللون من الخشوع يختلف عن الخشوع الذي يقع من المؤمنين في الدنيا، وقد ورد هذا في أكثر من آية من الآيات التي تتحدث عن الخشوع.

ففي سورة الشورى يقول الله عز وجل:

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٧٨.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٢٤٦.

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الشورى:٤٥].

قال ابن كثير: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: الذي قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله تعالى ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ قال مجاهد: يعني: ذليل، أي: ينظرون إليها مسارقة خوفًا منها والذي يحذرون منه واقع بهم لا محالة، وما هو أعظم مما في نفوسهم، أجارنا الله من ذلك[1].

وقال ابن عاشور في وصف الظالمين المشركين يوم القيامة: والمراد بالخشوع في هذه الآية: ما يبدو عليهم من أثر المذلة والمخافة، و«من» للتعليل، أي: خاشعين خشوعًا ناشئًا عن الذل، أي: ليس خشوعهم لتعظيم الله والاعتراف له بالعبودية؛ لأن ذلك الاعتقاد لم يكن من شأنهم في الدنيا[2].

وقريب منه كلامه حينما يفسر آية القمر يقول: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي: ذليلة ينظرون من طرف خفي لا تثبت أحداقهم في وجوه الناس، وهي نظرة الخائف المفتضح، وهو كناية؛ لأن ذلة الذليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما[3].

ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم:٤٣].

وفي آية سورة المعارج ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ قال الشوكاني: والخشوع: الذلّة والخضوع، أي: لا يرفعونها لما يتوقّعونه من العذاب ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: تغشاهم ذلّةٌ شديدةٌ[4].

وفي أكثر من آية يفسر ابن كثير الخشوع بالذلة ففي آية ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾﴾ [النازعات:٨-٩].

أي: أبصار أصحابها ذليلة حقيرة مما عاينت من الأهوال.

وفي قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾ [الغاشية:٢-٣].

أي: ذليلة، قاله قتادة، وقال ابن عباس: تخشع ولا ينفعها عملها[5].

أما المسلم فإذا أدرك ذلك حقًا اجتهد في دنياه وفي وقت العبادة خاصة بالتذلل لله عز وجل فينحني بظهره وجبهته لله سبحانه، يحسن التفكر في عظمة الله وكبريائه وسلطانه وملكوته، ويتذكر ذنوبه وتقصيره في حق ربه، فيتذلل بفقره ويظهر احتياجه لله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢١٤.
(٢) التحرير والتنوير ٢٥/ ١٢٦.
(٣) المصدر السابق ٢٧/ ١٧٧.
(٤) فتح القدير ٥/ ٣٥٤.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣١٢.

وحده قائلًا: (اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي)[1].

والمسلم الذي يجتهد في دنياه ليحصل هذا الخشوع ويعتاده بين يدي ربه عز وجل يجنبه الله خشوع الذل في الآخرة، وخشوعه في الآخرة يكون خشوع تكريم، واستيضاحًا لذلك نقرأ قول ابن كثير: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: في الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم في الدنيا، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه، ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم، عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة، إذا تجلى الرب عز وجل فيسجد له المؤمنون ولا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد، بل يعود ظهر أحدهم طبقًا واحدًا، كلما أراد أحدهم أن يسجد خرّ لقفاه عكس السجود، كما كانوا في الدنيا بخلاف ما عليه المؤمنون[2].

إذن نستطيع أن نقول: إن معرفة ذل العذاب الذي يلحق المنافقين والكفار والمشركين في الآخرة، وتدبر ذلك سبب يدفع المسلم إلى بذل الجهد في الخشوع والتذلل لله في الدنيا، وتعظيمه حق قدره ومقداره، والخوف الدائم له سبحانه عله يجنبه خشوع الآخرة.

والتذلل في الصلاة واستحضار القرب من الله في السجود من الأسباب التي تدفع المسلم إلى الخشوع والاستكانة والتذلل لله، وخاصة حال السجود؛ لأنه أعلى درجات الاستكانة، وأبرز حالات الخضوع لله القوي القاهر. وأشد أوقات القرب من الله عند المسلم هي أوقات السجود، ففيه يستحضر القلب معنى القرب من خالق الخلق، وحين ينتاب المسلم في صلاته وسجوده هذا الشعور يخضع ويخشع.

والسجود أقرب وقت وموضعه أقرب موضع لإجابة الدعاء، ومغفرة الذنوب ورفع الدرجات. قال تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق:١٩].

إذن فالتذلل في الصلاة واستحضار القرب من الله في السجود سبب موصل إلى خشوع العبد لربه وخالقه، وجنبًا إياه ذل عذاب الآخرة، بل هو رافع بمشيئة الله درجاته فيها.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم ٧٧١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٩٨.

مواطن الخشوع

ورب سائل يسأل: هل خُصَّ الخشوع الذي ورد في آيات القرآن الكريم بمواطن معينة؟

والجواب: نعم، فمن يستقرئ الآيات بروية وتدبر يدرك أن الآيات خصت الخشوع بمواطن، ورد فيها أشد تأكيدًا في مواطن ثلاثة، نتحدث عنها في النقاط الآتية:

أولًا: الخشوع في الصلاة:

الخشوع في الصلاة من أهم الأسباب لحصول الفائدة المرجوة منها، وهو لب الصلاة وقلبها النابض، وبدونه ربما لا يحصل المصلي الأجر كاملًا.

والخشوع له أهمية كبرى في الصلاة، وتكمن هذه الأهمية في أنه عبادة جليلة تجعل في الصلاة روحًا تسري، وهو صفة من صفات المؤمنين التي يتوقف عليها فلاحهم، وفي ذلك ورد قول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون:١-٢].

يورد ابن كثير حينما يفسر هذه الآية قول محمد بن سيرين: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعون أبصارهم، إلى السماء في الصلاة، فلما نزلت هذه الآية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون:١-٢]. خفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم.

قال محمد بن سيرين: وكانوا يقولون: لا يجاوز بصره مصلاه، فإن كان قد اعتاد النظر فليغمض، والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها واشتغل بها عما عداها وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقرة عين[(١)].

وقد عدّ الخشوع في الصّلاة هنا من صفات المؤمنين المفلحين الّذين يرثون الفردوس، وبيّن أنّ من لم يتّصف بهذا الخشوع تصعب عليه الصّلاة في قوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ۝٤٥﴾ [البقرة:٤٥][(٢)].

ويفصل ابن عاشور في ذلك فيقول: وتقييده هنا بكونه في الصلاة لقصد الجمع بين وصفهم بأداء الصلاة وبالخشوع، وخاصة إذا كان في حال الصلاة؛ لأنّ الخشوع لله يكون في حالة الصلاة وفي غيرها، إذ الخشوع محلّه القلب، فليس من أفعال الصلاة ولكنه يتلبس به المصلي في حالة صلاته، وذكر مع الصلاة لأن الصلاة أولى الحالات بإثارة الخشوع وقوّته؛ ولذلك قدمت، ولأنه بالصلاة أعلق، فإن الصلاة خشوع لله تعالى وخضوع له، ولأن الخشوع لما كان لله تعالى كان أولى الأحوال به حال

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٥٩.
(٢) أضواء البيان ٥/ ٣٠٥.

الصلاة، لأن المصلي يناجي ربه فيشعر نفسه أنه بين يدي ربه فيخشع له[(١)].

والمعنى: قد فاز وظفر بالمطلوب، أولئك المؤمنون الصادقون، الذين من صفاتهم أنهم في صلاتهم خاشعون، بحيث لا يشغلهم شيء وهم في الصلاة عن مناجاة ربهم. وعن أدائها بأسمى درجات التذلل والطاعة[(٢)].

مظاهر الخشوع في الصلاة:

ومن مظاهر الخشوع: أن ينظر المصلي وهو قائم إلى موضع سجوده، وأن يتحلى بالسكون والطمأنينة، وأن يترك كل ما يخل بخشوعها كالعبث بالثياب أو بشيء من جسده[(٣)].

ومن المظاهر: التذلل في الصلاة واستحضار القرب من الله في السجود؛ فالقيام والركوع والسجود في الصلاة من الأسباب التي تدفع المسلم إلى الخشوع والاستكانة والتذلل لله، وخاصة حال السجود؛ لأنه أعلى درجات الاستكانة، وأبرز حالات الخضوع لله القوي القاهر.

وأشد أوقات القرب من الله عند المسلم هي أوقات السجود، ففيه يستحضر القلب معنى القرب من خالق الخلق، وحين ينتاب المسلم في صلاته وسجوده هذا الشعور يخضع ويخشع.

والسجود أقرب وقت وأقر بموضع لإجابة الدعاء، ومغفرة الذنوب ورفع الدرجات. قال الله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق:١٩].

وقال صلى الله عليه وسلم: **(أقرب ما يكون العبد من ربه هو ساجد، فأكثروا الدعاء فيه)**[(٤)].

إذن فالتذلل في الصلاة واستحضار القرب من الله في السجود سبب موصل إلى خشوع العبد لربه وخالقه.

حكم الخشوع في الصلاة:

حري بنا ونحن نتحدث عن موطن الخشوع في الصلاة أن نشير ولو بإيجاز إلى حكم الخشوع في الصلاة، وآراء الفقهاء في ذلك، فنقول:

اختلف العلماء في حكم الخشوع؛ هل هو من فرائض الصلاة، أو من سننها، أو من شروط صحتها؟

فمن العلماء من قال بوجوب الخشوع في الصلاة، ومنهم من قال: بل هو من سننها.

فممن قال بوجوبه الإمام الغزالي في الإحياء، وتابعه فريق من العلماء،

(١) التحرير والتنوير ١٨/ ٩.
(٢) الوسيط، طنطاوي ١٠/ ١٢.
(٣) المصدر السابق١٠/ ١٢.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، ١/ ٣٥٠، رقم ٤٨٢.



ومنهم ابن تيمية حين قال في الفتاوى: دل كتاب الله عز وجل على من كبر عليهما يحبه الله أنه مذموم بذلك في الدين، مسخوط منه ذلك، والذم أو السخط لا يكون إلا لترك واجب أو فعل محرم. وإذا كان غير الخاشعين مذمومين، دل ذلك على وجوب الخشوع.

ثم يقول في موضع آخر: فثبت أن الخشوع واجب في الصلاة[1].

واعتبره القرطبي من فرائضها حين قال: اختلف الناس في الخشوع؛ هل هو من فرائض الصلاة أو مكملاتها على قولين، والصحيح الأول ومحله القلب، وهو أول عمل يرفع من الناس[2].

وحكى النووي الإجماع على أن الخشوع ليس بواجب[3].

وفي شرح أصول الفقه الشافعي: «ومن سنن الصلاة الخشوع، وترتيل القراءة وتدبرها، وتدبر الذكر، والدخول فيها بنشاط وفراغ القلب[4].

وقال في المجموع: المسألة الثالثة: يستحب الخشوع في الصلاة، والخضوع، وتدبر قراءتها، وأذكارها، وما يتعلق بها، والإعراض عن الفكر فيما لا يتعلق بها، فإن فكر في غيرها، وأكثر من الفكر، لم تبطل صلاته لكن يكره[5].

ولكن هل هذا الحكم من العلماء حكم للإجزاء أو حكم للقبول؟ الذي يظهر أن هذا الحكم منهم حكم الإجزاء وليس حكم القبول.

وجعله الرازي شرط صحة لا شرط قبول، حيث قال: إن الحضور عندنا ليس شرطًا للإجزاء، بل شرط للقبول، والمراد من الإجزاء أن لا يجب القضاء، والمراد من القبول حكم الثواب، والفقهاء إنما يبحثون عن حكم الإجزاء لا عن حكم الثواب، وغرضنا في هذا المقام هذا، أي: حكم الثواب[6].

وفي حكم صلاة من عدم الخشوع قال ابن القيم: فإن قيل: ما تقولون في صلاة من عدم الخشوع، هل يعتد بها أم لا ؟

قيل: أما الاعتداد بها في الثواب: فلا يعتد بها، إلا بما عقل فيه منها، وخشع فيه لربه، ثم ينقل قول ابن عباس: **(ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها)**[7].

وفي المسند مرفوعًا: **(إن العبد ليصلي**

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٢٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي١٢/ ٣٠٣، الوسيط ١٠/ ١٢.
(٣) فتح الباري ٢/ ٢٢٦.
وفي أدلة من قالوا: إن الخشوع سنة وليس بواجب. انظر مدارج السالكين ١/ ٥٢٠-٥٢٢.
(٤) المقدمة الحضرمية ١/ ٧٤ .
(٥) المجموع، النووي ٤ / ١١٤.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٣/ ٢٦٠.
(٧) مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٣١.

الصلاة، ولم يكتب له إلا نصفها، أو ثلثها، أو ربعها حتى بلغ عشرها)[(١)].

فقد علق الله فلاح المصلين بالخشوع في صلاتهم، فدل على أن من لم يخشع فليس من أهل الفلاح[(٢)].

إذن فالخشوع في الصلاة اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، وبه يتحقق للمسلم الراحة والطمأنينة والتفكر والتدبر، فتسكن نفسه ويطمئن قلبه وينشرح صدره، وتتحقق الغاية المرجوة من صلاته.

والسؤال الذي يرد على فكر الكثير من المصلين والمسلمين: كيف يحصل المسلم الخشوع في الصلاة؟

الخشوع في الصلاة يحصل لمن فرغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقرة عين[(٣)].

وقال في الكشاف: وكان الرجل من العلماء إذا قام إلى الصلاة هاب الرحمن أن يشدّ بصره إلى شيء، أو يحدّث نفسه بشأن من شؤون الدنيا، وقيل: هو جمع الهمة لها، والإعراض عما سواها، ومن الخشوع أن يستعمل الآداب وذكر من ذلك توقي كف الثوب والتمطي والتثاؤب والتغميض وتغطية الفم والسدل والفرقعة والتشبيك وتقلب الحصى[(٤)].

وبالجملة فمن يعظم ربه عز وجل ويستحضر عظمته، ويتذكر وقوفه بين يديه للحساب، ويتذكر كذلك مروره على الصراط، ويتفكر حاله حينما يذهب إلى القبور وضعه في القبر وترك المشيعين له وحيدًا لا أنيس ولا جليس، اللهم إلا عمله الذي قدمه، ويتفكر في هذا كله وهو مقدم على الدخول في الصلاة، فيفرغ قلبه وفكره من شواغل الدنيا، ويعتبر نفسه كأنه ميت بين يدي مغسله، حينها ينعم الله عليه بالخشوع في صلاته فينتفع بها، ويحقق مطلوبه فيها.

والخشوع محله القلب وتظهر آثاره على الجوارح، قال ابن القيم: وأجمع العارفون على أن الخشوع محله القلب وثمرته على الجوارح وهي تظهره[(٥)].

وسيأتي تفصيل تلك المسألة إن شاء الله تعالى عند الحديث عن خشوع الجوارح، وبالتحديد عند حديثنا عن خشوع القلب.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣١/ ١٧٩، رقم ١٨٨٩٤، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب ما جاء في نقصان الصلاة، ١/ ٢١١، رقم ٦٧٦، عن عمار بن ياسر.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٣٥، رقم ١٦٢٣.

(٢) مدارج الساكين ١/ ٥٢٠-٥٢٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٥٩.

(٤) الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٧٥.

(٥) مدارج السالكين ١/ ٥٢١.



ثانيًا: الخشوع عند ذكر الله:

كذلك من المواطن التي يتأكد فيها الخشوع عند ذكر الله وقراءة القرآن الكريم.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد:١٦].

أي: تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه[١].

والمقصود من قوله: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ إما بعض منهم ربما كانوا مقصرين عن جمهور المؤمنين يومئذٍ بمكة، فأراد الله إيقاظ قلوبهم بهذا الكلام المجمل على عادة القرآن، وإما أن يكون تحريضًا للمؤمنين على مراقبة ذلك والحذر من التقصير، والخشوع: الاستكانة والتذلل، و﴿لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ ما يذكرهم به النبي صلى الله عليه وسلم، أو هو الصلاة، و﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ القرآن... ويجوز أن يكون الوصفان للقرآن تشريفًا له بأنه ذكر الله وتعريفًا لنفعه بأنه نزل من عند الله، وأنه الحق، ومعنى الخشوع لأجله: الخشوع المسبب على سماعه وهو الطاعة والامتثال[٢].

ولب الخشوع عند ذكر الله من يتيقن الرجوع إليه سبحانه.

قال الشيخ محمد عبده في هذا اليقين: ثمّ وصف الخاشعين وصفًا يناسب المقام، ويظهر وجه الاستعانة به فقال: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة:٤٦].

أي: الّذين يتوقّعون لقاء الله تعالى يوم الحساب والجزاء وأنّهم إليه راجعون، بعد البعث لا مرجع لهم إلى غيره[٣].

وفي النفس الخاشعة الإيمان بلقاء الله تعالى الذي يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بجزاء مايعمل، ولذلك ذكر إيمان الخاشعين بلقاء الله تعالى، فقال تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ والظن بمعنى العلم اليقيني، ولكن التعبير عن العلم بالظن يفيد مع اليقين توقع الأمر المعلوم، فمعنى ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ أنهم يتوقعون هذا اللقاء وقتًا بعد آخر.

فهم يؤمنون إيمانًا صادقًا بلقاء الله، ويترقبون ذلك اللقاء، وينتظرونه متوقعين له، فيقينهم يقين المتوقع المترقب، فيكون في قلوبهم دائمًا، ويستعدون له بعمل صالح يقدمونه رجاء أن يغفر لهم، وأن يتغمدهم برحمته، ويكفر عنهم سيئاتهم[٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٣٩٠.
(٣) تفسير المنار، محمد عبده، ١/ ٢٥٠.
(٤) زهرة التفاسير ١/ ٢٢١.

والحديث عن الخشوع عند ذكر الله يجعلنا نستحضر آيتين أخريين لهما أثر بالغ في معالجة هذا الجانب، الآية الأولى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: ٢].

وبالتأمل في الآية الكريمة نجد أن أول وصف من الأوصاف التي تحقق الإيمان الكامل هي وجل القلب عند ذكر الله؛ لأنه يستشعر عظمة الله وجلاله، ويتذكر وعده ووعيده، فيخاف قلبه وتضطرب روحه، والوصف الثاني هو ازدياد الإيمان عند تلاوة كتابه الكريم؛ لأنه حينئذ تزداد الأدلة لديه، وتقوى الحجة، فيزداد قوة في إيمانه، ورسوخًا في عقيدته.

قال صاحب الظلال: إنها الارتعاشة الوجدانية التي تنتاب القلب المؤمن حين يذكر باللّه في أمر أو نهي، فيغشاه جلاله، وتنتفض فيه مخافته، ويتمثل عظمة اللّه ومهابته، إلى جانب تقصيره هو وذنبه، فينبعث إلى العمل والطاعة... إنها حال ينال القلب منها أمر يحتاج إلى الدعاء ليستريح منها ويقر! وهي الحال التي يجدها القلب المؤمن حين يذكر بالله في صدد أمر أو نهي؛ فيأتمر معها وينتهي كما يريد الله، عز وجل ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ فالقلب المؤمن يجد في آيات هذا القرآن ما يزيده إيمانًا، وما ينتهي به إلى الاطمئنان، إن هذا القرآن يتعامل مع القلب البشري بلا وساطة، كما أن إيقاعات القرآن على القلب المؤمن تزيده إيمانًا[1].

والآية الثانية قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

والمعنى: أنه كتاب متشابه الأعجاز والأطراف، متشابه في المعنى والغرض، والصحة ودقة الحكم، وتتبع منافع الناس، وهو كتاب يشبه بعضه بعضًا وتثنى فيه القصص والمواعظ والأحكام، أي: تعاد وتكرر بمنتهى البلاغة وروعة التصوير ودقة التعبير.

هذا وصفه في نفسه، فإذا سمعه المؤمنون اقشعرت منهم الجلود، واضطربت منهم القلوب، ووجلت منهم النفوس، إذا سمعوا وعيد اللّه، ورأوا بعيون البصيرة ما أعد للمكذبين الكفار دمعت عيونهم وخشعت أصواتهم، واقشعرت جلودهم، ثم تلين قلوبهم وتسكن حينما يسمعون ذكر رحمة اللّه بالمؤمنين، تفرح نفوسهم، وتنشرح صدورهم إلى ذكر فضله على المؤمنين يوم لقائه[2].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/ ١٨٥.
(٢) التفسير الواضح، محمد حجازي، ٣/ ٢٦٦.

وهكذا المؤمن كلما ذكر ربه عليه أن يزين ذكره بالخشوع له سبحانه يتفكر في الذكر بفكره، ويعيشه بقلبه، كل الذكر، فحينما يذكر إذا استيقظ من نومه «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور» يتفكر في الحمد وفي قدرة الله عليه في الإماتة والإحياء، وإذا سبح يعيش التسبيح بفكره وقلبه، وإذا هلل يفكر في وحدانية الله وأنه المستحق للعبادة وحده، وأنه الرزاق وحده، وإذا أقدم على فعل شيء تفكر وأيقن أن الله هو النافع الضار، وهو بيده مقاليد الأمور.

فذكره سبحانه يمنح النفس خشوعًا وخضوعًا، وتسليمًا لله عز وجل.

فلا يأبه بما يدور حوله، ولا تشغله الدنيا ولا مفاتنها؛ لأنه مشغول بما هو باقٍ فلا يأبه بالفاني، وهكذا كأنه يعيش وسط الجماعة بجسده لكنه قلبًا وفكرًا مع ربه عز وجل

ثالثًا: الخشوع عند مواقف القيامة:

وثالث المواطن التي يتأكد فيها الخشوع: الخشوع في يوم القيامة، وحقيقة يحوز هذا الموطن أكبر قدر من آيات الخشوع.

فقد ورد هذا في آيات عدة، منها ما يتحدث عن خشوع الأصوات بوجه عام يوم القيامة، ومنها ما يتحدث عن خشوع الكفار بسبب ذل العذاب الذي يلحقهم يوم القيامة، وكذلك ما يتحدث عن خشوع أبصار الكفار حين خروجهم من القبور خشيةً ورعبًا مما سيلاقونه، أو خشوع تلك الأبصار جراء مذلتهم وعذابهم، وآخر هذه الآيات الآية التي تتحدث عن خشوع الوجوه بسبب فزعها يوم القيامة، ولا عجب أن يطلق على هذا كله خشوع الكفار، وبدهي أن هذا اللون سيكون فقط في يوم القيامة.

فالآية الأولى التي تتحدث عن خشوع الأصوات وردت في سورة طه وتحديدًا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه:١٠٨].

أي: يوم يرون هذه الأحوال والأهوال يستجيبون مسارعين إلى الداعي حيثما أمروا بادروا إليه، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم ولكن حيث لا ينفعهم[(١)].

﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: خضعت لهيبته، وقيل: ذلت، وقيل: سكتت.

﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ الهمس: الصّوت الخفيّ. قال أكثر المفسّرين: هو صوت نقل الأقدام إلى المحشر[(٢)].

والآية الثانية تتحدث عن خشوع الكفار بسبب ذل العذاب الذي يلحقهم يوم القيامة تقول: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ ۗ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣١٦.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٥٧.

﴿إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى:٤٤-٤٥].

يبرز الشوكاني الخشوع في هذا الموطن فيقول: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: المشركين المكذّبين بالبعث ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: حين نظروا النّار، وقيل: نظروا ما أعدّه اللّه لهم عند الموت ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: هل إلى الرّجعة إلى الدّنيا من طريق ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: ساكنين متواضعين عند أن يعرضوا على النّار لما لحقهم من الذّلّ والهوان[1].

والمراد بالخشوع في هذه الآية: ما يبدو عليهم من أثر المذلة والمخافة، و﴿مِنَ﴾ للتعليل، أي: خاشعين خشوعًا ناشئًا عن الذل، أي: ليس خشوعهم لتعظيم الله والاعتراف له بالعبودية؛ لأن ذلك الاعتقاد لم يكن من شأنهم في الدنيا[2].

والآية الثالثة تتحدث عن خشوع أبصار الكفار حين خروجهم من القبور خشية ورعبًا مما سيلاقونه، وهي قوله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾ [القمر:٧].

وقد ذكر ابن عاشور حينما فسر هذه الآية أنه قد عدّ سبعة من مظاهر الأهوال التي تؤثر فيهم، وتكون سببًا في ذلهم يوم القيامة، وعد منها خشوع أبصارهم فقال: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي: ذليلة ينظرون من طرف خفي لا تثبت أحداقهم في وجوه الناس، وهي نظرة الخائف المفتضح، وهو كناية لأن ذلة الذليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما[3].

والآية الرابعة تتحدث أيضًا عن خشوع أبصار الكفار من أثر ذل العذاب يوم القيامة قوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم:٤٣].

﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: في الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم في الدنيا، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه، ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم، عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة[4].

والآية الخامسة في هذا المضمار كذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المعارج:٤٣-٤٤].

يؤكد ابن كثير ما ذكره في آية القلم هنا في آية المعارج فيقول: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي: خاضعة ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: في مقابلة ما

(١) المصدر السابق ٤/ ٦٢٣.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١٢٦.
(٣) المصدر السابق ٢٧/ ١٧٧.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٩٨.

استكبروا في الدنيا عن الطاعة ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾[1].

والآية السادسة قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ۝٩﴾ [النازعات:٨-٩].

والآية السابعة قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾ [الغاشية:١-٤].

فـ﴿خَـٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾أخبار ثلاثة عن﴿وُجُوهٌ﴾، والمعنى: أناس خاشعون الخ، فالوجوه كناية عن أصحابها، إذ يكنى بالوجه عن الذات...وأوثرت الوجوه بالكناية عن أصحابها؛ لأن حالة الوجوه تنبيء عن حالة أصحابها، إذ الوجه عنوان عما يجده صاحبه من نعيم أو شقوة[2].

وتتلخص مواطن الخشوع كما وردت في القرآن الكريم في ثلاثة مواطن، أولها: الخشوع في الصلاة الذي هو لبها، وله من الأهمية ما ذكرنا، ويحصله من اشتغل بالصلاة عما عداها، وآثرها على غيرها في الأداء وفي الاهتمام، وثانيها: الخشوع عند ذكر الله عز وجل الذي يجعل للذكر روحًا تسري وتبعث اليقين في الذاكر، وتحثه على إتقان العبادة والعمل، وتزيده ثقة في ربه عز وجل، وثالثها: الخشوع عند أهوال يوم القيامة، ومنه خشوع الأصوات الذي يعم كل الخلائق، ويظهر في سكونها وسكوتها، ومنه خشوع الوجوه والأبصار، الذي يظهر في ملامحها وانكسارها، وهو اللون الذي يخص الكفار، وكأن الله عز وجل في كتابه الكريم يحثنا بشدة على الخشوع في الصلاة، وعند ذكره سبحانه وتعالى، لأنه بذلك يحذرنا من خشوع المذلة في الآخرة، فمن يهتم بالخشوع في الصلاة وعند الذكر يجنب خشوع الذل في الآخرة.

(١) المصدر السابق ٨/ ٢٢٨.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/ ٢٩٥.

خشوع الجوارح

إذا كان من معاني الخشوع في الاصطلاح: خشية في القلب من الله تعالى تظهر آثارها على الجوارح، فتجعلها ساكنة مستشعرة أنها بين يدي الله سبحانه[1].

فالخشوع مركزه القلب، أو منشؤه القلب، أما ظهور آثاره فيكون على الجوارح، فالجوارح هي التي يظهر عليها ترجمة ما في القلب، والقرآن الكريم تحدث في غير آية عن خشوع تلك الجوارح، أو الأثر الظاهري للخشوع على الجوارح، فمن الآيات ما تحدث عن خشوع القلوب، ومنها ما تحدث عن خشوع الوجوه، ومنها ما تحدث عن خشوع الأبصار، ومنها ما تحدث عن خشوع الأصوات، ونستوضح ذلك بشيء من التفصيل في النقاط الآتية:

أولًا: خشوع القلوب:

الخشوع من أهم العبادات وأصعبها؛ لأنه يحتاج لتركيز كبير، وكلمة «الخشوع» تدل على أقصى درجات التأمل مع التفكير العميق، والقلوب هي مراكز الخشوع، وهي منشؤه والسبب في حدوثه، والقلوب وإن كانت غير ظاهرة وبالتالي غير ظاهر عليها شيء، لكنها هي مركز التحكم في جميع الجوارح، وفي القرآن الكريم والسنة النبوية كثير من الآيات والأحاديث الصحيحة التي تؤكد ذلك، والتي منها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي سورة الأنبياء قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٨٩-٩٠].

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ قال الثوري: رغبًا فيما عندنا ورهبًا مما عندنا.

ثمّ وصفهم اللّه سبحانه بأنّهم كانوا يدعونه رغبًا ورهبًا، أي: يتضرّعون إليه في حال الرّخاء وحال الشّدّة، وقيل: الرّغبة: رفع بطون الأكفّ إلى السّماء، والرّهبة رفع ظهورها.[2] ومما لا شك فيه أن الرغبة والرهبة تكونان في القلب.

﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبدًا[3].

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون:١-٢].

وابن كثير يورد في آية سورة المؤمنون أن خشوع المؤمنين في صلاتهم مكمنه

(١) الوسيط، طنطاوي ١٠/ ١٢.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٥٠٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٧٠.

خشوع قلوبهم، وينقل من كلام المفسرين من التابعين ما يدل على ذلك فيقول: وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الخشوع خشوع القلب، وكذا قال إبراهيم النخعي. وقال الحسن البصري: كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم وخفضوا الجناح[1].

ووفي خشوع القلوب يبين الله عز وجل ما يجب أن يكون عليه القلب من خشوع في سورة الحديد في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد:١٦].

قال ابن كثير: يقول تعالى: أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي: تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه[2].

والخشوع محله القلب وتظهر آثاره على الجوارح، كما قال ابن القيم: وأجمع العارفون على أن الخشوع محله القلب وثمرته على الجوارح وهي تظهره[3].

وقال ابن رجب: وأصل الخشوع هو لين القلب ورقته، وسكونه، وخضوعه، وانكساره، وحرقته، فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح، والأعضاء؛ لأنها تابعة له، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(ألا وإنّ في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب)**[4].

فإذا خشع القلب خشع السمع، والبصر، والرأس، والوجه، وسائر الأعضاء، وما ينشأ منها حتى الكلام؛ ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه في الصلاة: **(اللّهمّ لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي، وبصري، ومخّي، وعظمي، وعصبي)**[5].

إذن فليس الخشوع بتنكيس الرأس أو الرقبة، لأنه حينما رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلًا مطأطئًا رقبته في الصلاة قال: يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب[6].

وقال سفيان الثّوريّ: سألت الأعمش عن الخشوع فقال: يا ثوريّ أنت تريد أن تكون إمامًا للناس ولا تعرف الخشوع؟

---

(١) المصدر السابق ٥/ ٤٥٩.
(٢) المصدر السابق ٨/ ١٩.
(٣) مدارج السالكين ١/ ٥٢١.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم ٥٢، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة والمزارعة، رقم ١٥٩٩.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم ٧٧١.
(٦) الكبائر، الذهبي ص ٥٣.

ليس الخشوع بأكل الخشن ولبس الخشن وتطأطؤ الرّأس، لكنّ الخشوع أن ترى الشّريف والدّنيء في الحقّ سواءً، وتخشع للّه في كلّ فرضٍ افترض عليك[(١)].

ومما يؤكد ذلك أن سعيد بن المسيب رضي الله عنه رأى رجلًا يعبث في صلاته بلحية، فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»[(٢)].

وهذا حذيفة رضي الله عنه يحذر من خشوع النفاق: إياكم وخشوع النفاق، فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعًا، والقلب ليس بخاشع[(٣)].

فمحل الخشوع القلب الذي هو محل نظر المولى جل وعلا وما الجوارح إلا تبع له فيهتم به، ومن هذا نعلم أن الخشوع من أهم أعمال القلوب، كالخوف والرهبة، ومن العلماء من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات والعبث[(٤)].

والصواب أنه من أعمال القلوب، وما يظهر على الجوارح من السكون وترك العبث إنما هو من آثاره.

لذلك يقول ابن رجب رحمه الله: فأصل الخشوع: هو خشوع القلب، وهو انكساره لله، وخضوعه وسكونه عن التفاته إلى غير من هو بين يديه، فإذا خشع القلب خشعت الجوارح كلها تبعًا لخشوعه[(٥)].

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه: (خشع لك سمعي، وبصري، ومخي، وعظامي)[(٦)].

ومما يدل على أنه من عمل القلوب ما ورد من حديث على بن أبي طالب رضي الله عنه: «الخشوع في القلب، وأن تلين كتفك للمرء المسلم، وأن لا تلتفت في صلاتك»[(٧)].

أثر الخشوع في القلب:

أظهرت دراسة جديدة نشرتها مجلة جمعية القلب الأمريكية أن التأمل لفترات طويلة ومنتظمة يقي القلب من الاحتشاء أو الاضطراب. ويعمل التأمل على علاج ضغط الدم العالي وبالتالي تخفيف الإجهاد عن القلب. كما أظهرت هذه الدراسة أن للقلب عملًا مهمًا وليس مجرد مضخة، وتؤكد الدراسات أهمية التأمل والخشوع في استقرار عمل القلب، ويقول الأطباء

(١) فتح القدير ١/ ٩٣.
(٢) أخرجه عبدالرزاق الصنعاني في مصنفه، ٢/ ٢٦٦، رقم ٣٣٠٨، وابن أبي شيبة في مصنفه، ٢/ ٨٦، رقم ٦٧٨٧.
(٣) مدارج السالكين ١/ ٥٢١.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٦٧٨.
(٥) فتح الباري، ابن رجب ٥/ ١٧٩.
(٦) سبق تخريجه قريبًا.
(٧) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٢/ ٤٢٦، رقم ٣٤٨٢.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد.
ولم يتعقبه الذهبي.

اليوم إن أمراض القلب هي السبب الأول للموت في العالم، وسبب هذه الأمراض هو وجود اضطراب في نظام عمل القلب، ومن هنا ندرك أهمية الخشوع في استقرار وتنظيم أداء القلب.

إن الدراسات تثبت اليوم أن التأمل يعالج الاكتئاب والقلق والإحباط، وهي أمراض العصر التي تنتشر بكثافة اليوم. ليس هذا فحسب، بل وجدوا أن التأمل المنتظم يعطي للإنسان ثقة أكثر بالنفس ويجعله أكثر صبرًا وتحملًا لمشاكل وهموم الحياة[1].

ألوان أخرى للخشوع:

الخشوع الذي نحن بصدد الحديث عنه هو الخشوع القلبي والبدني، وربما كان هناك ألوانٌ أخرى من الخشوع، منها: الخشوع العقلي الجانب المعرفي.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨].

والعلماء هم الّذين علموه بصفاته وتوحيده وما يجوز عليه وما يجب له وما يستحيل عليه، فعظّموه وقدّروه حقّ قدره، وخشوه حقّ خشيته، ومن ازداد به علمًا ازداد منه خوفًا، ومن كان علمه به أقلّ كان آمن[2].

وربما دخل في الخشوع العقلي أيضًا خشوع سحرة فرعون، الذين دخلوا في الإسلام في لحظات معدودات من اقتناع عقلهم بما رأوه من معجزة على يد نبي الله موسى عليه السلام، ومن هذا القبيل خشوع من يدخلون في الإسلام في العصر الحديث بسبب ما يشاهدونه من الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

والخشوع النفسي، وهو إذعان النفس لقبول الحق، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء:٦٥].

قال أبو حيان: وفيما شجر بينهم عامٌّ في كلّ أمرٍ وقع بينهم فيه نزاعٌ وتجاذبٌ. ومعنى ﴿يُحَكِّمُوكَ﴾: يجعلوك حكمًا، وفي الكلام حذفٌ، التّقدير: فتقضي بينهم. ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي: ضيقًا من حكمك.

والمعنى: لا يخطر ببالهم ما يأثمون به من عدم الرّضا، وقيل: همًّا وحزنًا، ﴿وَيُسَلِّمُوا﴾ أي: ينقادوا ويذعنوا لقضائك، لا يعارضون فيه بشيءٍ، قاله: ابن عبّاسٍ والجمهور. وقيل: معناه: ويسلّموا ما تنازعوا فيه لحكمك[3].

وأخيرًا كيف يأطر المسلم قلبه على الخشوع؟

المسلم الذي يريد أن يسير في ركاب

(١) طاقة الخشوع، عبد الدايم الكحيل، في موقع الكحيل للإعجاز العلمي.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي،٩/ ٣١.

(٣) المصدر السابق ٣/ ٦٩٥.

الخاشعين عليه أن يكبح جماح نفسه وشهوات قلبه، ويكثر من الذكر والخلوة والتواضع لله، والتفكر في عظمته ومخلوقاته، ويتفكر في نفسه وضعفها واحتياجها إلى خالقها ومدبر أمرها، ويكثر من التفكر في حكم مجريات الأحداث، والتفكر في الأذكار التي يذكر ربه بها في الصباح وفي المساء، وعند الخروج من الدار، وعند الركوب وعند الطعام والشراب والنوم... إلخ، كذلك يتلو آيات القرآن بتدبر وتفكر، واستشعار عظمة قائله، ويروض نفسه على ذلك كله شيئًا فشيئًا.

ثانيًا: خشوع الوجوه:

يأتي في المرتبة التالية من خشوع القلوب خشوع الوجوه، فالوجه أشرف الأعضاء الظاهرة للإنسان، ولذلك جعل السجود من أشرف العبادات لله عز وجل وفي سورة الإسراء يمتدح الله سبحانه الصالحين من أهل الكتاب؛ لأنهم يخرون سجدًا لربهم، تعظيمًا له سبحانه، واعترافًا بنعمه عليهم، ويبكون من شدة تأثر القلب، بل ويزدادون خشوعًا بالقرآن والسجود والبكاء.

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ (١٠٩)﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

قال ابن كثير: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: من صالحي أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم ويقيمونه ولم يبدلوه ولا حرفوه ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هذا القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ جمع ذقن وهو أسفل الوجه ﴿سُجَّدًا﴾ أي: لله عز وجل شكرًا على ما أنعم به عليهم من جعله إياهم أهلًا أن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب، ولهذا يقولون ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ أي: تعظيمًا وتوقيرًا على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على ألسنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، ولهذا قالوا ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾.

وقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ أي: خضوعًا لله عز وجل، وإيمانًا وتصديقًا بكتابه ورسوله ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ أي: إيمانًا وتسليمًا(١).

وفرق بين خشوع هذه الوجوه وخشوع وجوه الكفار والمنافقين في الآخرة، فخشوع صالحي أهل الكتاب كان باختيارهم، ناشئًا عن تعظيمهم لربهم في الدنيا، ولذلك استحقوا أن يمدحهم الله تبارك وتعالى بسببه، أما خشوع المنافقين والكفار

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٢٨.

فسيكونون مجبرين عليه في الآخرة، وهو بسبب امتناعهم عن تعظيمهم لربهم في الدنيا، ولذلك ذمهم الله عز وجل به.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾ [الغاشية:١-٤].

قال ابن كثير: وقوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ أي: ذليلة، قاله قتادة، وقال ابن عباس: تخشع ولا ينفعها عملها(١).

ثالثًا: خشوع الأبصار:

إذا كان أساس الخشوع في القلب، ثم تتبعه في ذلك جوارح الإنسان فإن الأبصار من الجوارح التي تتأثر تأثرًا مباشرًا بما في القلوب، وقد ورد خشوع الأبصار في القرآن في أكثر من آية، من هذه الآيات آية واحدة فقط، تتحدث عن خشوع المؤمنين في صلاتهم بوجه عام في الدنيا، أما بقية الآيات التي تتحدث عن خشوع الأبصار فحديثها عن خشوع أبصار الكفار في الآخرة، فالأولى آية سورة المؤمنون، وهي وإن كان ظاهرها مدح للخاشعين في صلاتهم بوجه عام إلا أن أبرز ما يظهر في خشوع المصلي خشوع بصره.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون:١-٢].

يورد ابن كثير حينما يفسر هذه الآية قول محمد بن سيرين: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعون أبصارهم، إلى السماء في الصلاة، فلما نزلت هذه الاية خفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم. قال محمد بن سيرين: وكانوا يقولون: لا يجاوز بصره مصلاه، فإن كان قد اعتاد النظر فليغمض(٢).

والمعنى: قد فاز وظفر بالمطلوب، أولئك المؤمنون الصادقون، الذين من صفاتهم أنهم في صلاتهم خاشعون، بحيث لا يشغلهم شيء وهم في الصلاة عن مناجاة ربهم.

ومن مظاهر الخشوع: أن ينظر المصلى وهو قائم إلى موضع سجوده، وأن يتحلى بالسكون والطمأنينة، وأن يترك كل ما يخل بخشوعها كالعبث بالثياب أو بشيء من جسده(٣).

وشتان بين خشوع يمتدح أهله وخشوع يذم أهله، فالأول خشوع المؤمنين في صلاتهم، وهو من الأفعال التي تجلب لهم الفلاح، والثاني خشوع الكفار عند خروجهم من قبورهم، وهذا دليل مذلة لهم، وآيته التي تتحدث عن خشوع أبصار الكفار

---

(١) المصدر السابق ٨/ ٣٨٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٥٩.

(٣) الوسيط، طنطاوي ١٠/ ١٢.

حين خروجهم من القبور خشيةً ورعبًا مما سيلاقونه، وهي قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ۝٧ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾ [القمر:٦-٨].

والآية الثالثة من الآيات التي تتحدث عن خشوع الأبصار قوله تعالى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ۝٤٣﴾ [القلم:٤٣].

﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: في الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم في الدنيا، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه(١).

والآية الرابعة في هذا المضمار كذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ۝٤٤﴾ [المعارج:٤٣-٤٤].

والآية الخامسة قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩﴾ [النازعات:٨-٩].

وبقليل من التأمل في هذه الآيات السابقة ندرك أن جميع الآيات التي وردت في خشوع الأبصار تتحدث عن خشوع أبصار الكفار من أثر ذل العذاب يوم القيامة، هذا فيما عدا الآية الأولى آية سورة المؤمنون إذا اعتبرناها ضمن الآيات التي تتحدث عن خشوع الأبصار.

وهذا يجعلنا نروض أبصارنا على الخشوع، فلا نطلق لها العنان تنظر إلى ما يحلو لها، هنا وهناك دونما رقيب أو حساب، وإنما نعودها على النظر إلى الحلال، ونستعملها في طاعة الله، وأن يكون نظرنا عبرًا.

رابعًا: خشوع الأصوات:

صحيح أن الأصوات ليست من الجوارح؛ لكنها تصدر عن جارحة من الجوارح وهي اللسان، فكأن المقصود -والله أعلم- خشوع الجارحة التي تصدر الأصوات، ولولا أن الله سبب تلك الجارحة ما كان سيصدر هذا الصوت، إذن فحينما نتحدث عن خشوع الأصوات فمقصدنا خشوع الجوارح التي تصدر الأصوات فتسكن تلك الجوارح، أو سكون الأصوات وسكوتها.

يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝١٠٨﴾ [طه:١٠٨].

يقول السيد طنطاوي: وقوله: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ أي: وخفتت وسكنت الأصوات كلها هيبة وخوفًا من الرحمن عز وجل فلا تسمع -أيها المخاطب- في هذا اليوم الهائل

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٩٨.

الشديد إلّا همسًا، أي: إلا صوتًا خفيًّا خافتًا. يقال: همس الكلام يهمسه همسًا، إذا أخفاه، ويقال للأسد: الهموس، لخفاء وطئه[1].

وخشوع الأصوات في الآخرة يكون من المخلوقات قاطبة، فحينها لا فرق بين إنس وجن، ولا فرق بين مؤمن وكافر، سكتت وسكنت جميع الأصوات هيبة وخوفًا من الله عز وجل.

والعاقل الكيس الذي يمسك بزمام لسانه الذي تصدر عنه الأصوات في الدنيا، فلا يطلقه إلا في الخير، وما يرضي ربه تبارك وتعالى ، فمن يفعل ذلك يأطر لسانه على الخشوع في الدنيا طواعية قبل الخشوع في الآخرة قسرًا، فيعود لسانه على الخشوع وصوته على السكون، وسيكون ذلك له إن شاء الله في الميزان.

(١) الوسيط ٩/ ١٥٣.

خشوع الكائنات

الخشوع والتذلل لله تعالى ليس مقصورًا على الإنسان وأعضائه، وإنما يعم جميع مخلوقات الله عز وجل فالكل مخلوق لله، إذن فالكل عبيد له سبحانه متذلل له، لكن كل مخلوق له خشوعه الذي يليق به، والذي يتناسب معه، وربما خشع بعض المخلوقات خشوعًا لا يعلمه الإنسان.

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ومن الآيات التي وردت في موضوع الخشوع: ما يخص خشوع الكائنات، فقد ورد من الآيات ما يتحدث عن خشوع الأرض، ومنها ما يتحدث عن خشوع الجبال، فحري بالبحث أن يتعرض لتلك الآيات ويفرد لكل منها إطلالة خاصة، كما أنه حري بالبحث أن ينظر في ورود هذه الكائنات في القرآن الكريم، فكان من اللائق أن يتعرض البحث للإعجاز العلمي ونحن في عصر العلم في خشوع الكائنات.

أولًا: خشوع الأرض:

عن خشوع الأرض ككائن من الكائنات ورد قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: ٣٩].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: الدالة على قدرته على إعادة الموتى ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ أي: هامدة لا نبات فيها بل هي ميتة ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي: أخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار[(١)].

ثانيًا: خشوع الجبال:

قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١].

يقول تعالى معظمًا لأمر القرآن ومبينًا علو قدره، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب وتتصدع عند سماعه، لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

أي: فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل، فكيف يليق بكم يا أيها البشر أن لا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾.

ثم ينقل قول العوفي عن ابن عباس في هذه الآية فيقول: أي: لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه لتصدع وخشع من ثقله ومن خشية الله، فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع[(٢)].

فحري بنا بني الإنسان أن نتعظ بهذه الآيات، ونتدبر القرآن ونخشع له امتثالًا لأمر الله عز وجل نعظم القرآن ونأخذ أوامره ونواهيه على سبيل الجد، حتى يؤثر فينا ويغير مجرى حياتنا إلى ماهو أفضل وأمثل.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٨٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٧٨.

صفات الخاشعين

أولًا: اليقين بلقاء الله:

اليقين له أهمية كبرى في حياة المسلم، فهو الذي يدفعه إلى الاستقامة في كل أموره، وهو الذي يهون عليه مشقات الحياة والابتلاءات التي تتوارد عليه، وهو الذي يجعله يثق بالله عز وجل، وهو الذي يعلي درجات الإيمان بالغيب، وهو الذي يجعل نفسه تتوق إلى الجنة فتسارع للعمل لها، وتحذر من النار فتتجنب ما يقرب منها.

قال ابن القيم: لا يتم صلاح العبد في الدارين إلا باليقين والعافية، فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا من قلبه وبدنه، واليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وبه تفاضل العارفون، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمر العاملون، وهو مع المحبة ركنان للإيمان(١).

وقال صاحب الظلال: والذي يجد راحة اليقين في قلبه يجد في الآيات مصداق يقينه، ويجد فيها طمأنينة ضميره، فالآيات لا تنشئ اليقين، إنما اليقين هو الذي يدرك دلالتها ويطمئن إلى حقيقتها، ويهيئ القلوب للتلقي الواصل الصحيح(٢).

ويأتي هذا الوصف للخاشعين، وهو يقينهم بلقاء ربهم ويقينهم بالرجوع إليه واضح وصريح في القرآن الكريم.

ففي سورة البقرة يقول الله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة:٤٥-٤٦].

والمتأمل في هذا الكلام يدرك أن يقين هؤلاء بلقاء ربهم وخوفهم من الوقوف بين يدي ربهم تبارك وتعالى كان سببًا في خشوعهم وتذللهم وانكسارهم له سبحانه في الدنيا؛ لأنهم آمنوا بالبعث وأيقنوا بالرجوع إليه عز وجل للحساب.

يقول السيد طنطاوي: ثم وصف سبحانه الخاشعين وصفًا يناسب المقام، ويظهر وجه الاستعانة، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

(الظن) يرد في أكثر الكلام بمعنى الاعتقاد الراجح، وهو ما يتجاوز مرتبة الشك، وقد يقوى حتى يصل إلى مرتبة اليقين والقطع، وهو المراد هنا.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾﴾ [المطففين:٤-٥] أي: ألا يعتقد أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ [الحاقة:٢٠] أي: علمت أني ملاقٍ

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٣٩٧.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٨١.

حسابيه، وملاقاة الخاشعين لربهم معناها الحشر إليه بعد الموت، ومجازاتهم على ما قدموا من عمل[(١)].

قال ابن جرير -مرجحًا أن المراد بالظن هنا العلم واليقين-: إن قال لنا قائل: وكيف أخبر الله تعالى عمن قد وصفه بالخشوع له بالطاعة أنه يظن أنه ملاقيه، والظن شك، والشاك في لقاء الله كافر؟

قيل له: إن العرب قد تسمى اليقين ظنًّا: والشك ظنًّا نظير تسميتهم الظلمة سدفة. والضياء سدفة، والمغيث صارخا، والمستغيث صارخا، وما أشبه ذلك من الأسماء التي يسمى بها الشيء وضده[(٢)].

ثانيًا: المسارعة في الخيرات:

الخاشعون الذين يخافون ربهم، ويخضعون له ويتذللون بين يديه في طاعتهم له، الذين من صفاتهم أنهم يوقنون بلقاء ربهم، وأنهم لا بد واقفون بين يديه للحساب، لذا فهم يسارعون في التقرب إلى الله بالطاعات، يرجون رحمته ويطمعون في نعيمه ويخافون عذابه، وقد تفهم المسارعة في الخيرات، وخوف العذاب.

لكن الرجاء ربما يلتبس على البعض، فأي رجاء هو؟ وهل له أصل في كتاب ربنا تبارك وتعالى؟ وما صلة ذلك بموضوعنا؟

هذا ما نتعرف عليه في السطور التالية إن شاء الله:

ورد في القرآن الكريم أكثر من آية تبين أن الخاشعين من صفاتهم أنهم يرجون نعيم الله عز وجل ويخافون عذابه، فحينما يتذللون يدعون ربهم خوفًا وطمعًا، رغبًا ورهبًا.

قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء ٨٩-٩٠].

وقد ذكر ابن كثير أقوال المفسرين الأوائل فيها مما يوضح أن الخشوع هنا سببه الخوف والرجاء في آن واحد فيقول: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: في عمل القربات وفعل الطاعات ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ قال الثوري: رغبًا فيما عندنا ورهبًا مما عندنا ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، أي: مصدقين بما أنزل الله،... وقال أبو العالية: خائفين. وقال أبو سنان: الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبدًا، وقريبًا منه مانقله عن الحسن وقتادة والضحاك: ﴿خَٰشِعِينَ﴾ أي: متذللين لله

(١) الوسيط ١/ ١١٣.
(٢) جامع البيان ١/ ٢٦٢.

عز وجل[1].

إذن فمن يخشع لربه عز وجل في الدنيا يخشع وهو متلبس بالخوف من عذاب ربه، طامعًا في رحمته وجنته، فمن صفاته أنه في حله وترحاله على حالة من الحالتين الخوف أو الرجاء.

وينبغي للعبد المسلم أن يجمع بين الخوف من الله عز وجل والرجاء في رحمته ونعيمه، وأن يكونا عند المسلم على درجة واحدة، فلا يغلب أحدهما على الآخر، قال أبو علي الروزباري: الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت[2].

والجمع بين الخوف والرجاء كما ذكرنا آنفًا من صفات الخاشعين، وقد ورد في القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تجمع بينهما، أو ما يبعث على أن يكون الإنسان بين الخوف والرجاء، فقال تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف:٥٦].

قال القرطبي: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أمر بأن يكون الإنسان في حالة ترقب وتخوف وتأميل لله عز وجل حتى يكون الرجاء والخوف للإنسان كالجناحين للطائر، يحملانه في طريق استقامته، وإن انفرد أحدهما هلك الإنسان[3].

وقال تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحجر:٤٩-٥٠].

قال الشوكاني: ثم إنه سبحانه لما أمر رسوله بأن يخبر عباده بهذه البشارة العظيمة أمره بأن يذكر لهم شيئًا مما يتضمن التخويف والتحذير حتى يجتمع الرجاء والخوف ويتقابل التبشير والتحذير ليكونوا راجين خائفين فقال: ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾، أي: الكثير الإيلام، وعندما جمع الله لعباده بين هذين الأمرين من التبشير والتحذير صاروا في حالة وسطًا بين اليأس والرجاء، وخير الأمور أوساطها، وهي القيام على قدمي الرجاء والخوف وبين حالتي الأنس والهيبة. وقال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر:٣][4].

ويبين الله لنا في هذه الآية الكريمة أنه مع مغفرته للذنوب لمن تاب ورجع إليه، فإنه شديد العقاب لمن تكبر وطغى.

قال ابن كثير: وقوله عز وجل: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ أي: يغفر ما سلف من الذنب، ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه وخضع لديه، وقوله جل وعلا:

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٧٠.
(٢) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٣٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ٢٠٣.
(٤) فتح القدير ٣/ ١٩٢.

﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ أي: لمن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا وعتا عن أوامر الله تعالى وبغى، وهذه كقوله: ﴿۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ يقرن هذين الوصفين كثيرًا في مواضع متعددة من القرآن ليبقى العبد بين الرجاء والخوف[1].

وقال ابن عاشور: وتقديم: ﴿غَافِرِ﴾، على: قابل التوب، مع أنه مرتب عليه في الحصول؛ للاهتمام بتعجيل الإعلام به لمن استعد لتدارك أمره فوصف: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾، تعريض بالترغيب وصفتا: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾، تعريض بالترهيب، والتوب: مصدر تاب والتوب بالمثناة والثوب بالمثلثة والأوب كلها بمعنى الرجوع، أي: الرجوع إلى أمر الله وامتثاله بعد الابتعاد عنه[2].

ويضم ربنا تبارك وتعالى الخاشعين والخاشعات مع المسلمين والمؤمنين والقانتين والصابرين والمتصدقين والصائمين والحافظين فروجهم والذاكرين له كثيرًا، ويؤكد لنا أن هؤلاء جميعًا أعد لهم مسبقًا مغفرة وأجرًا عظيمًا فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب:٣٥].

الخشوع: السكون والطمأنينة، والتؤدة والوقار، والتواضع، والحامل عليه الخوف من الله تعالى ومراقبته، كما في الحديث **(أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)**[3].

ثالثًا: الاستعانة بالصبر والصلاة:

من صفات الخاشعين لله عز وجل استعانتهم بالصبر والصلاة بعد استعانتهم بالله، فالصبر يجعلهم يتحملون المشقات في فعل الطاعات، والمكاره في البعد عن السيئات، والصلاة تصلهم بخالقهم، فيتحركون ويسكنون مستشعرين مراقبة ربهم لهم.

وبيَّنَ القرآن الكريم في سورة البقرة أن الاستعانة بالصبر والصلاة شاقة ثقيلة إلا على الخاشعين، فالخاشعون من أوصافهم أنهم يستعينون بالصبر والصلاة.

قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة:٤٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٩٠.
(٢) التحرير والتنوير، ٢٤/ ٨٠.
(٣) سبق تخريجه.

والضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ عائد إلى الصلاة، أي: مشقة ثقيلة إلا على الخاشعين. قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني: المصدقين بما أنزل الله. وقال مجاهد: المؤمنين حقًّا. وقال أبو العالية: ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ الخائفين. وقال الضحاك: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ قال: إنها لثقيلة إلا على الخاضعين لطاعته الخائفين سطوته المصدقين بوعده ووعيده[(١)].

والمراد بالخاشع هنا: الذي ذلل نفسه وكسر سورتها، وعودها أن تطمئن إلى أمر الله، وتطلب حسن العواقب، وأن لا تغتر بما تزينه الشهوة الحاضرة.

فهذا الذي كانت تلك صفته قد استعدت نفسه لقبول الخير. وكأن المراد بالخاشعين هنا: الخائفون الناظرون في العواقب فتخف عليهم الاستعانة بالصبر والصلاة مع ما في الصبر من القمع للنفس وما في الصلاة من التزام أوقات معينة وطهارة في أوقات قد يكون للعبد فيها اشتغال بما يهوى أو بما يحصّل منه مالًا أو لذة[(٢)].

والخشوع يجعل الإنسان يستحضر عظمة الله، ويعرف ضآلة قيمته أمام الحق سبحانه ومدى عجزه أمام خالق هذا الكون. ويعلم أن كل ما عنده يمكن أن يذهب به الله تعالى في لحظة، ذلك أننا نعيش في عالم الأغيار. ولذلك فنخضع للذي لا يتغير[(٣)].

قال السيد طنطاوي: واستعينوا على ترك ما تحبون من شهوات الدنيا، والدخول فيما تستثقله نفوسكم من قبول الإسلام، والتقيد بتكاليفه بفضيلة الصبر التي تحجز أنفسكم من غشيان الموبقات، وبفريضة الصلاة التي تنهاكم عن الفحشاء والمنكر[(٤)].

والظاهر أن الآية وإن كانت خطابًا في سياق إنذار بني إسرائيل، فإنهم لم يقصدوا على سبيل التخصيص، وإنما هي عامة لهم ولغيرهم، والله أعلم[(٥)].

قال الشعراوي: فإن المسألة ليست بخصوصية الموضوع ولكن بعموم السبب، فإنها موجهة للجميع، فكل مؤمن يدخل منهج الإيمان محتاج إلى الاستعانة بالصبر ليحمل نفسه على مشقة المنهج وتكاليفه، وليمنع نفسه عن الشهوات التي حرمها الله سبحانه وتعالى[(٦)].

ومما يؤيد عمومية الخطاب في الآية السابقة؛ خطابه للمؤمنين جميعًا في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة:١٥٣].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٥٣.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٤٨٠.
(٣) تفسير الشعراوي ١/ ٨٥.
(٤) الوسيط ١/ ١١٣.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٢٥٣.
(٦) تفسير الشعراوي ١/ ٨٤.

فمن يدقق النظر في الأمر الأول في الآية يجد أن أصل التدين والإيمان راجع إلى الصبر؛ لأن فيه مخالفة النفس هواها ومألوفها في التصديق بما هو غيب عما يشاهده ويحسه، وفيه طاعة خالق لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار؛ فإذا صار الصبر خلقًا وسجية للمسلم هانت عليه الصعاب والمشقات؛ لأنه خاضع للحق، قابل له بسعة صدر.

والأمر الثاني في الآية هو الاستعانة بالصلاة،وهذا الطلب يعلمنا فيه ربنا تبارك وتعالى كيفية الشكر له على نعمه وآلائه، يعلمنا فيه كذلك الطريق الميسرة للخضوع الحقيقي لأوامره ونواهيه.

وفي الاستعانة بالصلاة أيضًا تعويد للنفس على الصبر من أكثر من جهة: ففيها أولًا مخالفة الحال التي اعتادها المسلم، وفيها ثانيًا تجلية الأحزان وكشف الكربات؛ وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه (كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة)[(١)].

وفي الصلاة أكبر عون، بعد الله على الثبات في الأمر، والعزيمة في الرشد. فأمرنا الله سبحانه إذا نزلت بنا بعض النوازل أن نفزع إلى الصبر والصلاة،إذ بهما العون والثبات وتفريج الهموم والراحة القلبية والنفسية.

وإذا كان المراد بالكبيرة هنا الصعبة التي تشق على النفوس؛ وإطلاق «الكبر» على الأمر الصعب والشاق أمر معهود في كلام العرب؛ لأن المشقة من لوازم الأمر الكبير، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ الخاشع هنا هو من ذلل نفسه وضبط شهوتها بضوابط الشرع الحنيف، فتصبح النفس حينئذ مطاوعة لأمر الله،راغبة في أمره وراهبة من نهيه.

إذن فالقرآن الكريم يؤكد على الدور الكبير للخشوع في المحافظة على الصلاة، لأن كثيرًا من المسلمين لا يلتزمون بالصلاة على الرغم من محاولاتهم المتكررة إلا أنهم يفشلون في المحافظة عليها لأنهم فقدوا الخشوع، ولذلك يقول تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة:٤٥].

وهكذا يتبين الدور الكبير للخشوع في الصلاة، ولذلك ربط القرآن بين الصلاة والخشوع، والعجيب أن القرآن في هذه الآية ربط بين الصبر والخشوع، وقد وجد العلماء بالفعل أن التأمل يزيد من قدرة

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٨/ ٣٣٠، رقم ٢٣٢٩٩، وأبو داود في سننه، أبواب قيام الليل، باب وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم من الليل، ٢/ ٣٥، رقم ١٣١٩.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٥٨، رقم ٤٧٠٣.

الإنسان على التحمل والصبر ومواجهة الظروف الصعبة![1].

فخلاصة المقصود: أن الاستعانة بالصبر والصلاة ليس بالأمر اليسير على نفس كل إنسان، بل هو خاص بنفس المسلم الذي يعود نفسه الخشوع والخضوع لطاعة ربه، ويعودها الصدق بوعده، والخوف من وعيده، ويجد ويجتهد للعمل بذلك.

وصفات الخاشعين كما أوردها القرآن الكريم تتلخص في يقينهم بلقاء ربهم تبارك وتعالى واجتهادهم بتذلل أنفسهم في طاعته ومرضاته خوفًا ورهبة منه، كذلك يعرفون برجائهم لما عند ربهم من نعيم في الآخرة ويدركون يقينًا أنهم إن خشعوا لربهم وتفانوا في طاعته لن يحرمهم هذا النعيم بفضله ومنه، فيتفانوا في التذلل له سبحانه عسى أن يتقبلهم ويمن عليهم، وهذا كله لديهم يترجم إلى عمل؛ فيستعينون بالله عز وجل ثم بصبرهم على التفاني في الطاعة، وتجنب المعصية، وكذلك بالصلاة التي تصلهم بخالقهم، خاشعين متذللين أيضًا في أدائها.

فمن يريد أن يكون من جملة هؤلاء فعليه أن يتحلى بصفاتهم هذه، وأن يجتهد في تشبهه بهم ويجاهد نفسه في كل أحواله.

(١) طاقة الخشوع، عبد الدايم الكحيل، في موقع الكحيل للإعجاز العلمي.

آثار الخشوع وثواب الخاشعين

الخشوع له أثر كبير في حياة المسلم إذ إنه يعوده الاستسلام لله تعالى بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة والخلوص له من الشرك.

فالخاشع حينما يخشع لا يعبد إلا الله تعالى وحده لا شريك له، ولا يرجو سواه ولا يخاف إلا منه، ولا يخضع إلا له، لأنه يدرك من خلال خشوعه أنه لا نافع إلا هو عز وجل، ولا ضار إلا هو وحده، فلا يتعلق بولي كائنًا من كان، ليجلب له نفعًا أو يدفع عنه ضرًّا فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى وحده.

ولو لم يكن للخشوع أثر إلا الانكسار لله والتذلل بين يدي الله، لكفى بذلك فضلًا، وذلك لأن الله عز وجل إنما خلقنا للعبادة ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

وأفضل عبادة تلك التي تزين بالذل والانكسار للمعبود سبحانه ولا يتحقق ذلك إلا بالخشوع، ولم لا؟ وقد امتدح الله عز وجل الخاشعين في آيات كثيرة.

قال تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ۝١٠٩﴾ [الإسراء: ١٠٩].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

وجعل سبحانه وتعالى الخشوع من صفة أهل الفلاح من المؤمنين فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ②﴾ [المؤمنون:١-٢].

وقال ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

ولما كان الخشوع صفه يمتدح الله بها عباده المؤمنين، دل على فضله ومكانته عندالله، ودل على حب الله لأهل الخشوع والخضوع؛ لأن الله سبحانه لا يمدح أحدًا بشيء إلا وهو يحبه، ويحب من يتعبده به.

وآثار الخشوع كثيرة، نسلط الضوء على أبرزها فيما يلي:

١. الخشوع يوصل إلى الفوز والفلاح.

فأهل الخشوع هم أهل الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ②﴾ [المؤمنون:١-٢].

فالخشوع في الصلاة من أسباب فلاح أهل الإيمان، الذين هم في صلاتهم إذا قاموا فيها خاشعون، وخشوعهم فيها تذللهم لله فيها بطاعته وقيامهم فيها بما أمرهم بالقيام به[(١)].

والسؤال: هل الخشوع هو الذي يجعل المسلم يقوم بالأعمال خير قيام، لكي يصل إلى الفوز والفلاح أم العكس إتقان العمل هو الباعث على الخشوع أم أن ذلك من الأمور المستديرة؟

ولمناقشة هذا الموضوع نستحضر آيتي المؤمنون والإسراء: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ②﴾ [المؤمنون:١-٢].

ونستحضر كذلك ما ذكره بعض المفسرين فيهما، قال ابن عاشور: ولا شك أن الخشوع لله، يقتضي التقوى فهو سبب فلاح، وذكر مع الصلاة؛ لأن الصلاة أولى الحالات بإثارة الخشوع وقوّته، ولذلك قدمت، ولأنه بالصلاة أعلق، فإن الصلاة خشوع لله تعالى وخضوع له، ولأن الخشوع لما كان لله تعالى كان أولى الأحوال به حال الصلاة؛ لأن المصلي يناجي ربه فيشعر نفسه أنه بين يدي ربه فيخشع له[(٢)].

قال تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ۝١٠٩﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

وفي تناول ابن عاشور لهذه الآية ما يقربنا من الإجابة أكثر فيقول: وذكر الذقن للدلالة على تمكينهم الوجوه كلها من الأرض من

(١) جامع البيان، الطبري ٩/ ١٩٦.

(٢) التحرير والتنوير ١٨/ ٩.

قوة الرغبة في السجود لما فيه من استحضار الخضوع لله تعالى، وإنما خروا خرورًا واحدًا ساجدين باكين، فذكر مرتين اهتمامًا بما صحبه من علامات الخشوع، والبكاء بكاء فرح وبهجة، والبكاء: يحصل من انفعال باطني ناشئ عن حزن أو عن خوف أو عن شوق، ويزيدهم القرآن خشوعًا على خشوعهم الذي كان لهم من سماع كتابهم[1].

ومن هنا نستطيع القول: إن المسلم وهو يتلو القرآن أو حينما يكون في صلاته، أو في دعائه، أو على أي حال من أحوال الطاعة يعتريه الخوف فيعظم ربه سبحانه وتعالى فيتملكه الانفعال فيخشع لربه عز وجل، وهذا الخشوع يدفعه إلى إتقان صلاته، أو إتقان طاعته، ثم هذا الإتقان يزيده خشوعًا، فانفعاله وتأثره الأول الذي أوصله إلى الخشوع، وهذا الخشوع اقتضى التحسين للعمل وإتقانه وتقوى الله فيه، حينها يشعر المصلي أو الطائع أنه يناجي ربه فيشعر نفسه أنه بين يديه فيخشع له، فيكون الخشوع وإتقان العمل من الأمور المستديرة. والله أعلم.

٢. الخشوع يوصل إلى اليقين بلقاء الله.

الثاني من آثار الخشوع أنه يوصل لليقين بلقاء الله عز وجل، وهذا الأثر في حقيقته يحمل ضمنًا أكثر من أثر؛ فهو موصل للإيمان بالغيب، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالجنة والنار والثواب والعقاب، وكل مافي اليوم الآخر، وفي هذا الأثر نقرأ قول الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

[البقرة: ٤٥-٤٦].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي: يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة معروضون عليه، وأنهم إليه راجعون، أي: أمورهم راجعة إلى مشيئته يحكم فيها ما يشاء بعدله، فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات[2].

وسبق أن ذكرنا أن الظن هنا الاعتقاد الجازم، وأن إطلاق الظن في كلام العرب على معنى اليقين كثير جدًّا.

٣. الخشوع يوصل إلى مغفرة الذنوب وحصول الأجر منه.

ولو لم يكن للخشوع أثر إلا هذا الأثر، وهو أنه يوصل لمغفرة الذنوب، وحصول الأجر لكفى؛ لأن غاية ما ترجوه نفس المسلم وتطلبه هو مغفرة الذنوب، فيا له من أثر عظيم في تحصيله.

(١) المصدر السابق ١٥/ ٢٣٣-٢٣٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٥٣.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩)﴾ [آل عمران:١٩٩].

وفي سورة الأحزاب يمتدح الله عز وجل فيه الخاشعين والخاشعات، ويبين ثوابهم، وما أعد لهم في الآخرة من الأجر العظيم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)﴾ [الأحزاب:٣٥].

فالأجر العظيم حاصل لهم بما يقومون به من أعمال صالحات والتي من أهمها الخشوع.

وفي الصحيح عن عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من توضّأ نحو وضوئي هذا، ثمّ صلّى ركعتين لا يحدّث فيهما نفسه غفر له ما تقدّم من ذنبه)(١).

٤ ـ الخشوع سبب لاستجابة الدعاء.

من آثار الخشوع أنه يكون سببًا لاستجابة الدعاء، وآيات سورة الأنبياء توضح ذلك فتقول: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)﴾ [الأنبياء:٨٩-٩٠]

٥. الخشوع يعرف المسلم بربه ويجعله مستقيمًا على أمره.

الخشوع يعرف المسلم بربه إلى أقصى ما يمكن أن تتحمله قدراته العقلية، ويصل به إلى أقرب ما يمكن أن يكون عليه بشر بعد الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه؛ لأن العبد الذي ديدنه كذلك يربط تلك المعرفة بمجريات الحياة، فلا يرى العبد الخاشع إلا حكمة الله وراء أفعاله ومشيئته سبحانه، فينعكس ذلك على تعامله معه حتى يصل إلى درجة الإحسان بأن يعبد الله كأنه يراه، فيناجيه من قريب، ويستشعر قربه منه، وقيوميته عليه، فيأنس به، ويزداد شوقه إليه. فالخشوع يكشف للعبد حقيقة أصله،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب المضمضة في الوضوء، رقم ١٦٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب صفة الوضوء وكماله، رقم ٢٢٦.

ومدى ضعفه وعجزه، وجهله وحجم احتياجاته المطلوبة للاستمرار في الحياة وأنه بالله لا بنفسه، ولو تخلت عنه العناية الإلهية طرفة عين لهلك.

ومع بيان هذه الحقيقة فإنه كذلك يعرفه بطبيعة نفسه المحبة للشهوات، المائلة للفجور والطغيان، الأمارة بالسوء؛ ليشتد حذره منها، فلا ينسب لها فضلًا، بل يجاهدها، ويروضها على الصدق والإخلاص.

فإذا ما ربط العبد بين هذه المعارف وبين ما يحدث له في حياته، تأكدت لديه حقيقة نفسه، وعاش عبدًا ذليلًا منكسرًا لله متحررًا مما سواه.

فهو يجنب صاحبه العجب والكبر والغرور، ويذكره بالنماذج التي استسلمت لهذه الأمراض فأهلكتها، كإبليس وقارون وفرعون وهامان وصاحب الجنتين.

فالخاشع يدرك تقديم خشوعه لوصفات العلاج لأهل الكبر والغرور والإعجاب بالنفس.

فالدور الهام للخشوع يتمثل في تأثيره على مشاعر صاحبه، وكسره لسورة نفسه وشهواتها، مما يزيد لديها منسوب الإيمان والخضوع والتذلل، وتوجيه الفكر والقلب إلى الحياة الأبدية، والثقة بموعود الله عز وجل، فالنفس التي تصل إلى هذا الحد تتذلل لربها طمعًا فيما عنده، فتتولد لديها الطاقة التي تدفعها إلى مسارعة التقرب، وزيادة الطاعة، وكثرة الذكر والشكر.

قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

من هنا تتضح لنا أهمية الخشوع في استقامة العبد على أمر الله، وتجلببه الدائم بجلباب العبودية لمولاه.

فالخشوع باعث على خشية الله والفزع إلى ذكره، وهذا أثر إيماني مهم؛ لأنه يبعث على استقامة العبد في كل أموره وتصرفاته.

قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر:٢٣].

٦. الخشوع من أسباب دخول الجنة.

والخشوع والسكينة والتذلل بين يدي الرب تبارك وتعالى من أسباب دخول الجنة، ففي الصحيح من أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا

ظله... وذكر منهم: (ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه)[(١)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله)[(٢)].

أضف إلى ذلك أن الخشوع له فوئد وثمار أخرى في الدنيا والآخرة، منها:

- أنه مظهر من مظاهر الإيمان تظهر آثاره على الجوارح.
- أنه يورث الخوف من الله عز وجل، إذ الخشية ثمرة من ثمار الخشوع.
- أنه يؤدي إلى خفض الجناح، وغض البصر.
- الخشوع في الصلاة من أسباب قبولها والفلاح فيها.

فالخشوع من أهم أعمال القلوب التي ينبغي للمسلم الاهتمام والعناية بها، لمن أراد الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

إذا كان لهذا الخشوع من فضل وثواب وأهمية، فكيف نمارس الخشوع في حياتنا اليومية؟

إنه القرآن! هو الوسيلة الرائعة لممارسة الخشوع لله تعالى، وهنا ينبغي أن نصحح الفكرة السائدة أن الخشوع يكون في الصلاة فقط أو في قراءة القرآن، والصواب أن الخشوع هو منهج يعيشه المؤمن كل لحظة كما كان أنبياء الله يفعلون، فإذا تأملنا حياة الأنبياء عليهم السلام نلاحظ أنها مليئة بالخشوع، بل كانوا في حالة خشوع دائم، وهذا ما أعانهم على التحمل والصبر على الأذى والاستهزاء وكان هذا الخشوع سببًا في استجابة دعائهم، ولذلك قال تعالى عنهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠][(٣)].

إذن فالخشوع ينبغي أن نحرص عليه ونعتاده في كل أعمالنا وحركاتنا وتصرفاتنا، جعلنا الله من الخاشعين لربهم في الدنيا، المراقبين له في كل أحوالنا.

موضوعات ذات صلة:

التواضع، الذل، الصلاة، العبادة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم ٦٢٩ ، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم ١٠٣١.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله، ٤/ ١٧٥، رقم ١٦٣٩.
قال الترمذي: حديث حسن غريب
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٤١١٢.

(٣) طاقة الخشوع، عبد الدايم الكحيل، في موقع الكحيل للإعجاز العلمي.